

مشكح

مَقَامَاتُ الْحَبْرِي

تأليف العلامة محمد بن عبد المؤمن القيسي الشريفي

تقديم
محمد بن الفضل إبراهيم



المكتبة العصرية
مكتبة دار الكتب

الجزء الخامس

شرح مقامات الحريري

للأبي العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي

تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

جامعة الكويت

إدارة المكتبة - قسم التوثيق والفهرسة

رقم التسجيل: ١٣٦٧٣٥

التاريخ: ٩٨/٦/٤٨

المجلد الخامس



المكتبة الوطنية
بيروت

جميع الحقوق محفوظة

١٤١٣ هـ ١٩٩٢ م

شركة البناء شريف لايف ستايل للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العامة للعجوة للطباعة والنشر

الدار البيضاء - المغرب المطبعة العامة للعجوة للنشر

بكرت - ص.ب. ٨٣٥٥ - تلوكس SCST-1271LE

صعيدا - ص.ب. ٢٢١ - تلوكس ٢٩١٩٨LE

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقامة الحادية والأربعون وهي التَّيْسِيَّة

حدَّث الحارث بن همام قال : أَطَعْتُ دَوَاعِيَ التَّصَابِي ، فِي غُلُوءِ
شَبَابِي ؛ فَلَمْ أَزَلْ زِيرًا لِلنَّيْدِ ، وَأُذُنًا لِلْأَغَارِيدِ ؛ إِلَى أَنْ وَافَى النَّذِيرَ ، وَوَلَّى
الْعَيْشُ النَّصِيرَ ؛ فَقَرِمْتُ إِلَى رُشْدِ الْإِنْبَاءِ ، وَنَدِمْتُ عَلَى مَا فَرَطْتُ
فِي جَنْبِ اللَّهِ . ثُمَّ أَخَذْتُ فِي كَسْحِ الْهَنَاتِ بِالْحُسَنَاتِ ، وَتَلَا فِي
الْهَفَوَاتِ قَبْلَ الْفَوَاتِ ؛ فَلِمْتُ عَنْ مُعَادَاةِ الْغَادَاتِ ، إِلَى مُلَاقَاةِ
الثَّقَاقِ ، وَعَنْ مُقَانَاةِ الْقَيْنَاتِ ، إِلَى مُدَانَاةِ أَهْلِ الدِّيَانَاتِ ، وَآلَيْتُ
أَلَّا أَصْحَبَ إِلَّا مَنْ نَزَعَ عَنِ النَّمَى ، وَفَاءً مَنْشَرُهُ إِلَى الطَّيِّ . وَإِنْ
أَلْفَيْتُ مَنْ هُوَ خَلِيعُ الرَّسَنِ ، مَدِيدُ الْوَسَنِ ، أَنَايْتُ دَارِي عَنْ دَارِهِ ،
وَفَرَرْتُ عَنْ عَرِّهِ وَعَارِهِ .

* * *

أَطَلَعْتُ دَوَاعِيَ التَّصَابِي ، يَقَالُ : أَطَعْتُ كَذَا ، وَطَعْتُ لَهُ ، أَيْ انْقَدْتُ .
وَالْمَطِيعُ : الْمُنْقَادُ ، وَالتَّصَابِي : التَّظَاهَرُ بِالصَّبَا وَالتَّشَاغُلُ بِهِ . وَدَوَاعِيهِ : مَا يَدْعُوهُ
إِلَيْهِ ، وَغُلُوءُ الشَّبَابِ : أَوَّلُهُ وَسُرْعَتُهُ ، أَرَادَ : مِلْتُ إِلَى اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ فِي أَوَّلِ

شبابي ، فلمّا أتى الشيبُ أحببت الرجوعَ إلى الخير . زيراً : كثير الزيارة .
والغيد : جمع غَيْداء ، وهي اللينة العنق والمفاصل من النعمة . أذنّاً
للأغريد ، أى كثير الاستماع للغناء ، وفلان أذن ، إذا كان يستمع من كلِّ
قائل ، ويقبل منه . وافى : أتى ، والتّذير : الشيب ، لأنه منذر الإنسان بتمام
العمر ، أى يُعلمه . ولّى : رجع وزال . النّضير : الناعم ، يريد زَمَنَ الشّباب .
ونؤخّر ذكر الشيب ، فإنه يؤدّى إلى تغيير شرح المقامة ، ونتكلم هنا
على ذهاب الشّباب .

[البكاء والأسف على ذهاب الشّباب]

قال أبو عمرو بن العلاء : ما بكّتِ العربُ شيئاً ما بكّتِ الشّباب ، وما
بلغت به ما يستحقّه .

الأصمعيّ : من أحسن ألفاظ الشعر المراثي والبكاء على الشّباب ، قال ابن
عباس رضى الله عنهما : الدنيا العافية ، والشّباب الصحة .

ومن ألفاظ أهل المعمر : الشّباب باكورة الحياة ، وروائح الجنة في
الشّباب . أطيب العيش أوائله ؛ كما أنّ أطيب الثمار بواكرها .

قال الصّوليّ : قد أكثر في ذكر الشّباب القدماء وأهل الإسلام . وأجمع
الحذّاق بالشعر وتمييز الكلام وألفاظه ؛ أنه لم يُقلّ فيه أحسن من قول
منصور التّمريّ ، ووقع الإجماع عليه ، فما ضرّ تأخّره ، وهو :

مَا تَنْقُضِي عِبْرَةً مِنِّي وَلَا جَزَعُ إِذَا ذَكَرْتَ شَبَاباً لَيْسَ يَرْتَجِعُ^(١)

(١) الاغانى ١٣ : ١٤٥ ، أمالي المرتضى ٢ : ٦٠٦ ، حساسة ابن الفجرى ٢٣٩

بَانَ الشَّبَابُ وَفَاتَنَنِي مَسَرَّتُهُ عُرُوفُ دَهْرٍ وَأَيَّامٌ لَهَا خُدَعُ
 مَا كُنْتُ أَوْفَى شَبَابِي كُنْهَ غُرَّتِهِ حَتَّى انْقَضَى فَإِذَا الدُّنْيَا لَهُ تَبَعُ
 إِنْ كُنْتُ لَمْ تَطْعَمِي تُكُلِ الشَّبَابُ وَلَمْ تَشْجِيْ بِغَصَّتِهِ فَالْعَذْرُ لَا يَقَعُ
 أَبْكِي شَبَابًا سُلْبَنَاهُ وَكَانَ وَلَا تَوَفِّي بَقِيَّتِهِ الدُّنْيَا وَلَا تَسْعُ
 مَا وَاجَهَ الشَّيْبُ مِنْ عَيْنٍ وَإِنْ رَمَقَتْ إِلَّا لَهَا نَبْوَةٌ عَنْهُ وَمُرْتَدَعُ
 وَقَالَ أَبُو نَوَاسٍ :

كَانَ الشَّبَابُ مِطْيَاةَ الْجَهْلِ وَمَحْسَنَ الصَّحِكَاتِ وَالْمَزَلِ^(١)
 كَانَ الْجَمَالَ إِذَا ارْتَدَيْتُ بِهِ^(٢) وَخَرَجْتُ أَخْطِرُ صَيِّتِ النَّعْلِ
 كَانَ الْبَلِيغَ إِذَا نَطَقْتُ بِهِ وَأَصَاخْتَ الْأَذَانَ لِلْمُؤَلِّي
 كَانَ الْمَشَقَّعَ فِي مَآرِبِهِ عِنْدَ الْحِسَانِ وَمُدْرِكَ التَّيْلِ^(٣)
 وَالْبَاعِي وَالنَّاسَ قَدْ رَقَدُوا^(٤) حَتَّى أَكُونُ خَلِيفَةَ التَّبْعِ^(٥)
 وَقَالَ جَعْفَرُ :

وَاهَا لَأَيَّامِ الشَّبَابِ بِ وَمَا لِبَسْنٍ مِنَ الزَّخَارِفِ
 وَزَوَاهِنٍ بِمَا عَرَفْتَ مِنَ الْمُنَاكِرِ وَالْمَعَارِفِ
 أَيَّامَ ذِكْرِكَ فِي دَوَا وَبِالصَّبَا صَدَرَ الصَّحَائِفِ

(١) ديوانه ٣١١ ، أمالي المرتضى ٢ : ٦٠٧

(٢) المرتضى : « كان الجميل » .

(٣) التبل : اللثائر ، وفي ط : « النبل » تحريف .

(٤) الديوان وأمالي المرتضى : « هجموا » .

(٥) بعده في الديوان والمرتضى :

وَالْأَمْرِ حَتَّى إِذَا عَزَمْتَ نَفْسِي أَعَانَ عَلَى بِالْفِعْلِ
 فَالآن صِرْتُ إِلَى مِقَارِبَةٍ وَحَطَّطْتُ عَنْ ظَهْرِ الصَّبَا رَحْلِي

وقال ابن أبي حارثة :

وَلَى الشَّبَابُ نَفْلَى الْعَيْنِ تَنَهَمِلُ فَقَدْ الشَّبَابِ بِفَقْدِ الرُّوحِ مُتَّصِلُ^(١)
لَا تَكْذِبَنَّ فَمَا الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا مِنْ الشَّبَابِ بِيَوْمٍ وَاحِدٍ بَدَلُ
وقال آخر :

شَيْثَانٌ لَوْ بَكَتِ الدَّمَاءُ عَلَيْهِمَا عَيْنَايَ حَتَّى تَوْذِنَا بِذَهَابِ
لَمْ أَبْلُغِ الْعِشَارَ مِنْ حَقِّهِمَا : فَقَدْ الشَّبَابِ وَفُرْقَةِ الْأَحْبَابِ
أعرابي :

يَا طَيْبَ أَيَّامِ الشَّبَابِ وَعَصْرِهِ لَوْ يُسْتَعَارُ جَدِيدُهُ فَيَعَارُ^(٢)
مَا كَانَ أَقْصَرَ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ وَكَذَلِكَ أَيَّامُ الشَّرِّ قِصَارُ
وقال ابن عبد ربه :

قَالُوا شَبَابُكَ قَدْ مَضَتْ أَيَّامُهُ بِالْعِشْرِ قُلْتُ وَقَدْ مَضَتْ أَيَّامِي^(٣)
فَلَهُ آيَةُ نِعْمَةٍ كَانَ الصَّبَا لَوْ أَنَّهَا وَصِلَتْ بِطُولِ دَوَامِ
حَسَرَ الشَّبَابُ قَنَاعَهُ عَنْ رَأْسِهِ وَصَحَا الْعَوَاضِلُ بَعْدَ طُولِ مَلَامِ
فَكَانَ ذَاكَ الْعِيشَ ظِلُّ غَمَامَةٍ وَكَانَ ذَاكَ اللَّهُوَ طُولُ مَنَامِ^(٤)
وقال أيضاً :

صِبَايَ كَيْفَ صِرْتُ إِلَى نَفَادِ وَبُدِّلْتُ الْبَيَاضَ مِنَ السَّوَادِ^(٥)

(١) اللالى لابی عبید البکری ٣٣٧ ، حساسة ابن الشجرى ٢٣٩ ، معانى العسكرية ١٥٢ : ٢ ، ونسبة الابيات فيها الى محمد بن حازم ، وانظر أيضا العقد ٣ : ٤٦

(٢) العقد ٣ : ٤٧ ، بنسبته الى اعرابي أيضا .

(٣) العقد ٣ : ٤٧

(٤) العقد : « طيف منام » .

(٥) العقد ٣ : ٤٨ : ، وفيه : « شبابي كيف صرت » .

فما أَبْقَى الحوادثُ منك إلا كما أَبْقَتْ من القَمَرِ الدَّادَى^(١)
 فراقك عَرَفَ الأَحْزَانُ قَلْبِي وِفَرَّقَ بَيْنَ عَيْنِي والرُّقَادِ
 زَمَانٌ كَانَ فِيهِ الرُّشْدُ غَيًّا وَكَانَ الْغَيُّ فِيهِ مِنَ الرِّشَادِ
 بِقُبُلِي بَدَلٌ مِنْ قَتُولٍ^(٢) وَيُسَعِدُنِي بِوَصْلٍ مِنْ سَعَادِ
 وَأَجْنِبُهُ فَيُعْطِينِي قِيَادًا وَيَجْنُبُنِي فَأَعْطِيهِ قِيَادِي

قال الفرزدق :

إِنَّ المَلَامَةَ مِثْلُ مَا بَكَرْتُ بِهَا مِنْ تَحْتِ لَيْلَتِهَا عَلَيْكَ نَوَارُ^(٣)
 قَالَتْ : وَكَيْفَ يَمِيلُ مِثْلُكَ لِلصَّبَا^(٤) وَعَلَيْكَ مِنْ سِمَةِ الحَلِيمِ عِذَارُ
 وَالشَّيْبُ يَنْهَضُ فِي الشَّبَابِ كَأَنَّهُ لَيْلٌ يَصِيحُ بِجَانِبِهِ نَهَارُ
 إِنَّ الشَّبَابَ لِرَاجِحٍ مَبْتَاعُهُ^(٥) وَالشَّيْبُ لَيْسَ لِبَاتِعِيهِ تِجَارُ

قال إسحاق الموصلي : قال لي المعتصم : لقد فَضَحَكَ الشَّيْبُ فِي عَارِضِكَ ،
 فقلت : نعم يَا سَيِّدِي ، وَبَكَيْتُ ثُمَّ قُلْتُ :

تَوَلَّى شَبَابُكَ إِلَّا قَلِيلًا وَحَلَّ الشَّيْبُ فَضْرًا كَجَمِيلٍ^(٦)
 كَفَى حَزَنًا بِفِرَاقِ الصَّبَا وَإِنْ أَصْبَحَ الشَّيْبُ مِنْهُ بَدِيلًا
 فَلَمَّا رَأَى الْغَانِيَاتِ الْمَشِيبَ أَغْضَيْنَ دُونِي طَرَفًا كَجَمِيلٍ^(٧)
 سَأَنْذُبُ عَنْهُدَ انْقِضَاءِ الصَّبَا وَأَبْكِي الشَّبَابَ بِكَاءٍ طَوِيلًا

(١) الدَّادَى : ثلاث لَيَالٍ مِنْ آخِرِ الشَّهْرِ قَبْلَ لَيْلَى الْحَقِّ .

(٢) الْعَقْدُ : « قَبُولٌ » .

(٣) دِيَوَانُهُ ٦٧

(٤) الدِّيَوَانُ : « وَتَقُولُ كَيْفَ » .

(٥) الدِّيَوَانُ : « لِرَاجِحٍ مِنْ بَاعِهِ » .

(٦) الْخَبَرُ وَالشَّعْرُ فِي الْأَغَانِي ٥ : ٦٩ (مَسَاسِي) .

(٧) الْأَغَانِي : « أَغْضَيْنَ دُونَكَ » .

وَعَنَيْتُهَا . فَبَكَى الْمُعْتَصِمُ ، وَقَالَ : لَوْ قَدَرْتُ عَلَى رَدِّ شَبَابِكَ لَفَعَلْتُ وَلَوْ بِشَطْرِ
مُلْكِي ؛ فَلَمْ يَكُنْ لِكَلَامِهِ عِنْدِي جَوَابٌ إِلَّا أَنْ قَبَّلْتُ الْبَسَاطَ بَيْنَ يَدَيْهِ .

وَأَبْنَى يَتِ وَرَدَ فِي فَقْدِ الشَّبَابِ قَوْلُ أَبِي الْغَضَنِ الْأَسَدِيِّ :
أَتَأْمُلُ رَجْعَةَ الدُّنْيَا سَفَاهًا وَقَدْ صَارَ الشَّبَابُ إِلَى ذَهَابٍ
فَلَيْتَ الْبَاكِيَاتِ بِكُلِّ أَرْضٍ يُجِئُنَا لَنَا فَمُخِّنَ عَلَى الشَّبَابِ
وَقَالَ سَلَامَةُ بْنُ جَنْدَلٍ ، وَهُوَ جَاهِلِيٌّ :

أَوْدَى الشَّبَابُ حَمِيدًا ذُو التَّعَاجِبِ أَوْدَى وَذَلِكَ شَاؤُهُ غَيْرُ مَطْلُوبٍ ^(١)
وَلَى حَيْثًا وَهَذَا الشَّيْبُ يَطْلُبُهُ لَوْ كَانَ يَدْرِكُهُ رَكْضُ الْيَعَاقِبِ ^(٢)
أَوْدَى الشَّبَابُ الَّذِي مَجْدُهُ عَوَاقِبُهُ فِيهِ نَلْدَ وَلَا لَذَاتِ الشَّيْبِ
وَقَالَ سَلَامَةُ أَيْضًا :

يَا خَدُّ أُمْسَى سِوَا ذِي الرُّأْسِ خَالِطُهُ شَيْبُ الْقَدَالِ اخْتِلَاطُ الصَّفْوِ بِالْكَدَرِ ^(٣)
يَا خَدُّ أُمْسَى لُبَانَاتُ الصَّبَا ذَهَبَتْ فَلَسْتُ مِنْهَا عَلَى عَيْنٍ وَلَا أَثَرٍ
كَانَ الشَّبَابُ لِحَاجَاتٍ وَكَانَ لَهُ فَقَدْ فَرَعْتُ إِلَى حَاجَاتِي الْآخِرِ
وَأَنشَدَ أَبُو الْعَيْنَاءِ :

مَا فِي يَدَيَّ مِنَ الصَّبَا إِلَّا الصَّبَابَةُ وَالْأَسَفُ
جَاءَ الشَّبَابُ فَمَا أَقَا مَ وَلَا أَلَمَ وَلَا وَقَفَ
كَانَ الشَّبَابُ كِرَائِرٍ مَلَّ الزَّيَارَةَ وَانصَرَفَ

وَالْبَابُ لَا يُحْصَى كَثْرَةُ .

(١) مطلع الفضلية ٢٢ ص ١١٩ . وَأَوْدَى : هَلَكَ : ذُو التَّعَاجِبِ : كَثِيرُ الْعَجَبِ .

(٢) الْيَعَاقِبِ : جَمْعُ يَعْقُوبَ ، وَهُوَ ذَكَرُ الْحِجْلِ ، خَصَّهُ لِسُرْعَتِهِ .

(٣) الْأَبْيَاتُ لِابْنِ مَقْبَلٍ ، دِيَوَانُهُ ٧٣ ، ٧٤ ، وَفِيهِ : « يَا حُرَّ » .

قوله : قرمت لكذا ، أى اشتدت شهوتي إليه ، وأصله شدة الشهوة إلى اللحم . والرشد والرشد واحد . فرطت : ضيعت ، وفرط في الشيء : قدم فيه التقصير والعجز ، وهو من قولهم : فرط الفارط في طلب الماء ، أى تقدم القوم إليه . وقرئ : ﴿ يا حسرتنا على ما فرطنا فيها ﴾ ^(١) ، بتخفيف الراء ، ومثله : ﴿ يا حسرتنا على ما فرطت في جنب الله ﴾ ^(٢) ومعنى القراءتين التقصير في جنب الله ، أى في حقه ، وقيل : في أمر الله ، وقيل في طاعته .

ابن الأعرابي : في قرب الله . القراء : الجنب : القرب ، والجنب معظم الشيء وأكثره ، ومنه : هذا قليل في جنب مودتك . الزجاج : أى على ما فرطت في الطريق الذى هو طريق الله الذى دعانى إليه .

وكسع الهنات ، أى طرد القبائح والقاذورات ، والهنات ، كناية عن الفواحش والأفعال القبيحة ، مأخوذ من الهن ، وهو الفرج ، وكسعها : دفعها وإزالتها ، والكسع أن تضرب بيدك على دبر الشيء ، وكسعهم بالسيف ، إذا اتبعت أديارهم ، فكأنه أزال القبائح عن نفسه ثم أذهبها بالدفع والضرب ؛ حتى نفاها بحسناته ، والكسع أيضاً : أن تضرب الشيء بصدر قدمك وقد كسعته . الأصمعي : الكسع : سرعة المرة ، وكسعته بكذا : جعلته تابعا له .

تلافي : تدارك . الهفوات : السقطات والزلات ، وقد هفا الرجُل ، إذا فعل المنكر وما يُكرهه . الفوات : الموت . مفاداة : مباكرة ، وقد غاداه : أتاه بالغدو ، والغادات : النواجم من النساء ، الواحدة غادة ، والتقاة : الخائفون ،

(١) سورة الانعام ٢١

(٢) سورة الزمر ٥٦

الواحد تقيّ ، وقوله تعالى : ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾^(١) ، يجوز أن يكون الأتقياء ، ويجوز أن يكون مصدرًا ، وهو أجود القولين : تقيته ، واتقيته تُتَقَّى وَتَقِيَّةً وَتَقًا وَتَقَاءً ، أى حذرته ، والاسم التقوى . مقانة : مخالطة وملازمة ، وهى مفاعلة من القينة ، وهى الجارية المغنية ، والجمع قَيْنَات . مدانة : مقاربة . ديانات ، هى من الدين ، أراد بها الطاعة . آليت : حلفت . نزع : زال وكفّ . الغي : الضلال . فاء : رجع . منشره : انقشاره فى الصَّبَا واللّهُو . أُلْفيت : وجدت . خلع الرَسَن : مسيّب فى المعاصى ، لا يكفّه عن إتيانها عقل ولادين ، وَخَلَعْتُ رَسَنَ الدَّابَّةِ : تركتها ترعى حيث شاءت سائبة ، ومثله خَالَعَ الْعِذَارَ ، وخلع عذاره ، أصله فى الدَّابَّةِ إِذَا خُلِعَ عِذَارُهَا فَسُيِّبَتْ ، فَإِنْ انْقَلَت رَسْنُهَا الذى تمسكها به فقرّت ، قيل : جرت رسنها ، وفلان يجرّ رسنه ، وبابه فى الاستعارة أنه مسيّب فى الشهوات مجاهر بها . مديد الوَسَن : طويل النّوم ، أى فارغ البال من ذكرٍ أو صلاة بالليل أو قراءة . أنأيت : أبعدت . عره : جربه ودائه ، يريد أنه حَلَفَ أَلَّا يَصَاحِبَ إِلَّا مَنْ كَفَّ عَنِ الصَّبَا واللّهُو والنساء ، ومتى وجد أهل اللّهُو والغزل فرّ عنهم وتركهم ، وقال الأليبري فأحسن :

مَنْ حَادَ عَنْ نَهْجِ الْهَدَى فَاضْلًا قَصْدَ سَبِيلِهِ
فَتَوْقَ خَلْتِهِ فَدَيْنُ الْمَرْءِ دَيْنُ خَلِيلِهِ
وله أيضاً

أَلَا خَبِرْتُ بِمَنْزَحِ النَّوَاحِي أَطِيرُ إِلَيْهِ مَقْصُوصَ الْجَنَاحِ^(٢)

(١) سورة آل عمران ٢٨

(٢) من قصيدة له فى ديوانه ٨٤

وَأَسْأَلُهُ وَالْطَّفَةَ عَسَاءَ سَيَّأَسُوْ مَا بَدَيْنِيْ مِنْ جِرَاحٍ
وَيَجْلُوْ مَا دَجَى مِنْ لَيْلٍ جَهْلِيْ بِنُورِ هُدًى كُنْبَلِجِ الصَّبَاحِ
فَأَبْصُقُ فِي حَيَّا أَمْ دَفْرِ وَأَهْجُرُهَا وَأُدْفَعُهَا بِرَاحِي
وَأُحْخُو مِنْ حُمَيَّاهَا وَأَسْلُوْ عِفَاقًا عَنْ جَاذِرِهَا الْمَلَاحِ
وَأَصْرَفُ هَمِّي بِالْكَفِّ عَنْهَا إِلَى دَارِ السَّعَادَةِ وَالنَّجَاحِ

* * *

فَلَمَّا أَلْقَيْتِ الرُّبَّةَ بِنَيْسٍ ، وَأَحَلَّتْنِي مَسْجِدَهَا الْأَنِيسَ ، رَأَيْتُ
ذَا حَلَقَةٍ مُلْتَحِمَةٍ ، وَنَظَّارَةٍ مُزْدَحِمَةٍ ؛ وَهُوَ يَقُولُ بِجَاشٍ مَكِينٍ ،
وَلِسَانٍ مُبِينٍ : مِسْكِينُ ابْنُ آدَمَ وَأَيُّ مِسْكِينٍ ! رَكْنٌ مِنَ الدُّنْيَا
إِلَى غَيْرِ رَكْنٍ ، وَاسْتَعَصَمَ مِنْهَا بِمَيْرٍ مَكِينٍ ، وَذُيْحٌ مِنْ حُبِّهَا بِغَيْرِ
مِسْكِينٍ ، يَكْلَفُ بِهَا لِعِبَاوَتِهِ ، وَيَكْلَبُ عَلَيْهَا لِشِقَاوَتِهِ ، وَيَعْتَدُّ
فِيهَا لِمُفَاخِرَتِهِ ، وَلَا يَتَزَوَّدُ مِنْهَا لِآخِرَتِهِ .

أَفْسِمُ بِمَنْ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ ، وَنَوَّرَ الْقَمَرَيْنِ ، وَرَفَعَ قَدْرَ الْحَجَرَيْنِ :
لَوْ عَقَلَ ابْنُ آدَمَ ، لَمَّا نَادَمَ ، وَلَوْ فَكَّرَ فِيمَا قَدَّمَ ، لَبَكَى الدَّمُ ،
وَلَوْ ذَكَرَ الْمَكَافَاتِ ، لاسْتَذْرَكَ مَا فَاتَ . وَلَوْ نَظَرَ فِي الْمَالِ ، لِحَسَنِ
قَبْحِ الْأَعْمَالِ .

يَا عَجَبًا كُلَّ الْعَجَبِ ، لِمَنْ يَنْتَقِمُ ذَاتَ اللَّهَبِ ، فِي اكْتِنَازِ الذَّهَبِ ،

وَحَزَنَ النَّسَبَ ، لِذَوِي النَّسَبِ . ثُمَّ مِنَ الْبِدْعِ الْعَجِيبِ ، أَنَّ يَعِظَكَ
وَحُطُّ الْمَشِيبِ ، وَتَوْذِنَ شَمْسُكَ بِالْمَغِيبِ ، وَلَسْتَ تَرَى أَنَّ تُنِيبَ ،
وَتَهْذِبَ الْمَعِيبَ .

* * *

[ذَكَرَ تَنِيسَ]

تَنِيسَ بلدةٌ كبيرةٌ ، وهى جزيرةٌ أُحْدَقَتْ بها بحيرةٌ يَتَّصِلُ بها النيلُ ،
فَتَمُذَّبُ عِنْدَ زِيَادَتِهِ سِتَّةَ أَشْهُرَ ، وَتَمْلَحُ سِتَّةَ أَشْهُرَ ، وَيَتَّصِلُ بِهَا خَلِيجُ دَمِيَاطَ ،
وَخَلِيجُهَا يَنْقَسِمُ عَلَى شَرْقِيَّهَا غَرْبِيَّهَا ، وَيَلْتَقِيَانِ فِي الْبَحِيرَةِ ، فَيَسِيرُونَ بِسَفْنِهِم
مِنْ دَمِيَاطَ إِلَى تَنِيسَ ؛ دَخُولُهُمْ لَهَا وَخُرُوجُهُمْ بِرِيحٍ وَاحِدَةٍ مُحْكَمَةٍ . وَأَهْلُ تَنِيسَ
ذَوُو يَسَارٍ ، وَأَكْثَرُهُمْ حَاكِمَةٌ . وَثِيَابُ الشُّرُوبِ الَّتِي تُصْنَعُ بِهَا وَبَدَمِيَاطَ لَا يُصْنَعُ
مِثْلُهَا فِي الدُّنْيَا ، وَلَيْسَ فِي الدُّنْيَا طَرَازُ كَتَّانٍ يَبْلُغُ الثَّوْبُ مِنْهَا دُونَ أَنْ يَبْعِنَ
بِذَهَبٍ مِائَةَ دِينَارٍ ، غَيْرَ طَرَازِ تَنِيسَ وَدَمِيَاطَ ، وَيَكْتَفِي ثَوْبُهَا بِقِصَّارَةِ يَوْمٍ
وَاحِدٍ فِي الْبَحِيرَةِ فَيَبْيُضُّ . قَالَ الْيَعْقُوبِيُّ : مَدِينَةُ تَنِيسَ يَحِيطُ بِهَا الْبَحْرُ
الْأَعْظَمُ الْمَلْحُ وَلَهَا بِحِيرَةٌ يَأْتِي مَأْوَاهَا مِنَ النَّيْلِ ، وَهِيَ مَدِينَةٌ قَدِيمَةٌ بِهَا
تُعْمَلُ الثِّيَابُ الرَّفِيعَةُ الصَّفَاقُ وَالْعَصَبُ وَالْبُرُودُ وَالْوَشْيُ ، وَبِهَا مَرَسَى الْمَرَاكِبِ
الْوَارِدَةِ مِنَ الشَّامِ وَالْمَغْرِبِ .

قوله : ملتحمة ، أى منضمة ملتصقة . ذا حلقة : يريد واعظا قد حلقة
الناس والنظارة : الناظرون إليه . جاش : تنفس . مكين : شديد . ميين :
مفصح . أى مسكين : ترحم عليه لكثرة مسكنته وتعجب منه . ركن :

سكن ولجأ . ركن شديد : قوى يُرْكَن إليه ، ورجل ركن ، أى وقورٌ بين الركائز ، والركن الثابت . مكن : عزّله مكانة ، أى منزلة رفيعة . ذُبِحَ من حبّها بغير سكن ، إشارة لعذابه فيها ومحنته ، لأنّ السّكين تذبح المذبح من ساعته ، ومن يُذبح بحجر أو عُود أر غير ذلك ، فهو فى تعذيب .

أبو موسى : قال النّبي صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضَرَ بآخِرَتِهِ ، وَمَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضَرَ بِدُنْيَاهُ ، فَآثَرُ مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى » .

وقال سفيان بن عيينة : وَيَلِكُمُ يَا عُلَمَاءَ السُّوءِ ، لَا تَكُونُوا كَالْمُخْلَخْلِ يَخْرُجُ مِنْهُ الدَّقِيقُ الطَّيِّبُ فَيَمْرُ وَيَمْسُكَ الثُّغَالَةُ ، فَكَذَلِكَ أَنْتُمْ تُخْرِجُونَ الْحِكْمَةَ مِنْ أَفْوَاهِكُمْ ، وَيَبْقَى الْغِلُّ فِي صُدُورِكُمْ ، وَيَحْكُمُ ! إِنَّ الَّذِي يَخْوُضُ النَّهْرَ لَا بَدَأُ أَنْ يَصِيبَ ثَوْبَهُ الْمَاءُ وَإِنْ جَهَدَ أَلَّا يَصِيبَهُ ، كَذَلِكَ مَنْ يَحِبُّ الدُّنْيَا لَا يَنْجُو مِنَ الْخَطَايَا .

يَكْلَفُ ، أى يولع بها ويشتدّ حُبّه فيها . غباوته : جهله . يَكَلِّبُ : يشتدّ حرصه ، وكَلَّبَ عَلَى الشَّيْءِ : ألَحَّ فِي طَلْبِهِ ، وَأَصْلُهُ مِنَ الْكَلْبِ وَهُوَ السُّعْرُ فِي الْكَلَابِ . يَعْتَدُّ : يستعدّ . مَرَجَ : خَلَطَ ، وَقِيلَ : أَرْسَلَهُمَا وَخَلَاهُمَا كَمَا تَسْرَحُ الدَّابَّةُ فِي مَرَعَاهَا . وَالتَّمْرَيْنِ : الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ، غَلَبَ لَفْظُ الْقَمَرِ خَلْفَتَهُ بِالتَّذْكِيرِ وَإِنْ كَانَتِ الشَّمْسُ أُنْثَى ، وَهِيَ أَصْلُ لُنُورِ الْقَمَرِ ، وَلِهَذَا قَالَ الْمُتَنَبِّى : وَمَا التَّائِثُ لَأَسْمِ الشَّمْسِ عَيْبٌ وَلَا التَّذْكِيرُ نَغْرٌ لِلْهَلَالِ^(١)

أَرَادَ أَنَّ الشَّمْسَ أَنْوَرُ وَأَضْوَأُ ، فَمَا يَضُرُّ هَاتَانِثِ اسْمِهَا ، وَمَا يَنْفَعُ الْهَلَالُ تَذْكِيرُ اسْمِهِ ، وَهُوَ نَاقِصٌ عَنْهَا ، فَاخْفَتَهُ لَفْظُ الْقَمَرِ غُلْبٌ ، كَمَا قَالُوا : الْعِمْرَانُ

(١) ديوانه ٣ : ١٨

الأبى بكر وعمر ، وأبو بكر أفضل من عمر باتفاقٍ من أهل السنة ، فغلب لفظ عمر خلفته بإفراده وقلة حروفه .

[مما قيل فى القمر]

ومما يحسن موقعه مع قوله : ونور القمرين ؛ أن أعرابياً أضلَّ الطريق فمات جَزَعًا ، وأيقن بالهلاك ، فلما طلع القمر اهتدى ، ووجد الطريق ، فرفع إليه رأسه ليشكره ، فقال له : والله ما أدري ما أقول لك ، ولا ما أقول فيك ! أقول : رفعك الله ، فالله قد رفعك ، أم أقول : نورك الله ، فالله قد نورك ، أم أقول : حسنك الله ، فالله قد حسنك ، ولكن ما بقى إلا الدعاء أن يُنسى الله فى أجلك ، وأن يجعلنى من سوء فداءك .

وصَلَّتْ ناقة لأعرابىٍّ فى ليلة مظلمة ، فأكثر فى طلبها ، فلم يجدها ، فلما طلع القمر وانبسط نوره وجدَّها إلى جانبه بيمض الأودية ، وقد كان اجتاز بموضعها مراراً فلم يرها لشدة الظلام ، فرفع رأسه إلى القمر ، وقال :

ماذا أقوال وقولى فى ذى خطرٍ وقد كَفَيْتَنِى التَّفْصِيلَ والجَمْلَا
إن قلت لازلت مرفوعاً فأنت كذا أو قلت زانك ربى ، فهو قد فعلاً
ومما قيل فى ذمِّه : عرَبِدْ بعض الحِجَّانِ على القمر ، فقال : والله إنك لتفتت
السَّكَّانَ ، وتُغيِّرُ الألوانَ ، وتصفِّرُ الأسنانَ ، وتختَرُ الأبدانَ ، وتسدِّدُ الآذانَ ،
وتفضح السَّكرانَ ، وتظهر السَّكَّانَ وتقلق الصِّبيانَ ، وتبييض الأَرْجُوانَ ،
وتلحس الزعفرانَ ، وتهزل الحِيتانَ ، وتمحق الأدمغة بالنقصان .

وقال ابن المعتز يذمه :

يا سارق الأنوارِ من شمسِ الضحَى يا مُشْكِلِي طيبِ السكرى ومنغصِي^(١)

(١) ديوانه ٢ : ١٣٢

أما ضياء الشمس فيك فناقص^(١) وأرى حرارة نارها لم تنقص^(٢)
 لم يظفر التشبيه فيك بمائل متسلخ لونا كلون الأبرص
 قوله : الحجرين ، أى الذهب والفضة . وقيل الحجر الأسود ومقام إبراهيم
 عليه السلام . نادم : صاحب ، والنديم صاحب على الخمر . المكافات :
 الجازاة . المآل : المرجع . ذات اللهب : صاحبة النار ، يعنى جهنم . يقتحم :
 يتراعى فيها ، وهذا من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إني لأخذ
 بحجزكم عن النار ، وأتم تقتحمون فيها ، كما تقتحم الفراش والجناب » .
 الخزن : الجمع . البدع : الحدث لم يكن ثم كان ، وقد ابتدعت الشيء :
 أحدثته ، وسقت الناس إلى فعله . وخط : اختلط ، وقد وخط الشيب الشعر ،
 إذا خالطه وفشا فيه . وتؤذن : تعلم . شمك بالمغيب : نفسك بالذهاب . تنيب :
 ترجع وتتوب . تهذب : تخلصه من العيب . والمغيب : الكثير العيب .
 يرشد : يهدى ويدل الطريق .

[مما قيل في الدنيا]

ونذكر هنا شيئاً مما قيل في الدنيا موافقةً للحريى ، ثم نعود إلى ذكر
 الشيب :

ومن خطبة قطري بن الفجاءة في ذم الدنيا :

ألستم في مساكن من كان أطول منكم أعماراً ، وأعدّ عديداً ، وأوضح
 آثاراً ، وأكثر جنوداً ، وأعدّ عتاداً ، وأطول عماداً ؛ تعبدوا للدنيا أى تعبدوا ،

(١) الديوان : « ضياء الشمس منك » .

(٢) الديوان : « حرارتها بها » .

وآثروها أى إِيثار ، وطمعوا عنها بالسُّكره والصَّغار ، فهل بلفظكم أَنَّ الدنيا أَسْمَحَتْ لهم نفساً ، وأَغْنَتْ عنهم بِحيلة ، بل أرهقتهم بالحوادث ، وَضَعَفَتْهم بالنوائب ، ودهمتهم بالمصائب ، أَرَأَيْتُمْ مَكْرَهَا بِنِ دَان لها وآثرها ، وأَخْلَد إليها ، يقول الله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾ ^(١) إلى قوله : ﴿ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ^(١) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى هريرة رضى الله عنه : « أَلَا أُرِيكَ الدنْيا جَعَاءَ بَمَا فِيهَا ؟ قال : قلت : بلى ، فَأَخَذَ بِيَدِي ، وَأَتَى وَادِيًا مِنْ أَوْدِيَةِ الْمَدِينَةِ ، فَإِذَا مَرْبَلَةٌ فِيهَا رُءُوسُ النَّاسِ وَعَذِرَاتٌ وَخِرَقٌ ، فَقَالَ : يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ، هَذِهِ الرُّءُوسُ كَانَتْ تَحْرِصُ حَرَصَكُمْ ، وَتَأْمُلُ أَمَلَكُمْ ، ثُمَّ هِيَ الْيَوْمَ عِظَامٌ ، ثُمَّ غَدًا رَمَادٌ ، وَهَذِهِ الْعَذِرَاتُ أَلْوَانُ أَطْعَمَتْهُنَّ اكْتَسَبُوها مِنْ حَيْثُ اكْتَسَبُوها قَقَذَفُوها فِي بَطُونِهِمْ ، فَأَصْبَحَتْ وَالنَّاسُ يَتَحَامُونُها ، وَالرِّيحُ تَصْفَقُها ، وَهَذِهِ عِظَامُ دَوَابِّهِمْ الَّتِي كَانُوا بِهَا يَنْتَجِعُونَ أَطْرَافَ الْبِلَادِ ، فَمَنْ كَانَ بَاكِيًا عَلَى الدُّنْيَا فَلْيَبْكْ » . فَمَا بَرَحْنَا ، حَتَّى اشْتَدَّ بَكَؤُنَا .

مرّة أبو عثمان الدَّبَّاغُ ، بِرَجُلٍ عَلَى كَنِيفٍ ، فَقَالَ لَهُ : إِلَى هَذَا اتَّهَتْ دُنْيَا الْقَوْمِ .. وَقَالَ الشَّاعِرُ :

وَلَقَدْ سَأَلْتُ الدَّارَ عَنْ أَخْبَارِهِمْ فَتَبَسَّمتْ عَجَبًا وَلَمْ تُبْدِ
حَتَّى مَرَرْتُ عَلَى الْكَنِيفِ فَقَالَ لِي أُمُوالُهُمْ وَنَوَالُهُمْ عِنْدِي
وَيُرَوِّى أَنَّ عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَرَّ بِجُمُعَةٍ فَضَرَبَهَا
بِرَجْلِهِ ، وَقَالَ : تَكَلَّمِ بِإِذْنِ اللَّهِ ، فَقَالَتْ : يَا رُوحَ اللَّهِ ، أَنَا مَلِكٌ زَمَنُ كَذَا ،
فَإِنَّمَا أَنَا جَالِسٌ فِي مَلِكِي ، عَلَى تَاجِي ، وَحَوْلِي حَشِيٌّ وَجُنُودِي عَلَى سَرِيرِي ،

(١) سورة هود ١٥ ، ١٦

إذ بدأ إلى ملك الموت وظهر ، فزال غنى كل عضوٍ من موضعه ، ثم خرجت إليه نفسى .

ولبعض الزهاد :

دُنَيْيَا تُخَادِعُنِي كَأَنِّي لَسْتُ أَعْرِفُ حَالَهَا
مَدَّتْ إِلَى يَمِينِهَا قَطَعَتْهَا ، وَشِمَالَهَا
مَنْعَ الْإِلَهِ حَرَامَهَا وَأَنَا اجْتَنَبْتُ حَلَالَهَا
وَرَأَيْتُهَا مُحْتَاجَةً فَوَهَبْتُ مُجْلَتَهَا هَلَا

ولبعضهم :

هَبِ الدُّنْيَا تَسَاقُ إِلَيْكَ عَفْوًا أَلَيْسَ مَصِيرُ ذَاكَ إِلَى انْتِقَالٍ
وَمَا دُنْيَاكَ إِلَّا مَثَلُ فِيءٍ أَظْلَكَ مِمَّ آذَنَ بِالزَّوَالِ
أَبُو الْعَتَاهِيَةِ :

يَا مَنْ تَرَفَّعَ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا لَيْسَ التَّرَفُّعُ رَفَعَ الطِّينَ بِالطِّينِ
إِذَا أَرَدْتَ شَرِيفَ الْقَوْمِ كُلَّهُمْ فَانْظُرْ إِلَى مَلِكٍ فِي زِيٍّ مُسْكِينٍ
أَرَى أَنَا نَاسًا بِأَدْنَى الدِّينِ قَدْ قَنَعُوا وَلَا أَرَاهُمْ رَضُوا فِي الْعِيشِ بِالذُّونِ
فَاسْتَعْنِ بِاللَّهِ عَنْ دُنْيَا الْمُلُوكِ كَمَا اسْتَغْنَى الْمُلُوكُ بِدُنْيَاهُمْ عَنِ الدِّينِ
وَقَالَ التَّهَامِيُّ :

حُكْمُ الْمَيِّتَةِ فِي الْبَرِيَةِ جَارِي مَا هَذِهِ الدُّنْيَا بَدَارِ قَوَارٍ^(١)
بَيْنًا يُرَى الْإِنْسَانُ فِيهَا مَخِيرًا حَتَّى يُرَى خَبِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ
طُبِعَتْ عَلَى كَدَرٍ وَأَنْتَ تَرِيدُهَا صَفَوًا مِنَ الْأَقْدَارِ وَالْأَكْدَارِ
وَمُكَلَّفَ الْأَيَّامِ ضِدَّ طَبَاعِهَا مُتَطَلِّبٌ فِي الْمَاءِ جَذْوَةَ نَارٍ

وقال أبو حاتم: إنما بيني وبين الملوك واحدة؛ أما أمس فلا يجدون لذته،
وأنا وإيَّاهم في غد على وجل، وإنما هو اليوم، فمأسى أن يكون اليوم!
أخذه أبو العتاهية فقال:

حَتَّى مَتَى نَحْنُ فِي الْأَيَّامِ نَحْسَبُهَا وَإِنَّمَا نَحْنُ فِيهَا بَيْنَ يَوْمَيْنِ^(١)
يَوْمٌ تَوَلَّى وَيَوْمٌ نَحْنُ نَأْمُلُهُ لَعَلَّهُ أَجْلِبُ الْأَيَّامَ لِلْحَيْنِ
ولحاتم:

هل الدهر إلا اليوم أو أمس أو غد كذا الدهر فيما بيننا يتردد
برد علينا ليلة بعد يومها فلا عمرنا يَبْقَى ولا الدهر يَنْقُذُ
وللفقيه الباجي:

إِذَا كُنْتُ أَعْلَمُ عِلْمًا يَقِينًا بَأَنَّ جَمِيعَ حَيَاتِي كَسَاءَةٌ
فَمَنْ لَا أَكُونُ ضَمِينًا بِهَا وَأَجْعَلُهَا فِي صَلَاحٍ وَطَاعَةٍ!
وله أيضاً:

تَبْلَغُ مِنَ الدُّنْيَا بِأَيْسَرِ زَادٍ فَإِنَّكَ عَنْهَا رَاحِلٌ لِمَعَادٍ
وَعُضٌّ عَنِ الدُّنْيَا وَزَخْرَفِ أَهْلِهَا جَفَوْنَاكَ وَكَحَلْمَهَا بِطِيبِ مَسَادٍ
وَجَاهِدْ عَنِ اللَّذَاتِ نَفْسَكَ جَاهِدًا فَإِنَّ جِهَادَ النَّفْسِ خَيْرُ جِهَادٍ
وَمَا هِيَ إِلَّا دَارُ لَهْوٍ وَفِتْنَةٍ وَإِنَّ قَصَارَى أَهْلِهَا لِنِفَادٍ
وقال آخر:

وَمَا أَهْلُ الْحَيَاةِ لَنَا بِأَهْلٍ وَلَا دَارُ الْفَنَاءِ لَنَا بِدَارٍ
وَمَا أَمْوَالُنَا إِلَّا عَوَارٍ سَيَأْخُذُهَا الْمَعِيرُ مِنَ الْمَعَارِ

ولأبي العتاهية :

قطعتُ منكِ حبائل الآمالِ وحططتُ عن ظهر المطى رِحالِ
ووجدتُ برْد اليأس بين جِوانِحي فأرحتُ من حطّى ومن ترّحالِ
فالآن يا دُنْيا عرفتُكِ فاذْهبي يا دارَ كلِّ تنقُّل وزوالِ
والآن صار لي الزمان مؤدِّباً ففدا وراح على بالأمثالِ
بأيُّها البطلُ الذي هو من غدٍ في قبره متفرق الأوصالِ
حِيلُ ابن آدم في الأمورِ كثيرةٌ والموت يقطع حيلة المحتالِ
وللقاضي أبي حفص بن عمران :

أيها المغترُّ بالزَّمنِ في هواه خالغ الرّسنِ
حبّك الدنيا وزينتها فتنة عمَّتْكَ بالفتنِ
ظَلَّتْ والحالاتُ شاهدةٌ عاكفاً منها على وثنِ
فاهجرنها إن زينةَها زينةٌ شانت ولم ترنِ
خدعتك إنها قُبِحت باطناً في ظاهرٍ حَسَنِ
واسئل عن حرصٍ وعن طمعٍ أملاً يردى وعن وعنِ
ولتقدّم ما تُسرّ به قبل طول البَثِّ والحزنِ
فكان أخراك مابِرحَتِ وكأنّ دنياك لم تكنِ

* * *

ثمّ اندفع يُنشدُ، إنشاد من يُرشد :

يَا وَفِّحْ مَنْ أَنْدَرَهُ شَيْبُهُ وَهُوَ عَلَى غَيِّ الصَّبَا مُنْكَمِشِ
يَعْشُو إِلَى نَارِ الْهَوَى بَعْدَ مَا أَصْبَحَ مِنْ ضَعْفِ الْقَوَى يَرْتَمِشِ
وَيَمْتَطِي اللَّهْوَ وَيَعْتَدُّهُ أَوْ طَامَا يَفْتَرِشُ الْمُفْتَرِشِ

لَمْ يَهَبِ الشَّيْبَ الَّذِي مَا رَأَى نَجْـوَمَهُ ذُو اللَّبِّ إِلَّا دُهُشَ
وَلَا انْتَهَى عَمَّا مَا نَهَاهُ النَّهَى عَنْهُ وَلَا بَالَى بِعِرْضِ خُدِشِ
فَذَاكَ إِنْ مَاتَ فَسُحْقًا لَهُ وَإِنْ يَعْشُ عُدَّ كَأَنَّ لَمْ يَعْشِ
لَا خَيْرَ فِي حَيَا امْرِئٍ نَشْرُهُ كَنَشْرِ مَيِّتٍ بَعْدَ عَشْرِ نُبْشِ

* * *

قوله : يا ويح من أنذره شيبه ، ويح كلمة ترحم ؛ أنذره : أبلغه وحذره .
غى : ضلال . منكش : مسرع إليه ملازم له ، وقد كَمَشَ الرَّجُلُ وانكش
في أمره : استمرَّ ومَضَى فيه مسرعاً .

ومن قولهم في الشيب

في هذا المعنى ما قال أكم بن صيفي : الشيب عنوان الموت

وقال العتابي : الشَّيْبُ نَذِيرُ الْمَوْتِ .

وقال الثميري : هو عنوان الكبير .

قيس بن عاصم : هُوَ خِطَامُ الْمَيِّتِ .

محمود الوراق : الشَّيْبُ إِخْدَى الْمَيِّتَيْنِ .

المعتز بن ساجان : الشيب موت الشَّعْر ، وموت الشَّعْر عِلَّةُ لَمُوتِ الْبَشَرِ .

أعرابي : كنت أنكر السوداء ، فياخير مبدول ويا شرَّ بَدَلٍ ! أخذه

حبيب قال :

شَابَ رَأْسِي وَمَا رَأَيْتُ مَشِيبَ الرَّأْسِ إِلَّا مِنْ قُضْلِ شَيْبِ الْفُؤَادِ^(١)

وكذاك الروم من كلّ يؤس^(١) ونعيمٍ طلائعُ الأجسادِ
 طال إنكارى البياض وإن عمّرتُ شيئاً أنكرتُ لون السّوادِ^(٢)
 زارنى شخصه بطلعة ضيمٍ عمّرتُ مجلسي من العوادِ
 قيل للنبي صلى الله عليه وسلم : عجّل عليك الشيب يا رسول الله ، فقال :
 « شيبّنى هود وأخواتها » .

وقيل لعبد الملك : عجّل عليك الشيب يا أمير المؤمنين ، فقال شيبني ارتقاء
 النار وتوقّع اللحن .

وقيل لشاعر : عجّل عليك الشيب ، فقال : كيف لا ، وأنا أعصِرُ قلبي في
 عملٍ لا يُزجى ثوابه ، ولا يؤمن عقابه .

وقال محمود الوراق رحمه الله :

بَكَيْتُ لِقُرْبِ الْأَجَلِ وَبَعْدِ فَوَاتِ الْأَمَلِ^(٣)
 وَوَفِدِ شَيْبِ طَرَا بَعَقِبِ شَبَابِ رَحَلِ
 شَبَابٌ كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ وَشَيْبٌ كَأَنَّ لَمْ يَزَلْ

وقال حبيب :

غَدَا الشَّيْبُ مُحْتَطًّا بِفُودَى خُطَّةَ

طَرِيقُ الرَّدَى مِنْهَا إِلَى النَّفْسِ مَهْمَعٍ^(٤)

(١) الديوان : « وكذاك الطلوب » .

(٢) بعده في الديوان :

نَالَ رَأْسِي مِنْ ثَغْرَةِ الْمَهْمِ دَالٍ لَمْ يَنْلَهُ مِنْ ثَغْرَةِ الْمِيلَادِ

(٣) المعقد ٣ : ٤٢

(٤) ديوانه ١٩٠

هو الزَّوْرُ يُجْتَنَى والمُعَاشِرُ يُجْتَوَى وذُو الإِلَفِ يُقَلَى والجديدُ يَرْقَعُ
لَهُ مَنظَرٌ فِي الْعَيْنِ أَيْضُ نَاصِعٌ وَلَكِنَّهُ فِي الْقَلْبِ أَسْوَدُ أَسْفَعُ
وَنَحْنُ نَرْجِيهِ عَلَى السَّخَطِ وَالرِّضَا^(١) وَأَنْفُ الْفَتَى مِنْ وَجْهِهِ وَهُوَ أَجْدَعُ

وقال ابن عبد ربه :

شَبَابُ الْمَرْءِ تُنْفِدُهُ اللَّيَالِي إِنْ كَانَتْ تَصِيرُ إِلَى نَفَادٍ^(٢)
فَاسْوَدُّهُ يَعُودُ إِلَى بَيَاضٍ وَأُيَيْضُهُ يَعُودُ إِلَى سَوَادٍ

أخذ هذا من قول المستوغر بن ربيعة حين دخل على معاوية ، وهو ابن
ثلاثمائة سنة ، فقال : كيف تجدك يامستوغر ؟ قال : أجدني قد لَانَ مَتْنِي مَا كُنْتُ
أَحِبُّ أَنْ يَشْتَدَّ ، وَأُيَيْضَ مَتْنِي مَا كُنْتُ أَحِبُّ أَنْ يَسْوَدَّ .

وقال ابن عبد ربه :

أَطْلَالُ لَهْوِكَ قَدْ أَقَوْتُ مَغَانِيهَا لَمْ يَبْقَ مِنْ رَظْمِهَا إِلَّا أَثَافِيهَا^(٣)
هَذِي الْمَفَارِقُ قَدْ قَامَتْ شَوَاهِدُهَا عَلَى فَنَائِكَ وَالدُّنْيَا تَرْكِيهَا
لِلْمَوْتِ سَفْتَجَةٌ فِيهَا مَعْنُونَةٌ لَمْ يَبْقَ لِلْمَوْتِ إِلَّا أَنْ يَسْحِيهَا^(٤)

* * *

قوله : يعيشو ، أى ينظر ببصر ضعيف . يمتطى : يركب . يعتده : يحسبه .
المفترش : المضطجع على الفراش ، يريد أنه يركب اللهو فيلتهذه ويمجده وطيثاً .
يَهَبُ : يَخَفُ . اللَّبُ : العقل : دُهْشُ : تحيّر . النَّهْيُ : جمع نُهْيَةٍ ، وهى العقل
ينهى عن التَّبَيُّحِ ، وينتهى به إلى حسن الرأى فى الأمور ، ويقال : نَهاه عن
ذلك نَهاه ، أى عقله .

(١) الديوان : « على الكره والرضا » .

(٢) المقد ٢ : ٤٤

(٣) المقد ٣ : ٤٤

(٤) يقال : سحى القُرطاس ، إذا أخذ منه سحاة ، والسحاة : ما يقشر عنه .

وأُشَدُّ أَبُو طَاهِرِ السَّلَفِيِّ ، قَالَ : أَنَشَدَنِي الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ
نَصْرِ بْنِ مَرْهَفِ الْهَاشِمِيِّ ، قَالَ : أَنَشَدَنِي الْأَدِيبُ الْمَدَنِيُّ لِنَفْسِهِ فِي نَفْسِهِ :

لِي عَلَى النَّاسِ فَضْلُ نَظْمٍ وَنَثْرٍ مَنْ أَبَاهُ هَجْوُهُ وَأَبَاهُ
وَإِذَا مَا أَتَى صَفْعُ قَفَاهُ وَقَفَا مَنْ أَعَانَهُ وَقَفَاهُ
رَحِمَ اللَّهُ مَنْ أَرَادَ مُحَالًا فَهَاهُ عَنِ الْحَالِ نُهَاهُ

قوله : خُدْش ، أَي دَمَ وَسُبَّ ، وَأَصْلُ الْخُدْشِ الْأَثَرُ فِي الْجِلْدِ ، ثُمَّ
اتَّسَعَ فِيهِ ، فَجُعِلَ لِلْعَرَضِ . سَحَقًا : بَعْدًا ، وَالنَّشْرُ : الرِّيحُ ؛ طَيِّبَةٌ كَانَتْ
أَوْ خَيْثَةً . نُبِشَ : أُخْرِجَ ، وَكُلُّ مَدْفُونٍ أُخْرِجَتْ فَقْدَ نَبَشَتِهِ . وَأَخَذَ هَذَا
الْبَيْتَ مِنْ قَوْلِ ابْنِ الْمُعْتَزِّ :

تَبَحَّثْتُ عَنْ آثَارِهِ فَكَأَنَّمَا نَبَشَتْ عَلَيْهِ بَعْدَ ثَلَاثَةِ الدَّفْنِ

وله :

أُنْثِيَ عَلَيْكَ بِمِثْلِ رِيحِكَ مِيتًا فِي عَقَبِ يَوْمِ تَرْفُكَ الْأَعْوَادُ
وَأَخَذَ هَذَا وَهَذَا مِنْ قَوْلِ عَمْرِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ : لَوْ رَأَيْتَنِي بَعْدَ ثَلَاثَةِ ! وَتَقَدَّمَ
فِي الْحَادِيَةِ عَشْرَةِ .

* * *

وَحَبَّذَا مَنْ عَرِضَهُ طَيْبٌ يَرُوقُ حُسْنًا مِثْلَ بُرْدٍ رُقِشَ
فَقُلْ لِمَنْ قَدْ شَاكَهُ ذَنْبُهُ : هَلَكْتَ يَا مَسْكِينُ أَوْ تَنْتَقِشُ
فَأَخْلَصِ التَّوْبَةَ تَطْمِئِنَ بِهَا مِنَ الْخَطَايَا الشُّوْدِ مَا قَدْ نُقِشَ
وَعَاشِرِ النَّاسِ بِمُخْلَقِ رِضَا وَدَارِ مَنْ طَاشَ وَمَنْ لَمْ يَطِشْ
وَرِشَ جَنَاحَ الْحُرِّ إِنْ حَصَّهُ زَمَانُهُ ، لَا كَانِ مَنْ لَمْ يَرِشْ

وَأُنْجِدِ الْمَوْتُورَ ظُلُمًا فَإِنْ عَجَزْتَ عَنْ إِنْجَادِهِ فَاسْتَجِشْ
وَأَنْعَشْ إِذَا نَادَاكَ ذُو كَبُورَةٍ عَسَاكَ فِي الْحُشْرِ بِهِ تَنْتَعِشْ
وَهَاكَ كَأْسَ النَّصِيحِ فَاشْرَبْ وَجُدْ بِفَضْلَةِ الْكَأْسِ عَلَى مَنْ عَطِشْ

* * *

يروق : يُعْجِب : بُرَد : ثوب . رُقِش : رِقْمَ وَزَيْنَ ، تقول : رَقِشْتُ يَدَ
المرأة بِالْحِنَاءِ والحائِطَ بِالْأَصْبَاغِ والقرطاسَ بِالْمِدَادِ ، وشبه هذا شاكه ذنبه ،
يقال : شاكه يشوكه ، إذا دخل فيه شوكة ، قال الشاعر :

لَا تَنْقُشَنَّ بِرَجْلِ غَيْرِكَ شَوْكَةً فَتَقِيَّ بِرَجْلِكَ رِجْلَ مَنْ قَدْ شَاكَهَا
فشاكها ، أَدْخَلَ فِيهَا الشَّوْكَ ، وشَاكَتْهُ الشَّوْكَةُ : دخلت فيه ، وشُكَّتْهُ
أَنَا ، إذا أَدْخَلْتَ الشَّوْكَةَ فِي جِسْمِهِ ، فَإِنْ أَصَابَكَ الشَّوْكَ قَات : شاكني الشَّوْكَ
يشوكني شَوْكًا . وانتقشت حتى من فلان ، إذا استخرجته ولم تترك منه شيئًا .
وقال صلى الله عليه وسلم : « وإن شيك فلا انتقش » ، فشيك أصابه
الشوك ومعهناه إذا وقع في شرٍّ فلا يخلص منه .

تَنْتَقِشُ : تخرج الشَّوْكَةَ وتبحث عليها ، وأَوْ بمعنى إِلَّا . والمناقشة : البحث
والاستقصاء ، ومنه مناقشة الحساب ، وبذلك سُمِيَ الْمِنْقَاشُ ، وقال ابن الرومي :

إِذَا رُمْتُ بِالْمِنْقَاشِ تَنْتَفَ أَشَاهِي أَتِيحُ لَهَا مِنْ بَيْنِهِنَّ الْأَبَاهِمُ
يُرَاوِغُ مِنْقَاشِي نَجُومَ مَسَاحِي وَهَنْ بَعْضِي طَالِعَاتٍ نَوَاجِمُ
تَطْمِيسُ : تمحو . ونَقَشَ : كتب ، والنَّقَشُ يستعمل في مثل الخشب
والحائط والصَّخَرِ ، والنَّقَشُ : الفتح والتأثير في نفس المنقوش . وقال الأليبري
في معنى هذا البيت :

مَنْ لَيْسَ يَسْعَى فِي الْخِلَاصِ لِنَفْسِهِ كَانَتْ سَعَايَتُهُ عَلَيْهَا ، لَا لَهَا (١)

إِنَّ الذُّنُوبَ بِتُوبَةٍ تُمَحَّى كَمَا يَمْحُو سُجُودُ السَّهْوِ غَفْلَةً مَنْ سَهَا
 قوله : عاشر ، أى صاحب . دار : عامله بما يحب ، وَاَمْشِ عَلَى غَرْضِهِ .
 طاش : خَفَّ عَقْلُهُ ، وَرَجُلٌ طَيَّاشٌ غَيْرُ مُقْتَصِدٍ فِي قَوْلِهِ ، وَهُوَ مِنْ طَاشِ السَّهْمِ ،
 إِذَا لَمْ يَصِبْ وَوَقَعَ عَلَى غَيْرِ قَصْدٍ ، وَمِثْلُهُ قَوْلُ أَعْرَابِيِّ لَبْنِيهِ : عَاشِرُوا النَّاسَ
 مُعَاشَرَةً إِذَا غَبْتُمْ خُتُوًا إِلَيْكُمْ ، وَإِنْ مَتُّمْتُمْ بَدُّوْا عَلَيْكُمْ ؛ وَهَذَا مِنْ قَوْلِ الشَّاعِرِ :
 وَأَكْرَمُ كَرِيمًا إِنْ أَتَاكَ لِحَاجَةٌ لِفَاقَتِهِ إِنْ الْعَصَا تَرُوحُ
 وَقَالَ الْأَضْبَطُ بْنُ قَرِيحٍ :

لَا تَهِنِ الْفَقِيرَ عَلَّكَ أَنْ تَرَكَّعَ يَوْمًا وَالذَّهْرَ قَدْ رَفَعَهُ^(١)

رَشَ الْجَنَاحَ : أَكْسَهُ الرِّيشَ ، وَالْمَعْنَى أَصْلَحَ حَالِ الْخَرِّ إِذَا افْتَقَرَ . حَصَّه :
 نَفَقَهُ . أَنْجَدَ : قَوَّ وَأَعِنَ ، وَالْمَوْتُورُ : الْمَظْلُومُ الَّذِي قَتِلَ لَهُ أَخٌ أَوْ وَلَدٌ أَوْ نَسِيبٌ .
 اسْتَحْجَشَ : أَجْمَعَ جَيْشًا ، وَالْمَعْنَى : إِذَا لَمْ تَقْدِرْ عَلَى إِعَانَةِ مَظْلُومٍ ، فَتَوَسَّطْ لِمَنْ
 يُعِينُهُ . انْعَشَ : ارْفَعَ . كَبُوءَ : سَقَطَةُ وَعَثْرَةٌ . تَنْتَعَشُ : تَرْتَفِعُ وَتَقُومُ مِنْ
 عَثْرَتِكَ . هَاكَ : خَذَ ، وَالْمَعْنَى خَذَ كَأْسَ النَّصِيحَةِ فَاشْرَبَهَا فَإِذَا رَوَيْتَ فَاسْتَقِ
 غَيْرَكَ . وَلَا يُقَالُ كَأْسٌ إِلَّا إِذَا كَانَ فِيهَا شَرَابٌ .

* * *

قَالَ : فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ مُبْكِيَاتِهِ ، وَقَضَى إِنْشَادَ أَيْيَاتِهِ ، نَهَضَ
 صَبِيٌّ قَدْ شَدَنَ ، وَأَعْرَى الْبَدَنَ ، وَقَالَ : يَا ذَوِي الْحَصَاةِ ، وَالْإِنْصَاتِ
 إِلَى الْوَصَاةِ ، قَدْ وَعَيْتُمُ الْإِنْشَادَ ، وَفَقَّهْتُمُ الْإِرْشَادَ ، فَمَنْ نَوَى مِنْكُمْ
 أَنْ يَقْبَلَ ، وَيُصْلِحَ الْمُسْتَقْبَلَ ، فَلْيُبْنِ بِرِيٍّ عَنِ زَيْتِهِ ، وَلَا يَعْدِلْ

(١) الشعر والشعراء ٢٨٣ ، وهو من أبيات الشواهد ، على أن نون التوكيد الخفيفة تحذف لالتقاء الساكنين والاصل : « لَا تَهِنِ » .

عَنِّي بِعَطِيَّتِهِ ؛ فَوَالَّذِي يَعْلَمُ الْأَسْرَارَ ، وَيَغْفِرُ الْإِضْرَارَ ؛ إِنَّ سِرِّي لَكَمَا
تَرَوْنَ ، وَإِنَّ وَجْهِي لَيَسْتَوْجِبُ الصَّوْنَ ؛ فَأَعِينُونِي رُزِقْتُمُ الْعَوْنَ .
قال : فَأَخَذَ الشَّيْخُ فِيمَا يَعْطِفُ عَلَيْهِ الْقُلُوبَ ؛ وَيُسَنِّي لَهُ الْمَطْلُوبَ ؛
حَتَّى أَنْبَطَ حَفْرُهُ ، وَاعْشَوْشَبَ قَفْرُهُ . فَلَمَّا أَنْ تَرَعَ الْكِيسُ ؛
انْفَلَتَ يَمِيسُ ، وَيَحْمَدُ تَنِيسُ ، وَلَمْ يَحُلْ لِلشَّيْخِ الْمَقَامَ ، بَعْدَ مَا انْصَاعَ
الغلام . فَاسْتَرْفَعَ الْأَيْدَى بِالْدُّعَاءِ ، ثُمَّ نَحَا نَحْوَ الْإِنْكِفَاءِ .

* * *

قوله : قضى ، أى أتم . نهض : قام وتقدم . شَدَنَ : اشتدَّ وقوى ،
وأصله فى الظَّبِّيِّ والصَّبِيِّ ، تقول : شَدَنَ الظَّبْيُ ، إِذَا اشْتَدَّ وَتَرَمَّرَعَ ، وَكَذَلِكَ
الصَّبِيُّ قَالَ عمر بن أبى ربيعة :

إِذْ تَسْتَبِيكَ بِمَصْقُولٍ عَوَارِضُهُ وَمَقْلَتِي جُوْذَرٍ لَمْ يَعْذُ أَنْ شَدَنَّا^(١)
أَرَادَ أَنَّهُ تَرَمَّرَعَ لِلْمَشْيِ وَالرَّغْيِ . أَغْرَى الْبَدَنَ : تَرَكَهُ عُرْيَانًا . ذَوَى
الْخِصَاةِ : أَهْلُ الْعُقُولِ ؛ وَالْإِنْصَاتِ : السَّكُوتُ وَحَسَنُ الْإِسْتِمَاعِ . وَالْوَصَاةُ ،
بِمَعْنَى الْوَصِيَّةِ كَالْتِقَاةٍ بِمَعْنَى التَّقِيَّةِ ، وَأَصْلُهَا « وَقِيَّةٌ » قُلِبَتْ الْوَاوُ تَاءً وَالْيَاءُ أَلْفًا ،
وَالْوَاوُ إِذَا انْضَمَّتْ فِي أَوَّلِ الْكَلِمَةِ كُنَتْ بِالْخِيَارِ ، إِنْ شُدَّتْ تَرَكَتْهَا ، وَإِنْ
شُدَّتْ قَلِبَتْهَا ، وَلِهَذَا تُرِكَتْ فِي الْوَصَاةِ . وَقِيلَ الْوَصَاةُ بِفَتْحِ الْوَاوِ فِي الْوَصِيَّةِ ،
وَبِضْمِّهَا جَمْعُ وَاصٍ كِرَاعٍ وَرُعَاةٍ ، وَعَيْتِمٌ : حَفَظْتِمُ . فَهَتِمٌ : الْإِرْشَادُ ؛
الْمُهْدَايَةُ : أَيْ قَدْ فَهَتِمَ مَا دُلَّتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْخَيْرِ فَاغْلُظُوا . نَوَى : قَصَدَ وَأَضْمَرَ ، وَهُوَ
مِنَ النِّيَّةِ ، وَأَرَادَ بِالْمُسْتَقْبَلِ ، مَا يَسْتَقْبَلُهُ مِنْ أَفْعَالِهِ . فَلْيَبِينْ : فَلْيَفْصَحْ وَيَبَيِّنْ .
بِرِّي : يَا كِرَامِي . عَنْ نَيْتِهِ : عَنْ قَصْدِهِ وَصِدْقِ بَاطِنِهِ . يَغْدِلُ : يَمِيلُ .

الإصرار : الإقامة على الذنب ، سرّى لكما ترون ، أى هو ظاهر لكم غير مستتر : الصّون : الحوطه فيما يعطف عليه القلوب ، يريد أنه أخذ فى كلام تمنّ به للصبيّ قلوب الناس . يسنى : يسهل وييسّر . أنبط : أخرج الماء . القفر : مالا نبات فيه . اعشوشب تغطى بالعشب ، يريد أنه استغنى بعد الفقر ، وضرب بأنبط واعشوشب المثل . ترع : امتلأ ، والكيس : وعاء الدرهم . انصلت : تسلل وخرج بسهولة . يميس : يتمايل ويتبختر . انصاع : ذهب مسرعاً وانفتل راجعاً . استرفع : طلب رفعها . نحاحو الانكفاء ، أى قصد قُصد الانصراف .

* * *

قال الراوى : فازمحت إلى أن أعجمه ، وأحلّ مترجمه ، فتبعته وهو يشتدّ فى سمنه ، ولا يفتق رثق صمته ؛ فلمّا أمّن المفاجى ، وأمّكن التناجى ، لفتّ جيده إلى ، وسلم تسليم البشاشة على ، ثم قال : أراك ذكّاء ذاك الشويدين ؟ فقلت : إى والمؤمن المهيمن ؛ قال : إنّه فتى السروجى ، ومخرج الذر من اللجى . فقلت : إنك لشجرة تمرّته ، وشواظ شرّيته . فصدّق كهانتى ، واستحسن إبانى . ثمّ قال : هل لك فى ابتدار البيت ؛ لنتنازع كأس الكميت ؟ فقلت له : ويحك ! « أتأمرون الناس بالبرّ وتنسون أنفسكم » . فافتّر افتدار متضاحك ، ومرّ غير ممّاحك . ثمّ بدا له أن تراجع إلى ، وقال : احفظها عني وعلى :

أصرف بصرف الراح عنك الأسى وروح القلب ولا تكسب
وقل لمن لامك فيما به تدفع عنك الهم : قدك اتّيب

قوله : ارتحت ، أى اشتريت وطربت . أعجمه : أخبره . مترجحه : ملتبسه
يشتد : يجرى . سمته : طريقه . يفتق رتق : يشق غلق . صمته : مبهم أمره
والفتق : الخرق ، والرتق : الإغلاق ، وهو ضده ، وذلك أن يضم المتخرفق
بعضه إلى بعض : التناجي : التحدث . لفت جيده : عطف عنقه . البشاشة :
الخفة وإبداء السرور . أراقك ؟ : أعجبك ؟ ذكاء : حذق ، والذكاء : توقد الذهن .
الشويدين : تصغير شادن ، وأراد ابنه . والمؤمن المهيمن ، هو الله تعالى ، والإيمان :
التصديق . وقال أبو بكر بن العربي : البارئ تعالى مؤمن بتصديقه لنفسه
بقوله ، وذلك حقيقته ، قال الله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ، أو بتصديقه
لرسوله بإظهار المعجزة ، أولاً وليائه بإظهار الكرامة ، وهما مجازان . والمهيمن :
الريب الحافظ .

الكسائي : المهيمن : الشهيد . أبو عبيدة : الرقيب ، وقد هيمن هيمنة .
ابن الأنباري : القائم على خلقه ، قال الشاعر :
ألا إن خير الناس بعد نبيهم مهيمنه التاليم في العرف والنكر
أى القائم على الناس بعده ، وأصله « مؤمن » فأبدلوا من الهزمة هاء كما
قالوا : أرقّت وهرقت . وفي مثل مدح هذا الغلام بالذكاء قال الفضل بن جعفر :
فإن خلّفته السنّ فالعقل بالغ به رتبة الكهل المرشح للمجد
قد كان يحى أوتى الحكم قبله صبيّاً وعيسى كلم الناس في المهد
وقال البحتري :

لا تنظرن إلى العباس من صغر
في السن وانظر إلى المجد الذي شاداً^(١)
إنّ النجوم نجوم الجوّ أحقرها في العين أكثرها في الجوّ إصعاداً

(١) ديوانه ٦١٠ . وفيه : « لا تنظرن إلى العباس » ، والأصح ما في الديوان ،
والقصيدة في مدح علي بن محمد بن الفياض .

[ذكر نوادر الولدان]

ولمّا ذكر لهذا الصبيّ من فصاحة اللسان وبراعة البيان ما ذكر ، وجب علينا أن نذكر من نوادر الولدان فصلاً كافياً يؤنس بما ذكر ، لنلأنخل بما شرطناه ، فقد تروى للولدان نوادر ، ربما عجّزت عنها الكهول ذوو البصائر .

حكى الخطّابيّ أنه قدّم على عمر بن عبد العزيز وفدٌ فيهم شاب ، فتحوَّس للكلام ، فقال عمر : كبرُوا وكبرُوا ، أى ليتكلّم الكبراء منكم ، فقال : الغلام يا أمير المؤمنين ، لو كان [الأمر] بالسنّ لكان في المسلمين من هو أسنُّ منك . قال عمر : صدقت ! تكلم .

فتحوَّس : فتهنّأ للكلام .

وفي رواية : قدّم وفد الحجاز على عمر فقدّموا غلاماً منهم للكلام ، فقال عمر : مهلاً ، ليتكلّم من هو أسنُّ منك ، فقال الغلام : مهلاً يا أمير المؤمنين ، إنّما المرء بأصغريه : قلبه ولسانه ، فإذا منح الله العبد لساناً لفظاً وقلباً حافظاً فقد أجاد له الحليّة . قال : تكلم ، قال : نحن وفود الشكر ، لا وفود المرزئة^(١) ، لم تُقدّمنا إليك رغبة ولا رهبة ، لأننا أُمِنّا في زمانك ماخفنا ، وأدركنا ما طلبنا .

ودخل محمد بن عبد الملك بن صالح على المأمون حين قبضت ضياعهم وهو غلام صغير ، فقال : السّلام عليك يا أمير المؤمنين ، محمد بن عبد الملك ، سليل نعمتك وابن دولتك ، وغصن من أغصان دوحتك ؛ أفتأذن لي في الكلام ؟ قال : نعم . فحمد الله تعالى وصلى على نبيه ، ثم قال : أمتعنا الله بعبادة ديننا ودنيانا ،

(١) رزاء : أصاب منه خيرا .

ورعاية أقصانا وأدانانا ، ببقائك يا أمير المؤمنين ، ونسأله أن يزيد في عمرك من أعمارنا ، وفي أثرك من آثارنا ، ويقيك الأذى بأسماعنا وأبصارنا ، هذا مقام العائذ بظلك ، الهارب إلى كنفك وفضلك ، الفقير إلى رحمتك وعدلك . ثم سأل حوائجه فقضاها .

وقحطت البادية أيام هشام بن عبد الملك ؛ فوفد عليه رهوس القبائل فجلس لهم ، وفيهم صبي^١ ، ابن أربع عشرة سنة ، يسمى درواس بن حبيب ، في رأسه ذؤابة ، وعليه بُرْدَةٌ يمانية . فاستصغره هشام وقال لحاجبه : ما يشاء أحد أن يصل إلينا إلا وصل ، حتى الصبيان ! فقال درواس : يا أمير المؤمنين ، إن دخولي لم يُخلِّ بك ولا انتقصك ، ولكنه شرّفتني ، وإن هؤلاء قدّموا لأمرٍ فهابوك دونه ، وإن الكلام نشر ، والسكوت طي لا يُعرف إلا بنشره ؛ فأعجبه كلامه ، وقال : انشر لا أم لك ! فقال : إنا أصابنا سنون ثلاثة ، فسنة أكلت اللحم ، وسنة أذابت الشحم ، وسنة أنقّت^(١) العظم ، وفي أيديكم فضول أموال ، فإن كانت لله عز وجل فقرّوها على عباده ، وإن كانت لهم فلا تحتبسوها عنهم ، وإن كانت لكم فتصدقوا بها عليهم ؛ فإن الله يجزي المتصدقين ، ولا يضيع أجر المحسنين ؛ وإنّ الوالي من الرعيّة كالروح من الجسد ، لا حياة له إلا به .

فقال هشام : ما ترك الغلام في واحدة من الثلاث عذراً ، وأمر بمائة ألف دينار فقرّرت في أهل البادية ، وأمر له بمائة ألف درهم : فقال : اردّوها في جائزة العرب ، فما لي حاجة في خاصّة نفسى دون عامّة المسلمين .

أحمد بن يحيى : حدّثنى السدرى أن مُبِيراً غزت حنيفة فغنمت ، وتبعتهم حنيفة فهزموهم ، وردّوا غنائمهم ، فلقيت غلاماً منهم ، قتلت : كيف صنع قومك ؟ فقال : تبعوهم والله ، وقد أحقبوا كل بُجاليّة خيفانة ، فما زالوا ينخسفون

(١) انقّت العظم : أخرجت النقي منه . والنقى : مخ العظم .

أخفاف المطىّ بحوافر الخيل حتى لحقوهم بعد ثالثة . فجعلوا المرّان أرشيّة الموت ، فاستقّوا بها أرواحهم .

وهذا كلام فصيح كثير الاستعارة . أحقّوا : أردفوا بموضع الحقيقة ، والجَمالية المرأة الجميلة : وخصف : خرز ، وتشبيه المرّان — وهى الأرماع — بالأرشيّة وهى الحبال حَسَن .

وجلس خالد القسرى يوماً للشعراء على الفرات ، فأنشدوه وأخذوا الجوائز وانصرفوا ، ولم يبق إلاّ غلام ، فقال خالد : يا غلام ، أشاعر أنت ؟ قال : لا ولكنى مُتعلِّم ، وقد قلتُ شيئاً ، قال : هات ، فأنشأ يقول :

ألا هَلْ تَرَى مَوْجَ الْفُرَاتِ كَأَنَّهُ جِبَالَ سُورٍ قَدْ أَتَيْتُكَ عَوَماً
وما ذاك من عاداته غَيْرَ أَنَّهُ رَأَى شَيْعَةً مِنْ جَارِهِ فَتَعَلَّمَا

وكان بَقِيَ على البساط فَضْلة مال ، فقال له خالد : اطوِ البساط بما عليه ، فأخذه الغلام بما عليه .

ورأى بعضُ الملوك غلاماً يسوق حماراً ، وهو يعنّف عليه ، فقال : ارفُق يا غلام ، فقال : أيها الملك ، فى الرفق مضرةٌ عليه ، قال : وما مضرتُه ؟ قال : يطول طريقه ، ويشتدّ جوعه ، وفى العنف عليه إحسانٌ إِلَيْهِ ، يخفّ حمله ، ويطول أكله . فأعجب به ، وقال : قد أمرت لك بألف درهم ، قال : رزقٌ مقدور ، وواهبٌ مأجور . قال : وقد أمرت بإثبات اسمك فى حَشَمِي ، قال : كُفَيْتُ مَثُونَةً ، ورزقتُ بهامعونة ، قال : لولا صفرك لاستوزرتك ، قال : لم يعلم الفضل من رزقِ العقل ، قال : أفتصلح لذلك ؟ قال : إنما يكون الحمد أو الذمّ بعد التجربة ، ولا يعرف الإنسان نفسه حتى يبلوّها ، فاستوزره فوجدّه ذا رأى صائبٍ .

دخل الفرزدق — وهو غلام يافع — على سعيد بن العاص ، وقد أنشد أشعاراً والخطيئة حاضر فأنشده :

ترى الغرّ الجعاجيح من قُرَيْشٍ إذا ما الأمرُ في الحدّثان عالا^(١)
قياماً ينظرون إلى سـميدٍ كأنهم يَرَوْنَ به الهـلالا

فقال الخطيئة : هذا والله الشعر ، لا ما تعلل به نفسك هذا اليوم ، يا غلام أدركت من قبلك ، وسبقت من بعدك ، وإن طال عمرك لتبرّزن ، ثم قال له : هل أنجذت أمك يا غلام ، قال : لا بل أنجد أبي ، فوجده لقينا حاضر الجواب فأعجبته .

وكان للفرزدق نديم يسمى زياداً الأقطع ، فأتى بابه ، فخرجت له بُنْيَة له صغيرة اسمها مكية ، فقال لها : ابنة من أنت ؟ قالت : ابنة الفرزدق ، قال : فما بالك حبشية ؟ قالت : فما بال يدك مقطوعة ؟ قال : قُطعت في حرب الحرورية ، قالت : بل قُطعت في اللوصية ، فقال : عليك وعلى أبيك لعنة الله ، ثم أخبر الفرزدق بالخبر ، فقال : أشهد أنها ابنتي حقاً ، ثم قال :

سام إذا ما كنت محمّية^(٢) بدارميٍّ أمه ضبية^(٣)
* صمخمخٍ مثل أبي مكّية^(٤) *

وقرّع باب عدى بن الرقاع جماعة من الشعراء ، فخرجت إليهم بُنْيَة له صغيرة فقالت : ما تريدون من أبي ؟ فقالوا : جئنا لنهاجيه ، فقالت :

تجمّعتم من كلّ أوبٍ ووجهية على واحدٍ لازلتُم قرنَ واحدٍ^(٥)

(١) ديوانه ٦١٨ . عال : انتل ، وفي الديوان : « لا »

(٢) ديوانه ٨٨٥ ، وفيه : « شاهد » ، بدل : « سام »

(٣) « صفة » وما أثبتته من الديوان .

(٤) الصمخ : الشديد الخلق والالواح .

(٥) الخبر والشعر في الأغاني ٩ : ٣١٠

فأنحمتهم ، ورجعوا بأخرى حالة .

وقال معاوية لعمر بن سعيد وهو صغير : إلى مَنْ أوصى بك أبوك ؟
 فقال : إنَّ أبى أوصى إلى ولم يوصِ بى . أخذهم بعضهم فقال :

وكنْتُ النجيب لدى ناجلي فأوصى إلى ولم يوصِ بى
 قال يحيى بن يزيد : استنشدتُ غلاماً ، فأنشدنى أرجوزة ، فقلت : لمن هذه ؟
 فقال : لى . فزجزته فأنشأ يقول :

إنى وإن كنتُ صغير السنِّ وكان فى العين نُبوٌّ عني
 فإنَّ شيطاني أميرُ الجنِّ يذهب بى فى القول كلَّ فنِّ

الأصمعى رحمه الله : قال وقف على غلام بحمى ضريبة ، ما ظننته يجمع بين
 كلمتين ، فقلت له : ما اسمك ؟ قال : حُرَيْقِص ، فقلت له : ما كفى أهلك أن سموك
 حرقوصاً حتى صفروا اسمك ! فقال : إن السَّقَط ليحرق الحرجة ، فعجبت من
 جوابه ، فقلت : أنشد شيئاً من أشعار قومك ؟ قال : نعم أشد لمرارنا :

سكنوا شُبَيْثاً والأحصَّ فأصبحت نزلت منازلهم بنو دُبْيَانِ
 وإذا يقال أنيتُم لم يبرحوا حتى تقيم الخيل سوق طِعَانِ
 وإذا فلان مات عن أكرومة رنعوا معاوزَ فقيرِه لفلانِ

قال : فكادت الأرض تسوخ لحسن إنشاده وجودة الشعر ، فحدثت
 الرشيد الحديث فقال : وددتُ يا أصمعى لو رأيتُ هذا الغلام ، فكنت أبلغه
 أعلى المراتب ^(١) . فهذا الغلام مُتَمَّى بمحقير مصغر ، وهو فى معناه جليل معظم .

ويُنظر إلى هذا من باب الضدِّ ما حدث أبو العباس عن الرياشي عن
 الأصمعى ، قال : مرَّ بنا أعرابيٌّ ، وهو ينشد ابناً له ، فقلت له : صِفْه ، فقال :
 ديمرى ، قلنا : لم نره ، فلم نلبث أن جاء بِجُعَلٍ على عنقه ، قلنا له : لو سألت
 عن هذا لأرشدناك ، ما زال هذا اليوم بين أيدينا .

(١) الخبر فى إمامى العالى ١ : ٦٦ .

(م ٣ — شرح مفاتيح الحيرى ج ٥)

الأصمعيّ: قيل لأبي المِخْش: أما كان لك ابن؟ فقال: المِخْش، قيل: وما كان المِخْش؟ قال: أشدق خُرْطائيًا، إذا تكلم سال إمامه، كأننا ينظر من فلسين، وكان ترقوته بوان أو خالفة^(١)، وكان مشاش منكبيه كركرة جل؛ فقال الله عينيّ هاتين إن كنت رأيت أحسن منه قبله أو بعده، وأنشد:

نعم ضجيع الفتى إذا برد الليل سحيراً وقرقف الصرِدُ
زيّنها الله في الفؤاد كما زيّ في عين والدٍ ولد

وقال أبو المِخْش: كانت لي ابنة تجلس معي على المائدة فتبرز كفاً كأنها طَّلعة، في ذراع كأنها جمارة، فلا تقع عينها على أكلة نفيسة إلّا خصّنتي بها، فزوّجتها، وصار يجلس معي على المائدة ابن لي، فيبرز كفاً كأنها الكرنافة، في ذراع كأنها سباطة، فلا تقع عيني على أكلة نفيسة إلّا سبقت يده إليها قبل.

- الحش: الذي ينخش في القوم، يدخل معهم وهم يأكلون، وأراد بمثل الفلّسّين عور عينيّه. وقيل خُفرتهما. خُرْطائيًا: طويل الأنف، وسيلان اللعاب يدلّ على قوة النفس. البوان: عمود في مقدّم البيت، والكرنافة: طرف الكرب العريض المتصل بالنخلة كأنها كتف -

اليزيدي: أوّل ما ظهر من نجابة المأمون وسداده أني كنت أودّبه فوجّهت إليه يوماً ليخرج، فأبطأ، فقلت لسعيد الجوهريّ وهو في خُجْرة: إن هذا الفتى قد اشتغل بالبطالة، فقال سعيد: قومّه بالأدب، فلما خرج ضربته ثلاث دررٍ، فإنه ليبيكي إذا بجعفر بن يحيى قد استأذن عليه، فوثب إلى فراشه مسرعاً، وهو يمسح عينيّه، فجلس ثم قال: ليدخل، فدخل، فقامت من المجلس وخشيت أن يشكوني إلى جعفر، فألقى منه ما أكره، فأقبل عليه بوجهٍ طلق وحادثه وضاحكه، فلما هم بالحركة قال: يا غلام، دابته، ورجعت. فقال: ما حملك أن

(١) الخالفة: عمود من أعمدة البيت.

قمت عنا ! قلت : خفت أن تشكوني إليه فيوبتخي ، فقال : إنا لله يا أبا محمد !
ما كنت أطلع الرشيد على هذا ، فكيف أطلع جعفرأ على أني أحتاج إلى أدب !
يفغر الله لك . فكنت أهابه بعد ذلك .

وشكى إلى معلم عبد الرحمن بن حسان بصبيان ، فضربهم حتى انتهى إلى
عبد الرحمن ، فهدده فقال :

الله يعلم أني كنت معتزلاً في دار حسان أصادد اليعاسيبا
فتركه . وبلغ حسان ، فضمه إليه وقال : أنت والله ابني حقاً فذاك
أبي وأمي !

ودخل عليه يوماً يبكي من لسعة زنبور ، فقال له : ما يبكيك ؟ فقال :
لسعني طائر كأنه ملتف في بُردَي حَبْرَة ، فقال : قلت والله يا بُني الشعر .
وجاءت سكينه بنت الحسين أمها الرباب وهي تبكي ، فقالت : مالك ؟
فقالت : مَرَبْتُ بِي طَوِيرَة فَلَاسَعَتْنِي بِأَيْرَة .

ويروى : مَرَّتْ بِي دُبَيْرَة ، تصغير دَبْرَة وهي النخلة .

* * *

قوله : اللجى : البحر . شواظ : لهب النار . والكهانة : بالكسر : حرفة
الكاهن ، وبالفتح فعل الكاهن ، وهو المصدر ، والكاهن : الخبر بالغيب .
وافتر : تبسم . متضاحك : مستعمل الضحك . مُمَاحِك : لجوج ، أى
مشى غير غاضب .

احفظها عني ، أى حَصَلْهَا وَعِيَهَا . وعلى ، أى اكتمها واسترها ، وقامت
الواو مقام تكرير الفعل . اصرف : أزل وَخَّ . صِرَف الراح : خالص الخمر .
الأسى : الحزن . تكتئب : تهتم وتحزن . قَدْكَ : حسبك . اتئب : ارتجع وكف .

وقيل: معناه استعجى، يقال منه: وأبّ واتّاب، أى خزى واستحيا والآبة والمؤبة: الخزى والحياء والالتباس، وأوأبه واستأبه: رده بخزى وعار، والتاء فيها مبدلة من واو، فأصل اتّاب أوّتاب فأبدلت الواو تاء وأدغمت فى التاء بعدها، وهى من وأب الحافر يئب وأباً إذا انضم. وحافر وأب، أى خفيف، والتوبة مأخوذة من أتأب: وقال حبيب:

قَدْ أَتَيْتُ أَرَيْتُ فِي الْعُلَا كَمْ تَعْدِلُونَ وَأَنْتُمْ شَجَوِي

فهذا يبين لك موقعها فى المقامة .

وعلى قوله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ ^(١)، قال: أنس: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « مررت برجال ليلة أُمرى بى، تُقرض شفاههم وألسنتهم بمقاريض من نار، فقلت: مَنْ هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الخطباء من أمتك الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم. »

أبو أمانة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم يُجرّون قصبهم فى نار جهنم، فيقال لهم: مَنْ أنتم؟ فيقولون: نحن الذين كنّا نأمر بالبر وننسى أنفسنا. »

قال أبو العتاهية فى منصور بن عمار وكأنّه يخاطب واعظ المقامة:

يا واعظ الناس قد أصبحت متهمًا إذ عبت منهم أموراً كنت تأتيها
كاللبس الثوب من عري وعورته للناس بادية ما إن يوارىها
وأعظم الأمر بعد الشرك تعلمه فى كلّ نفس عماها عن مساويها
عرفانها بعيوب الناس تبصرها منهم ولا تبصر العيب الذى فيها

ومن لزوميات المعرى :

رُؤْيُكَ قَدْ خُدِغَتْ وَأَنْتَ كَهْلٌ بصاحب حيلة يعظ النساء^(١)
يَحْرَمُ فِيكُمْ الصَّبَاءُ صُبْحًا ويشربها على عند مساء^(٢)
يَقُولُ لَكُمْ : غَدَوْتُ بِلا كِسَاءِ وفي لذاتها رَهَنَ الكِسَاءِ
إِذَا فَعَلَ الْفَتَى مَا عَنْهُ يَنْهَى فمن جهتين لا جهة أساء

[من الخمریات]

ونذكر هنا من الآيات الخمریات ما يأتي على معنى البيتین اللذين أنشد ،

قال الحسن :

ما مثل هذا اليوم في حسنه عطل من لمور ولا ضيعة^(٣)
هل لك أن تغدو على قهوة تسرع في المرء إذا أسرعا
ما وجد الناس ولا جربوا اللهم شيئاً مثلها مدقعا
وله أيضاً :

حَلَبْتُ لِأَصْحَابِي بِهَا دِرَّةَ الصَّبَا بصفراء من ماء الكروم شمول^(٤)
إِذَا مَا أَنْتَ دُونَ اللَّهِامَةِ مِنَ الْفَتَى دعا همهم من صدره برحيل
وله :

دَعِ ذَا فَدَيْتُكَ وَاشْرَبْهَا مَعْتَقَةً صفراء تعبق بين الماء والزبد^(٥)

(١) اللزوميات ٥١

(٢) بعده في اللزوميات :

تَحَسَّاهَا فَمِنْ مَرْجٍ وَصِرْفٍ يعقل كأنما ورَدَ الحساء

(٣) ديوانه ٣٠٣ ، وفيه : « لم أر مثل اليوم في حسنه » .

(٤) ديوانه ٣١٠ وفيه : « بصهباء » .

(٥) ديوانه ٢٢٧ ، وفيه :

* صفراء تفرق بين الروح والجسد *

من كفّ مختصر الزّئار معتدل كفنن بانٍ ثنّى غير ذى أود^(١)
لو كان لومك نصحاً كنت أقبه لكنّ لومك محمول على الحسد
وقال الصّابي :

كوكبُ الإصباح لاحاً طالعا والدّيك صاحاً^(٢)
فاستقنيتها قهوةً نأ سؤ من الهمّ جراحاً
ذاتَ نشرٍ كنسيم الرّوض غبّ القطر فاحاً
يا غلامى ما أرى فيك ولا فيها جناحاً
وله من أبيات يصف فيها مجلس شراب :

كان الكئوس بأيدي الشّقاة سيوفٌ لها بالدماء احمرار^(٣)
كان تسكّابها في الزّجاج حريق لها من حُبابٍ شرار
فلما برزن إلى الهمّ فيه ولي بالشرور عليه اقتدار
جرى الضربُ مختلفاً بيننا فأت وعشتُ وقد نيل نار
وقال أبو بكر البلوى :

ومدام كست الكأ س من النور وشاحاً
ظَهَرَتْ في جُنحِ ليلٍ فكانَ الفجر لاحاً
لم يكن وقتَ صباحٍ فحسبناه صباحاً

وقال أبو بكر الخالدي :

ما عذّرنا في تركنا الأعنابا سقط الندى وصفاً الهواء وطاباً^(٤)
فأدِمْ لذاة عيشنا بمُدَامَةٍ زادت على هَرَمِ الزّمانِ شبّاباً

(١) في الديوان

من كفّ مضطمر الزّئاد معتدل كان غصن بانٍ غير ذى أود

(٢) البيتية ٢ : ٢٢٦

(٣) البيتية ٢ : ٢٢٧

(٤) ديوانه ١١٦

سَفَرْتُ وَغَابَ حَبَابُهَا مِنْ لُحْظِهَا فَعَلَا مُحَاسِنَهَا فَصَارَ نِقَابًا
ولابن المعتز :

ونارٍ قد حنَّها سِرَاعًا بِسُحْرَةٍ متى ما يُرَقِّقْ مَاءٌ عَلَيْهَا تَوَقَّدَ
يجولُ حَبَابُ الْمَاءِ فِي جَنَابِهَا كما جال دمعٌ فوق خدٍّ مُورَدٍّ

* * *

ثم قال : أما أنا فساأنطلق ، إلى حيث أصطبح وأغتبق ؛ وإذا
كنت لا تصعب ، وَلَا تَلَامُ مَنْ يَطْرُبُ ؛ فَلَسْتُ لِي بِرَفِيقٍ ،
وَلَا طَرِيقَكَ لِي بِطَرِيقٍ ؛ نَحْلُ سَبِيلِي وَنَكَبُ ، وَلَا تَنْقُرُ عَنِّي وَلَا
تَنْقُبُ ؛ ثُمَّ وَلَّى مُذْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ .

قال الحارث همام : فَالْتَهَيْتُ وَجَدَّ عِنْدَ انْطِلَاقِهِ ، وَوَدِدْتُ لَوْ لَمْ أَلَاقِهِ .

* * *

قوله : أصطبح ، أشرب صَبُوحًا وهو شُرْبُ الْعُدْوِ . وأغتبق : أشرب
غَبُوقًا ، وهو شُرْبُ الْعَشِيِّ . تَلَامُ : تَوَافِقُ . نَكَبُ : تَنَحَّ عَنْ طَرِيقٍ وَاجْعَلْهُ لُجَّةً
مِنْكَ . تَنْقُرُ وَتَنْقُبُ : تَبْحَثُ وَتَنْقُشُ ، وَقَدْ نَقَرْتُ عَنْ الْأَمْرِ إِذَا طَلَبْتَ عِلْمَ بَاطِنِهِ
وَنَقَبْتُ عَنْهُ ، إِذَا بَحَثْتَ عَلَيْهِ بَطْنَكَ حَتَّى تَسْتَخْرِجَ سِرَّهُ ، وَفُلَانٌ نَقَابٌ ، أَيْ
فِطْنٌ ذَكِيٌّ يَحْدِثُ بِالْغَائِبِ ، وَالتَّغْتِيبُ فِي الْبِلَادِ : تَطْلُعُ أَحْوَالِ أَهْلِهَا وَتَجْرِبُ
أُمُورِهِمْ . وَلَّى : أَدْبَرَ ، وَتَرَكَ طَرِيقَهُ الَّذِي كَانَ يَسْتَقْبِلُهُ . يُعَقِّبُ : يَنْظُرُ . وَالْوَجْدُ :
الْحُزْنُ . وَالتَّهَيْتُ . اشْتَعَلْتُ . وَوَدِدْتُ : تَمَنَّيْتُ .

ومما قيل في ترك الوداع :

صدَّني عن حلاوة التشيع اجتنابى سمرارة التوديع
لا يني أنسُ ذا بوحشة هذا فرأيت الصَّوَابَ تَرَكَ الْجَمِيعَ

المقامة الثانية والأربعون وهي النجراتية

حكى الحارث بن همام قال : تَرَامَتْ بِي مَرَامِي النَّوَى ،
وَمَسَارِي الْهُوَى ؛ إِلَى أَنَّ صِرْتُ ابْنَ كُلِّ تَرْبَةٍ ، وَأَخَا كُلِّ غُرْبَةٍ ؛
إِلَّا أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَقْطَعُ وَادِيًا ، وَلَا أَشْهَدُ نَادِيًا ؛ إِلَّا لَاقْتِبَاسِ الْأَدَبِ
الْمُسْلِي عَنْ الْأَشْجَانِ ، الْمَغْلِي قِيَمَةَ الْإِنْسَانِ ؛ حَتَّى عُرِفْتُ لِي هَذِهِ
السَّنَشْنَةُ ، وَتَنَاقَلَتْهَا عَنِّي الْأَلْسِنَةُ ، وَصَارَتْ أَعْلَقَتْ بِي مِنَ الْهُوَى بَيْنِي
عُذْرَةً ، وَالشَّجَاعَةَ بِأَلِ صُفْرَةٍ .

* * *

ترامت بي : رميتني هذه إلى هذه وهذه إلى هذه . والمرامى : المواضع التي
ترميه . والمسارى : مواضع الشرى ، وهو سير الليل ، وهو جمع مرمى ومسرى ،
ويكون المرمى والمسرى مصدرين . والنوى : الغربة والبعد عن الأهل ،
أراد أن البلاد والجهات ترميه بلدة إلى بلدة ، وجهة إلى جهة ، فهو أبدأ في
الجولان . وابن كل تربة ، أى ينسب لكل بلدة لكثرة ما يظهر فيها .
نادياً : مجلساً . الاقتباس : الاكتساب . المسلى : المذهب للهيم ، وتسليت
عن الهم : نسيته . والأشجان : الأحزان ، وقد تقدم شرح هذه المعاني وتكرّر .
السَّنَشْنَةُ : الطبيعية . أعلق : ألصق .

[ذكر بنى عذرة ونواديرهم وأشعارهم]

وبنو عذرة : قبيلة معروفة من قبائل العرب ، وهم أولاد عذرة بن سعد بن
هذيم بن زيد بن ليث بن سويد بن أسلم بن الحاف بن قضاة .
الفنجدية : عذرة قبيلة من العرب ، يستأذنون مرارة العشق مثل الضرب ،

جُبِلَتِ المحبة في طينتهم، وجُنِيَتِ المودة من لينتهم، وصار الهوى وصفهم الذي لا ينفك، ورهائن قلوبهم من حرارات الشوق لا تُفك، استأرهم العشق أسراً، واستأصلهم الحب قهراً وقسراً؛ فمنهم من يموت من أوام غرامه، ومنهم من يموت بهيام سقامه .

ومن مشاهيرهم جَمِيل بن عبد الله بن مَعْمَر العُذْرِيّ صاحب بئنة بنت عبد الله العُذْرِيّة ، وعروة بن حزام صاحب عفراء بنت مالك العذريّين .

وقال : سعيد بن عتبة الهمدانيّ : قلت لأعرابيٍّ : بمن أنت ؟ قال : من قومٍ إذا عشقوا ماتوا ، قلت : عُذْرِيّ ؟ قال : عُذْرِيّ وربّ الكعبة ، قلت : وممّ ذاك ؟ قال : لأنّ في نساءنا صباحة ، وفي فتياتنا عفة .

وسئل أعرابيٌّ منهم قهيل له : ما حدّ الحب عندكم ؟ فقال : أعينٌ تتلاحظ وألسنٌ تتلاطف ، وعيّداتٌ تتفصّي ، وإشاراتٌ تدل على السخط والرضا . قيل له : فالباضعة ؟ قال : ذلك طلب الولد ، الحبّ إذا نكح فسد .

سفیان بن زیاد : قلت لامرأة من عُذرة - ورأيت بها هوى غالباً حتى خفت عليها الموت : ما بال العشق يقتلكم معاشرَ عُذرة من بين أحياء العرب ؟ قالت : فينا جمال وتعفّف ، فالجمال يحملنا على العفاف به ، والعفاف يورثنا رقة القلب ، والعشق يفني آجالنا ، وإنا نرى محاجرَ لا ترونها .

أبو عمر بن العلاء : حدّثني رجل من تميم ، قال : خرجت في طلب ضالّة لي ، فبينما أنا أدور في أرض بني عُذرة أنشدّها، إذاً بيت منعزل عن البيوت، وفي كسرِهِ شابٌّ مغمّي عليه، وعند رأسه مجوز بها بقية جمال، ساهمة تنظر إليه، فسلمت عليها ، فردّت السلام ، فسألتها عن ضالّتي فلم تعلم بها ، فقلت : من هذا الفتى ؟ فقالت : ابني ، فهل لك في أجرٍ لا مؤنة فيه ؟ فقلت : والله إني أحبُّ الأجر وإن رُزيت ، فقالت : إن ابني هذا يهوى ابنة عمِّ له، علقتها وهما صغيران، فلما

كَبُرَتْ خَطْبَهَا غَيْرُهُ ، فَأَخَذَهُ شَبِيهَ الْجَنُونِ ، نَخَطَبُهَا إِلَى أَيْبِهَا ، فَفَنَعَهُ وَزَوَّجَهَا غَيْرَهُ ،
فَنَحَلَ جِسْمَهُ وَاصْفَرَ لَوْنَهُ ، وَذَهَبَ عَقْلُهُ ، فَلَمَّا كَانَ مِنْذُ خَمْسِ زَفَّتْ إِلَى زَوْجِهَا ،
فَهُوَ كَمَا تَرَى مَغْمَى عَلَيْهِ ، لَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ ، فَلَوْ نَزَلَتْ إِلَيْهِ فَوَعظَتْهُ ! قَالَ :
فَنَزَلَتْ إِلَيْهِ فَلَمْ أَدْعُ مَوْعِظَةً إِلَّا وَعَظْتُه بِهَا ، حَتَّى قُلْتُ لَهُ : إِنَّهُنَّ الْغَوَانِي صَاحِبَاتُ
يُوسُفَ ، النَّاقِضَاتُ الْعَهْدَ ، وَقَدْ قَالَ فِيهِنَّ كَثِيرٌ :

هَلْ وَصَلُ عَزَّةٌ إِلَّا وَصَلُ غَانِيَةٍ فِي وَصَلِ غَانِيَةٍ مِنْ وَصَلِهَا خَلْفُ^(١)
قَالَ : فَرَفَعَ رَأْسَهُ مُحَمَّرَةً عَيْنَاهُ كَالْمَغْضَبِ ، وَهُوَ يَقُولُ : لَسْتُ ككَثِيرٍ ،
إِنْ كَثِيرٌ أَرَجُلٌ مَائِقٌ ، وَأَنَا وَامِقٌ ، وَلَكِنِّي كَأَخِي تَيْمٍ حَيْثُ يَقُولُ :
أَلَا لَا يَضُرَّ الْحُبَّ مَنْ كَانَ صَابِرًا وَلَكِنَّ مَا اجْتَابَ الْقَوَادِ يَضِيرُ
أَلَا قَاتَلَ اللَّهُ الْهُوَى كَيْفَ قَادِنِي كَمَا قَيْدَ مَغْلُولِ الْيَدَيْنِ أَسِيرُ
قُلْتُ لَهُ : فَإِنَّهُ قَدْ جَاءَ عَنْ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « مَنْ أُصِيبَ
مِنْكُمْ بِمَصِيبَةٍ فَلْيَذْكُرْ مَصَابِيهَ بِي » ، فَأَنْشَأَ يَقُولُ :

أَلَا مَا لِلْمَلِيحَةِ لَمْ تَعُدْنِي أَبْخُلُ بِالْمَلِيحَةِ أَمْ صَدُودُ !
مَرَضْتُ فَعَادَنِي أَهْلِي جَمِيعًا فَمَا لَكَ لَمْ تُرَى فِيمَنْ يَعُودُ !
قَدَدْتُكَ يَنْهَمُ فَبَكَيْتَ شَوْقًا وَقَدْ الْإِلْفُ يَا أُمْلِي شَدِيدُ
وَمَا اسْتَبْطَأْتُ غَيْرَكَ فَاعْلَمِيهِ وَحَوْلِي مِنْ ذَوِي رَحْمِي عَدِيدُ
وَلَوْ كُنْتُ الْمَرِيضَ لَكُنْتُ أَسْعَى إِلَيْكَ وَمَا يَهْدِدُنِي الْوَعِيدُ

ثُمَّ شَهَقَ شَهْقَةً ، وَخَفَتْ خَفْتَهُ ، فَدَاخَلَنِي أَمْرٌ مَا دَاخَلَنِي مِثْلُهُ قَطُّ ، وَالْعَجُوزُ
تَبَكَّى ، فَلَمَّا رَأَتْ مَا حَلَّ بِي قَالَتْ : يَا فَتَى ، لَا تُرْعَ ؛ مَاتَ اللَّهُ وَلَدِي بِأَجَلِهِ ،
وَاسْتَرَاخَ مِنْ تَبَارِيحِهِ وَغُصَصِهِ ، فَهَلْ لَكَ فِي اسْتِكْمَالِ الصَّنِيعَةِ ؟ قُلْتُ : قَوْلِي

(١) ملحق ديوانه . ٥٥٥ .

ما أحبت ، قالت : تأتي البيوت فتنعاه إليهم ، ليعاونوني على رُمسِه ، فإنِّي وحيدة ، فركبتُ فرسي ، وأتيت البيوت ، رافعاً صوتي بنعيه ، فلم ألبث أن خرجت لي جارية ، أجلُّ ما رأيت من النساء ، ناشرةً شعرها ، حديثة عهد بمرس ، تقول : بفيك الحجر المصمت ! مَنْ تَنعَى ؟ قلت : أنعى فلاناً ، قالت : أو قد مات ! قلت : إى والله قد مات . قالت : فهل سمعت له قولاً ؟ قلت : اللهم شعراً ، قالت : وما هو ؟ فأنشدتها أبياته ، فاستعبرت وأنشأت تقول :

عَدَّابِي أَنْ أَزورك يا مُرادى معاشرُ كلُّهم واشٍ حسودُ
أشاعوا ما علمت من الدَّواهى وعابونا وما فيهم رشيدُ
فأما إذ ثوبتَ اليومَ لحدٍّ وكلُّ الناس دورهم لحودُ
فلا طابت لى الدنيا فُواقاً^(١) ولا لهم ولا أثرى العديدُ

ثم شهقت شهقة ، فوقعت مغشياً عليها ، وخرجت النساء من البيوت فاضطربت ساعة ، وماتت .

فوالله ما برحتُ حتى دفنتُهما جميعاً^(٢) .

هشام بن عروة : أذن معاوية للناس يوماً فكان فيمن دخل عليه فتى من بنى عُذرة ، فقام بين السَّماطين وأنشأ يقول :

أَتَيْتَكَ لَمَّا ضَاقَ فِي الْأَرْضِ مَسْلِكِي وَأُنْكِرْتُ مِمَّا قَدْ أُصِيبْتُ بِهِ عَمَلِي
فَقَرَّجَ كَلَاكُ اللَّهِ عَنِّي فَأَتَيْتُ لَقِيتُ الَّذِي لَمْ يَلْقَهُ أَحَدٌ قَبْلِي
وَحَذَلِي هَذَاكَ اللَّهُ حَقِّي مِنَ الَّذِي رَمَانِي بِسَهْمٍ كَانَ أَهْوَنُهُ قَتْلِي
وَكُنْتُ أَرْجَى عَدْلَهُ إِذْ أَتَيْتُهُ

فَأَكْثَرَ تَرَدَادِي مَعَ الْحَبْسِ وَالْكَبْلِ
فَطَلَّقْتُهَا مِنْ جُهْدٍ مَا قَدْ أَصَابَنِي فَهَلْ ذَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْعَدْلِ !

(١) الفواق : الوقت بين الحلبتين .

(٢) الخبر والشعر في كتاب ذم الهوى لابن الجوزى ٥٠٤ هـ - ٥٠٦ هـ .

فقال له معاوية : اذنُ بارك الله عليك ، ما خطبك ؟ قال : أطال الله بقاء
 أمير المؤمنين ، إني رجل من بني عُذرة ، تزوّجتُ ابنة عمّ لي . وكانت لي
 صِرمَةٌ^(١) من الإبل وشويهات ، فأفقت ذلك عليها ، فلما أصابتنى نائبات
 الزمان وحادثات الدهر رغب عني أبوها . وكانت جاريةً منها الحياء والكرم ،
 فكرهتُ مخالفةً أبيها . فأنتيت عاملك عبد الرحمن بن أم الحكم فذكرتُ ذلك
 له . وبلغه جمالها ، فأعطى أباه عشرة آلاف درهم وتزوّجها ، وأخذني فخبسني ،
 وضيق عليّ ، فلما أصابني مسُّ الحديد وألم العذاب طَلَّقَتْها ، وقد أتيتك يا أمير
 المؤمنين ، وأنت غياث المحروب ، ومعيد المسلوب ، فهل من فرَج ؟ ثم بكى
 وهو يقول :

في القلب مِنِّي نَارُ	والنَّار فيها شرارُ
وفي فؤادي جمرٌ	والجر فيه احمرارُ
والجسم مِنِّي نحيلٌ	واللون فيه اصفرارُ
والعين تبكي بِشَجْوٍ	فدمعها مِـدْرَارُ
والحبّ داء عسيرٌ	فيه الطيب يَحَارُ
حملتُ منه عظيمًا	فما عليه اضطبارُ
فليس لي ليلًا	ولا نهاري نَهَارُ

فرّق معاوية له ؛ وكتب إلى ابن أم الحكم كتاباً غليظاً وفي آخره :
 ركبْتَ أَمْرًا عَظِيمًا لست أعرفهُ أَسْتَغْفِرُ اللهَ من جَوْرِ امرئ زَانِي
 قد كنت تُشَبِّه صوفيًّا له كتب من الفرائض أو آياتِ فرقانِ
 حتى آتاني الفتى العذرى منتحِبًا يشكو إليّ بحقٍّ غيرِ بُهْتَانِ
 أعطى الإله عهدًا لا أخيس بها أولا فبرئت من ديني وأيمانِي

(١) الصرمة : الجماعة من الإبل ما بين العشرين والثلاثين .

إِنْ أَنْتِ رَاجَعْتَنِي فِيمَا كَتَبْتُ بِهِ لِأَجْعَلَنَّكَ لِحْمًا بَيْنَ عِقْبَانٍ
طَلَّقَ سَعَادٌ وَفَارَقَهَا بِمَجْتَمَعٍ

وَأَشْهَدُ عَلَى ذَاكَ نَصْرًا وَابْنَ خُطْبَيَانَ
فَمَا سَمِعْتُ كَمَا خُذْتُ مِنْ عَجَبٍ وَلَا فَعَالُكَ حَقًّا فَعَلَ إِنْسَانٍ

فلما ورد الكتاب على ابن أم الحكم ، تنفس الضَّعْدَاءُ ، وقال : وددت
لو أن أمير المؤمنين خَلَّى يَدَيَّ وَيَنْهَا سَنَةً ، ثم عرض على السيف ، وجعل يُؤامر
نفسه في طلاقها فلم يَقْدِرْ ، فلما أَرَجَّحَهُ الْوَفْدَ طَلَّقَهَا ثم قال : يا سعاد اخْرُجِي ،
نَخَرَجْتَ شَكْلَةً غَنِيَّةً ذَاتَ هَيْئَةٍ وَجَمَالٍ ، فَلَمَّا رَأَاهَا الْوَفْدُ قَالُوا : مَا تَصَاحُ هَذِهِ
إِلَّا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لَا لِأَعْرَابِيٍّ ، وكتب الجواب :

لَا تَحْنَنَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَدْ أَوْفَى بِعَهْدِكَ فِي رَفَقٍ وَإِحْسَانٍ
فَمَا رَكِبْتُ حَرَامًا حِينَ أَعْجَبَنِي فَكَيْفَ مُنِّمْتُ بِاسْمِ الْخَائِنِ الزَّانِي !
فَسَوْفَ تَأْتِيكَ شَمْسٌ لَا خِفَاءَ بِهَا أَبْهَى الْبَرِيَّةِ مِنْ أَنْسٍ وَمِنْ بَلَّانٍ
حَوْرَاءٍ يَقْصُرُ عَنْهَا الْوَصْفُ إِذْ وَصِفَتْ

أَقُولُ ذَلِكَ فِي سِرٍّ وَإِعْلَانٍ

فلما وردت على معاوية ، قال : إِنْ كَانَتْ أُعْطِيتُ حَسَنَ النِّعْمَةِ مَعَ هَذِهِ
الْصِّفَةِ ، فَهِيَ أَكْمَلُ الْبَرِيَّةِ ، فَاسْتَنْطَقَهَا ، فَإِذَا هِيَ أَحْسَنُ النَّاسِ كَلَامًا ، وَأَكْمَلُهُمْ
شَكْلًا وَدَلًّا ، فَقَالَ : يَا أَعْرَابِيَّ ، هَلْ مِنْ سُؤْلٍ عَنْهَا بِأَفْضَلِ الرِّغْبَةِ ؟ قَالَ : نَعَمْ
إِذَا فَرَّقْتَ بَيْنَ رَأْسِي وَجَسَدِي ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ :

لَا تَجْمَعَلَنِي وَالْأَمْثَالَ تُضْرَبُ بِي كَالسَّنَجِيرِ مِنَ الرَّمْضَاءِ بِالنَّارِ
أَرْدَدَ سَعَادًا عَلَى حَيْرَانَ مَكْتُبٍ يُبْنِي وَيَصْبِحُ فِي هَمٍّ وَتَذْكَارٍ
قَدْ شَفَّهَ قَلْقُ مَا مَثَلَهُ قَلْقُ وَأَسْعَرَ الْقَلْبُ مِنْهُ أَيْ إِسْعَارٍ
وَاللَّهُ وَاللَّهُ لَا أَنْسَى مُحِبَّهَا حَتَّى أَغْيِبَ فِي رَمْسٍ وَأَحْجَارِ

كيف السلو وقد هام الفؤاد بها وأصبح القلب عنها غير صَبَّارٍ
فغضب معاوية غضباً شديداً ، ثم قال لها : اختارى مَنْ شئت ، أنا
أو ابن أم الحكم أو الأعرابي ؛ فأنشأت تقول :

هذا وإن أصبح في أطمارٍ أو كان في بعضٍ من البسار
أكبرُ عندي من أبي وجارى وصاحب الدرهم والدينار
* أخشى إذا غدرتُ حرَّ النار *

فقال له معاوية : خذها لا بارك الله لك فيها ، فأخذها وأنشأ يقول :

خَلُّوا عن الطريق للأعرابي ألم ترقوا ويحكمُ لما بي !
فضحك معاوية وأمر له بعشرة آلاف درهم ، وأدخلت لبعض قصوره
حتى انقضت عِدَّتُها من ابن أم الحكم ، ثم دفعها للأعرابي^(١) .

وقال بعضهم : كنت سائراً في بلاد عُذرة فوجتُ بعضَ أوديتهم وإذا
شابٌ حسنُ الوجه ، بيده زمام ناقة ، عليها هودجٌ مسجفٌ^(٢) ، به جارية ، ومن
وراء الناقة خمس قلائص^(٣) ، وقد رفع عقيرته ينشد ويقول :

ته كيف شئت وسِرْ على مهلٍ كلُّ الجمال عليك يا بجلُ
على أنكَ لا ترى كَلَّلاً ما دام فوقك هذه الكِلَالُ

فسلمتُ عليه ، فردَّ ، وسألته وسألني وتناشدنا ، واتصل الأنس بيننا ، وسرنا
غير قليل ، فرأى قانصاً في أحبولة ظبيٍّ ، فلما رآه يضطرب في الأحبولة أجْهِشَ
بالبكاء ، وأنشأ يقول :

وذكرني مَنْ لا أبوحُ بحُبِّهِ محاجرَ ظبيٍّ في حبالِ قانِصٍ

(١) الخبر والشعر في كتاب نهاية العرب ٢ : ١٥٦ - ١٥٩

(٢) اليهودج : مركب للنساء . ومسجف ، عليه مسبحان وهو الستر ■

(٣) القلائص من الابل : الشلابة

قُلْتُ وَجَفَنُ الْعَيْنِ يَجْرِي بِعَبْرَةٍ ولحظي إلى عينيه لحظة شاخص
ألا أيُّ هذا القانص الظبي خَلَّهُ وخذ عَوْضاً منه جِوَادَ قَلَائِصِي
خَفِ اللَّهُ لَا تَجْبِسْهُ إِنْ شَبِيبَهُ حَيَاتِي قَدْ أَرَعِدَتْ مِنْهُ فَرَائِصِي

فقال القانص: الله إن فعلت؟ قال: الله، فأرسل الظبي، واستاق القلائص.
وحدث رجل من بني عذرة قال: كان فينا فتى ظريف غزل، كثيراً
ما يتحدث إلى النساء، فهو يَ جارية من الحي، فراسلها فأظهرت له جفوة،
فوقع مضني مُدَنِّغاً وظهر أمره، وتبين دَنَفُهُ، ولم يزل النساء من أهلها وأهله
يكلنَّ منها فيه، حتى أجابت، فسارت إليه عائدةً ومسلَّمةً، فلما نظر إليها تحدّرت
عيناه بالدموع، وأنشأ يقول:

أرَيْتُكَ إِنْ مَرَّتْ عَلَيْكَ جَنَازَتِي تروح بها أَيْدٍ طَوَالَ وَتَسْرِعُ
أَمَا تَتَّبَعِينَ النَّعْشَ حَتَّى تَسْلَى على رَمْسٍ مَيِّتٍ بِالْخَفِيرَةِ يُودَعُ!

فبكت رحة، وقالت: والله ما ظننت أن الأمر بلغ بك هذا، فوالله
لأساعدنك ولأداو من على وصالك، فهملت عيناه بالدموع، وأنشأ يقول:

دَنَتْ وَظِلَالُ الْمَوْتِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا وَمَنْتُ بِوَصْلٍ حَيْثُ لَا يَنْفَعُ الْوَصْلُ

ثم شهِقَ شهقةً فخرجت نفسه، قال: فوقعت عليه تلثمته، ثم رجعت عنه
مغشياً عليها، فما مكثت بعده إلا أياماً حتى ماتت^(١).

قال حماد الراوية: انصرفت من جنازة لبعض السكاسك، فإذا بصبي من
عذرة ظريف، حسن الوجه، صغير السن، موصوف بقول الشعر، فوقفنا
فسلمنا، فقام إعظاماً لنا، قُلت: أنشدنا شيئاً، فكان أنه استجيا، قُلت له:
لابد، فأنشدنا:

هَلْ مِنْ الْحَبِّ مَجِيرٌ مِنْ مَلَا حٍ يَعْتَدُونَا

(١) ذم الهوى ٥٠٦ - ٥١٠

قد شكونا بخضوعٍ عَذَلِ قوم يَمْذُونَا
 فِي جَوَى نَلْقَاهُ مِنَّ لَا يَبَالِي مَا لَقِينَا
 وَبِكَيْنَا بِدَمْعٍ أَغْرَقَتْ مِنَّا الْجَمُونَا

قال حماد : فكدت أرقص طرباً وقلت : فداؤك عمك ! وجلسنا إليه تعجباً
 من رفته وجماله وفصاحته ، فأنشدنا :

ولقد أرسلتُ دمعِي شاهداً ثم صيرتُ إليها المشتكى
 فتولّت ، ثم قالت شغلي كلُّ مَنْ شاء تبكي ! فبكى

قال حماد : قلت له : فديتك ، تحبُّ هذه الجارية ؟ قال : يا عم ، والحبُّ
 عيب ! إن كان عيباً تركته . ثم قال : يا عم إذا قرأت أو بلغني أحاديثُ قومي مثلُ
 عمروة وجميل ، أفلا أشتبهى أن أكون واحداً منهم ! فانصرفنا عنه متعجبين .

[ذكر آل أبي صفرة]

قوله : والشجاعة بآل أبي صفرة ، أبو صفرة هو ظالم بن سراقه بن كندی
 ابن عمرو بن عدى ، ويتصل بعمر و مزينة ، ثم بأزد دبا ، وأزد دبا ما بين عُمان
 والبحرين ، وكانوا أسلموا ثم ارتدوا في خلافة أبي بكر ، فبعث إليهم أبو بكر
 عكرمة بن أبي جهل ، فقاتلهم وسبى ذراريهم وبعث بهم إلى أبي بكر ،
 وأبو صفرة غلام ، فحبسهم أبو بكر ، فلما توفى أطلقهم عمر ، فنزل أبو صفرة
 البصرة ، فشرّف بها .

وروى بعضهم أن أبا صفرة طلب من عمر أن يولّيه عملاً ، فسأله عن اسمه
 فقال : ظالم بن سراق ، فقال : تظلم أنت ويسرق أبوك ! ولم يولّه عملاً
 قطيراً باسمه .

والمهلبية تزعم أن أبا صفرة قدم على النبي صلى الله عليه وسلم ، وعليه حلة

صفراء يسحبها خلفه ذراعين . وله طول ومنظر وفصاحة ، فأعجب النبي صلى الله عليه وسلم ما رأى من جماله وخلقه ، فقال له : مَنْ أَنْتَ ؟ قال : أنا قاطع بن سارق ابن ظالم بن عمرو بن شهاب بن مرة بن الهلقام بن الجلندی بن المستكبر بن الجلندی ، الذى كان يأخذ كل سفينة غصباً ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « أَنْتَ أَبُو صُفْرَةَ ، ودع عنك ظالماً وسارقاً » ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله حقاً ، إِنْ لى لثمانية عشر ذكراً ، ورزقت بآخرهم بنتاً سميتها صُفْرَةَ .

وأما أولاد أبي صُفْرَةَ ، فكانوا كُتَّاباً شجعاناً أبطالاً حماةً ، منهم أبو سعيد المهلب . وذكروا أَنَّ أبا صُفْرَةَ وفد على عمر رضى الله عنه ومعه عشرة من ولده - والمهلب أصغرهم - فتوَسَّمهم عمر ، ثم قال : هذا سيِّد ولدك المهلب ، والمهلب هو صاحب حروب الأزارقة ، وولاه عبد الملك خراسان بعد الأزارقة سنة تسع وسبعين ، ومات سنة ثلاث وثمانين ، واستخلف يزيد ابنه عليها ، فأقره عبد الملك عليها سنتين أو ثلاثاً . وغزا يزيد جرجان في خلافة سليمان بن عبد الملك سنة سبع وتسعين ، في ثلاثين ألف مقاتل ، قاتلهم أشهراً ، ثم صالحهم على أن يُعطوا خمسمائة ألف درهم كل عام ، يؤدونها إليه ، ثم غزا سنة ثمان وتسعين طَبْرِستان ، فصالحهم على سبعمائة ألف درهم وأربعمائة قر زعفران وأربعمائة رجل مع كل رجل بُرنس وطيلسان وخاتم فضة ، وسَرَقَة حرير وكسوة ، قبل ذلك وانصرف عنهم . ثم غدر أهل جُرجان بمن خلف عليهم من المسلمين فقتلهم ؛ فلما فرغ من طَبْرِستان سار إليهم ، قاتلهم شهرأً ، ثم نزلوا على حكمه ، فقتل مقاتلتهم ، وسبى ذراريهم وصلبهم فرسخين ، وقاد منهم اثني عشر ألفاً إلى وادى جرجان ، فقتلهم وأجرى الماء في الوادى على الدَّم ، وعليه أرحاء بدمائهم تطحن ، واختبز وأكل ، وكان قد حلف على ذلك .

(م ٤ — شرح مقامات الحريري ج ٥)

الأصمعيّ: قبض^(١) الحجاج على يزيد ، وأخذَه بسوء العذاب ، فسأله أن يخفف عنه العذاب على أن يعطيه كلَّ يوم مائة ألف درهم ، فكان دأبه أنه إذا أذاها تركه ، وإلاّ عذّبه إلى الليل ، فجمع يوماً مائة ألف درهم ، يشتري بها عذابه ، فدخل عليه الأخطال فأنشده :

أبا خالدٍ بادت خراسانُ بعمدكم وقال ذوو الحاجات أين يزيد^(٢) ؟
فما سقى المروان بعدك قطرةً ولا أخضر بالروين بعدك غودُ
وما لسرير بعد ملكك بهجةً ولا لجواد بعد جودك جودُ

فأعطاه المائة الألف . فبلغ ذلك الحجاج ، فدعا به ، وقال : يا مروزيّ ، أكل هذا الكرم وأنت بهذه الحالة ؟ قد وهبت لك عذاب اليوم وما بعده^(٣) .

ابن عبد الحكم : أخبرنا الشافعيّ قال : طعن يزيدُ بن المهلب رجلاً من الخوارج ، فصرعه فوثب الخارجيّ بالسيف ، وهو يقول :

وإنّا لقومٌ لا نعوّد خيلنا إذا ما التقينا أن تحيد وتنفرا
وننكرُ يوم الروع ألوانَ خيلنا من الدم حتى نحسبَ الورْدَ أشقرا
وليس بمعروف لنا أن نردّها صحاحاً ولا مستنكرٍ أن تُعفرا

قال يزيد : فكرهت أن أقتل مثله ، فانصرفت عنه . وقتل يزيد يوم الجمعة لاثنتي عشرة خلت من صفر سنة اثنتين ومائة ، وهو ابن سبع وأربعين سنة .

(١) القصة والأبيات في ابن خلكان ٢ : ٢٦٥

(٢) قال ابن خلكان : قوله : « فلا مطر المروان ... ولا أخضر بالروين » هما تشبيه مرو ، وأحدهما مرو الشاعجان ، وهي العطشى ، والأخرى مرو الروذ ، وهي الصغرى ، وكلتاها مدينتان مشهورتان بخراسان .

(٣) قال ابن خلكان : قلت هكذا ذكر ابن عسكرك ، والمشهور أن صاحب هذه الواقعة وهذه الأبيات هو الفرزدق ، ثم انى رأيت هذه الأبيات في ديوان زياد الأعجم ، والله أعلم بالصواب .

وقيل للمهلب: بم نلت ما نلت؟ قال: بطاعة الحزم، وعصيان الهوى.
وقيل لأبي إسحاق الهمداني: لم رويت عن المهلب؟ قال: لأنني لم أر
أميراً أبين منه تقية ولا أشجع منه، ولا أبعد ممّا يكره، ولا أقرب مما يحب.
وسرّ المهلب بقوم فعظموه وسودّوه، فقال رجل: ألهذا الأعور تسودون!
والله لو خرج إلى السوق ما زادت قيمته على ألفي درهم، فسمعه المهلب، فقال
لبعض من معه: أتعرف الرجل؟ قال: نعم، فلما انتهى إلى مجلسه أرسل إليه
بألفي درهم. فقال له: لو زدتنا في القيمة لزدناك في العطية، ففعل الرجل،
وعرف منزلته.

وللمهلب وبنيه وإخوته في حروب الأزارقة مشاهد ما شوهدت قط في
جاهلية ولا إسلام.

وقتل المهلب وأولاده وإخوته ومن معه من الأزارقة في ليلة واحدة
أربعة آلاف وثمانمائة، وانهزم بقيتهم مع قطري، فنظام إلى أقاصى البلاد حتى
قتل قطري ومن معه.

وسئل المهلب عن ابنه: أيهما أشجع أيزيد أم حبيب؟ فقال: إن الولد
ربما سبق رأى أبيه فيه، وقطري قد مارسهما، فسلوه عنهما. فلما كان من
الغد واصطفوا للقتال صاح رجل: يا أبا نعمة^(١)، فقال: أفرجوا له، ثم قال:
قد سمعت قتل؛ فقال: إننا سألنا الأمير عن ابنه يزيّد وحبيب: أيهما أشجع،
فقال: سلوا أبا نعمة، فقال: على الخبير سقطت، أمّا صاحب الكرّ والفرّ
والإقدام والإحجام، وصحة التدبير ومبارزة الكميّ المدجج فآخرون يزيّد،
وأما إذا التقت غياطيل الليل، وخفت الأصوات إلّا الغاغم، وقرع الحديد
بالحديد فآخيار حبيب.

(١) أبو نعمة كنية قطري.

— الْغَيْطَلَةُ التَّبَاسُ الظَّلَامُ ، وَخَفَّتْ : سَكَنْتُ . وَالْغَمْغَمَةُ : أَصْوَاتُ الْأَبْهَارِ
فِي الْقِتَالِ —

وَسَأَلَ الْحِجَاجُ كَعْبَ بْنَ مَعْدَانَ الْأَشْجَرِيَّ^(١) حِينَ وَفَدَ عَلَيْهِ بِالْفَتْحِ ،
فَقَالَ لَهُ : أَخْبِرْنِي عَنْ بَنِي الْمُهَلَّبِ ، فَقَالَ : الْمَغِيرَةُ فَارَسَهُمْ وَسَيَدَهُمْ ، وَكَفَى بِيَزِيدَ
فَارِسًا وَشَجَاعًا ، وَجَوَادَهُمْ وَسَخِيَّهُمْ قَبِيصَةً ، وَمَا يَسْتَحْيُ الشُّجَاعُ أَنْ يَفِرَّ مِنْ مُدْرِكٍ ،
وَعَبْدَ الْمَلِكِ سَمٌّ نَاقِعٌ ، وَحَبِيبَ مَوْتٍ دُعَافٌ ، وَمُحَمَّدَ لَيْثَ غَلَبٍ . وَكَفَاكَ بِالْمُفَضَّلِ
نَجْدَةً . فَقَالَ : كَيْفَ كَانُوا فِي الْبَاسِ ؟ قَالَ حَمَاةَ السَّرْحِ نَهَارًا ، فَإِذَا أَلْيَلُوا
فَقَرَسَانَ الْبَيَاتِ . قَالَ : فَأَيُّهُمْ كَانَ أَنْجَدَ ، قَالَ : كَانُوا كَالْحَلْقَةِ الْمَفْرَغَةِ لَا يَذُرِّي
أَيَّنَ طَرَفَهَا .

وَحِينَ وَفَدَ الْمُهَلَّبُ عَلَى الْحِجَاجِ أَجْلَسَهُ إِلَى جَانِبِهِ ، وَأَظْهَرَ إِكْرَامَهُ ،
وَقَالَ : يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ ، أَتَمَّ عِبِيدَ الْمُهَلَّبِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : أَنْتَ وَاللَّهِ كَمَا قَالَ
لَقِيطُ الْإِيَادِيِّ :

وَقَلَّدُوا أَمْرَكُمْ لَلَّهِ دَرَكُكُمْ رَحْبَ الذَّرَاعِ بِأَمْرِ الْحَرْبِ مُضْطَلِعًا^(٢)
لَا مَتَرَفًا إِنْ رَخَا فِي الْأَمْرِ سَاعِدُهُ^(٣) وَلَا إِذَا عَضَّ مَكْرُوهٌ بِهِ خَشَمًا
مَا زَالَ يَحْلُبُ هَذَا الدَّهْرَ أَشْطَرُهُ يَكُونُ مِتْبَعًا طَوْرًا وَمِتْبَعًا
حَتَّى اسْتَمَرَّتْ عَلَى شَرْزٍ مَرَارَتُهُ^(٤) مُسْتَحْكَمِ الرَّأْيِ لَا قَعْمًا وَلَا ضَرَعًا

فَقَامَ رَجُلٌ وَقَالَ : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ! وَاللَّهِ لَكَأَنِّي أَسْمَعُ السَّاعَةَ قَطَرِيًّا يَقُولُ
لِلْمُهَلَّبِ كَمَا قَالَ لَقِيطُ الْإِيَادِيِّ ... وَأَنْشَدَ الْأَبْيَاتَ ، فَامْتَلَأَ الْحِجَاجُ سُرُورًا .

وَقَالَ لَهُ الْحِجَاجُ : إِذْ كَرَى الَّذِينَ أَبْلَوْا وَصَفَى بِلَاءَهُمْ ، فَقَدَّمَ بَنِيهِ ، وَقَالَ :

(١) ط : « الْأَشْجَرِي » بِالْعَيْنِ ، تَحْرِيفٌ .

(٢) مَخْتَارَاتُ ابْنِ الشَّحْرِ ه .

(٣) ابْنُ الشَّجَرِيِّ : « أَنْ رَخَا الْعَيْشُ سَاعِدُهُ » .

(٤) ابْنُ الشَّجَرِيِّ : « مَرِيرَتُهُ » .

والله لو تقدّمهم أحد في البلاء لقدّمته عليهم ، ولولا أن أظلمهم لأخزتهم .
فقال له الحجاج : نعم إنهم لسيوف من سيوف الله تعالى في الأرض .

وقال يوماً عبد الملك للشعراء : تشبّهونني مرة بالأسد الأبحر ، والجبل
الأوعر ، والبحر الأجاج وبالصقر والباز ، ألا قلت كما قال كعب الأشقرى في
المهلب وبنيّه :

براك الله حين براك بحراً	وفجّر منك أنهاراً غزاراً
بنوك السّاقون إلى المعالي	إذا ما أعظم النّاس الغغاراً
كانهم نجومٌ حول بدرٍ	دجوجيٌّ تكمل واستداراً
ملوكٌ ينزلون بكلّ فغير	إذا ما الهام يوم الرّوع طاراً
رزانٌ في الأمور ترى عليهم	من الشيخ الشّائل والتّجاراً
نجومٌ يهتدى بهم إذا ما	أخو الغمرات في الظّماء حاراً

وفي ديوان الحماسة :

آل المهلب قومٌ خُـسـولوا شرقاً	ما ناله عربيٌّ لا ولا كاداً ^(١)
لو قيل للمجد حدٌ عنهم وظلمهم	بما احتكمت من الدّنيا لما حاداً
إنّ الكارم أرواح يكون لها	آل المهلب دُون الناس أجساداً

ولبعضهم :

إذا كان المهلب من ورأى	هدأ كئيلي وقرّ له فؤادى
ولم أخش الدنيّة من أناس	ولو صالوا بقرّة قوم عادٍ

وتوفّي المهلب بفنجدية بصحراء راغول سنة ثلاث وثمانين ؛ فبعد أربعائة
وثلاثين من وفاته ، رأى بعض علماء فنجدية في المنام كأنّ المهلب يقول : الله

(٢) ديوان الحماسة - بشرح المزدوقي ص ٢٧٨٧

الله ، الحقني قَبْلَ أن يأخذني روذمرو - وهو نهر عظيم يُعْبَرُ عليه بالنفن -
واقفني إلى بعض مقابر المسلمين ، وأنا مدفون على شاطئ هذا النهر الكبير
في الموضع الفلاني ، وقد حفر الماء تحت قبري ، وقرب أن يأخذني ، فلما
أصبح الرجل أخذ جماعةً من أصحابه معهم المساحي والفتوس فمضوا إلى ذلك
الموضع ، وحفروا حتى وصلوا إلى قلبه فكشفوا التراب عنه ، فكانت عظامه
ما بليت بعد ، فدفنوه بمقبرة مدونة .

قال الفنجديهي : وهي محلتنا ؛ وسمعتُ معنى هذه الحكاية من والدي
رحمه الله .

* * *

فلما أَلْقَيْتُ الْجِرَانَ بِنَجْرَانَ ، واصطفيتُ بها الْخُلَّانَ والجيرانَ ،
تَخَذْتُ أُنْدِيَتَهَا مُعْتَمِرِي ، وَمَوْسِمَ فَكَاهَتِي وَسَمَرِي ؛ فَكُنْتُ أَتَعَهَّدُهَا
صَبَاحَ مَسَاءَ ، وَأَظْهَرُ فِيهَا عَلَى مَا سَرَّ وَسَاءَ ؛ فَيَنِمَا أَنَا فِي نَادٍ مَحْشُودٍ ،
وَتَحْفِلُ مَشْهُودٍ ؛ إِذْ جِئْتُ لَدَيْنَاهُمَا ، عَلَيْهِ هِذَمٌ ؛ نَحْيًا تَحِيَّةَ مَلِكٍ ،
بِلِسَانٍ ذَلِيقٍ ؛ ثُمَّ قَالَ : يَا بُدُورَ الْمُحَافِلِ ، وَبُحُورَ التَّوَافِلِ ، قَدْ بَيَّنَّ الصُّبْحُ
لِذِي عَيْنَيْنِ ، وَنَابَ الْعِيَانُ مَنَابَ عَدْلَيْنِ ، فَاذَا تَرَوْنِ ، فَيَا تَرَوْنِ ؟
أَتُحْسِنُونَ الْعَمَلَ ، أَمْ تَتَأَوْنِ إِذْ تُدْعَوْنَ ! فَقَالُوا : تَاللهِ لَقَدْ غِظْتَ ،
وَرُمْتَ أَنْ تُنْبِطَ فَنُفِضْتَ .

* * *

قوله : بِنَجْرَانَ : بلد من كُور نجد ممَّا يلي بلاد اليمن ، سُمِّيَتْ بِنَجْرَانَ
ابن زيد بن سبأ . اصطفيتُ : اخترت . الْخُلَّانُ : الأصحاب . تَخَذْتُ ،
بمعنى اتَّخَذْتُ . أُنْدِيَتَهَا : مجالسها ومجتمع أهلها . مُعْتَمِرِي : موضع

زيارتى ، واعتمرت الموضع : قصده وزرته . مؤسّم : عيد . فكاحتى :
 ممازحتى . سَمَرى : حديثى بالليل . أتمهّدها : أتفقدّها صباح مساء :
 اسماف مرّكبّان جُعلا خمسة عشر ، وأراد يزورها فى الصباح والمساء .
 نادى محشود : مجلس مجموع الأهل ، ومثله الحفل المشهود . جَمّ : برك . همّ :
 شيخ هَرِم ، قد أذهب الكبر قُوّته ولحمه ، وتقول : هَمّتُ الشَّحْم : أذبتّه ،
 ومنه قولهم : هذا الأمر لا يَرمُنى ، بفتح الياء وكسر الهاء ، أى لا يذيبنى ،
 ومن قال بضمّ الياء فعناه لا يقلقنى . هَدَم : ثوب خَلَقَ كأنّه هدمه البلى .
 مَلَق : متلطف فى كلامه . ذَلَق : حديد . النّوافل : العطايا . بَيْنَ الصّبح
 لذى عينين ، مثل ، ويريد أنّ الليل يساوى فى ظلمته الأعمى والصحيح ، فإذا
 ظهر ضوء الصّبح أبصر الأشياء مَنْ له بصر ، وقيل معنى بَيْنَ الصّبح ، أى
 كَبِين ، والعيان : المشاهدة ، وعابنته : شاهدته ، أى أتمم بمن لا يخفى عليكم
 حالى ، يريد أنّ المعاينة تغنى عن الشهود العدول . فإذا ترون : فما رأيكم ؟
 وهى من رؤية القلب . فيما تَرَوْنَ ، أى فيما تنظرون وتبصرون ، وهو من رؤية
 البصر . وقال الفجديهي فى شرحه : فما ترون ؟ أى فما تظنون فيما تَرَوْنَ ؟
 أى فيما تبصرون . تناوَن : تبعدون . غظت ، من الغيظ ، أى لقد حرّكت
 غيظًا . رُمّت أن تُنَبِّط : أردت أن تخرج ماء . غَضّت . غَيَّبَتْه وَجَفَّتْه ، والغَيْض
 نقيض الغَيْض ، وغاض الماء : ذهب فى الأرض .

* * *

فناشدهم الله عَمَّا ذَا صَدَّهمْ ؛ حَتَّى اسْتَوْجَبَ رَدَّهمْ ؛ فقالوا : كُنَّا
 نتناصَلُ بالألغاز ؛ كَمَا يَتَنَاضَلُ يَوْمَ الْبِرَازِ ؛ فَمَا تَمَّاكَ أَنْ شَعَثَ مِنْ
 المنضُولِ ، وَأَلْحَقَ هَذَا الْفَضْلَ بِنَمَطِ الْفُضُولِ .

فَلَسَنَتُهُ لُسُنُ الْقَوْمِ ، وَوُخْزُهُ بِأَسِنَّةِ اللَّوْمِ ، وَأَخْذُهُو يَتَنَصَّلُ

من هَفَوْتِهِ ، ويتندَّم عَلَى فَوْهَتِهِ ، وَهُمْ مُضِيبُونَ عَلَى مُؤَاخَذَتِهِ ؛ وَمُلبَّونَ دَاعِي مُنَابَذَتِهِ ، إِلَى أَنْ قَالَ لَهُمْ : يَا قَوْمُ ؛ إِنْ الاحْتِمَالُ مِنْ كَرَمِ الطَّبِيعِ ، فَعَدُّوا عَنِ اللَّذَعِ وَالْقَذَعِ ، ثُمَّ هَلُمَّ إِلَى أَنْ نُلْعِزَ ، وَنَحْكُمَ الْمُبَرِّزَ .

* * *

ناشدهم : حَلَفَهُمْ . صَدَّهم : صرفهم وأزالهم . نَتَنَاضِلُ : نترامى . البراز : القتال : والألفاز : جمع لُفَزَ ، وهو الكلام المعمى ، وأنفَزَ ، إِذَا عَمِيَ كلامه فلم يُفهم ما يقصده ، وأصله من اللُّغَز وهو الحِجَرُ الملوَّى : ما تمالك : ما أبطأ ولا ملك نفسه .

شَعَثَ : غَبَّرَ ، وَيُرْوَى « شَعَبَ » . من المنضول ، أى نقصه وفرقه ، والمنضول : المرمى ، أى قَبِجَ فعلمهم ومراماتهم . الفنجديهيّ : شَعَثَ الدهرُ ماله ، أى أخذه ، والمنضول : المغلوب فى النِّضال ، والمعنى فما صَبَرَ عن تَشْمِيتِهم المغلوب ونصره وتخليصه عما أُرْتِجَ عليه من اللُّغَز ، ويقال : شَعَثَ منه ، أى عابه وتنقصه ، وكأنه عاب المنضول كيف أُرْتِجَ عليه شيء سهل ! وهذا تفسير حسن ، إِلَّا أَنْ مَسَاقَ كلام الحريرى أدلُّ على التفسير الأول .

نمَطَ : نوع . لَسَنَتُهُ : أخذه بلسانه . لُسْنُ القوم : فصحاؤهم . وَخَزَوْهُ : طعنوه . يَنْتَضِلُّ : يتبرأ ويعتذر . هَفَوْتُهُ : سقطته . فَوْهَتُهُ : كلمته التى فاه بها ، أى نطق . مُضِيبُونَ : مقيمون ملتزمون ، وَأَضَبَّ عَلَى الشَّيْءِ : لازمه . مُؤَاخَذَتُهُ : إِنْشَابُ الشَّرِّ معه ، وتواخذ الرجلان : أَخَذَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ بِضَرْبٍ أَوْ شَتْمٍ . مُلَبَّونَ : مجبيون . مُنَابَذَتُهُ : متاركته ومهاجرته ، وقد نبذتُ الشَّيْءَ ؛ إِذَا رَمَيْتَهُ مِنْ يَدِكَ . الاحْتِمَالُ : الصبر على الجفاء . عَدُّوا : انصرفوا وتنحَّوا . اللذع : إحراق القلب باللوم والعتب . والقذع : السَّبُّ . نُلْعِزُ : نغمى الكلام ونُلَبِّسُهُ عَلَى السَّامِعِ . الْمُبَرِّزُ : الغالب .

* * *

فَسَكَنَ عِنْدَ ذَلِكَ تَوَقُّدُهُمْ ، وَانْحَلَّتْ عُقَدُهُمْ ، وَرَضُوا بِمَا بِهَا
 شَرَطَ عَلَيْهِمْ وَلَهُمْ ، وَاقْتَرَحُوا أَنْ يَكُونَ أَوْلَهُمْ ، فَأَمْسَكَ رَيْثُهَا يُعْقَدُ
 شِسْنَعٌ ، أَوْ يُشَدُّ نِسْنَعٌ ، ثُمَّ قَالَ : اسْمَعُوا وَقِيَّتُمُ الطَّيْشُ ، وَمِثْلِيَّتُمُ الْعَيْشُ ،
 وَأَنْشَدَ مُلْفِزًا فِي مِرْوَحَةِ الْخَيْشِ :

وَجَارِيَةٍ فِي سَاسِيرِهَا مُشْمَعَلَةٌ وَلَكِنْ عَلَى إِثْرِ الْمَسِيرِ قُفُّوْهَا
 لَهَا سَائِقٌ مِنْ جَنْسِهَا يَسْتَحِثُّهَا عَلَى أَنَّهُ فِي الْاِخْتِنَاثِ رَسِيلُهَا
 تَرَى فِي أَوَانِ الْقَيْظِ تَنْطَفُفُ بِالْأَنْدَى وَيَبْدُو إِذَا وَلَّى الْمَصِيفُ قُفُّوْهَا

* * *

رَيْثٌ ، أَيْ بُطْءٌ . شِسْنَعٌ : شِرَاكَةُ النَّمْلِ . أَنَسٌ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 أَنَّهُ قَالَ : « لَنْ يَنْقَطَعَ شِسْنَعُ أَحَدِكُمْ إِلَّا مِنْ ذَنْبٍ عَلَيْهِ ، فَلْيَسْتَغْفِرِ اللَّهَ وَلْيَرْجِعْ
 فَإِنَّهَا مَصِيبَةٌ عَرَضَتْ عَلَيْهِ » . وَالنَّسْعُ : شِرَاكَةُ مَضْفُورَةٍ عَلَى هَيْئَةِ النَّمْلِ ، وَيُشَدُّ
 بِهَا الرَّحْلُ وَغَيْرُهُ .

وَقِيَّتُمْ : كَفَيْتُمْ . الطَّيْشُ : خَفَةُ الْعَقْلِ . مُثْلِيَّتُمْ : طُؤْلُ لَكُمْ . الْخَيْشُ : ثِيَابُ
 خَشْنَةٍ مِنَ الْكُتَّانِ ، وَهَذِهِ الْمِرْوَحَةُ تَسْتَعْمَلُ بِلَادَ الْعِرَاقِ تَكُونُ شَبْهَ الشَّرَاحِ
 لِلْسَفِينَةِ ، وَتَعْلَقُ مِنْ سَقْفِ الْبَيْتِ ، يُشَدُّ فِيهَا حَبْلٌ وَيُدَارُ بِهَا مَشْيُهَا ، وَتُبَلُّ
 بِالْمَاءِ وَتُرَشُّ بِمَاءِ الْوَرْدِ ، فَإِذَا أَرَادَ الرَّجُلُ فِي الْقَائِلَةِ أَوِ اللَّيْلِ أَنْ يَنَامَ جَذَبَهَا
 بِحَبْلِهَا ، فَتَذْهَبُ بِطَوْلِ الْبَيْتِ وَتَجِيءُ ؛ فَيَهْبُّ عَلَى الرَّجُلِ مِنْهَا نَسِيمُ طَيْبِ الرِّيحِ
 بَارِدٌ فَيَذْهَبُ عَنْهُ أَذَى الْحَرِّ وَيَسْتَطِيبُ بِهِ النَّوْمَ وَهِيَ فَوْقَهُ ذَاهِبَةٌ وَجَائِيَةٌ ، وَلِذَلِكَ
 سَمَّاهَا جَارِيَةً . وَمُشْمَعَلَةٌ : سَرِيعَةُ الذَّهَابِ . قُفُّوْهَا : رَجُوعُهَا . وَالسَّائِقُ : الشَّرِيطُ
 الَّذِي يَسُوقُهَا إِذَا جُذِبَتْ بِهِ . يَسْتَحِثُّهَا : يَسْتَعْجِلُهَا ، وَمِنْ جَنْسِهَا ، أَيْ هُوَ مِنْ
 كُتَّانٍ مِثْلِهَا أَوْ مِنْ قَنْبٍ . وَالْاِخْتِنَاثُ : التَّعْجِيلُ . رَسِيلُهَا ، أَيْ مَرْسِلُهَا ،
 وَيُرْسَلُ مَعَهَا لَزَاوِيَةُ الْبَيْتِ وَيَرْجَعُ مَعَهَا ، وَالرَّسِيلُ : الْفَرَسُ يُرْسَلُ مَعَ آخَرِ

في السباق . أو أن القميط : وقت الصيف . تَنْطَفُ : تقطر ، ونطف الماء : سال
وقطر ، والندى : الرشّ الضعيف . وقحوها : يسهها . ولّى : أدبر ، وإذا ولّى
الحرّ لم يُحتَجْ إليها ، فلا تُرَشُّ ولا تستعمل فتيس . وللسرى الموصلى فيها :

ومبثوثة في كلّ غربٍ ومشرقٍ لها أمّهات بالعراق بواطن^(١)
يحرّك أنفاس الرّياح حراكها كأن نسيم الروض فيهنّ كامن
وله أيضاً :

وخيش كما انجرت ذيول غلائل مصدلة يختال فيها الكواعب^(٢)
وقد أطلعت فيها الشمال واتنت مُقَيَّدة عن جانبيها الجواب^(٣)
ومّا يكتب على مروحة الكفّ :

أنا في الكفّ لطيفه مسكن قصر الخليفة
أنا لا أصلح إلا لطريف أو ظريفه
أو وصيف حسن القدّ شبيه بالوصيفه
وفيهما أيضاً :

إنني أجلب الرّياح وبى يدفع الخجل
وحجاب إذا الحبيب ثنى الرأس للقبّل

* * *

ثمّ قال : وهما كم . يا أولي الفضل ، ومراكز العقل ، وأنشد
مُلفزاً في حابل النخل :

(١) لم أجدهما في ديوانه .

(٢) ديوانه ٦١

(٣) الديوان « الجنائب » .

وَمُنْتَسِبٍ إِلَى أُمٍّ تَنْشَأُ أَصْلُهُ مِنْهَا
يُعَانِقُهَا وَقَدْ كَانَتْ نَفْتُهُ بُرْهَةً عَنْهَا
بِهِ يَتَوَصَّلُ الْجَانِي وَلَا يُلْحَى وَلَا يَنْهَى

* * *

قوله : هاكم ، أى خذوا . مرا كز العقل : مواضعه ومحالّه ، كأنّ العقل رُكَّزَ فيهم . والهابول : حبل يُصْعَدُ به على النخل يُعْمَلُ من ليفها ، وهو حبل يُفَقَدُ حلقة ، ويدخل فيها الرجل ويدرجه على النَّخْلَةِ شيئاً شيئاً عند طلوعه حتى يصير بأعلاها ، وحبل النخل ليس فيه شيء من الملاسة ولا في النخلة ذلك ، فله بها استمساك ، ولذلك جعله معانقاً لها ، لأنه استدار بها ، وقيل له : هابول لأنه لا يُسْتَعْمَلُ إلا للصُّعُودِ على النخيل ، فَرَقّاً بينه وبين الحبل المستعمل لكل شيء ، ولما كان يُصْنَعُ من ليف النخل ، جعل النَّخْلَةَ أمه . برهة : زماناً . والجاني : الذى يجنى الثَّمَر ، ألغز به وأوهم أنه الذى يجنى جنابة . يُلْحَى : يلام ويسب .

* * *

ثم قال : ودونكمُ الخَفِيَّةَ الْعَلَمَ ، المعتكرة الظُّلَمَ ، وأنشد مُلَغِزاً في القلم :

ومأمومٍ بهِ عُرِفَ الْإِمَامُ كما باهت بِصُحْبَتِهِ الْكِرَامُ
لَهُ إِذْ يَرْتَوِي طَيْشَانُ صَادٍ وَيَسْكُنُ حِينَ يَعْرِوهُ الْأَوَامُ
وَيُذْرى حِينَ يُسْتَسْعَى دُمُوعاً يَرُقْنَ كَمَا يَرُوقُ الْإِبْتِسَامُ

* * *

قوله : الْعَلَمَ ، أى الرَّقْمَ فى الثوب ، فأراد أنها خَفِيَّةٌ فى اللغز ، فعلمها الذى تُعْرَفُ به خَفِيّاً . والمعتكرة : الشديدة السواد . ومأموم : برأسه آمة ،

أى شجّة ، يريد الشقّ برأسه ، والإمام : أمير المؤمنين ، وجعله معروفاً بالقلم ، لأنّ القلم يدي أسرار الملك وأخباره فى كتبه . وقيل : الإمام الكتاب ، من قوله تعالى : ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أَنَسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾^(١) ، أى بكتابهم ، وقيل بنبيهم ، ولا يمتنع أن يريد بالمأموم المتّبع ، وإمامه . الذّهن الذى يملئ عليه ، أويد الكاتب به ، وقيل : سمّاه مأموماً ، لأنه يؤم القرطاس ، أى يقصده ويتبعه والإمام كتاب الله سبحانه وتعالى لأنه يُتَّبَع ويؤتم به ، ويُقتدى بما فيه . باهت : افتخرت . والكرام : الكتبة لقوله تعالى : ﴿بأيدي سَفَرَةٍ كَرَامٍ بَرَرَةٍ﴾^(٢) ولا مرتبة أشرف من مرتبتهم بعد الإمرة ، ولذلك قال الصابى :

وقد علم السُّلطان أنّى لسانه وكتبه الكافي السّديد الموقّ^(٣)
أوازِرُهُ فيما عَرَا وأَـلـدُهُ برأى يُرِيهِ الشَّمْسَ وَاللَّيْلُ أُغْشَى
فيمناى يميناه ولفظى لَفْظُهُ وعينى له عينُ بها الدَّهْرُ يَرْمُقُ

طيشان صاد ، أى جولان عاطش ، وطاش : خفّ . يعرّوه : يقصده .
والأوام : العطش ، يريد أن القلم إذا ارتوى بالمداد أسرع فى الكتابة وإذا جفّ توقف وأمسك . يَرْمُقُ : يُعْجِبُ .

ونظر المأمون إلى جارية تكتب ، فقال :

وزادت لدينا حُظوةً حين أطرقت وفى إصْبَعَيْهَا أَسْمَرُ اللونِ أَهْيَفُ
أصمٌ سميعٌ ساكنٌ متحرّكٌ ينالُ جسياتِ العِلا وهو أَعْجَفُ
وقال العَلَوى :

إذا ما التقينا وانتضينا صَوَارِمًا يكاد يصمُّ السامعين صَرِيْرُهَا
تَسَاقُطُ فى القرطاس منها بدائعٌ كمثل اللالى نظمها وتثيرها

(٢) سورة عبس ١٦ ، ١٧

(١) سورة الاسراء ٧١

(٣) بيتية الدهر ٢ : ٢٤٧

ثُمَّ قَالَ : وَعَلَيْكُمْ بِالْوَاضِحَةِ الدَّلِيلِ ، الْفَاضِحَةِ مَا قِيلَ ، وَأَنْشُدْ مِلْغَزًا
فِي الْمِيلِ :

وَمَا نَاكِحُ أُخْتَيْنِ جَهْرًا وَخُفِيَةً وَلَيْسَ عَلَيْهِ فِي النِّكَاحِ سَبِيلُ
مَتَى يَنْعَشُ هَذِي يَنْعَشَ فِي الْحَالِ هَذِهِ وَإِنْ مَالٌ بَعْلٌ لَمْ تَجِدْهُ يَمِيلُ
يَرِيدُهَا عِنْدَ الْمَشِيبِ تَعَهُدًا وَبِرًّا وَهَذَا فِي الْبَعُولِ قَلِيلُ

* * *

قوله : الواضحة ، أى البينة . الفاضحة ، أى المبدية لعيب ما قيل قبلها من الغمز .
والميل : المزود . والأختين : العينين . ليس عليه سبيل ، مع أن الجمع بين الأختين .
لا يجوز . يَنْعَشُ : يدخل لها . مَالٌ : عدل وزال عنها . وَالْبَعْلُ : الزوج .
تَعَهُدًا : تَقْدُّمًا . بِرًّا : إكرامًا . يريد أن الأبصار عند الكبر يضعف نظرها
فتحتاج إلى الكحل . وقيل : عَبَّرَ بِالمشيب عن مَرَّه العين وهو فسَادُهَا من
ترك الكحل .

* * *

ثُمَّ قَالَ : وَهَذِهِ يَا أُولَى الْأَلْبَابِ ، مَعْيَارُ الْآدَابِ ، وَأَنْشُدْ مِلْغَزًا
فِي الدُّوَلَابِ :

وَجَافٍ وَهُوَ مَوْصُولٌ وَصُولٌ لَيْسَ بِالْجَافِ
غَرِيقٌ بَارِزٌ فَانْجَبَ لَهُ مِنْ رَاسِبٍ طَافِ
يَسُخُّ دُمُوعَ مَهْضُومٍ وَيَهْضِمُ هَضْمَ مِثْلَافٍ
وَتُخَشَى مِنْهُ حَدَّثُهُ وَلَكِنْ قَلْبُهُ صَافِ

* * *

أولى الألباب ، أى أهل العقول . معيار : مقياس يعبر به ، وتقول : عايرت المكاييل ، إذا قست بعضها ببعض ، وساويت بينها . والدُّولاب : الناعورة . والجافى : الثقيل ، يريد أن الدولاب جاف فى نفسه وخلقته ، وليس بجافٍ لسرعة حركته ودَوْرانه . وموصول : ليس من عُودٍ واحد . وَصُول ، يعنى للرياض بمائه ولهذا المنفعة ضئيع . قوله : ليس بالجافى ، يعنى إذا فارق الماء عاد إليه لا يخفوه ، والجفاء يكون فى الخلقة والخلق ، يقال : رجل جافى الخلقة ، أى غليظ ، وجافى الخلق إذا كان كَرًّا غليظ العشرة ، وجفا الشيء يخفو جفاء : لم يلزم مكانه ، وجفا جنبه عن الفراش : لم يطمئن ، ويخفوه ، ضدّ يصله ، جفوة : مرة واحدة ، وجفاء مصدر عام ، ورجل وَصُولٌ : كثير الوصل .

وقال الرُّصافى فى هذا المعنى فأحسن :

وذى حنينٍ يكاد شوقاً يختلسُ الأنفس اختلاساً^(١)
إذا غدا للرياض جاراً قال له المخلُ : لا مساساً
يبقيسُ الرّوضُ حين يبتكى بأعينٍ ما رأينَ بأساً
من كلِّ جفنٍ يسلى سيفاً صارَ له غمده رثاساً

ولأبى الفضل بن الأعمى فى قواديس الساقية :

وشكّ كعبتهم حفرة من فارق الحفرة بيكها
حتى إذا ما أنفذوا دمهم خرّوا على رموسهم فيها

وقال أعرابى فى ساقية :

باتت تحنّ وما بها وجدى وأحنّ مشتاقاً إلى تجرد
فدموعها تحيا الرياضُ بها ودموع عيني أحرقت خدّى

قوله : غريق بارز ، يريد أن بعضه يفرق فى الماء وبعضه يبرز منه ، وهو

معنى راسب طافي ، لأنك تقول : رَسَبَ الشيء في الماء ، إذا هبط في قعره وسَفَلَ فيه ، وطفأ ، إذا ارتفع على وجه الماء . يَصْبُ : يصبُّ . مهضوم ويهضم : ينقص . متلاف : مبذّر للمال ، يريد كثرة أخذه للماء وإراقته له . حدّته : سرعة جريه ، لأنه إن نشب بأحدٍ في جريه أهلكه . وقلبه صافي ، لأنه ليس من الحيوان فيعتقد شرّاً إن أخرج . ولابن سعد الخير البلنسيّ ن دولاب :

للهِ دُولَابٌ يَفِيضُ بِسِلْسِلٍ فِي رَوْضَةٍ قَدْ أُيْنَعَتْ أَفْنَانًا^(١)
 قد طارحته بها الحمام شجوها فيحببها ويراجع الألفان
 وكأنه دَفِئٌ يدور بمعهـدٍ يبكي ويسأل فيه عَمَّنْ بَانَا
 ضاقت مجارى دمه عن جفنه ففتحت أضلاءه أجفانَا
 ولبعض أصحابنا :

وقدّة الحسن في محاسنها للعين قيدٌ وللحجا شركُ
 تبسّكي فتبدي حنين ذى نسكٍ بعد التّصابي وما بها نُسكُ
 إذا بكت في الرّياض من طرب بدأ بوجه الأواصر الضّحكُ
 كأنّ ما انهلّ من مدامعها رجومُ شهبٍ يُقلّها فلكُ

قال : فلما رَشَقَ ، بالخمس التي نَسَقَ ، قال : يا قوم تدبّروا هذه الخمس ،
 واعقدوا عليها الخمس ، ثُمَّ رَأَيْكُمْ وَضَمَّ الذَّلِيلَ ، أو الازدياد من
 هَذَا الْكَيْلِ .

قال : فاستفزّت القوم شهوة الزيادة ، على ما أشربوا من البلادة ،
 فقالوا : إن وقوفنا دون حدّك ، يُفحِمُنَا عن استيراء زَنَدِكَ ، واستشفافِ
 فِرْنِكَ ، فإن أتممت عشرًا فَمِنْ عِنْدِكَ ؛ فاهتزّ اهتزاز من فلج سهمه ،
 وانخزل خضمّه .

(١) نفع الطبيب ٣ : ٦٠٢

قوله : رَشَق ، أى رَمَى ، مأخوذ من رَشَق السهام ، يقال : رَشَقْتُ رَشَقًا ، أى رَمَيْتُ ، والرَّشَق بالكسر : اسم للسهم ، وهو اسمٌ للهِدْفِ الَّذِي يرمونه . نَسَق : تابع واحدًا بعد واحد ، وكلُّ شَيْءٍ تبع بعضه بعضًا على السواء فهو نَسَق . ضَمَّ الذيل : التشمير . الفنجديهي : ضمَّ الذيل كناية عن الاكتفاء بهذه الأحاجي الخمس ، والسكوت عن طلب الزيادة ، يريد بالازدياد من الكيل ، أن يزيدهم من حسن الأحاجي .

واستفَزَّتهم : استدعتهم واستخفَّتْهم ، الزَّجَاج في قوله تعالى : ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾^(١) أى استدعه لتستخفَّ به إلى إجابتك ، واستفَزَّه : ختله حتى ألقاه في مهلكة . أَشْرَبُوا : سُقُوا ودُودُوا وخُلُوا وخولطوا ، وكلُّ لون خالط لونا آخر فقد أَشْرَبَهُ .

والبَلَادَة : التَّحْيِيرُ في الأمر ، والبليد المتحَيِّر : الذى لا يدري أين يتوجَّه ، الأصمعى : البليد : الذى يضرب بإحدى بلديته على الأخرى من الغمِّ عند المصيبة . والبَلْدَة هى الرَّاخَة ، يقال : تَبَلَّدَ الرجل ، إذا تحَيَّرَ وضرب بإحدى يديه على الأخرى ، يريد أنَّ البلادَة مَشَتْ فيهم وأشْرَبَتْهم .

* * *

ثُمَّ افْتَتَحَ النَّطْقَ بِالْبَسْمَلَةِ ، وَأَنشَدَ مُلْفِزًا فِي الْمَزْمَلَةِ :

ومسرورة مغومة طول دهرها	وما تَذْرى ما السرور ولا النِّم
تُقَرَّبُ أحيانا لأجل جنينها	وَكَمْ وَلِدٍ لولاه طُلِّقَتِ الأم
وتُبْعَدُ أحيانا وما حال عهدُها	وإبعاد مَنْ لم يَسْتَحِلْ عَهْدُهُ ظَلَم

إِذَا قَصَرَ اللَّيْلُ اسْتَلَدَ وَصَالَهَا
وإن طَالَ فَلْإِعْرَاضُ عَنْ وَصْلِهَا نَعْمَ
لَهَا مَلَبَسٌ بَادٍ أُنِيقُ مَبْطُنٌ
بِمَا يُزْدَرَى لَكِنْ لَمَّا يُزْدَرَى الْحَكَمُ

* * *

قوله : المزملة ، أى الملقفة ، وقد زُملت ، إذا لُفَّتْ ، وهى آنية يُبرد فيها الماء ، شبه الخابية ، تستعمل بأرض العراق وتوضع عليها لفائف ثياب خشنة ، وتُغشَّى بجلد أو ثوب مزين ، حسن لنظر العين ، ومن تحته تلك الأغشية الخشنة التى لها السر والحكم فى تبريد الماء . ومسرورة ، أى محمولة على سرير ، وهم يجعلون تحته مرفعاً من عود أو حديد ، ترتفع به عن الأرض فهو سريرها ، وكذلك رأيتُ خوابى الماء بسجلماسة ، كلها على أسرة عود . وقيل مسرورة : مغمومة مغطاة ، وسرير الكماة : ما غطاها من التراب . والغم : ضد السرور . جنينها : ولدها ، أراد به الماء . وحال : تغير . عهدا : التقاؤها وقربها . غُثم : غنية . أنيق : مُعْجِب . يزدرى : يحتقر ، وأراد بالحكم معنى تبريد الماء ، وأراد أن ما بدا منها للناظر فهو غشاء حين يجب مَنْ رآه ، وهو قد بطن بلفائف غلاظ مستحقرة ، ولها معنى تبريد الماء ، وقال السرى الموصلى فى المزملة :

وحافظة ماء الحياة لفتية
حياتهم أن تُسْتَلَدَ المشارب^(١)
تسربلها أجنى اللباس وإئتما
يليق بها أفوافه والسباب^(٢)
على جسدٍ مثل الزبرجد لم يزل
يشاكله فى لونه ويناسب
إذا استودعت حرَّ اللجين سبائكا^(٣)
نصوب فى أحشائها وهو ذائب

(٢) الديوان : « السباب » .

(١) ديوانه ٦١

(٣) الديوان : « يصوب من اجسامها » .

(م ه — شرح مقامات الحريري ج ٥)

فهذه القطعة وقطعة القائمة تدل على تفسيرنا ، وبه كان يفسر شيخنا ابن جهور رحمه الله ، حدثنا بذلك شيخنا أبو بكر بن أزهر عنه . وأما الفنجديهي ففسر المزملة بتفسير غير مرضي ، وذلك أنه قال : المزملة موضع يغصى ؛ ويحشى تبنًا ، ويوضع في وسط التبن وعاء في القيظ يُبقى الماء باردًا ، ويترك ثقبه في وسط الموضع لدخول الجرة فيها ، ولهذا قال : «مسرورة» أي مقطوعة السرّة ، وهو من سرّ الصبي ، إذا قطعت القابلة سرّته .

* * *

ثُمَّ كَشَرَ عَنْ أُنْيَابِهِ الصُّفْرَ ، وَأَنْشَدَ مُلْفِزًا فِي الظُّفْرِ :
وَمَرْهُوبِ الشَّبَا نَامٍ وما يرعى ولا يشرب
يُرَى فِي الْعَشْرِ دُونَ النَّحْرِ فَاسْمَعْ وَصْفَهُ وَاعْجَبْ

* * *

كَشَرَ : كشف . أُنْيَابِهِ : أضراسه . الصُّفْرَ ، يريد أنه لا يتعمدها بالسّواك ، ولذلك اصفرت وتلك الصفرة تسمى القلح ، وقد قال في السادسة والعشرين : «بحسن مُلَحِّهِ وَقَبْحِ قَلَحِهِ» . مرهوب : مخوف . الشَّبَا : الحدّ . نَامٍ : زائد ، والظفر إذا تَرَكَّ بغير تعليم طال . وما يرعى ، يريد أن نمو الخلق وزيادته إنما هو بما يتغذى به من الأكل والشرب ، وهذا يكبر ويزيد من غير غذاء . والعشر في الظاهر : عشر ذى الحجة . والنحر : يوم النحر أي يوم العيد ، فأراد أن هذا المرهوب الشبا إنما يظهر في العشر خاصّة ، فإذا جاء يوم العيد وطول السنة بعده لم يظهر ، وإنما يعني بالعشر الأصابع . والنحر : العنق ، أي أن الأظفار خُلقت في الأصابع لا في العنق ، أو يريد أن الظفر يرى في الأصابع العشر في عشر النحر من ذى الحجة .

* * *

ثُمَّ تَخَازَرَ تَخَاوَزَ الْعِفْرِيتِ ، وَأَنْشَدَ مُلْفِزًا فِي طَاقَةِ الْكِبْرِيتِ :
وَمَا تَحْقُورَةُ تُدَنِّي وَتُقْصِي وما منها إذا فكَرْتَ بُدْ

لَهَا رَأْسَانِ مُشْتَبِهَانِ جَدًّا وَكُلٌّ مِنْهُمَا لِأَخِيهِ ضِدُّ
تُعَذِّبُ إِنْ هُمَا خُضِبَا وَتُلْفَى إِذَا عَدِمَا الْحَضَابُ وَلَا تُعَدُّ

* * *

قوله : تَحَاذَرُ ، أى نظر بمؤخر عينيه مستقلاً لذلك ، وهو نظر المحتقر لمن ينظر المنكر عليه . والعفريت : الشيطان المؤذى ، وهو الرئيس من الجن ، والكبريت ، معروف فارسيّ معرّب . وطاقاته : قضبانه التى تجعل شيئاً على شيء وهو الوقود الذى يشعل به المصباح . تُقْصَى : تبعّد . جدًّا ، أى كثيراً ، ويريد بالرأسين طرفى قضيب الوقيد اللذين ينغمسان فى الكبريت ، وجعلهما ضدّين لأن هذا فى طرف وهذا فى طرف ، فقد تباعدا وضدّ الشيء بعيد عنه ، وجعلهما متشبهين ؛ لأن شكل الطرفين وهما الرأسان شكل واحد . وخُضِبَا : غمسا فى الكبريت . وتُلْفَى : تهجر وتترك ، وقال ابن رشيق :

إِنْ كُنْتَ تَنْكُرُ مَا مِنْكَ ابْتَلَيْتُ بِهِ فَإِنَّ بُرْءَ سَقَايَ عَزَّ مُطْلَبُهُ (١)
أَشْرَ بَعْدِي مِنَ الْكَبْرِيتِ نَحْوِ فِى وَانْظُرْ إِلَى زَفَرَاتِي كَيْفَ تُنْلَبُهُ

* * *

مُحَمَّدٌ تَحْمَطُ تَحْمَطُ الْقَرَمِ ، وَأَنْشَدَ مُنْغَزَا فِي حَلَبِ الْكَرَمِ :

وَمَا شَيْءٌ إِذَا فَسَدَا تَحَوَّلَ غَيْهَ رَشَدَا
وَإِنْ هُوَ رَاقٌ أَوْ صَافَا أَثَارَ الشَّرِّ حَيْثُ بَدَا
زَكَا الْعِرْقِ وَالِدُهُ وَلَكِنْ بِئْسَ مَا وَلَدَا

* * *

قوله : تَحْمَطُ ، أى تكبر وتهيباً للقول ، وأصل التَحْمَطُ للقرم ، وهو فحل الإبل ، وتَحْمَطُ : تهيباً للهدير وأخذ فى الصّياح والهجوم على الإبل . وحَلَبِ الْكَرَمِ ، أراد النحر ، لأنها تُحْلَبُ من العنب . والحَلَبُ : اللبن المحلوب ، يقول :

(١) نقله ابن رشيق فى النكت ٧ ، ٨

الجر إذا فسدت صارت خلا ، فخل استعمالها ، فقد صار غيثها وهو فسادها رشداً ،
 أى صلاحاً ، وقال أبو بكر بن القبطرنة في خبر له فسدت فصارت خلا :
 أبا حسن إني فجعتُ بصاحب أنيس يسألُ الهَمَّ عند احتلاله
 غدت بنت بسطام بن قيس بدنها وأمست كجسم الشنفرى بعد خالهِ
 قوله : « غدت بنت بسطام بن قيس » ، أى صهباء ، لأن بسطام بن قيس يكنى
 أبا الصهباء . وقوله : « وأمست كجسم الشنفرى » ، أى خلاً ، لأنه يريد قول
 الشنفرى ^(١) :

* إن جسمى من بعد خالي خلٌّ *

أى مختل .

وقال آخر في ذلك :

حَسِبْتُهَا بِنْتَ بَسْطَامٍ لَهَا أَرْجٌ ثُمَّ افْتَضَضْتَ خَتَامًا مِنْ أَبِي سَلَمَةَ
 عَرَضَ بِأَبِي سَلَمَةَ الْخَلَّالُ .

ومن التعريض المركب على هذا المعنى قول الشاعر :

شربتُ مداماً تسرّ التريفاً فأصبحت تجرّع خلاً ثقيفاً ^(٢)
 وصرت حجازاً جديب المحلل وقد كنت للطالب الخصب ريفاً
 وقال آخر :

يَا عُقَاراً صَارَ خِلاًّ وَمِلَاداً لِلْبَعُوضِ

يَرِّمُ فَمَا لِي فِيكَ حَظٌّ كَانَ ذَا قَبْلِ الْجَوْضِ

مَا أَبَالِي بَعْدَ كُلِّ زَبْدٍ مِنْ طَرَحِ الْخَيْضِ

قوله : راق أو صافاً ، أى حسنت أو صافه وحسبها أن توصف بالركة والصفاء
 والحمة والقدم وقوة الفعل ، يقول : فإذا كانت أو صافه معجبة أو قد الشر حينما

(١) اللسان - خلل ، وصدره :

* فاستقنيها يا سواد بن عمرو *

(٢) ط : « بت » .

حضر فإذا فسدت أوصافه صلح . زكى العرق : كريم الأصل ، والزكاء : النماء
والزيادة ، أى كثير الفضل والخير ، وأراد أنها شجرة مباركة يكون منها العنب
والزبيب والرب ، ولكنها تلد ولد سوء ، وهو الخمر ، وأخذ هذا المعنى من
قول الشاعر :

فإن نخرت بآباءهم شرفً قلنا صدقت ، ولكن بئس ما ولدوا
أو يريد لذة العنب .

* * *

ثم اغتضد عصا التسيار ، وأنشد مُلغزاً فى الطَّيَّار :

وذى طيشة شقه مائلٌ وما عابه بهما عاقلٌ
يرى أبداً فوق عليّة كما يمتلي الملك العادلُ
تساوى لديه الحصار والنضار وما يستوى الحق والباطلُ
وأعجب أوصافه إن نظرت كما ينظر الكيس الفاضلُ
تراضى الخصوم به حاكماً وقد عرفوا أنه مائلُ

* * *

قوله : اغتضد ، جعلها تحت عضده . التسيار : السير . والطَّيَّار : ميزان
معروف عندهم ، يرجّحه أيسر شئ ؛ فلخفته سُمي الطَّيَّار . وقيل : الطَّيَّار . ميزان
الدراهم المعروف عندهم بالقارسطون . الفنجديهى : الطَّيَّار : لسان الميزان .

طيشة خفة . شقه : نصفه وجانبه ، فيريد بالظاهر : وذى حق وخفة أصابه
خدر وفالج ، فليس جنبه فمال على الجانب الصحيح ، ومع ذلك لا يرى أبداً
إلا فى مكان مرتفع عالياً كما يفعل الملك ، والحجارة والذهب عنده سواء .
والنضار : الذهب ، ثم قال : وإذا نظرت إليه نظر كيس حاذق رأيت فى وصفه
عجباً حين كان الناس يتراضون بحكمه مع معرفتهم بأنه ناقص الخلقه ، لا يعدل فى

حكمه إنما هو مِثَال مع أحد الخصمين . والعليّة : اليد التي يمسك عليها الميزان .

[بعض الألفاظ]

وقال أبو نواس يلفز :

واسم عليه جُنَنٌ للصبا وضَمَّه للوصف دَوَّارُ
فضحتُ عنه سرّاً كتمانَه وكان من شائى إظهارُ
يُحَذَفُ أول مبتدأ لاسمه ثم يكون الوصف إضمار
فذاك عل في لعلّ وفي قولك في حارث : يا حار
فهو بحذف ذا وترخيم ذا أح لمن تلذعه النار

الاسم راحة ، يحذف أوّل حرف وآخر حرف ، ويبقى أح ، وهو من لذعته النار .

وقال آخر :

ويلي من الحبّ وويلاهُ مُلْكٌ قلبي وتناساه
مَنْ ثالث العنبر بعضُ اسمه ورابع العنبر أوّلاه
وقوله عند سؤالي له : ما في اسمه والحافظ الله ؟

الاسم رعبلان . وأنشد ابن إسحاق النحوي :

حلف الحبيب علىّ لاسميته فكنتيه وأطعت خوف تفاضيه
ظلي إذا ما زارني حلّ اسمُه قلبي وذاك من عجيب عجائبه
ويكون إن رخته وجزمته وقلبه ما تشتهي من صاحبه
ويكون بعد الجزم إن فكرت في التّضحيف مقلوباً أشدّ معايبه

الاسم فرجة . وأشدّ معايبه فرج ، وهو ما يشتهى من صاحبه ، إذا
حذفت الهاء .

وقال ابن شرف :

ما آكلٌ يعطى على أكلةٍ إعطاءً إقلالٍ وإكثار^(١)
لُقمته قيمتها وحدها من غير خلف ألف دينار
هو فرج المرأة .

وله في المرأة :

ما يقول الشيخ في شئ . تراه ويراك^(٢)
ثم لا تلقاه إلا حين لا يلقى سواكا

وله أيضاً في الإبرة :

ضئيلة الجسم لها فعل متين السبب^(٣)
حافزها في رأسها وعينها في الذنب

ولغيره في الميزان :

وقاضٍ قد قضى في الأرض عدلٌ له كفتٌ وليس له بئانٌ
رأيتُ الناسَ قد قبلوا قضاؤه ولا نطقٌ لديه ولا بيانٌ
وقال العلويّ الأصهباني يلفز في النسر الواقع :

وركب ثلاث كالأنثى تعاوروا دجاً الليل حتى أومضت سنة الفجر
إذا اجتمعوا سميتهم باسم واحد وإن فرقوا لم يعرفوا آخر الدهر

(١) يظله في التنف ١٠١

(٢) التنف ١٠٦

(٣) التنف ٩٢

وَأُنْشِدِ الْخَاتِمَى فِي الْخَفَاشِ وَهُوَ طَائِرُ اللَّيْلِ :

أَرَى عُلَمَاءَ النَّاسِ لَا يَعْرِفُونَنِي وَقَدْ ذَهَبُوا لِلْعِلْمِ فِي كُلِّ مَذْهَبٍ
يَجْلِدُكَ إِنْسَانٌ وَصُورَةُ طَائِرٍ وَأُظْفَارُ يَرْبُوعٍ وَأَنْيَابُ ثَعْلَبٍ
وَأُنْشِدِ فِي الطَّائِرِ وَظِلَّهُ :

عَجِبْتُ لَطَائِرٍ فِي الْحُومِ طَارًا وَكَانَا وَاحِدًا فَائْتِنِ صَارَا
فَهَذَا طَائِرٌ فِي الْجَوِّ يَهْوِي وَذَا مُسْتَأْنَسٌ لَزِمَ الْقَرَارَا
وَأُنْشِدُوا فِي مَصْرَاعِ الْبَابِ :

عَجِبْتُ لِحُرُومَيْنِ مِنْ كُلِّ لَذَّةٍ بَيِّتَانِ طَوَلَ اللَّيْلُ يَفْتَقِنَانِ
إِذَا أُمْسِيَا كَانَا عَلَى النَّاسِ مَرَصِدًا وَعِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ يَفْتَرَقَانِ
وَأُنْشِدُوا :

فَمَا مَيِّتٌ أَحْيَاهُ اللَّهُ مَيِّتًا لِيُخْبِرَ قَوْمًا أَنْذَرُوا بَيِّانٍ
وَعَجْفَاءٌ قَدْ قَامَتْ لَتُنْذِرَ قَوْمَهَا وَأَهْلُ قُرَاهَا رَهْبَةُ الْخَدَّائِنِ
الميت الأول بقرة بنى إسرائيل ، والميت الثانى الذى ضرب ببعضها .
والعجفاء نملة سليمان عليه السلام .

وَالْأَلْفَاظُ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ عَلَيْهَا الْحَصْرُ .

* * *

قال : فَظَلَّتِ الْأَفْكَارُ تَهِيْمَ فِي أَوْدِيَةِ الْأَوْهَامِ ، وَتَجُولُ جَوْلَانَ
الْمُسْتَهَامِ ، إِلَى أَنْ طَالَ الْأَمَدُ ، وَحَصَّصَ الْكَمَدُ . فَلَمَّا رَأَوْهُمْ يَرْزَنُونَ
وَلَأْسَنَا ، وَيَقْضُونَ النَّهَارَ بِالْمَنَى ، قَالَ : يَا قَوْمُ ؛ إِلَامَ تَنْظُرُونَ ،
وَحَتَّامَ تَنْظُرُونَ ! أَلَمْ يَأْنِ لَكُمْ اسْتِخْرَاجُ الْخَبَى ، أَوْ اسْتِسْلَامُ الْعَبَى !
فَقَالُوا : تَاللَّهِ لَقَدْ أَغْوَصْتَ ، وَنَصَبْتَ الشَّرَكَ فَقَنْصُتَ ؛ فَتَحَكَّمْ كَيْفَ

شيت ، وحُزِ النِّعمَ والصَّيِّت ، ففَرَضَ عن كُلِّ مَعَمَى فَرَضًا ، واستَخْلَصَهُ مِنْهُ نَضًا . ثم فتح الأقفالَ ، ووسم الأغفالَ ، وحاولَ الإجفالَ . فاعْتَلَقَ مِذْرَهُ الْقَوْمَ ، وقال له : لا لبُسةَ بَعْدَ اليوم . فاستَنَسِبَ قَبْلَ الانْطِلَاقِ ؛ وَهَبَهَا مُنْعَةً المَطْلَاقَ ، فأطَرَقَ إطرَاقَ مُرِيبٍ ، ثم أنشد والدَّمْعِ مُجِيبَ .

* * *

قوله : تهيم أى تتحير والهائم : الذى يركبُ رأسه ويمشى على غير هداية .
الأوهام : جمع وَهْم وهو ماتوهمه وتتصوره فى نظر مسألة مشكلة ، إما خطأ وإما صوابًا ، وأراد أن أفكارهم كانت تتحير فى نظر ألغازه ولا تهتدى . تَجُولُ : تتصرّف . المُستَهَام : العاشق الذى ذهب به الحبُّ كلَّ مذهب . حصحص : تبين .
الكمد : الحزن والهم . يَزْنِدُونَ ولا سَنًا : يقدحون الزَّندَ ، ولا يظهر لهم ضوء ، أى تضرب أذهانهم الألغاز ، فترجع بلا فهم . ويقضون : يقطعون يومهم بأمانى لا محصول لها .

[من أقوالهم فى الأمانى]

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : إِيَّاكَ والمنى فإنها بضائع النِّوَكى ، وتنبّط عن الآخرة والأولى ، وأشرف الغنى ترك المنى .

على بن عبيدة الزنجاني : الأمانى مخايل الجهل .

وقال غيره : الأمانى تمخدك وعند الحقائق تدعك .

وفى ضده : أفلاطون : التمنى حلم المستيقظ وسلوة المحروم .

غيره : الأمل رفيق مؤنس إن لم يبلغك فقد أهلك .

قيل لأعرابي : ما أمتع لذات الدنيا ؟ قال : بمازحة الحبيب ، ومحادثة الصديق ، وأمانى تقطع بها أيامك . وأنشد الثعالبي :

ولا تكن عبدَ المنى فالتنى رءوس أموالِ المفاليسِ

وقال مسلم بن الوليد :

وأكثر أفعال الغواني إساءة وأكثر ما تلقى الأمانى كواذباً^(١)
وأنشد أبو تمام في ضده :

مُنَى إِنْ تَكُنْ حَقًّا تَكُنْ أَحْسَنَ الْمَنَى وإلا فقد عشنا بها زمناً رغداً
أمانى من كَلَى حِسَاناً كأنما سقتنى بها ليل على ظمأ برّداً
ابن المعتز يصف ساقياً :

فظلُّ بُنَاجِينِي يَقْلُبُ طَرْفَهُ بأطيب من نجوى الأمانى وأطفأ
غيره :

عَلَّيْنِي بِمَوْعِدٍ وَاْمَطُّي مَا حَيْثُ بِهِ
وَدَعِيْنِي أَفُوزُ مِنْكَ بِنَجْوَى تَطْلُبُنِي
فَعَسَى يَغْفُرُ الزَّيْمَا نَ بِخَطِي فَيَنْتِمِي

قوله : تُنْظَرُونَ ، أى تؤخرون . يَأْنِ : يحين ويقرب . الحبي ، أى الخبوء المستور ، يريد ما خبئاً لهم فى الشعر من اللفز . استسلام : انقياد . الغبي ، أى الجاهل بالشئ . أغوصت : أنبت بعويص وهو الصعب . الشَّرْك : آلة يُصَاد بها . قَنَصْتُ : صِدْتُ . العُنْم : الغنيمة والجائزة . الصَّيْتُ : الذِّكْر الحسن . يُنْشَرُ فى الناس وَيَشِيْع . فَرَضَ : قَسَط . وأوجب : وألزم . والقرض : العطية . واستخلصه : جعله خالصاً . نصّاً : حاضراً . فتح الأقفال ، أى حلّ ألفاظ الألغاز وإلباسها وكأنّها لتعميتها كأنّ عليها أقفالاً ، فحلّها بتفسير . والأغفال : جمع غُفْل ، وهو الشئ المهمل ليس له علامة يعرف بها . وَسَمَهَا : جعل لها علامة . حاول الإجمال ، أراد الفرار ، وأجفل القوم : انهزموا . ومدّره القوم : لسانهم وفصيحتهم المتكلّم عنهم ، وأصل المدرة المدفّاع ، وقد دَرَهْتُهُ ، إذا دفعته : لبسة : شبهة ، وقد التبس الأمر إذا أشكل ، ومُتَمِّعَةُ الطلاق ، أن يهب الرجل لامرأته

(١) ديوانه : ٣٠٠

شيئاً من ماله إذا طلقها يسليها بذلك عن فراقه لها ، وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : أكثر المتعة خادم ، وأقلها ثلاثون درهماً ، وقيل : أكثرها خادم وأوسطها ثوب وأقلها ماله ثمن . وهبها : احسبها ، يقول : احسب انتسابك لنا مُتَعَةً وتسليّة لفراقك عنا . أطرق : أمال رأسه وسكت . مُريب : صاحب ريبة . والدّمع مجيب ، يريد أن إنشاده دعا دمه فأجابته وقد قال أبو الطيب :

* أجاب دَمْعِي وما الداعي سِوَى طَلَلٍ ^(١) *

يريد أنه لما وقف على الطلل وهو أثرُ دارِ أحبائه هيجّه لهم فبكى ، فالطلا لما دعاه للتذكّر أجابه بدموعه .

* * *

سَرُوجُ مَطْلَعُ شَمْسِي	وَرَبْعُ لَهْوِي وَأُنْسِي
لَكِنْ حُرِمْتُ نَعِيمِي	بِهَا وَلَذَّةُ نَفْسِي
واعتَضْتُ عنها اغْتِرَابًا	أَمَرَ يَوْمِي وَأَمْسِي
مَالِي مَقَرٌّ بِأَرْضِي	وَلَا قَرَارٌ لِعَنْسِي
يَوْمًا يَنْجِدُ وَيَوْمًا	بِالشَّامِ أَضْحِي وَأُمْسِي
أَزْجِي الزَّمانَ بِقَوْتِ	مُنْعَصٍ مُسْتَحْسِنٍ
وَلَا أَيْتُ وَعَنْدِي	فَلَسْتُ، وَمَنْ لِي بِفَلَسٍ!
وَمَنْ يَعِشْ مِثْلَ عَيْشِي	بَاعَ الْحَيَاةَ يَبْخَسِ

ثمّ إنّه اختَبَنَ خُلَاصَةَ النَّصِّ ، وَتَدْرَضَارِبًا فِي الْأَرْضِ ، فَنَاشَدَنَاهُ أَنْ يَعُودَ ، وَأَسْتَتِينَا لَهُ الْوَعْدُ ؛ فَلَا وَأَيُّكَ مَا رَجَعَ ، وَلَا التَّرْغِيبُ لَهُ تَجَمُّعٌ .

* * *

(١) ديوانه ٤ : ٧٤ ، وبقيته

* دَعَا فَلَبَّاهُ قَبْلَ الرَّكْبِ وَالْإِبْلِ *

قوله : مَطْلَعُ شَمْسِي ، يريد أن سَرُوجَ هِي بِلْدِهِ الَّتِي نَشَأَ فِيهَا . رُبِعَ : مَنْزِل .
 اِعْتَصَمْتُ : اسْتَبَدَلْتُ . أَمَرٌ : جَعَلُهُ مُرًّا . مَقَرٌّ : إِقَامَةٌ . قَرَارٌ : سَكُونٌ وَإِقَامَةٌ
 عَتَسَى : نَاقَتِي الْوَيْثِقَةُ . تَجَدَّ : مَا ارْتَفَعَ مِنَ الْأَرْضِ ، وَأُنْجَدَّ : أَتَى نَجْدًا . وَالشَّامُ :
 أَخَذَ مِنَ الْيَدِ الشَّوْمَى . أَزْجَى : أَسْوَقُ . مَنْقَصٌ : مَكْدَرٌ ، وَيُقَالُ : نَقَّصَ عَلَيْنَا
 فُلَانٌ ، أَيْ قَطَعَ عَلَيْنَا مَا كُنَّا نَحِبُّ الِاسْتِكْثَارَ مِنْهُ ، وَكَلَّ مَنْ قَطَعَ شَيْئًا يَحِبُّ
 الْإِزْدِيَادَ مِنْهُ فَهُوَ مَنْقَصٌ . مُسْتَخَسٌّ : مُسْتَهْجَنٌ . بَحْسٌ : نَقْصَانٌ .

اِخْتَبَنَ : جَعَلَهُ فِي خُبْنَتِهِ : وَهُوَ طَرَفُ ثَوْبِهِ ، وَالْخُبْنَةُ كَالْحُجْزَةِ لِلْإِزْرَارِ ،
 وَالْخُلَاصَةُ : مَا خُلِصَ لَهُ مِنْهُ وَصَفًا . وَنَدَرَ : سَبَقَ ، وَذَهَبَ يَضْرِبُ فِي الْأَرْضِ
 إِذَا سَارَ فِيهَا ، وَأَصْلُ نَدَرَ ، خَرَجَ وَطَارَ ، مِثْلُ النَّوَاةِ إِذَا طَارَتْ مِنْ تَحْتِ الْمَرْضِخِ
 وَشَبَّهَهَا . فَنَاشَدْنَاهُ : حَلَّقْنَاهُ . يَعُودُ : يَرْجِعُ . أَسْتَيْنَا : عَظَّمْنَا وَجَعَلْنَاهَا سَنِيَّةً
 أَيْ رَفِيعَةً . وَالْوَعُودُ : جَمْعُ وَعْدٍ ، وَهُوَ مَا وَعَدُوهُ بِهِ مِنَ الْمَالِ . التَّرْغِيبُ :
 التَّطْمِيعُ ، وَقَدْ رَغَّبْتَهُ فِي الشَّيْءِ إِذَا زَيَّنْتَهُ لَهُ وَطَمَعْتَهُ فِيهِ . وَنَجَعَ : نَفَعَ ، وَقَدْ نَجَعَ
 عَلَيْهِ الطَّعَامُ ، إِذَا أَصْلَحَ عَلَيْهِ جِسْمُهُ .

المقامة الثالثة والأربعون وهي البكرية

حكى الحارث بن همام قال : هفا بي البين المطوح ، والسَّيرُ
المبرح ، إلى أرض يضلُّ بها الخريتُ ، وتفرقُ فيها المصالياتُ ،
فوجدتُ ما يحدُّ الحائرَ الوحيد ، ورأيتُ ما كنتُ منه أريدُ ؛ إلا أني
شجعتُ قلبي المزود ، ونسأتُ نضوى الجهود ، وسرتُ سيرَ
الضاربِ بقدرين ، المستسلمِ للحين ؛ ولم أزلْ بينَ وخدٍ وذميل ،
وإجازةٍ ميلٍ بعد ميل ؛ إلى أن كادت الشمسُ تجب ، والضياءُ يحجب .
فارتعتُ لإظلالِ الظلام ، واقتحامِ جيشِ حام ، ولم أدرِ أأُكفُ
الذيلَ وأرتبطُ ، أم أتعتمدُ الليلَ وأختبط !

* * *

هفا ، أى طار وخف . المطوح : المتبعِدُ المُشْفَى على الهلاك ، وقد طوحتُ
الشيء ، إذا رميتَ به وألقيته إلقاءً منكراً . المبرح : الشاقُّ المتعب ، وقد برحَ
الأمر ، إذا عظم واشتد . يضلُّ : يتحيرُ ويتلف . الخريت : الدليل ، وقيل :
هو من خرت الإبرة كأنه من حسن دلالة يهتدى على مثال خرت الإبرة
وهو يُنقبها . تفرق : تفرع . المصاليات : الشجعان الماضون في الحروب ، واحدم
مِصلات ، قال الفراء : المنصَلَّت : المسرع من كلِّ شيء ، وجمعه مِصَالَت
ومصاليات . أريد : أخاف وأميل عنه . المزود : المفزع ، وزئد الرجل : فزع .
نسأت : ضربتُ بالنسأة ، وهى العصا . نضوى : بعيرى . الجهود : المتعب .
قدحَيْن : سهمين .

[اليسر والقداح]

وكان الرجل في الجاهلية يُمسك ثلاثة أقداح ، على أحدها مكتوب : « أمرني ربي » ، وعلى الثاني « نهاني ربي » ، والثالث غُفْل لا شيء عليه وهو المنيع ، فإذا أراد سفراً أو أمراً ضرب بها ، فإن خرج له « أمرني ربي » مضى آمناً ، وإن خرج له « نهاني ربي » ترك ذلك الأمر وإن خرج له غُفْل أعاد الضرب .

وقيل : كان يمسك قدحين مكتوب على أحدهما « افعل » وعلى الثاني « لا تفعل » ، فإن خرج « افعل » مضى ، وإن خرج « لا تفعل » ترك .

وقيل : كان لا يمضي حتى يخرج له « افعل » ثلاث مرات ، ولا يترك المضي حتى يخرج له « لا تفعل » ثلاث مرات ، فإن خرج له مرة « افعل » ومرة « لا تفعل » ولم يخلص له أحدهما ، فإن مضى في ذلك الأمر مضى وهو يرجو ويخاف ، وهذا هو الذي أراد الحريري لأنه كان بين الرجاء والخوف .

ولما قُتل حجر أبو امرئ القيس ، أخذ امرؤ القيس أزالامه وهي القداح ، وأتى ذا الخلصة - وهو صنم لدوس وخشم وبجيلة - فاستقسم عندها بالأزالام فخرج له القدح الذي يكره ، فأخذ الأزالام وكسرها وضرب بها وجه صنمها ، وقال :

لو كنت يا ذا الخلص الموتورا^(١)

مثلي وكان شيخك المقبورا

لم تنه عن قتل العداة زورا

وحكى الفنجديهي ، قال : الضارب بقدحين ، يعني به قول الناس :
إِذَا الْغُفْمُ ، وَإِذَا الْغُرْمُ ، وَإِذَا الْمُلْكُ وَإِذَا الْهُلْكُ قال الشاعر :

(١) الرجز في معجم البلدان ٣ : ٥٨

ضربتُ بها البيتَ ضَرْبَ الْقِدَا ح إما لهذا وإمّا لهذا^(١)
والقِدْح : السهم قبل أن يُرَاش ويركَّب نَضْلُهُ .

وحكى ابن ظَفَر أن الأَزلام سبعة قِدَاح ، مكتوب على أحدها « نعم »
وعلى الآخر « لا » وعلى قِدْح « منكم » وعلى قِدْح « من غيركم » وعلى قِدْح
« مُلْصَق » وعلى قِدْح « العقل » ، وعلى قِدْح « فضل العقل » . وكانت بيد
سادن الأصنام ، فيأتيه ذو الحاجة بدراهم ، فيسأل الصنم أن يوضح له ما سأل عنه ،
ثم يضرب بالقِدَاح ، فإن أتى سائل عن تزويج أو سفر أو شبه ذلك مما يستشار
في مثله ضَرَبَ له بالقِدْحين اللذين عليهما نعم ولا ، فإن خرج « نعم » مضى
على فعله وإن خرج « لا » ترك ذلك . فإن انتسب رجل إلى قبيلة ضرب له
بالأقداح الثلاثة التي فيها « منكم » « من غيركم » « ملصق » فإن خرج
« منكم » أضافوا نسبه إلى أنفسهم ، وإن خرج « من غيركم » كان حليفاً
وإن خرج « ملصق » لم يكن له حلف ولا نسب . فإن أتى سائل عن قتيل أو
جناية ضرب بالقِدْحين اللذين عليهما العقل ، فإن خرج على قوم « العقل » برىء
منه الآخرون ، وإن عقلوا ففَضَّلَ شيء ، فإن اختلفوا فيه ضرب بالقِدْح الذي
عليه فضل العقل ، فإن خرج عليه أدَّاه .

ومعنى الاستقسام بها الرِّضا بالقسمة بينهم من الأمر والنهي والبراءة
والوجوب .

وسهام الميسر عشرة : ثلاثة يُتسكَّرُ بها لا أنصباء لها ، وسبعة لها أنصباء ،
فأولها القَدَّ ، وفيه فُرْضة واحدة وله نصيب واحد ، والثاني التَّوَم وفيه فُرْستان
وله نصيبان ، ثم الرقيب وفيه ثلاث فُرُض ، وله ثلاثة أنصباء ، ثم الحِلْس بأربع ،
والنَّافس بخمس ، والمسبل بست ، والمعلَى ، وهو أعلاها بسبع فرض وعلى عدد
الفرض هي الأنصباء . وقال ابنُ بُجَال لجمعها في بيت :

(١) انظر الميسر والقَدَاح ٥٦ ، ٥٧ .

فَذَنْتُ وَتَوَمُّمَ وَالرَّقِيبَ وَنَافَسْتُ وَاجْلَسْتُ ثَمَّتْ مُسْبِلٌ ثُمَّ الْمَعْلُ
 وَاسِمُ الثَّلَاثَةِ الَّتِي يُتَكَاثَرُ بِهَا : الْفَسِيحُ وَالْمَنِيحُ وَالْوَعْدُ ؛ فَإِذَا أَرَادُوا
 الضَّرْبَ بِهَا طَلَبُوا أَوَّلَ رَجُلٍ يَلْمُقُونَهُ ، فَشَدُّوا عَيْنِيهِ ، وَيَسْمُونَهُ الْحُرْضَةَ ،
 وَأَقَامُوا لَهُ الرَّقِيبَ وَضَرَبُوا ، فَكَلَّمَا خَرَجَ لَهُ قِدْحٌ دَفَعَهُ إِلَى الرَّقِيبِ ، وَالرَّقِيبُ
 هُوَ الْأَمِينُ عَلَى الضَّرْبِ بِالْقِدَاحِ ، قَالَ الشَّاعِرُ :

لَهَا خَلْفُ أَذْنَابِهَا أَزْمَلُ مَكَانَ الرَّقِيبِ مِنَ الْيَاسِرِ

وَكَانَ أَهْلُ الْيَسَارِ وَالْجُودِ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ عِنْدَ شِدَّةِ الزَّمَانِ ، يَنْحَرُونَ
 الْجُزُورَ وَيَقْتَسِمُونَهَا وَيَضْرِبُونَ عَلَيْهَا بِالْقِدَاحِ ، فَمَنْ قَرَّ (١) جَعَلَ نَصِيْبَهُ لِأَهْلِ
 الْمَيْسَرِ ، وَالْقَمَارُ يُكْنَى عَنْهُ بِالْمَيْسَرِ ، وَأَصْلُ الْمَيْسَرِ مَوْضِعُ تَنْفَرِ بِهِ الْجُزُورِ ،
 وَالْيَاسِرُ : الْجَازِرُ ، وَتَقْسِمُ الْجُزُورَ عَشْرَةَ أَجْزَاءَ : الْعَضْدَانِ فِي الْكَتِفَيْنِ جَزْآنَ ،
 وَهَمَا ابْنَا مِلَاطٍ ، وَالْعَجْزُ وَالزَّوْرُ جَزْآنَ ، وَالكَاهِلُ وَاللِّحَاءُ عَلَيْهِمَا الْجَنْبُ
 بِنَصْفَيْنِ جَزْآنَ ، وَالْوَرِيكَانِ عَلَيْهِمَا الذَّرَاعَانِ جَزْآنَ ، وَالْفَخِيزَانِ عَلَيْهِمَا الْعُنُقُ
 مَقْسُومَا جَزْآنَ . وَبَقِيَ جَنْبٌ ، وَهُمْ يَسْتَنْوْنَهُ وَقَدْ لَا يَسْتَنْوْنَهُ ، فَيَرُدُّ مِنْهُ عَلَى
 جِزْءِ الْكَاهِلِ ضَالِعَانِ وَعَلَى سَائِرِهَا ضِلَعٌ ضِلَعٌ ، فَإِنْ فَضَلَتْ قِطْعَةٌ أَوْ عَظْمٌ
 سَمَّى الزَّيْمَ ، قَالَ الشَّاعِرُ :

وَكَنتَ كَعَظْمِ الزَّيْمِ لَمْ يَدْرِ جَازِرٌ عَلَى أَيِّ أَدْنَى مَقْسِمِ اللَّحْمِ يَجْعَلُ

وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ فِي الْمَيْسَرِ : إِنَّهُ شَيْءٌ كَانَتْ الْجَاهِلِيَّةُ تَفْعَلُهُ ، فَلَيْسَ عِنْدَنَا مِنْهُ
 حَقِيقَةٌ .

قَوْلُهُ : الْمُسْتَسْلِمُ لِلْحَيِّنِ ، أَيُّ الْمُنْقَادِ لِلْهَلَاكِ . الْوُخْدُ : نَوْعٌ مِنَ السَّيْرِ وَهُوَ أَنْ
 تَرْجُمَ الْأَرْضَ بِقَوَائِمِهَا لِسُرْعَةِ سَيْرِهَا . وَالذَّمِيلُ : سَيْرٌ لَتَيْنٌ . تَجِبُ : تَسْقُطُ لِلْغَيْبِ .

(١) قمر ، أي غلب .

ارتعت : فزعت . لإظلال : لقرب ودنو . اقتحام : دخول الشيء على غرر .
وحام ، هو ابن نوح وقد تقدّم في الحادية والعشرين ، وأراد بجيش حام ظلام الليل ،
لأنّ حاماً أبو السودان ، أكفت : أقبضه وأشمره . أربط : أربط بعيرى .
أعتمد : أقصد : أخطب : أمشى على غير هداية ، وأراد أنه لا يدرى ما يفعل ،
أينزل ويبيت ، أم يسير في الليل على غرر .

* * *

وَيْنَمَا أَنَا أَقْلَبُ الْعِزْمَ ، وَأَمْتَحِضُ الْحُزْمَ ، تَرَأَى لِي شَبِيعُ جَلٍ ،
مُسْتَنْدِرٍ بِجَبَلٍ ، فَتَرْجِيئُهُ قُعْدَةُ مَرِيحٍ ، وَقَصْدُهُ قَصْدُ مُشِيحٍ ؛ فَإِذَا
الظَّنُّ كَهَانَةً ، وَالْقُعْدَةُ عَيْرَانَةً ، وَالْمَرِيحُ قَدْ ازْدَمَلَ بِبِجَادِهِ ، وَاکْتَحَلَ
بِرُقَادِهِ ، فَجَلَسْتُ عِنْدَ رَأْسِهِ ؛ حَتَّى هَبَّ مِنْ نَعَاسِهِ ؛ فَلَمَّا اازْدَهَرَ
سِرَاجَاهُ ، وَأَحْسَنَ يَمْنُ فَاجَاهُ ، نَفَرَ كَمَا يَنْفِرُ الْمَرِيبُ . وَقَالَ : أَخْوَكُ
أَمْ الذِّيبُ ! فَقُلْتُ : بَلَى خَايَطُ لَيْلٍ صَلَّ الْمَسْلُوكُ ، فَأَضَى لِي أَفْدَحُ لَكَ .
فَقَالَ : لَيْسَ رَعْنُكَ هَمُّكَ ، قَرُبٌ أَخْ لَكَ لَمْ تَلِدْهُ أُمُّكَ . فَانْسَرَى عِنْدَ
ذَلِكَ إِشْفَاقِي ، وَسَرَى الْوَسْنُ إِلَى آمَاقِي ، فَقَالَ : عِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ
الْقَوْمُ الشَّرَى ، فَهَلْ تَرَى كَمَا أَرَى !

* * *

العزم والحزم : اجتماع رأى الرجل على ما يريد أن يفعله فلا يتردد فيه .
أمتحض : أحرّك وأحلب ، وأراد أنه أخذ يحدث نفسه ويدبّر رأيه : هل
يسرى أو يقعد . تراءى ، أى ظهر . مستندر : مستعلٍ ، والذروة أعلى الشيء ،
أراد أنه ظهر له شبيح جل ، أى شخصه فى أعلى جبل . قعدة : بعير يقعدُ عليه
عند الركوب . مريح : مستريح ، قد نزل يريح نفسه وبعيره . مشيح : مُجدّ .
والقعدة : المراكب . والعيرانة : الناقة الصلبة تشبه بالبعير ، وهو حمار الوحش .
(م ٦ - شرح مقامات الحريري - ج ٥)

وازْدَمَل : التَفَّ . بِيَجَادَه : بَكْسَانَه . هَبْ : انْتَبِه . اَزْدَهَر : انْفَتَحَ وَأَضَاء .
 سِرَاجَاه : عَيْنَاه . فَأَجَاه : أَتَاهُ عَلَى غَفْلَةٍ . الْمَرِيب : الِذِى أَتَى رِيْبَةً . أَخُوْكَ
 أُمُّ الذِّيبِ ^(١) ، مِثْلُ ، كَأَنَّهُ خَاطَبَ نَفْسَهُ ، قَال : أَخُوْكَ هُوَ الَّذِى رَأَيْتَ أَتَى
 لِمَا وَسَّطْتَ أُمُّ ذَنْبٍ لِإِذَا يَتَكَ ، وَتَضَمَّنَ الْكَلَامُ أَنَّ الْاسْتِفْهَامَ وَقَعَ بِالَّذِى رَأَاهُ ،
 فَكَأَنَّهُ قَالَ لَهُ : يَا هَذَا ، أَأَنْتَ أُمُّ صَاحِبِ فَارِكَنٍ إِلَيْكَ أَمْ عَدُوٌّ فَأَحْذَرُكَ ؟
 فَأَجَابَهُ بِأَن قَالَ لَهُ : بَلْ خَاطَبْتُ لَيْلٍ ، أَيْ مَاشٍ فِيْهِ عَلَى جِهَالَةٍ . ضَلَّ الْمَسْلَكُ :
 أَخْطَأَ الطَّرِيقَ . أَضَىءَ لِي : أَكْشَفَ لِي عَنْ حَالِكَ . أَقْدَحَ لَكَ : أَكْشَفَ لَكَ
 عَنْ حَالِي ، وَهَذَا أَيْضًا مِثْلُ ، وَفِي هَذَا التَّبَاسُ ؛ لِأَنَّهُ إِذَا أَضَاءَ لَهُ ، أَيْ أَعْطَاهُ
 ضَوْءَهُ أَوْ أَظْهَرَهُ لَهُ ، فَأَيَّ حَاجَةٍ لَهُ فِي الْقَدْحِ ، وَهُوَ الضَّرْبُ بِالزَّيْدِ لِيُخْرِجَ نَارَهُ ،
 وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ أَنَّ رَجُلًا كَانَ طَلَبَ لآخر ضَوْءًا مِثْلَ فَتِيلٍ يُوَقِّدُهُ ، فَتَخَيَّلَ مِنْ
 صَاحِبِهِ أَنَّهُ لَا يَعْطِيهِ ، فَقَالَ لَهُ : أَضَىءَ لِي ، أَيْ أَعْطِنِي ضَوْءًا فَلَيْسَ عَلَيْكَ فِيهِ
 تَكَلُّفٌ فَإِنَّكَ أَنْ تَبْتَغِي فِي مِثْلِهَا فَلَمْ تَجِدْ لِي ضَوْءًا قَدَحْتَ لَكَ زَنْدِي ، وَتَكَلَّفْتَ لَكَ
 ذَلِكَ ، ثُمَّ اسْتَعْمَلَ فِيمَنْ يَطْلُمُكَ عَلَى أَمْرِهِ فَتَطْلُمُهُ مِنْ أَمْرِكَ عَلَى مَا هُوَ أَفِيدَ
 مِمَّا أَطْلَمَكَ عَلَيْهِ ، فَمَعْنَاهُ أَطْلَعْنِي عَلَى ظَاهِرِ أَمْرِكَ أَطْلَمْتُكَ عَلَى بَاطِنِ أَمْرِي .
 وَيُرْوَى : « أَكْدَحَ لَكَ » قَالَ أَبُو زَيْدٍ : إِذَا طَلَبَ الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ حَاجَةً
 فَلَمْ يَعْرِفْ وَجْهَهَا ، قَالَ : أَضَىءَ لِي أَكْدَحُ لَكَ ، أَيْ بَيِّنْ لِي فَأَكْدَحُ لَكَ ، أَيْ
 أَسْعَى لَكَ ، وَكَدَحَ لِمَعِيشَتِهِ : سَعَى وَاسْتَسَبَّ ، وَأَضَىءَ : أَسْرَجَ .

الْفَنَجْدِيهِى : أَضَىءَ لِي أَكْدَحُ لَكَ ، مِثْلُ يَضْرِبُ فِي الْمَسَاوَةِ بِالْأَفْعَالِ ،
 وَالْمَعْنَى : كُنْ لِي أَكُنْ لَكَ ، وَاسْعَ لِي أَسْعَ لَكَ ، وَالْمُرَادُ بِهِ كُنْ لِي أَكْثَرُ مِمَّا أَكُنْ
 لَكَ لِأَنَّ الْإِضَاءَةَ أَكْثَرُ نَفْعًا مِنَ الْقَدْحِ ، وَيُقَالُ : مَعْنَاهُ : تَوَلَّى الْأَمْرَ الْهَيْئَةُ أَتَوَلَّى
 الْأَمْرَ الصَّعْبَ . لَيْسَرُ : لَيْزُلٌ وَلِيَذْهَبَ . سَرَى عِرْقُ الشَّجَرَةِ يَسْرِى : دَبَّ
 تَحْتَ الْأَرْضِ ، وَسَرَى يَسْرِى سَارَ .

(١) المِيدَانِي ١ : هـ ، قَالَ فِي شَرْحِهِ : أَيْ هَذَا الَّذِى تَرَاهُ أَخُوْكَ أَمْ الذَّنْبُ ، يَعْنِي
 أَنَّ أَخَاكَ الَّذِى تَخْتَارُهُ مِثْلَ الذَّنْبِ فَلَا تَأْمَنُهُ ، يَضْرِبُ فِي مَوْضِعِ النَّارِ وَالشَّكِّ .

[أصل المثل : رب أخ لم تلده أمك]

رُبَّ أَخٍ لَكَ لَمْ تَلِدْهُ أُمُّكَ ، معناه قد وجدت منى صديقاً يقوم لك مقام شقيقك ، وأصل المثل أن لقمان بن عاد رأى امرأته قد خلا بها رجُلٌ وهي تلاعبه ويلاعبها ، ومعها صبيٌ صغير يبكي ، وهما قد أقبلتا على شأنهما لا يكثران به ، فسألها عن الرجل ، فقالت : هو أخي ، فقال رب أخ لك لم تلده ^(١) أمك ، يكذبها في قصدها أي هو أخوك بالحبّة والصدّاقة لا بالولادة . وقال في الدرة : حكى ابن نصر ^(٢) الكاتب أن أبا العباس ابن ياسر ^(٣) دخل عليه ، رجل نصرانيّ ومعه فتى من أهل ملته حسن الوجه ، فقال له : من هذا الفتى ؟ فقال له : بعض أخواني ، فأنشد أبو العباس :

دعني أخاها أمّ عمرو ولم أكن أخاها ولم أَرْضَعْ لَهَا بِلْبَانِ
دعني أخاها بعد ما كان بيننا من الأمر ما لا يصنع الأخوانِ
وقالوا في هذا المعنى : ربّ بعيدٍ أقرب من قريب ، وقالوا : القريب منّ قُرْبُ نفعه ، وقال أبو تمام :

ولقد سبّرت الناس ثم خبرتهم وبلوت ما وصفوا من الأسباب ^(٤)
فإذا القرابة لا تقرب قاطعاً وإذ المودة أقرب الأنساب
وقال ابن ميادة :

وإني لزوار لمن لا يزورني إذا لم يكن في ودّه بمريبٍ
تقرّب لي دار الحبيب وإن تأت وما دار من أبغضته بقريبٍ
فلا تطابنّ القرب والبعد بعدها إلى غير نياتٍ وغير قلوب

(١) الميداني ١ : ٢٩ ، ٣١

(٢) درة الغواص : « في كتاب المفاضة » .

(٣) درة الغواص : « أبو العباس بن ماسرجس » .

(٤) المعقد لابن عبد ربه ٢ : ٣١٤ ونسبهما إلى أبي تمام وفي ٢ : ٢٢٨ من غير نسبة ■

وقال آخر :

أخوتك يُسرّ ببعض شأني وإن لم تُدنيه منّي قرابة^(١)
أحبُّ إلى من ألفى قريب بنات قلوبهم لي مُستراة

وقال ابن هرمة :

هش إذا وقف الوفودُ ببابه سهل الحجاب مؤدّب الخدام^(٢)
فإذا رأيت صديقه وشقيقه لم تدر أيُّهما أخو الأرحام

انسرى : زال وذهب ، وصرّوت الثوب عني إذا جردته . إشفاقى :
خوفى . سرى الوسن : أقبل النوم . آماقى : آخر عيني ، والموق طرف العين من
جهة الأنف .

[أصل المثل : عند الصباح يحمد القوم السرى]

قوله : عند الصباح يحمد القوم السرى مثل ؛ ومعناه إذا سرى القوم بالليل
قطعوا أرضاً كثيرة والأرض تطوى بالليل لمن يمشيها فإذا أصبحوا حمدوا سيرهم .

وهذا المثل ييت من رجز وقع في شعر الشماخ ، وذلك أنه سافر في قوم
من بني ثعلبة ، فمشوا حتى إذا كانوا قريباً من قِيَاء ، قال الشماخ لابن أخيه :
انزل فاحدّ بنا ، فنزل فحدّاهم ثم نزل القوم للحداء واحداً بعد واحد ، فوقمت
أرجيزهم في ديوان الشماخ ، فنسبت إليه ، وأول الرجز :

(١) المقد ٢ : ٣١٤ من غير نسبة .

(٢) ديوان الحماسة — بشرح المزدقي ٢ : ٨٠٨ ونسبها الى محمد بن بشير الخارجي
وفكر قبلها :

نعم الفتى فجّعت به إخوانه يومَ البقيع حوادث الأيام

والإبيات أيضاً في المقد ٢ : ٣١٥ مع اختلاف في الرواية .

طَافَ خَيَالٌ مِنْ سُلَيْمَى فَأَعْتَرَى^(١)

بَنَجْدٍ أَوْ تِيَاءٍ أَوْ وَادِي الْقُرَى^(٢)

فَمَنَعَ النَّوْمَ وَمَنَى بِالْمَنَى

وفي آخره :

عِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ الشَّرَى

وَتَنْجَلِي عَنْهُمْ غَيَابَاتُ الْكَرَى

قال المفضل الضبي : أول من قال ذلك خالد بن الوليد ، لما بعث إليه أبو بكر رضي الله عنه وهو باليمامة أن ينزل إلى العراق ، فأراد سلوك المفازة ، فقال له رافع الطائي : قد سلكتها في الجاهلية ، وهي خشن للإبل الواردة ، وما أظنك تقدر عليها إلا أن تحمل من الماء ، فاشتري مائة شارب^(٣) فمطشها ثم سقاها الماء حتى إذا مضى يومان خاف العطش على الناس والخليل ، وخشى أن يذهب ما في بطون الإبل ، نحرها ، واستخرج ما في بطونها . فسقى الناس والخليل ومضى ، فلما كان في الليلة الرابعة قال رافع : انظروا ، هل ترون سدرًا عظيمًا ؟ فإن رأيتموها وإلا فهو الهلاك ، فنظر الناس فرأوها فأخبروه فكبر وكبر الناس ثم هجموا على الماء فقال خالد :

(١) ديوانه ٣٧٧ - ٢٨٤ وبعد هذا البيت كما في الديوان :

حَدَّتْ وَقَالَتْ بَنَتْهَا حَتَّى مَتَى

تُبَشِّرِي بِالرِّفِّ وَالْمَاءِ الرَّوَى

(٢) رواية الديوان :

بَشَجَرٍ أَوْ تِيَاءٍ أَوْ وَادِي الْقُرَى

فَمَنَعَ النَّوْمَ وَمَنَانَا الْمُنَى

(٣) الشارف : المسن .

لله دَرُّ رافعٍ أَنَّى اهْتَدَى^(١)
 فوز من قراقر أَنَّى سَرَى
 خَسَا إِذَا سار بها الخِيسُ بَكَى
 ما سارها من قبله إِنْسٌ مَرَى
 عِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ القَوْمُ الشَّرَى

ويقال : فوز إِذا ركب المفازة . وقراقر : اسم قرية من اليمن . والخيس :
 الجبان الضعيف ، وقيل : الثَّقيل . قال أبو عبيدة : والخيس أَن تشرب الإبل
 يومَ وردها وتُصدِر يومها فتظلُّ بعد ذلك اليوم من الماء ثلاثة أيام سوى يوم
 الصدر ، وتردُّ اليوم الرابع فذلك الخيس .

* * *

فقلت إِنِّي لَكَ لأَطْوَعُ مِنْ حَدَائِكَ ، وَأَوْفَى مِنْ غَدَائِكَ ، فَصَدَعَ
 بِمَحَبَّتِي ، وَبَخَبَجَ بِصُحْبَتِي ، ثُمَّ اخْتَمَلْنَا مُجِدِّينَ ، وَارْتَحَلْنَا مُدْجِلِينَ ، وَلَمْ
 نَزَلْ نُعَانِي الشَّرَى ، وَنَعَايِي الْكَرَى ؛ إِلَى أَنْ بَلَغَ اللَّيْلُ غَايَتَهُ ، وَرَفَعَ
 الْفَجْرُ رَايَتَهُ .

فلَمَّا أسفر الفَاصِحُ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا وَاضِحٌ ، تَوَسَّمتُ رَفِيقَ رِحْلَتِي ،
 وَسَمِيرَ لَيْلِي ، فَإِذَا هُوَ أَبُو زَيْدٍ مُطْلَبُ النَّاشِدِ ، وَمَعْلَمُ الرَّاشِدِ ، فَتَهَادَيْنَا
 تَحِيَّةَ الْمُحِبِّينِ ؛ إِذِ التَقِينَا بَعْدَ الْبَيْنِ ، ثُمَّ تَبَاثُنَا الْأَسْرَارَ ، وَتَنَاثُنَا
 الْأَخْبَارَ ، وَبَعِيرِي يَنْحِطُ مِنَ الْكَلَالِ ، وَرَاحِلَتُهُ تَزِفُ زَفِيفَ الرَّالِ ؛
 فَأَعْجِبْنِي اشْتِدَادَ أَسْرِهِا ، وَامْتِدَادَ صَبْرِها ؛ فَأَخَذْتُ أُسْتَشِفُّ جَوهرها ،
 وَأَسْأَلُهُ مِنْ أَيْنَ تَحَيَّرَها .

(١) تاريخ الطبري ٣ : ٤١٦ ونسبها الى شاعر من المسلمين .

فقال : إِنَّ هَذِهِ النَّاقَةَ خَبْرًا حُلُوَ الْمَذَاقَةِ ، مَلِيحَ السَّيَّاقَةِ . فَإِنْ أَحْبَبْتَ اسْتِمَاعَهُ فَأَنْخِ ، وَإِنْ لَمْ تَشَأْ فَلَا تُصِخْ .

* * *

قوله : حذائك ، أى نعلك . صَدَعَ : كشف وأظهر . وبخنج : قال : بخ ، وهى كلمة تقال عند الإعجاب . مُجَدِّين : مُجْتَهِدِينَ . مُدْلِجَيْن : ماشيتين بالليل . نَعَانَى : نقاسى . الكرى : النوم . رايته ، أراد ضوءه . أسفر : أضاء . الفاضح : من أسماء الصبح سُمِّيَ بذلك لأنه يَفْضَحُ الأشياء ، أى لا يظهرها . واضح : بَيِّن ، يريد أن الصبح كشف ماستره الليل فاستبان كل شيء . توسمت : نظرت . الفنجديهى : واضح : نجم ، والنجم الذى يُرى بعد الصُّبْحِ مضيئاً فى كثير من الأوقات وهو الزُّهْرَةُ . ابن سيده : الواضح : الكواكب الخس ، إذا اجتمعت مع الكواكب المضيئة من كواكب المنازل . والخلس : الراجعة والمتأخرة والمنقبضة . رحلتى : ارتحالى . والسمير : محادثتك بالليل . مطلب الناشد ، أى حاجة الطالب التى تلفت له ، فجعل يطلبها . مَئِمَّةُ الرَّاشِدِ : دليل الهادى ، والمعلم : الجبل يُعَلِّمُ به الطريق . فتهادينا تحية الهجين ، أى أهديته سلام محبباً أهدى لى مثل ذلك . تباثنا : تكاشفنا ، أى كشفتُ له سِرِّي وكشف لى سرّه . تناثنا : تفاشينا ، أى أفشيتُ له خبرى وأفشى لى خبره ، والبث أصله التفریق ، والنث بالنون : أصله نشر الحديث وإفشاؤه . الفنجديهى : تناثنا : تذاكرنا ، والنث : الذِّكْرُ وَنَثَوْتُ الذِّكْرَ وَنَثَوْتُ الحديث ، أشوه ، إذا أذعته وأفشيته . ابن الأعرابى . النشاء فى الحسن والقبیح من الكلام ، وقيل : النث : نشر الحديث الذى كُتِبَ أوْلَى من نشره ، وفى معنى هذا اللقاء قال المعرى :

وَلَوْ لَمْ أَلْقَ غَيْرَكَ فِي اغْتِرَابِي لَكَانَ لِقَاؤُكَ الْحِطَّ الْجَزِيلًا^(١)
 سَتَحْمِلُ نَاجِبَاتُ الْعَيْسِ مِنِّي صَدِيقًا عَنْ وَدَادِكَ لَنْ يَحْوَلَا
 يُؤَمِّلَ فِيكَ إِسْعَافَ اللَّيَالِي وَيَنْتَظِرَ الْعَوَاقِبَ أَنْ تُدِيلَا

يَنْحِطُ : يَزِفُّ وَيَنْفَسُ مِنْ شِدَّةِ التَّعَبِ ، وَالنَّحْطُ : خُرُوجُ النَّفْسِ بِصَوْتٍ ، وَهُوَ صَوْتُ يَعْتَرِي الْمَهْمُومَ وَالْمَتَعُوبَ مِنْ صَدْرِهِ بِتَوَجُّعٍ ، وَقَدْ نَحَطَ يَنْحَطُ نَحْطًا وَنَحِيطًا ، وَالتَّحِيطُ يَعْتَرِي الذَّابَّةَ إِذَا كَلَّتْ أَوْ زِيدَ فِي حَمْلِهَا ، فَتَسْمَعُ لَهَا زَفِيرًا بِصَوْتٍ ، فَذَلِكَ هُوَ النَّحِيطُ ، وَقَدْ نَحَطَ الْقَصَّارُ إِذَا ضَرَبَ بِالثُّوبِ عَلَى الْحِجْرِ وَتَنَفَّسَ لِيَكُونَ أَرْوَحَ لَهُ . تَزَفَ : تُسْرِعُ . وَالزَّفِيفُ : مَشَى فِي سَكُونٍ مُتَتَابِعٍ . وَالرَّأُلُ : فَرْخُ النَّعَامَةِ وَالْجَمْعُ الرَّمَالُ . أَسْرَهَا : قَوَّتَهَا وَشِدَّةَ خَلْقِهَا . امْتَدَادُ : طَوَّلَ . أَسْتَشِفَّ : أَنْظَرَ . جَوْهَرُهَا : خَلْقُهَا وَجَوْهَرُ كُلِّ شَيْءٍ : مَا وُضِعَتْ عَلَيْهِ جِوِلَّتُهُ . أَخْخ : حُطَّ بِعِيْرِكَ وَأَنْزَلَ . تُصْخ : تَسْتَمِعُ .

* * *

فَأَنْخَتُ لِقَوْلِهِ نِضْوِي ، وَأَهْدَفْتُ السَّمْعَ لِمَا يَرَوِي ، فَقَالَ :
 اْعْلَمُ أَنَّي اسْتَعْرَضْتُهَا بِحُضْرَةِ مَوْتٍ ، وَكَابَدْتُ فِي تَحْصِيلِهَا الْمَوْتَ ، وَمَا زِلْتُ
 أَجُوبُ عَلَيْهَا الْبُلْدَانَ ، وَأَطِيسُ بِأَخْفَافِهَا الظَّرَّانَ ؛ إِلَى أَنَّ وَجَدْتُهَا عَبْرَ
 أَسْفَارٍ ، وَعُدَّةِ قَرَارٍ ، لَا يَلْحَقُهَا الْعَنَاءُ ، وَلَا تُرَاهِقُهَا وَجَنَاءُ ، وَلَا تَدْرِي
 مَا الْهِنَاءُ . فَأَرْصَدْتُهَا لِلْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، وَأَحْلَلْتُهَا مَحَلَّ الْبَرِّ الشَّرِّ ، فَاتَّفَقَ أَنَّ
 نَدَّتْ مِنْذُ مُدَّةٍ ، وَمَالِي سِوَاهَا قُعْدَةٌ ، فَاسْتَشَعَرْتُ الْأَسْفَ ، وَاسْتَشَرَفْتُ
 التَّلَفَ ، وَنَسِيتُ كُلَّ رِزٍّ سَلَفٍ ، وَمَكْنَتْ مُلَانًا ، لَا أَسْتَطِيعُ انْبِعَاطًا ،
 وَلَا أَطْعَمُ النُّومَ إِلَّا جِثَاءً ، ثُمَّ أَخَذْتُ فِي اسْتِقْرَاءِ الْمَسَالِكِ ، وَتَفَقَّدَ

(١) سقط الزند ١٤٠١

التمسّاح والمبارك ، وأنا لا أَسْتَنْشِي منها ريحاً ، ولا أَسْتَنْشِي يأساً
مُريحاً ؛ وكلما ادّكرتُ مَضَاءَها في السَّير ، وانبرأها لمباراة الطير ،
لأعني الادّكار ، واستهوتني الأفكار .

* * *

نضوى : يعبرى المهزول . أهدفت : جعلته غرضاً يقع فيه كلامه . والسمع :
الأذن . والهدف : الغرض ترمي عليه . استعرضتها : طلبت أن تعرض على
جميع . حضرموت : كورة من كور اليمن فيها مدائن ، وتعمل بها النعال
الحضرمية وهي غاية في الجودة . كابدت : قاسيت . أجوب : أقطع . أطس :
أكسر . والوطن : الوطء الشديد المؤثر . الظران : واحدها ظرر ، بظاء منقوطة
وراءين ، وهي الحجارة المريضة ، وقيل المحددة . عبر أسفار : أى قوّة على
السَّفر كأنها تُعَبِّرُ بها المراحل ، أى تقطع ، وأصله عَبَّرَتْ في النهر إذا جزته
من جهة إلى جهة أخرى . فرار ، أى قد استعدت للفرار والهرب . العناء :
التعب . تُرَاهِقها : تدانيتها وتقاربها ، وقد أرهقتُ الرَّجُلَ ، إذا دانيته ، وذلك
أن يذهب أمامك فتتبعه ، فإذا قرُبت منه قلت : رهقته ، فإذا أدركته قلت :
أرهقته : ورواية ابن جهور « تُوَاهِقها » بالواو ، ومعناها تواظب على المشي
معه ، والمواهقة : المعارضة في السير . وجنّاء : ناقة قوّة غليظة . والوجين :
ما صلب من الأرض ، وقيل : الوجناء : العظيمة الوجنات . والهناء : القطران ،
أى ليس بها داء فتحتاج إليه فهي لا تعرفه . أرصدها : أعددها . البر : الذى
يُبرِّك ويكرمك . والسَّر : ما يسرك : نَدّت : قرّت وشرّدت . استشعرت :
لبست . الأسف : الحزن . استشرفت التلف : عاينت الهلاك ونظرته ،
واستشرفت فلاناً إذا رفعت رأسك لتنظر إليه ويدك على حاجبك . والرّزء :
فقد الشيء . سلف : مضى . مكثت : أقمت . انبعثاً : نهوضاً وخروجاً إلى السفر .

حِثًّا: قليلاً، والحِثَّاء: أن يصيبك النومُ ثم يزول عنك في الحال، ويوصف به
فيقال: يوم حِثَّاء، أى قليل. والطعم: الذوق. استقراء: تتبّع. والمسالك:
الطُرُق. المسارح: المراعى وحيث تسرح الإبل. والمبارك: مرافد الإبل
حول الماء. استنشاء الريح: شتمها، مهموز وغير مهموز. استغشى ثوبه: تغطى
به. اليأس: قطع الرجاء. مريحا: يُدخِل على صاحبه الراحة. اذكّرت:
تذكّرت. مضاءها: نقادها وإسراعها. انبرأها: نهوضها، وقد انبرى لك
فلان إذا عَرَضَ لك. مباراة: معارضة. لاعنى: أحرقتى، اللوعة: حرقة القلب
من شدة الوجد. استهوتنى: هَوَتْ بى فى كلّ طريق. الأفكار: تذكّر المعلوم.

* * *

فبينما أنا فى جِواء، بعض الأحياء، إذ سمعتُ من شخصٍ مُتبعِد،
وصوتٍ مُتجرّد: مَنْ صَلَّتْ لَهُ مطيَّة، حَضَرِ مَيَّةَ وطَيَّة، جلدُها قد وُسِم،
وعَرَّها قد حُسِم، وزمائمها قد ضَفِر، وظَهْرُها كأنَّ قد كَسِرَ ثمَّ جُبِر،
تَزِينُ الماشية، وتُعِينُ النَّاشية، وتقطع المسافة النَّائية، وتظلّ أبداً لك
مُدَّانية، لا يمتوِرُها الوَتى، ولا يعترِضُها الوَجى، ولا تُخَوِّج إلى
العصا، ولا تَعَصى فِيمَنْ عَصَى؟

قال أبو زيد: فجذبني الصَّوتُ إلى الصَّائت، وبَشَرَنى بدركِ الفاتت.
فلما أفضيت إليه، وسَلَّمْتُ عليه، قلت له: سَلِّمِ المطيَّة، وتَسَلِّمِ العطِيَّة،
فقال: وما مطيَّتُك، غُفِرَتْ خطيئَتُك؟ قلت له: ناقة جُثَّتْها كالهَضْبَةِ،
وذُرُوتُها كالقُبَّة، وحَلَبُها ملءُ الثَّلْبَةِ، وكنتُ أعطيتُ بها عشرين،
إذ حَلَلْتُ يَبْرين، فاستزدت الَّذي أعطى، ودَرَيْتُ أنه أخطأ.

* * *

قوله : حواء : بيوت مجتمعة مائتان أو نحوها . الأحياء : القبائل . متجرد : ماضٍ ظاهر ، وقيل ضعيف لبُعده . ضَلَّتْ : تَلَفَتْ وضاعت . مطية ، يعنى بها نعلًا فى المعنى وناقاة فى اللفظ ، وقد تقدّمت أشعار اللّغز بهما . وطية : لا تحرك الراكب ، وهى الذّلول ، وفراش وطىء : وثير لا يؤذى جنب النائم عليه ، وعلى من ضلّت له مطية [أن يقول ما]^(١) فى حديث عتبة بن غزوان عن النّبي صلى الله عليه وسلم : « إذا ضل أحدكم شيئًا وأراد غوثًا وهو بأرضٍ ليس بها أحد فليقل : يا عباد الله المسلمين أعيّنونى ، يا عباد الله المسلمين أعيّنونى ، فإنّ لله عبّادًا لا نراهم » ، وقد جرّب ذلك . وميم : خرز ، أى جعل الخرز فيها كالعلامة . عرّها : جرّ بها . حُسيم : استوصل بالقطع ، يريد أن آثار الجرب التى كانت فى الجلد الذى صنّعت منه هذه النعل قد قُطعت وأزيلت . وزمائها : شرّكها . كسّر ثم جُبر ، يريد أن ظهرها يَبس فتكسّر ، فوصل بجلده آخر فصَحّ .

والماشية : الرّجل التى تمشى فيها ، وكذلك النّاشية ، ويقال : نشأ الرجل ، إذا نهض لحاجته وتنشأ أيضًا . وسهل النّاشية لأجل الماشية وأصلها الهمز . الفنجديهي : تُعين النّاشية ، أى تُعين على السّير فى ناشئة الليل ، قال ابن عرّفة : كلّ ساعة قامها قائم من الليل ناشئة . الأزهرى : ناشئة الليل قيام الليل مصدر جاء على « فاعلة » بمعنى النّشء كالعافية والخاتمة بمعنى العفو والختم ، وقيل : النّاشية والنّشيئة أن تنام من أوّل الليل ثم تقوم . وقيل : النّاشئة أوّل النهار أوّل الليل ، وأكثر المفسرين على أن ناشئة الليل أوّله . عاصم : يهيمزه والباقون لا يهيمزون . جَذَبْنى ، ساقنى بعُنف . الصّائت : صاحب الصوت الذى سمع ، وقد أصات إذا رفع صوته . دَرَكَ الفائت : لحق التّالف . أفضيت : وصلت .

(١) زيادة يقتضيهما السياق .

تَسَلَّمَ : خذ . جُثَّتْهَا : جسدها ، والجُثَّةُ : شخص القائم والقاعد والراكب .
والهَضْبَةُ : الصخرة العظيمة ، وقيل الجبل المنبسط الأملس . ذِرْوَتُهَا : أعلى
ظهرها . والعُلْبَةُ : إناء من جلود . يَبْرُزُ : أرض فيها رمل .

* * *

قال : فَأَعْرَضَ عَنِّي ، حِينَ سَمِعَ صِفَتِي ، وقال : لست بصاحب
لِقُطْعَتِي . فَأَخَذْتُ بِتَلَايِيهِ ، وَأَصْرَرْتُ عَلَى تَكْذِيبِهِ ، وَهَمَمْتُ بِتَمْزِيقِ
جَلَايِيهِ ، وَهُوَ يَقُولُ : يَا هَذَا مَا مَطَيْتِي بِطَلْبِكَ ، فَكَفَفْتُ عَنِّي مِنْ
عَرَبِكَ ، وَعَدَّ عَنْ سَبِّكَ ؛ وَإِلَّا فَقَاضِيَنِي إِلَى حَكَمِ هَذَا الْحَيِّ ، الْبَرِيِّ
مِنَ النَّبِيِّ ، فَإِنَّ أَوْجَبَهَا لَكَ فَتَسَلَّمْ ، وَإِنْ زَوَّاهَا عَنْكَ فَلَا تَتَكَلَّمْ ، فَلَمْ
أَرِ دَوَاءَ قِصَّتِي ، وَلَا مَسَاغَ غُصَّتِي ، إِلَّا أَنْ آتَى الْحَكَمَ ، وَلَوْ لَكُمْ .

فانخرطنا إلى شَيْخِ رَكِينِ النَّصْبَةِ ، أُنَيْقِ الْعِصْبَةِ ، يُؤَنِّسُ وَنْهَ سَكُونُ
الطَّائِرِ ، وَأَنْ لَيْسَ بِالْجَائِرِ ، فَاَنْدَرَأْتُ أَتَطَلَّمُ وَأَتَأَلَّمُ ، وَصَاحِبِي مُرِمٌ
لَا يَتَرَمَّرَمُ ، حَتَّى إِذَا ثَلُثْتُ كِنَانَتِي ، وَقَضَيْتُ مِنَ الْقِصَصِ لُبَانَتِي ، أُبْرَزُ
نَعْلًا رَزِينَةَ الْوِزْنِ ، مَخْذُوعَةً لِمَسْلَكِ الْحَزْنِ ، وَقَالَ : هَذِهِ الَّتِي عَرَفْتُ ،
وَأَيَّاهَا وَصَفْتُ ، فَإِنْ كَانَتْ هِيَ الَّتِي أُعْطِيَ بِهَا عِشْرِينَ ، وَهِيَ هُوَ مِنْ
الْمُبْصِرِينَ ، فَقَدْ كَذَبَ فِي دَعْوَاهُ ، وَكَبُرَ مَا افْتَرَاهُ ؛ اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَمْدُ
قَدَّالَهُ ، وَيُبَيِّنَ مِصْدَاقَ مَا قَالَهُ .

* * *

أَعْرَضَ : نَحَى وَجْهَهُ . وَاللَّقَطَةُ : مَا تَجَدَّدَ قَدْ سَقَطَ مِنْ غَيْرِكَ فَتَلْتَقَطُهُ ،
وعامة أهل اللغة على فتح قافها مثل أبي عبيدة ويعقوب والمفضل وأملب
وابن قتيبة وغيرهم . وحكى ابنُ خالويه أن تسكينها لغة تميم ، وفتحها لغة أهل
الحجاز ، فهما لغتان ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « مَنْ التَّقَطَ لُقَطَةً فَلْيُشْهَدْ
ذَا عَدْلٍ ثُمَّ لَا يَكْتُم وَلَا يَغِيب ، فَإِنْ جَاءَ صَاحِبُهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا ، وَإِلَّا فَهُوَ مَالُ
اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ » . تَلَايِبُهُ : أَطْوَاقُ ثَوْبِهِ ، وَالتَّلْيِبُ الْجَنِيبُ ، وَأَخَذَتْ بِتَلْيِبِ
فُلَانٍ ، إِذَا جَمَعْتَ ثَوْبَهُ الَّذِي حَوَالَى صَدْرِهِ وَقَبَضْتَ عَلَى نَحْرِهِ ، وَالْجَلْبَابُ :
الْمِلْحَفَةُ وَالرِّدَاءُ . أَصْرَرْتُ : أَقَمْتُ . تَمْزِيقُ جَلَايِبِهِ : تَمْزِيقُ ثِيَابِهِ . بَطْلَبُكَ :
بِمَا تَطْلُبُ . وَالطَّلَبُ : اسْمُ مَا تَطْلُبُ . ابْنُ دَرِيدٍ فَلَانَةٌ طَلَبُ فُلَانٍ ، إِذَا كَانَ
يَطْلُبُهَا وَيَهْنُوهَا . عَدَّ : كَفَّ وَاصْرَفَ . سَبَّكَ : شَتَمَكَ . قَاضَى : حَاكَمَنِي .
الْحَى : الْقَبِيلَةُ . الْغَى : الضَّلَالُ وَالْفَسَادُ . زَوَاهَا : نَحَاهَا .

قوله : مَسَاغُ غُصَّتِي ، أَيْ بَلَغَ مَا أُخْتَنِقُ بِهِ ، وَسَاغَ الطَّعَامُ وَالشَّرَابُ فِي
الْحَلْقِ : سَهَلَ نَزُولُهُ فِيهِ . لَكَمَهُ ، يَلْكُهُ : ضَرَبَهُ بِجُمُوعِ كَفَّهُ .

انخرطنا : سَرْنَا مَسْرَعِينَ . رَكِيزُ النَّصْبَةِ : وَقُورُ الْهَيْئَةِ ، وَفُلَانٌ رَكِيزٌ
يَتَّبِعُ الرَّكَانَةَ ، أَيْ ثَقِيلُ الْمَجْلِسِ ثَابِتٌ قَوِيٌّ . الْأَزْهَرَى . يُقَالُ لِلرَّجُلِ إِذَا كَانَ
وَقُورًا سَاكِنًا : إِنَّهُ لَرَكِيزٌ ، وَقَدْ رَكَّنَ رَكَانَةً . الْجَوْهَرَى . يُقَالُ جَبَلٌ رَكِيزٌ ،
أَيْ لَهُ أَرْكَانٌ عَالِيَةٌ ، فَيَحْتَمِلُ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى أَنْ يَكُونَ رَكِيزُ النَّصْبَةِ ، عَالِيُ
الِاتِّصَابِ حَسَنُ الْقَامَةِ ، وَالنَّصْبَةُ الْفِعْلَةُ مِنَ الْإِتِّصَابِ ، وَأَرَادَ بِهَا هَيْئَةَ إِتِّصَابِهِ
فِي جُلُوسِهِ وَحَالَتِهِ . أَتَيْقُ : مُعْجِبٌ . الْعِصْبَةُ : هَيْئَةُ الْعِمَامَةِ عَلَى رَأْسِهِ ، تَقُولُ :
عَصَبْتُ رَأْسِي بِالْعِمَامَةِ إِذَا شَدَدْتَهُ بِهَا ، وَالْعِصْبَةُ هَيْئَةُ التَّعَمُّمِ ، يَقُولُ : إِنْ هَذَا
الشَّيْخُ الْحَاكِمُ رَزِينٌ فِي جُلُوسِهِ حَسَنُ التَّعَمُّمِ وَالْهَيْئَةِ . يُونُسُ : يَبْصُرُ . سَكُونُ
الطَّائِرِ ، كُنَايَةٌ عَنِ الْوَقَارِ وَالْحِلْمِ ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ الطَّائِرَ لِأَنَّهُ لَا يَنْزِلُ إِلَّا عَلَى سَاكِنٍ .

وإذا نزل عليه سكن هو ، فإذا كان عند الرجل هَوَجٌ وطيش ، قيل : طارت عصفيره ، فإذا كان القوم أهلَ وقارٍ قيل : كأنَّ على رؤوسهم الطير . اندرأت : اندفعت . أنظَّم : أنشكى الظلم . أنالم : أتوجع . مُرِمَ : ساكت . لا يترمم : لا يُجيب ولا يتحرك ، وتكلمَ فما تَرَمَّم ، أى ما أجاب ، وأصل تَرَمَّم تحرك . ثلثُ كِنَانَتِي : أخرجت ما فيها من السهام ، وأراد أتممت كلامي . وقصيت : أتممت . والقصاص : ذكر الخبر . لبأنتي : حاجتي . أبرز : أظهر . رزينة : ثقيلة .

محدوة، جُعل عليها الحذاء ؛ وهو الجلد الذي تُنقل به . مسالك : طرق . والحزن : ما غلظ من الأرض . عرّفت : صحت بها ليعرفها صاحبها . ما افتراء : ما جاء به من الادعاء والكذب . قذالة : عنقه ، والقذال : ما بين قُرة العنقا إلى الأذن ، وجمعه قُدُل ، يقول : فإن كانت هذه النعل تُساوى عشرين - وما هو يبصر أن هذا باطل - فقد صارت دعواه باطلة ، اللهم إلا أن يمدَّ عنقه ويأتى ببيان أنها تساوى عشرين ، إلى هذا التفسير رأيتُ أكثر من لقيت يذهب ، وهو ضعيف ولا يكون لمدَّ قذال له معنى ولا لما بعده .

والتفسير الحسن الذي فيه جِلاء للمعنى ما كان يفسره به شيخى أبو بكر ابن أزره عن ابن جهور ، وذلك أنه كان يفسر أعطى بمعنى ضُفِع وضرب ، وكذلك كتب عليه في طرة كتابه ، أنَّ أعطى بمعنى ضُرب ، لغة أهل الشرق ، وقد حَدَّثْتُ أنا عنهم أن الرجل إذا كلم الآخر بما لا يُرضيه ثم انصرف عنه صاح الآخر في أثره : أعطه ، بمعنى اصفعه ، فهى لفظة متعارفة بينهم لهذا المعنى وبيان موقعها هنا أنه لما ادعى السَّروجى أنه أعطى بناقته عشرين ، فوصفها بما يصح منه في حقها من أنها تساوى عشرين . ثم قال : إن المعرف أبرز

نعلا رزينة الوزن ، أى ثقيلة فى الميزان . محدوة لمسلك الحزن ، أى قد جعل عليها حذاء ، أى رُقِعَ من الجلد طرقت بها ليسلك بها الحزن ، أى ليمشى بها فى أرض ذات حجارة فلا تؤثر فيها لتلك الأطراف ، وتلك الأطراف صارت ثقيلة فى الوزن ، فلما أبرز هذه النعل التى وصفتها رفعها بيده إلى الحاكم قائلاً له : هذه النعل التى عَرَفْتُ ، وإياها وصفت ، فإن كانت هذه التى أُعْطِيَ بها عشرين ، أى صُفِعَ بها عشرين . فقلت : الإِيعاء للنعل بمعنى يوافقها إذ عدت عشرين ديناراً فى ثمنها بعيد ، ثم بينه بقوله : وها هو من المبصرين . والضرب الجافى فى العنق تدمع له العينان ، وإذا أفرط فيه عَمِيَ له المصفوع ، فيقول المَعْرِفُ : هذه النعل لو صُفِعَ بها إنسانٌ صَفْعَةً واحدة لَعَمِيَ ، وهذا يقول إنه صُفِعَ بها عشرين وهو سالم البصر ، فقد كذب فى ادّعائه أنه صُفِعَ بها عشرين ، وكبرت فُرَيْتُهُ ، اللهم إلا أن يمدّ قفاه فيرينا فيها أثر الصفع ، وأثره احمراره وتعجيره ، فيتبين بذلك الأثر صدق قوله . فهكذا تفسير هذا الموضع ومعناه . وابن جهور الذى شافه الحريرى بمشكلات كتابه كان أَضْبَطَ لها ممن يتحكم فيها بنظره ، فيكون تَخْلِيصُ المعنى إنَّ المَعْرِفَ يقول : هذه النعل يدعى هذا أنه أُعْطِيَ بها عشرين ، وأتم تروونه سالم البصر ، ومحال أن يُصَفَعَ بها إنسان لخشنتها وثقلها عشرين صَفْعَةً إلا وبعمى ، فقد صارت دعواه كاذبة إلا أن يمدّ لنا عنقه فنرى فيها أثر الصفع والرّزء فنصدّقه فى دعواه . وفى رواية غير ابن جهور « بعد المبصرين » فقال : كذب دعواه وهو داخل فى قول المَعْرِفِ الأوّل فلا يحتاج إلى إدعائه ، ولو جاء هنا بثمّ مكان الفاء لكان أبين فكان بمعنى قوله ، قال : ثم يمشى فى كلامه ثم ينسّق عليه قال : لكلام ثان ، وإمّا وضع الفاء موضع ثمّ لأن جواب الشرط الذى هو « فإن كان » مضمّن فى قوله « وها هو من المبصرين » فإنه يتضمّن قوله : « وها هو من المبصرين » معنى فقد كذب ، وليس فيه لفظ الجواب ، فجاءت الفاء كأنها جواب لفظى ، ووقعت قال : موطنه

لقال الأولى ، ألا ترى أن في رواية ابن جهور مكان فقال فقد ، والكلام بها متصل حسن ، قال أبو الرقعمق يصف العمى من الصنع :

ورءوس القوم تُسَلَّبُ	ولقد بُقنا على زمنٍ
وبها اللذات والطَّربُ	وكنوسُ الصنع دائرة
شُعْلُ النيران تلهبُ	وكان الصنع بينهمُ
عنه باللذات مقربُ	والعمى منهم وإن شغلوا

وله :

بالقرع في زمن القُشورِ	إن الذين تصافعوا
حضرُوا ولم ألك في الحضورِ	أسفوا على لأنهم
من آخذ بيد الضير	لو كنت تم لقييل هل
والصنع مفتاح السرورِ	ياللرجال تصافعوا
يَسْتَلُّ أحقاد الصدورِ	لا تفعلوه فإنه

وقال يصف أثر الصنع في قفاه :

قليله لكثير الحق إكثيرُ	ففي ما شئت من حق ومن هوسٍ
وكيف يُذكر ما فيه قناطيرُ	كم رام إدراكه قوم فأعجزهم
وقد حضرت يرى في الرأس تعجيرُ	لا عيب في سوى أتى إذا طربوا
لكثرة المزح توريمٌ وتخديرُ	والأخدعان فما زال يرى لها

ففي هذه الأشعار تبين لك تلك الأغراض التي قدمنا ذكرها .

[حكاية ابن المغازلي]

وتنتظم في سلكها حكاية ابن المغازلي ، وكان رحلاً يتكلم ببغداد على الطريق بأخبار ونوادر متنوعة ، وكان نهايةً في الخلق لا يستطيع من سَمِعَهُ ألا يضحك

قال : وَقَفْتُ يَوْمًا عَلَى بَابِ الْخَاصَّةِ أَضْحِكُ النَّاسَ وَاتَّيَنَدَرُ ، فَخَضِرَ خَلْفِي بَعْضُ خَدَّامِ الْمُتَضَدِّ ، فَأَخَذَتْ فِي نَوَادِرِ الْخُدَمِ ، فَأَعْجِبَ بِذَلِكَ وَانصَرَفَ ، ثُمَّ عَادَ فَأَخَذَ بِيَدِي وَقَالَ : دَخَلْتُ فَوْقَكَ بَيْنَ يَدَيَّ سَيِّدِي فَتَذَكَّرْتُ حِكَايَتَكَ فَضَحَكْتُ ، فَأَنْكَرَ عَلَيَّ ، وَقَالَ : مَا لَكَ وَيْلَكَ ! فَقُلْتُ : عَلَى الْبَابِ رَجُلٌ يَعْرِفُ بَابَ الْمَغَازِلِ يَتَكَلَّمُ بِحِكَايَاتِ وَنَوَادِرِ تَضْحَكُ الشُّكُولُ ، فَأَمَرَ بِإِحْضَارِكَ وَلِي نِصْفِ جَائِزَتِكَ ، فَطُمِعْتُ فِي الْجَائِزَةِ ، وَقُلْتُ : يَا سَيِّدِي أَنَا ضَعِيفٌ وَعَلَى عَيْلَةٍ ، فَلَوْ أَخَذْتُ سُدُسَهَا أَوْ رُبْعَهَا ! فَأَبَى وَأَدْخَلَنِي فَسَلَّمَتْ فِرْدَ السَّلَامِ ، وَهُوَ يَنْظُرُ فِي كِتَابٍ ، فَنَظَرُ فِي أَكْثَرِهِ ، وَأَنَا وَاقِفٌ ، ثُمَّ أَطْبَقَهُ وَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيَّ ، وَقَالَ : أَنْتَ ابْنُ الْمَغَازِلِ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ يَا مَوْلَايَ ، قَالَ : بَلَّغْنِي أَنَّكَ تَحْكِي وَتُضْحِكُ بِنَوَادِرَ عَجِيبَةٍ ، فَقُلْتُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْحَاجَةُ تَفْتَقُّ الْحِيلَةَ ، أَجْمَعُ لِلنَّاسِ حِكَايَاتٍ أَتَقَرَّبُ بِهَا إِلَى قُلُوبِهِمْ فَالْتَمَسَ بَرِّمَ ، فَقَالَ : هَاتِ مَا عِنْدَكَ ، فَإِنْ أَضْحَكْتَنِي أَجْزَيْتُكَ بِخَمْسِمِائَةِ دَرَاهِمٍ ، وَإِنْ أَنَا لَمْ أَضْحَكْ فَسَالِي عَلَيْكَ ؟ فَقُلْتُ لِلْحَجِينِ : مَا مَعِيَ إِلَّا قَفَايَ ، فَاسْأَلْ مَا أَحْبَبْتَ ، قَالَ : أَنْصَفْتُ إِنْ لَمْ تُضْحِكْنِي أَصْنَعُكَ بِذَلِكَ الْجِرَابِ عَشْرَ صَفْعَاتٍ ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : مَلِكٌ لَا يَصْنَعُ إِلَّا بِشْيَاءَ لَيْنٍ خَفِيفٍ ، وَالتَفَتُّ فَإِذَا بِجِرَابٍ مِنْ أَدَمٍ مَعْلَقٌ فِي زَاوِيَةِ الْبَيْتِ ، فَقُلْتُ : مَا أَخْطَأَ ظَنِّي ، عَسَى فِيهِ رِيحٌ إِنْ أَضْحَكْتُهُ رَجَحَتْ ، وَأَخَذْتُ الْجَائِزَةَ ، وَإِلَّا فَعَسَى صَفْعَاتُ جِرَابٍ مَنْفُوخٍ شَيْءٌ هَيِّنٌ ، ثُمَّ أَخَذْتُ فِي النُّوَادِرِ وَالْحِكَايَاتِ وَالنَّمَاشَةِ وَالْعِبَارَةِ ، فَلَمْ أَدْعُ حِكَايَةَ أَعْرَابِيٍّ ، وَلَا نَحْوِيٍّ ، وَلَا مَخْنَثٍ ، وَلَا قَاضٍ ، وَلَا نَبْطِيٍّ ، وَلَا سِنْدِيٍّ ، وَلَا زَنْجِيٍّ ، وَلَا خَادِمٍ ، وَلَا تَرْكِيٍّ ، وَلَا شَاطِرٍ ، وَلَا عَيَّارٍ ، وَلَا نَادِرَةٍ ، وَلَا حِكَايَةَ إِلَّا وَأَحْضَرْتُهَا حَتَّى نَفَدَ كُلُّ مَا عِنْدِي ، وَتَصَدَّعَ رَأْسِي ، وَفَتَرْتُ وَبَرَدْتُ ، وَلَمْ يَبْقَ وَرَائِي خَادِمٌ ، وَلَا غِلَامٌ إِلَّا وَقَدْ مَاتُوا مِنَ الضَّحْكِ ، وَهُوَ مُقَطَّبٌ لَا يَتَبَسَّمُ ، فَقُلْتُ : قَدْ نَفَدَ مَا عِنْدِي ، وَوَاللَّهِ

ما رأيتُ مثلكَ قطّ ، فقال لى : هيه ، ما عندك ؟ فقلت : ما بقى لى سوى نادرة واحدة ، قال : هاتيها ، قلت : وعدتني أن تجعل جائزتي عشر صفعاتٍ وأسألك أن تُضعفها لى وتضيف إليها عشر صفعاتٍ أخرى . فأراد أن يضحك ثم تمالك ، قال : نفعل يا غلام خذ بيده ثم مددت قفاى فصُفِعتُ بالجِرابِ صَفْعَةً ، فكأنما سقطتُ على قفاى قطعةً من جبل ، وإذا هو مملوء حصاً مدوراً فصُفِعتُ عشرًا ، فكادت أن تنفصل رقبتي ، وطَمَتِ أذناى وانقَدَحَ الشعاع من عيني ، فصحتُ يا سيدي ، نصيحة ، فرفع الصَّفْعَ بعد أن عزم على العشرين ، فقال : قل نصيحتك ، فقلت : يا سيدي إنه ليس فى الديانة أحسن من الأمانة ، وأقبح من الخيانة ، وقد ضَمِنْتُ للخادم الذى أدخلنى نصفَ الجائزة على قُلُوبِها وكُفْرِها ، وأمير المؤمنين بفضلِه وكرمه قد أضعفها وقد استوفيتُ نصفى ، وبقي نصفُهُ . فضحك حتى استلقى ، واستفزّه ما كان سمع ، فتعامل له ، فما زال يضرب بيديه الأرض ويفحص برجليه ويمسك بمراق بطنه ، حتى إذا سكن قال : علىّ به ، فأتي به ، وأمر بصفعه ، وكان طويلاً ، فقال : وايش جنائتي ؟ فقلت له : هذه جائزتي وأنت شريكى فيها ، وقد استوفيتُ نصيبى منها ، وبقي نصيبك ، فلما أخذه الصَّفْعَ وطرق قفاه الوقع ، أقبلتُ ألومه وأقول له : قلت لك إني ضعيف معيل ، وشكوتُ إليك الحاجة والمسكنة ، وأقول لك خذ ربعها أو سدسها ، وأنت قول : لا آخذ إلا نصفها ، ولو علمتُ أن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه جائزته الصنع وهبتها لك كلها . فعاد إلى الضحك من عتابى للخادم ، فلما استوفى نصيبه أخرج صُرةً فيها خمسمائة درهم ، وقال : هذه كنت أعددتها لك ، فلم يدعك فضولك حتى أحضرت شريكاً لك ، فقلت : وأين الأمانة ؟ قسمها بيننا وانصرفت .

* * *

فقال الحكم : اللَّهُمَّ غَفِرًا ، وَجَمَلَ يُقَلِّبُ النَّمْلَ بَطْنًا وَظَهْرًا ؛
ثم قال : أَمَّا هَذِهِ النَّمْلُ فَتَنَلِي ؛ وَأَمَّا مَطِيَّتُكَ فَنِي رَحْلِي ، فَانْهَضْ لِتَسْلُمَ
نَاقَتِكَ ، وافعل الخيرَ بِحَسَبِ طَاقَتِكَ ، ففعلت وقلت :

أَقْسَمُ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ذِي الْحَرَمِ
وَالطَّائِفِينَ أَلَمَّا كَفَيْنِ فِي الْحَرَمِ
إِنَّكَ نِعَمٌ مِّنْ إِلَهِ يُحْتَكَمُ
وَخَيْرُ قَاضٍ فِي الْأَعَارِبِ حَكَمُ
فَاسْلُمِ وَدَمَ دَوِّمِ النِّعَامِ وَالنَّعَمِ

فأجاب من غير رويّة ، ولا عَقْدِيَّة ، وقال :

جُزِيتَ عَنْ شُكْرِكَ خَيْرَ آيَاتِنَ عَمَّ
إِذْ لَسْتُ أَسْتَوْجِبُ شُكْرًا يُبْلَغُ
شَرُّ الْأَنَامِ مَنْ إِذَا اسْتُقْضِيَ ظَلَمَ
ثُمَّ مَنْ اسْتَرْعَى فَلَمْ يَرْعِ الْحَرَمَ
فَذَانِ وَالْكَلْبُ سَوَاءٌ فِي الْقِيمِ

ثم إنه نفَذَ بين يديّ ، مَنْ سَلَّمَ النَّاظِقَةَ إِلَيَّ ، وَلَمْ يَنْتَنِ عَلَيَّ ، فَرُخْتُ
بِحَيْحِ الْأَرْبِ ، أَجْرُ ذَيْلِ الطَّرَبِ ، وَأَقُولُ يَا لِمُعْجَبِ !

* * *

قوله : اللهم غفراً ، أى اغفر غفراً ، والغفر : السَّتر والتغطية . انهض : تقدم .
 لَقَسْتُ : لقبض . العتيق : القديم . الحَرَم : جمع حُرمة . والعاكفين : المقيمين فيه
 للعبادة ، والعكوف : الإقامة ، والحَرَم حَرَم مكة . اسلم : دعاء ، معناه سَلَّمَ الله .
 والنعام : طير معروف . الأعراب : الأعراب وهم سكان البادية . والنعم :
 جمع نعمة ، والدَّوْم والدوام واحد . روية ، أى فكرة . عَقْدَنِيَّة : أى نديير .
 اسْتُرِعِي : جُعل راعياً ، أى حكماً على الناس . يَرْعَى : يحفظ . فذان ، أى فهذان .
 القيم : جمع قيمة . يَمَنُّ : يعتدّها منّة ، وامتنَ فلانٌ عليك ، إذا فعل معك
 معروفاً فتى أنكر عليك شيئاً ذكر لك معروفه وجبّهك به ، وقالت الحكماء :
 أحبى المعروف بإماتة ذكره ، وعظمه بالتصغير له .

* * *

قال الحارث بن همام : فقلت له تالله لقد أطرفت ، وهرفت بما
 عرفت ، فناشدتك الله : هل أَلْقَيْتَ أُسْحَرَ منك بلاغة ، وأحسن لفظ
 صياغة ؟ فقال : اللهم نعم ، فاستمع وانعم . . . كنت عَزَمْتُ حِينَ
 أَتَهَمْتُ ، عَلَى أَنْ أَتَّخِذَ ظَمِينَةً ، لتكونَ لى مُعِينَةً ؛ فحين تعين الخُطْبُ
 المُلَبِّ ، وكاد الأمرُ يَسْتَتِبْ ، أَفْكَرْتُ فِكْرَ الْمُتَحَرِّزِ مِنَ الْوَقْمِ ،
 المتأمل كيف مَسَقَطُ السَّهْمِ ، وبث لَيْلَتِي أَنَا جِى الْقَلْبِ الْمُعَذَّبِ ،
 وَأَقْلَبُ الْعَزْمَ الْمَذْبَذَبَ ، إِلَى أَنْ أَجْمَعُ عَلَى أَنْ أُسْحِرَ ، وَأُشَاوِرَ أَوَّلَ
 مَنْ أَبْصِر . فلما قَوَّسَتْ الظُّلَمَةُ أَبْوَابَهَا ، وولت الشَّهْبُ أَذْنَابَهَا ،
 غَدَوْتُ غُدُوَّ الْمُتَعَرِّفِ ، وابتكرتُ ابتكارَ الْمُتَعَيِّفِ ، فانبرى لى يافعٌ ،

في وجهه شافع، فتيمنتُ بنظره البهيج، واستقدختُ رأيَه في التزويج .
فقال : أَوْ تَبْغِيهَا عَوَانًا ، أم بكَرًا دُمَانِي ؟ فقلت : اختر لي ما تَرَى ،
فقد أَلْقَيْتُ إِلَيْكَ العُرَى .

* * *

أطرفت : أتيتَ بطُرْفَةٍ ، يريد بأمرٍ عجيبٍ غريب . هَرَفْتُ بما عَرَفْتُ ،
أى تَكَلَّمْتُ بشيءٍ غريب ، والمهرف : الإطناب في المدح ، ومن كلام العرب
لا تَهْرِفْ بما لا تعرف . ناشدتك : حَلَقْتُكَ : صياغة : صنعة وسَبْك . أتهمت :
أتيتَ تِهَامَةً ، وهى ما انخفض من أرض العرب . طعينة : زوجة . الخطب :
النكاح . وتَعَيَّنَ : تحقق . يستتب : يتم . الوهم : الغلط . التأمل : الناظر .
المذبذب : المضطرب ، الذى لا يعتمد على رأى . أزمعت : عزمت . أسجر :
أخرج في السَّحَر . قَوَّضت : هدمت . والأطناب : حبال الخبَاء وتقويضها :
إزالتها . الشَّهْبُ : النجوم ، وجعل لها أذناناً مجازاً ، وأراد أن الفجر إذا طلع
وانتشر غابت النجوم ، فكانها قد وَلَّتْ أذنانها وقال التهامي في ذلك :

فَظَلْتُ أَعِثُّ فِي ثَوْبِ الدُّجَى وَلَهَا والجوَّ رَوْضُ وَزَهْرُ الشَّهْبِ كَالزَّهْرِ (١)
وللمجرة فوق الأرض معتركٌ كأنها حَبَبٌ يعلو على نهرٍ
وللثريا ركود فوق أرحُلنا كأنها قطعة من قَرَوَةِ النمرِ
كَأَنَّ أَنْجَمَهَا وَالصُّبْحَ يُغْمِضُهَا قَمَرًا عَيُونُ غَفَتِ مِنْ شِدَّةِ السَّهْرِ
المتعرف : المكتسب لأنه يعرف ما جهل . المتعيف : الزَّاجِر ، من عاف
الشيء إذا كرهه . يافع : فَتَّى شابَّ وقد أَيْفَع إذا شبَّ . في وجهه شافع ، أى
هو حسن الوجه يشفع حسنُ وجهه إذا ذَنَبَ أو أخطأ .

* * *

(١) ديوانه ٤٢ .

[من قولهم في الوجه الحسن]

وفي وجهه شافع صدر بيت للحكم بن قنبر .

وقال يحيى بن علي المنجم : كنت يوماً بين يدي المعتضد ، وهو مقطّب ، فأقبل بدرّ موله ، فلما رآه من بعيد ضحك وقال : يا يحيى من الذي يقول : « في وجهه شافع » ؟ فقلت : يقوله ابن قنبر المازني البصري ، فقال لله : درّه ، فأشيد هذا الشعر ، فأشدته :

وَيْلِي عَلَى مَنْ أَطَارَ النُّومَ فامتنعاً وزاد قلبي على أوجاعه وجمعا
كأنما الشمس في أعطافه لمعت حسناً أو البدر من أزراره طلعا
مستقبل بالذي يهوى وإن كثرت منه الذنوب ومعدور بما صنعاً
في وجهه شافع يحو إساءته من القلوب وجيه حيثما شفعاً

أنس ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « حسن الوجه مال » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « اطلبوا الخير عند حسان الوجوه » .

وقال الشاعر :

أنت شرط النبي إذ قال يوماً اطلبوا الخير من حسان الوجوه
وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « مَنْ آتَاهُ اللَّهُ وَجْهًا حسنًا واسماً حسنًا ، وجعله في موضع غير شائن ، فهو من صفوة الله من خلقه » .

ابن عمر رضي الله عنهما قال صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة تجلّو البصر : النظر إلى الخضرة ، والنظر إلى الماء الجاري ، والنظر إلى الوجه الحسن » ، نظمها الشاعر فقال :

ثلاثة يذهبن للمرء الحزن الماء والخضرة والوجه الحسن

قوله تَيَمَّنَتْ : تبرّكت . البهيج . الحسن . استقدحت : طلبت ، وأصلها ،
في قَدَحِ النار . تبغيها : تطلبها . عَوَانًا : ثَبَّأً . تعانى : تعالج وتراضى . العرا :
جمع عمروة .

* * *

فقال : إلى التَّيْنين ، وَعَلَيْكَ التَّيْنين ، فاسمعَ أَنَا أَفْدِيكَ ، بعد
دَفْنِ أَعَادِيكَ ؛ أَمَا الْبِكر فالذَّرةُ المخزونة ، وَالْبَيْضَةُ المكنونة ،
وَالْبَاكُورَةُ الْجَنِيَّةُ ، وَالسَّلَافَةُ الْهَيْبَةُ ، وَالرَّوَضَةُ الْأَنْفُ ، وَالطُّوقُ
الَّذِي كَمُنَ وَشَرَفَ ؛ لَمْ يَدْنُسْهَا لَامِسٌ ، وَلَا اسْتَفْشَاهَا لَابَسٌ ، وَلَا مَارَسَهَا
عَابِثٌ ، وَلَا وَكَسَهَا طَامِثٌ ، وَلَهَا الْوَجْهُ الْحَيُّ ، وَالطَّرْفُ الْخَفِيُّ ، وَاللِّسَانُ
الْعَمِيُّ ، وَالْقَلْبُ التَّقِيُّ . ثم هي الدَّمِيَّةُ الْمَلَاعِبَةُ ، وَاللَّعْبَةُ الْمُدَاعِبَةُ ، وَالْفَزَالَةُ
الْمُغَازِلَةُ ، وَالْمُلْحَةُ الْكَامِلَةُ ، وَالْوِشَاحُ الطَّاهِرُ الْقَشِيبُ ، وَالضَّجِيعُ
الَّذِي يُشِبُّ وَلَا يُشِيبُ ... أَمَا النِّيبُ فَالطَّيْبَةُ الْمَذَلَّةُ ، وَاللَّهْنَةُ الْمُعْجَلَةُ .
وَالْبِنْيَةُ الْمُسَهَّلَةُ ، وَالطَّبَّةُ الْمُعَلَّلَةُ ، وَالْفَرِينَةُ الْمُتَجَبِّبَةُ ، وَالْخَلِيلَةُ الْمُتَقَرَّبَةُ ،
وَالصَّنَاعُ الْمُدَبَّرَةُ ، وَالْفِطْنَةُ الْمُخْتَبِرَةُ . ثمَّ إِنَّهَا عَجَالَةُ الرَّاكِبِ ، وَأَنْشَوَطَةُ
الْخَاطِبِ ، وَقُعْدَةُ الْعَاجِزِ ، وَنَهْزَةُ الْمُبَارِزِ ، عَرِيكَتُهَا لَيْبَةُ ، وَعُقْلَتُهَا هَيْبَةُ ،
وَدِخْلَتُهَا مَتَبَيِّنَةُ ، وَخِدْمَتُهَا مُزَيِّنَةُ ، وَأُقْسِمُ لَقَدْ صَدَقْتُ فِي التَّنْعَيْنِ ،
وَجَلَوْتُ الْمَهَامَتَيْنِ ، فَبَايَتُهُمَا هَامَ قَلْبِكَ ، وَعَلَى أَيَّتَهُمَا قَامَ رُبُّكَ ؟

* * *

الذَّرةُ : الجوهرة . المخزونة : التي جُعِلَتْ فِي الْخِزَانَةِ لِرَفْعَتِهَا ، يريد أن
الْبِكر تمجَّب وتُصَان : البَيضة المكنونة ، أراد بَيضة النعام ، ويشبُّ بها النساء

لبياضها والصُّفْرَةُ التي تضرب فيها، وقد تقدمت هذه الصفة في العاشرة، وقال
امرؤ القيس :

كَبِكرٍ مُقَانَاةٍ البياضِ بصفرةٍ غَذَاها تَمِيرُ الماءَ غيرُ الحَلَلِ (١)
وقال ذو الرُّثْمة :

* كَأَنَّهَا فِضَّةٌ قَدْ مَسَهَا ذَهَبٌ * (٢)

والمكنونة : المصونة ، والنعامَةُ تُكِنُّ بِيضَتَهَا بَرِيشَهَا ، ولا تبديها للشمس
والريح لئلا تتغير ، وقال الله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴾ (٣) ، الباكورة :
أول ما يُبَاكَر من الثمر . والسلافة : الحر ، والمدخورة : المحبوبة في آيتها .
الأنف : التي لم تُدْخَل ولا رعيت . والطوق : ثوب رفيع . ثَمْنُ : كثر ثَمَنُهُ .
اللامس : الذي يلمس الشيء بيده ويدنسه ، وأراد به الذي يلاعبها وبعضها .
ابن عباس : اللمس والملاسة واللّامس ، كناية عن الجماع ، وفلانة لا تَرْدُ يَدَ
اللامس ، أي لا تمنع مجامعتها مَنْ أَرَادَهَا . استغشاها : جَامَعَهَا ، وغشيان النساء :
مجامعتهن . واللابس : الذي لا بسها واختلط بها ، يريد نكحها . مارمها :
عاجلها وعانأها . عابث : مفسد ، وأراد من يَعْبَثُ بها عند الجماع . وَكَمَهَا :
نَقَصَهَا ، ووضع منها ، والوكس : الخسارة في البيع . طامث : ناكح . والطامث :
المفتقر للبكر . العبي : الذي لا يعرف تصرفات الكلام : والدمية صورة
الرخام . واللّعبة : ما يلعب به ، وتقول : لمن اللعبة ؟ أي لمن القلب في لعب
الشطرنج وشبته . على رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « المرأة
لُعبة زوجها ، فإن استطاع أن يُحسِّن لعبته فليفعل » . والمداعبة : المازحة .
والمغازلة : تقول غازلتني المرأة إذا تماججت عليك في كلامها ، وأشارت لك

(٢) ديوانه ٥ ، وصدرة :

(١) ديوانه ١٦

* كَحَلَاةٍ فِي بَرَجٍ صَفَرَاءٍ فِي نَعَجٍ *

(٣) سورة الصافات ٤٩

بعينها وغزرتك بحاجبها حتى إذا طمعت فيها صددت عنك . والمُلحة : الصورة المستملحة كالدمى وكالصورة التي تلعب بها البنات والشطّار ، وهى اللعبة . وجاء بملحة أى بكلمة طيبة مليحة . والوشاح : الحزام . والقشيب : الجلد جعلها كالوشاح عند عناقها وجماعها . والضجيع : المراقد . يشبّ : يردك شاباً . يُشيب : يُكسبك الشيب . اللهنة : ما يعجل للضيء قبل القرى . والطبة : الحاذقة بمصالحها . المعللة : التى تعطيك ما تريد منها مرّة بعد مرّة ، وهى بكسر اللام ، والمعللة : التى تعلل مرثفتها بالريق ، قال امرؤ القيس :

* وَلَا تَمْنَعِينَا مِنْ جَنَّاكِ الْمَلَلِ ^(١) *

ابن الأعرابي : الملل : المعين بالبرّ بعد البرّ ، ومن نصّب اللام فعناه المطيب مرّة بعد مرّة ، والتعليل سقى بعد سقى . والقرينة : الصّاحبة . والحليلة : الزّوجة . والصّناع : الحاذقة بالصّنع . ومجالة الراكب : ما يعجل له من الطعام والشراب ، مثل التمر والسويق ، وما لا يتعب بمعالجته ، وكانت العرب لسكرمها يمرّ عليها الرجل ، وهو راكب فتعريض عليه النزول للقرى ، فيمتنع لأعذار له فيمسك ؛ حتّى يُخرج له من البيوت أيسر ما يوجد ، يأكله وهو راكب ، فجعل الثيّب لسهولتها كالمجالة التى لا يتكلّف لها ، وقال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه : البكر كالبرّة تطحنها وتعجنها وتخبزها وتأكلها ، والثيّب مجالة الراكب تمر وسويق . والأنشودة : عقدة تحلّ بسهولة . نهزة : فرصة وغنيمة سهلة . هريكتها : طبيعتها ، ورجل لّين العريكة إذا كان سهلاً سلس القياد ، وأصل العريكة سنام البعير ، وكانوا يعمدون للبعير إذا كان فيه شماس وامتناع ، فيقطعون فى حدّته وهى مرتفعة يصعب الرّكوب عليها ، فإذا قطع فيها سكن البعير ولان ، وتوطأ موضع الرّكوب منه فيقال : قد لانت عريكته وقال الشاعر :

(١) ديوانه ١٢ ، صدره :

* قَلْتُ لَهَا سِيرِي وَأَرْخِي زَمَامَهُ *

من اللواتى إذا أودت عريكها يَبْقَى لها بعدها أُلٌّ ومجهودُ
 قوله : أودتْ ، أى زالت وذَهبت ، فهذا يدلُّ على ما ذكرنا . عُقَلَتِها :
 حبستها ، يريد أن ما يعقلها به صاحبها شيء هين ، والعُقلة مثل العقدة ، وفلان
 عُقْلة يعقل بها الناس فيغلبهم ويصرعهم . دَخَلَتِها : باطن أمرها ، وفلان
 عفيف الدخلة وخبيثها ، أى الباطنة والسريرة . متبينة : مكشوفة ظاهرة ،
 أى سرُّها ظاهر . المهاتين : البكر والثيب ، والبقرة الوحشية هى المها . هام :
 تحير من شدة الحب .

* * *

قال أبو زيد : فرأيتُهُ جَنْدَلَةً يَتَّقِيها المَرَجِم ، وتُدَمِّي منها
 الحاجِم ؛ إلّا أنى قلت له : كنتُ سمعتُ أن البِكرَ أشدُّ حُبًّا ، وأقلُّ
 خُبًّا ، فقال : لعمري قد قيل هذا ، وَلَكِنْ كَمْ قولٍ أذى ، ويحك !
 أمّا هى المَهْرَةُ الأَيَّةُ العِنان ، والمَطِيَّةُ البَطِيَّةُ الإذعان ، والزُّنْدَةُ المتعسرة .
 الاقتداح ، والقَلْعَةُ المُستَصْعَبَةُ الافتتاح . ثم إن مؤنتها كثيرة ، ومَعُونَتِها
 يسيرة ، وعِشْرَتِها صِلْفَةٌ ، ودَأَلَّتِها مُكَلِّفَةٌ ، ويَدِها خَرْفَاءٌ ، وفِتْنَتِها
 صَمَاءٌ ، وعَرِيكَتِها خَشْنَاءٌ ، وَلَيْلَتِها لَيْلَاءٌ ، وفِي رِياضَتِها عَنَاءٌ ، وَعَلَى خَمَرَتِها
 غِشَاءٌ ، وطالما أَخَزَتِ المَنَازِلَ ، وفَرَكَتِ المَغَازِلَ ، وأَحْنَقَتِ الهَازِلَ ،
 وَأَضْرَعَتِ الفَيْيَقَ البَازِلَ . ثمَّ إنها التى تقول : أنا ألبس وأجلس ،
 فأطلب من يُطْلِقَ ويَحْبِسُ .

فقلت له : فما ترى فى الثَّيِّبِ ، يا أبا الطَّيِّبِ ؟ فقال : وَيْحَكَ ! أَتَرَوْنِي
 فى فُضالةِ المَاءِ كُلِّ ، وَثُمالةِ المَنَاهِلِ ، واللِّباسِ المُستَبْدَلِ ، والوعاءِ

المُسْتَعْمَل، والدَّوَاقِ المتطرفة والخَرَاجَةُ المتصرّفة، والوَقَاحُ المتسلّطة،
والمُخْتَكِرَةُ المتسَخّطة. ثم كَلِمَتُهَا: كُنْتُ وَصِرْتُ، وطالما بُنِيَ عَلَى
فُنِصِرْتُ. وَشَتَّانَ بَيْنَ الْيَوْمِ وَالْأَمْسِ، وَأَيْنَ الْقَمَرُ مِنَ الشَّمْسِ! وَإِنْ
كَانَتِ الْحَنَانَةُ الْبُرُوكَ، وَالطَّمَّاحَةُ الْهَلُوكَ، فَهِيَ الْغُلَّةُ الْقَعْلُ، وَالْجُرْحُ
الَّذِي لَا يَنْدَمِلُ.

* * *

قوله: الْمُرَاجِمُ، أَيْ الَّذِي تَرْجُمُهُ وَيَرْجُمُكَ. خِبَاءٌ: مَكْرَأٌ وَخَدِيعَةٌ، وَرَجَلُ
خَبٍّ: غَاشٌّ فَاجِرٌ. الْآبِيَةُ الْعِنَانُ: الْمَمْتَنَعَةُ الْقِيَادَ. الْإِذْعَانُ: الْخُضُوعُ وَالذَّلَّةُ.
الزَّنْدَةُ: مَا تَزْنُدُ مِنْهُ النَّارُ. الْمُتَعَسِّرَةُ الْاِقْتِدَاحُ: الَّتِي يَعْسِرُ إِخْرَاجَ النَّارِ مِنْهَا.
الْقَلْعَةُ: الْحِصْنُ وَالْمَكَانُ الْمُرْتَفِعُ. عَشْرَتُهَا: صُحْبَتُهَا. صَلِيفَةٌ: مَجَاوِزَةٌ حَدَّ
الطُّوقِ، وَأَصْلُ الصَّلَفِ الْإِعْرَاضُ عَنِ الشَّيْءِ كَأَنَّهُ إِذَا اسْتَقْبَلَكَ أَبْدَيْتَ لَهُ
صَلِيفَكَ، وَهُوَ صَفْحَةُ عُقَّتِكَ. وَدَأَّتْهَا: انْبَسَاطُهَا، يَرِيدُ انْبَسَاطَهَا إِذَا أَرَادَتْ
أَنْ تُدَلَّ عَلَيْكَ تَتَكَلَّفُ ذَلِكَ. خَرَقَاءُ: لَا تَحْسِنِ الْعَمَلَ. صَمَاءٌ: شَدِيدَةٌ، كَأَنَّهَا
لَا تَسْمَعُ النَّهْيَ وَالْعَذْلَ. وَفَتَنْتَهَا: شَرَّهَا. خَشْنَاءُ: خَشْنَةٌ صَعْبَةٌ. لِيَاءُ:
شَدِيدَةُ السَّوَادِ طَوِيلَةٌ. خَمَرْتَهَا: لَبَسَتْهَا الْحِمَارُ. غَشَاءٌ: غُطَاءٌ وَسِتْرٌ. فُضَالَةٌ:
بَقِيَّةٌ، وَكَذَلِكَ ثَمَالَةُ الْمَنْهَلِ: مَوْضِعُ الْمَاءِ. وَالنَّهْكَ: الشَّرْبُ الْأَوَّلُ. وَالدَّوَاقِ
الْمُتَطَرِّفَةُ، أَيْ الَّتِي تَذُوقُ طَرَفَ الشَّيْءِ وَتَتْرَكُهُ أَوْ تَذُوقُ بَطْرَفَ لِسَانِهَا ثُمَّ تَبْصُقُهُ،
وَتَطَرَّفَتِ النَّاقَةُ: رَعَتْ بِأَطْرَافِ الْمَرْعَى، فَيُرِيدُ أَنَّهَا لَا تَبْقَى عَلَى زَوْجٍ وَاحِدٍ،
إِنَّمَا هِيَ تَذُوقُ كُلَّ زَوْجٍ وَتَجَرِّبُ لَذَّةَ مِبَاشَرَتِهِمْ، وَقَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ: إِنِّي قَدْ طَلَقْتُ زَوْجَتِي فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ
الذَّوَاقِينَ وَلَا الذَّوَاقَاتِ». الْخَرَاجَةُ: الْكَثِيرَةُ الْخُرُوجُ. الْمُتَصَرِّفَةُ: الْجَوَالَةُ.
الْوَقَاحُ: الصُّلْبَةُ الْوَجْهَ الَّتِي لَيْسَ عِنْدَهَا حَيَاءٌ. الْمُتَسَلِّطَةُ: الْمُسْتَطِيلَةُ الْلِسَانُ.

والمحتكرة : التي تَسْرِق رِزْق زوجها ، ثم تحتكره ، أى تدخره وترفعه ، فإذا احتاج زوجها لشرائه أخذت منه ثمن ما عندها محتكراً . كنتُ وصرت : مخاطب به زوجها أى كنت في نعمة مع الزوج الأول وأنا معك على شقاء . بُغِيَ على ، أى اجتمع على بالظلم ، والبغى : الظلم . وشتان : بُعد . واليوم وأمس : الزوج الحاضر معها والزوج المفقود ، وهو الذى أراد بالقمر والشمس ، ويقال : شتان زيد وعمر وترفعهما بشتان ، وتفتح نونها لالتقاء الساكنين تشبيهاً بالأدوات ويقال : شتان ما زيد وعمر ، فتجعل ما صلة أو تنصبها على التمييز على حَدِّ نَعَم رجلاً زيدٌ والتقدير : شتان شهماً زيد وعمر ، وبرفعهما بشتان بمعنى بُعد شهماً زيد وعمر ، ويجوز كسر نون شتان على أنها تثنية شت ، وهو التفرق ، وجمعه أشتان ، ويقال : شتان ما بين زيد وعمر ، وترفع « ما » بشتان على أنها بمعنى الذى ، وبين صاتها ، ولا يجوز كسر نون شتان لأنها اسم واحد ، ومعنى عيهاً بُعد الحنّانة : صاحبة الولد الذى من غير الزوج الذى هى معه : فتى رأت ولدها حنّت لوالده ، والبروك : التى تنزّوج ولها ولدٌ كبير ، ويسمى ولدها الحوبند . والطاحاة الملوكة : هى التى فارقها زوجها فتطمح له أبداً وتهالك فى محبّته . وقيل : الطاحاة التى تطمح إلى كلّ شهوة ، والمهلكة الفاجرة . والغُلّ : الشراك التى يُغَلّ بها الأسير أى يربطها فى عنقه ويديه . والقمل : الذى كثرت فيه القمل ويضرب بالغُلّ القمل المثل للمرأة السيئة الخلق . لا يندمل : لا يبرأ .

أبو موسى رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث يدعون الله فلا يستجيب لهم : رجل كافت عنده امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها ، ورجل أعطى ماله سفيهاً ، وقد قال الله تعالى ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُم ﴾ ، ورجل كان له على رجلٍ دينٌ فلم يشهد عليه » .

المقدمى : قال بعض الحكماء : أربعة أشياء يمنعن النوم والقرار : المرأة السوء ،

والولد الجاهل ، والعشير المخالف ، والعبد اللثيم . قال الأصمعي : قال لى زائدة
البندار : قيل لى بالشأم : هل لك أن ترى العَجَب؟ فذهبتُ فإذا سبعة في شق ،
جدّ وستة من ولده وولد ولده ، وإذا الجدّ السابع أشب من الابن السابع ،
فسألت عنه فقيل : كان للجدّ امرأة مُواققة وللابن السابع امرأة سَكِيطة .

وقال صلى الله عليه وسلم : « أربعة لا يشبّعن من أربعة : عينٌ من نظر ،
وأرض من مطر ، وأنتى من ذكر ، وعالم من علم » .

قال الأصمعي : تزوّج رجل من عُذرة امرأة من بلى حقاء ، فغاب عنها
غيبَةً ثم قدم عليها ، فلما جمعهما المضجع أنشأت تقول :

ما مَسَّنِي بعدك منَ إنسِي غير غلامٍ واحدٍ جَعَدِي
ورجلٍ أَحَقَّ منَ بِلِي ورَجُلَيْنِ منَ بِنِي عَدِي
وتسعة كانوا مع المطي وتسعة كانوا على الطوي
وخمسة وافوا مع العشي من بين جدّي إلى مكّي

* ومن تَهَامِيٍّ إلى بَجْدِي *

فقام إليهما بالسوط فضربها ، فاجتمع لذلك من حوله يلومونه ، فقال :
والله لولا ما قتُ لضربها لعدّت على أهل عَرَقات ومِنِي .

وقيل ليحيى المديني : ما الجرحُ الذي لا يندمل ؟ قال : حاجة الكريم
إلى اللثيم .

* * *

فقلت له : فهل ترى أن أترهبَ ، وأسئلكَ هذا المذهبَ ؟
فانتهرني انتهار المؤدّب ، عند زلة المتأدّب ، ثم قال : ويلك ! أتقتدى
بالرهبان ، والحق قد استبان ! أف لك ولو هن رايك ، وتبّا لك ولأولئك

أَتَرَكَ مَا سَمِعْتَ بِأَنْ لَا رَهْبَانِيَّةَ فِي الْإِسْلَامِ ، أَوْ مَا حَدَّثْتَ بِمَا كَاحِ
 نَبِيِّكَ عَلَيْهِ أَزْكَى السَّلَامِ . ثُمَّ أَمَا تَعْلَمُ أَنَّ الْقَرِينَةَ الصَّالِحَةَ تَرْبُّ يَتِيمَكَ ،
 وَتَلْبِي صَوْتَكَ ، وَتَغْضُ طَرْفَكَ ، وَتُطَيِّبُ عَرْفَكَ ، وَبِهَا تَرَى قُرَّةَ عَيْنِكَ ،
 وَرِيحَانَةَ أَنْفِكَ ، وَفَرَحَةَ قَلْبِكَ ، وَخُلْدَ ذِكْرِكَ ، وَتَعَلَّةَ يَوْمِكَ وَغَدِكَ !
 فَكَيْفَ رَغِبْتَ عَنْ سُنَّةِ الْمُرْسَلِينَ ، وَمُتْعَةِ الْمُتَأَهِّلِينَ ، وَشِرْعَةِ الْمُحْصَنِينَ
 وَمَجْلَبَةِ الْمَالِ وَالْبَنِينَ : وَاللَّهِ لَقَدْ سَاءَ نِي فِيكَ ، مَا سَمِعْتَ مِنْ فِيكَ . ثُمَّ
 أَعْرَضَ إِعْرَاضَ الْمَغْضَبِ ، وَتَرَا نَزْوَانَ الْعُنْطَابِ ، فَقُلْتَ لَهُ : قَاتِلْكَ
 اللَّهُ ! أَنْتَ طَلِقَ مُتَبَخِّرًا ، وَتَدْعُنِي مُتَحِيرًا ! فَقَالَ : أَظْنُكَ تَدْعِي الْخَيْرَةَ ،
 لِتَجْلِدَ عُصْمِيَّةً ، وَتَسْتَعْنِي عَنِ الْمُهَيَّرَةِ . فَقُلْتَ لَهُ : قَبِّحَ اللَّهُ ظَنَّاكَ ،
 وَلَا أَشْبَهَ قَرْنَكَ . ثُمَّ رُحْتُ عَنْهُ مَرَّاحَ الْخُزْيَانِ ، وَتُبْتُ مِنْ مَشَاوِرَةِ
 الصَّبِيَّانِ .

* * *

قوله : أَتَرَهَّبَ ، أَيْ أَتَرَكَ التَّزْوِيجَ ، وَالتَّرَهَّبَ تَرَكَ النِّسَاءَ . أَتَهَزَّنِي : زَجَرَنِي
 وَأَخَذَنِي بِلِسَانِهِ . زَلَّةٌ : سَقَطَةٌ . اسْتَبَانَ : ظَهَرَ . الْأَفْ وَسَخِ الْأُذُنَيْنِ ، وَالْوَهْنُ :
 الضَّعْفُ وَالْخُسْرَانُ . وَلَأَوْلَئِكَ ، إِشَارَةٌ لِلرَّهْبَانِ . السَّكْنُ : الزَّوْجَةُ يُسْكَنُ إِلَيْهَا
 تَرْبُّ : تَصْلَحُ . تَلْبِي : تَجِيبُ . تَغْضُ طَرْفَكَ ، أَيْ تَحْصُنُكَ وَتَمْنَعُكَ مِنْ نَظَرِ
 النِّسَاءِ . عَرْفَكَ : رِيحَكَ الطَّيِّبَ . وَقُرَّةَ الْعَيْنِ : مَا يَتَمَنَّى وَتَقَرَّ بِهِ الْعَيْنُ .

ريحانة : شَجَرَةٌ طَيِّبَةُ الرِّيحِ ، وَرِيحَانَةٌ مِنْ صِفَةِ الْمَرْأَةِ . قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
 فِي وَصِيَّتِهِ لِابْنِهِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ : « لَا تَمْلِكَنَّ الْمَرْأَةُ مِنَ الْأَمْرِ مَا يَتَجَاوَزُ نَفْسَهَا
 فَإِنَّ الْمَرْأَةَ رِيحَانَةٌ وَلَيْسَتْ بِقَهْرْمَانَةٍ ، وَإِنْ ذَلِكَ أَذْوَمُ لِحَالِهَا وَأَرْضَى لِبَالِهَا » .

وما أحسن ما قال ابن اللبانة يرثي أخت المرتضى صاحب مَيُورقة ، ومات
بعد أخيها :

أَبْنَتُ الْعِلا جَدَّدَتْ مَنَى عَلَى مَنَى
مَضَى الْمَرْتَضَى أَصْلًا وَأَتْبَعَتْهُ فِرْعَا
جَرَى الْمَوْتَ جَرَى الرِّيحِ فِي مَنَبَتَيْكَا
فَأَذْوَكَ رِيحَانًا وَكَسَّرَهُ نَبَا

تَعْلَةٌ : أَى تَتَعَلَّلُ وَتَنْتَفِعُ بِمَا عِنْدَهَا مِنَ الْقِيَامِ بِمُؤْنَتِكَ . وَمُتْعَةٌ : مَا يُبْتَمَعُ
بِهِ وَيَتَلَذَّذُ . الْمُتَاهِلِينَ : الْمُتَزَوِّجِينَ الَّذِينَ لَمْ أَهْل . شِرْعَةٌ : طَرِيقَةٌ . الْمُحْصَنِينَ :
الْمُتَزَوِّجِينَ . نَزَا : وَثَبَ وَارْتَفَعَ . الْعُنْظُبُ : ذَكَرُ الْجَرَادِ .

[فصل فى الزواج واختيار الأزواج]

ونذكر هنا فصلا يليق بهذا الموضع .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعطاف بن وداعة الملالى : « يَا عَطَّافُ
أَلَيْكَ امْرَأَةٌ ؟ قَالَ : لَا قَالَ : فَأَنْتِ إِذَا مِنْ إِخْوَانِ الشَّيَاطِينِ ، إِنْ كُنْتِ مِنْ
رَهْبَانِ النَّصَارَى فَالْحَقِّ بِهِمْ ، وَإِنْ كُنْتِ مِنَّا فَسَنَتْنَا النِّكَاحَ » .

أنس رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « رَكْعَتَانِ مِنَ
الْمُتَاهِلِ خَيْرٌ مِنْ اثْنَتَيْنِ وَثَمَانِينَ رَكْعَةً مِنَ الْعَزَبِ » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « تَزَوَّجُوا الْوُلُودَ الْوُدُودَ مِنْ مِنَ النِّسَاءِ فَإِنِ
مَكَاتَرْتُمْ بِكُمْ الْأُمَمَ » .

وقال صلى الله عليه وسلم « النِّسَاءُ ثَلَاثُ : صِنْفٌ كَالرَّحَى تَحْمِلُ وَتَضَعُ ،
وَصِنْفٌ كَالْعَرَّةِ وَهُوَ الْجَرْبُ ، وَصِنْفٌ وَدَّودٌ وَلَوْ دُعِيَ زَوْجُهَا عَلَى إِيْمَانِهِ
فَهُمَى خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْكَزْزِ » .

ابن عمرو رضى الله عنهما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إذا أتى على أمتى مائة وثلاثون سنة فقد حلت لهم العزبة والترهب فى رءوس الجبال » .
وقال صلى الله عليه وسلم : الدنيا متاع ، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة .
وقال خالد بن صفوان لرجل : أتزوجت؟ قال : لا ، قال : فتزوج ، ثم قال بعد ساعة : لا تنزوج ، فقال : لم؟ قال : إنك إن تزوجت واحدة فتطهر إن طهرت وتحيض إن حاضت وتفضب إن غضبت ، فإن تزوجت بائنتين تقع بين صرتين ، فإن تزوجت ثلاثاً تقع بين أناف ، وإن تزوجت بأربع يغلسنك ويهزم منك . قال : أفترحم ما أحل الله لك؟ قال : لا ، ولكن كوزان وخاران وعباءة وقرصان .

وقال رجل : أردت النكاح فقلت : لأستشيرن أول من يطلع على ، فأعمل برأيه ، فأول من طلع على هبنقة القينسى الأحق وتمتة قصبة ، فقلت له : إني لأستشيرك فى النكاح ، فقال : البكر لك والثيب عليك ، وذات الولد لا تقر بها ، واحذر جوادى لا ينفحك .

وقال رجل لولده : يا بنى لا تتخذها حنانة ولا أنانة ولا منانة ولا عسبة الدار ولا كية القفا ، فالحنانة التى لها ولد من غيره فهى تحن إليه ، والأنانة : التى مات زوجها فهى إذا رأت الثانى أنت للأول وقالت : يرحم الله فلانا ، والمنانة التى لها مال ، فهى تمن به على زوجها متى احتاج إليه ، وعسبة الدار : خضراء الدمن ، وقد تقدمت ، وكية القفا : التى انصرف ابنها أو زوجها من بين القوم قال رجل قد كان بينى وبين أم هذا أو زوجته شيء .

وسئل أعرابى عن النساء ، وكان ذا تجربة لهن فقال : أفضلن أطولهن إذا قامت ، وأكظمن إذا قعدت وأصدقهن إذا قالت ، التى إذا غضبت حلت وإذا ضحكت تبسمت ، وإذا صنعت شيئاً جودت ، التى تلزم بيتها ولا تعمى

زوجها العزيزة في قومها ، الذليلة في نفسها ، الودود الولود ، وكل أمرها محمود .
 نظر خالد بن صفوان إلى جماعة في مسجد البصرة فقال : ما هذه الجماعة ؟
 قالوا : امرأة تدلّ على النساء ، فأتاها فقال لها : أبغى امرأة ، قالت : فصفها ،
 قال : أريدها بكراً كتيب ، أو ثيباً كبكر ، حُلوة من قريب ، ضخمة من بعيد ،
 كانت في نعمة ، وأصابتها حاجة ، ففيها أدب التّعة وذلة الحاجة ، إذا
 اجتمعنا كنّا أهل دنيا ، وإذا افترقنا كنّا أهل آخرة ، قالت : قد أصبتها لك ،
 قال : فأين هي ؟ قالت : في الرفيق الأعلى من الجنة فاعمل لها .

[حكاية خالد بن صفوان مع أبي العباس السفاح وزوجهِ أم سلمة]

وقال خالد لأبي العباس السّفّاح - وكانت عنده أمّ سلمة بنت يعقوب بن
 سلمة المخزومي ، وكان تزوّجها قبل الخلافة ، وحلف ألاّ يتزوج عليها ، ولا
 يتسرّى :- يا أمير المؤمنين ، إني تفكرت في أمرك ، مع سعة ملكك ، وقد
 ملكتك امرأة واحدة ، إن مرضت مرضت لمرضها ، وإن غابت غابت ،
 وحرمت نفسك التّادّ بالجوارى ومعرفة جلاتهنّ ، فإنّ منهنّ الطويلة العيّد ،
 والفضة البيضاء ، والعقيقة الأدّماء ، والرقيقة السّماء ، والبربرية العجّزاء ،
 يفتنّ بمحادثتهنّ . ونأتك عن بنات الأحرار والنّظر إليهنّ ، ولو رأيت الطويلة
 البيضاء ، والسّمراء العيّن ، والبيضاء العجّزاء ، والمولدات من البصريّات
 والكوفيات ذوات الألسن العذبة ، والقُدود المهففة ، والأوساط المخضّرة
 والأصداغ المزركقة ، والعيون المكحلة ، والثدي المحقّقة ، وحسن زينتتهنّ
 وشكلهنّ ، لرأيت شكلاً حسناً ، فقال له : ويحك يا خالد ! ما سلك مسامعي
 والله كلام أحسن مما سمعت منك . فانصرف وبقى أبو العباس متفكراً .
 فدخلت عليه أم سلمة فرأته ، مغموماً فقالت له : إني لأنكرك يا أمير المؤمنين ، هل
 أملك خبراً فارتعت له ؟ قال : لا ، قالت : فما قصّتك ، فروى وجهه عنها ، فلم
 (م ٨ - شرح مقامات الحريري - ج ٥)

تزل به حتى أخبرها ، قالت : فما قلت لابن الفاعلة ؟ قال : سبحان الله ! ينصحنى وتشتمينه ! فخرجت مغضبة ، وأرسلت إليه جماعة من العبيد ، وبأيديهم مقامع من حديد ، وأمرتهم ألا يتركوا من خالد عضواً صحيحاً . قال خالد : فأنصرفت مسروراً لما رأيت من إعجابه بما ألقيت عليه ، ولم أشك أن صلتى ستأتينى .

فأتى لقاعد على باب دارى ، وإذا بالعبيد قد أقبلوا نحوى فلم أشك فى الجائزة ، فسألوا عني فقلت : أنا خالد ، فأهوى أحدهم إلى بهراوة فوثبت إلى منزلى ، وعلمت أنى أتيت من أم سلمة . وطلبنى أبو العباس طلباً شديداً ، وأنا مستخف ، فهجيم على فى الثالث ، فقالوا : أجب أمير المؤمنين . فأيقنت بالموت ، فدخلت عليه وليس فى وجهى دم ، فسلمت وجلست ، وإذا خلف ظهرى ستر خلفه حركة . فقال لى : يا خالد أين كنت منذ ثلاثة أيام ؟ قلت : عليلاً ، قال : إنك وصفت لى من أخبار النساء والجوارى ما لم يخرق مسامعى قط شئ ! أحسن منه ، فأعذه على ، قلت : نعم أعلمتك يا أمير المؤمنين أن العرب اشتقت اسم الضرة من الضر ، وإن أحدهم لم يكن عنده أكثر من واحدة إلا كان فى جهد . قال : ويحك لم يكن هذا فى الحديث ! قلت : بلى والله ، وأعلمتك أن الثلاث من النساء كاثافى القدر يُغلى عليهن . قال أبو العباس : برئت من قرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم إن كنت سمعت هذا منك فى حديثك ، قلت : وأخبرت أن الأربع شوم مجتمعات لصاحبهن ، يسقم منه ويهر منه ويسببته . قال : والله ما سمعت هذا منك قط ! قلت : بلى والله يا أمير المؤمنين ، قال : ويحك ! وتكذبى ! قلت : وتريد أن تقتلنى ! قال : مر فى حديثك ، قلت : وأخبرت أن أبكار النساء رجال ولكن لاخصى لهن ، قال : وسمعت الضحك من وراء الستر ، قلت : وأخبرت أن بنى مخزوم ربحانة قريش وعندك ربحانة من الرياحين ، وأنت تطمح إلى غيرها من الإماء ! فقيل لى من وراء الستر : صدقت والله يا عماه وبرزت ، وبهذا حدثته ، ولكنه غير وبدل . فقال لى

أبو العباس : مالك قاتلك الله وأخزأك ! وفعل وفعل ! فتركته وخرجت ،
فما شعرت إلا برسلك أم سلمة ، ومعهم عشرة آلاف درهم ، وتحت وبرذون
وغلام ، فقبضتها^(١) .

وفي هذا الحديث المليح تعلّق بما ذكر الحريري من مدح النساء وذمهن ،
وخالد بن صفوان لفصاحته أقدر الناس على مدح الشيء وذمه ، وقد تقدّم في
الثالثة هذا الفن .

[من فصاحة خالد بن صفوان]

وقال أبو العباس السفاح لخالد وعنده أخواله الحارثيون : كيف علمك
بأخوالى يا خالد ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، همّ هامة الشرف وعزّ نين الكرم ،
وغرّس الجود ، وفيهم خصال ليست لغيرهم ، إنهم لأصونهم أمّا ، وأحسنهم أمّا ،
وأكرمهم شيئا ، وأطيبهم طعاما ، وأوفاهم ذمّا ، وأبعدهم همّا ، الجرة في الحرب ،
والوفد عند الجذب ، وهم الرأس في كل خطب ، وغيرهم بمنزلة العُجب .
فقال : لقد وصفت يا بن صفوان فأحسنست ، فزاد أخواله في الفخر ، ففضّب
أبو العباس لأعمامه فقال : انخر يا خالد ، فقال : أعلّى أخوال أمير المؤمنين ؟ قال :
فأين أنت من أعمامه ! قال : كيف أفاخر قوما هم بين ناسج برد وسائس قرد ،
ودابغ جلد ، دلّ عليهم هدهد ، وغرّقتهم فأرة ، وملّكتهم امرأة !

ودخل خالد على أبي الجهم العدويّ وهو يريد ركوب حمار ، فقال خالد :
أما علمت أنّ العير عار ، وأنّ الحمار شنار ، منكر الصوت ، قبيح الفوت ،
مترنّج في المحلّ ، مرتطم في الوخل ، ليس بركوبة فحلّ ، ولا مطية رخل ،
راكبه مقرّف ، ومسايره مشرف . فاستوحش العدويّ من ركوبه ، فركب
فرسا وركب خالد الحمار ، فقال : ويحك يا خالد ! أنتهى عن شيء وتأتى مثله !
قال : أصلحك الله ، عير من بنات الكدّاد ، أسحم السربال ، مدمج الأوصال ،

(١) الخبر في مروج الذهب للمسمودي ٢ : ٢٧٥ - ٢٧٨

محملج القوائم ، يحمل الرحلة ، ويبلغ العقبة ، ويمتني من أن أكون جبّاراً
عنيداً ، أو ملكاً شديداً ، فقد ضلّت إذا وما أنا من المهتدين ! ذلك لك ، وهذا
لي . فتبسّم العدوى .

[ذكر مقاطيع في أوصاف النساء]

ثم نرجع إلى جملة مقاطيع من أوصاف النساء تقين بها أوصافهن ،
قال المدبل بن الفرخ :

لِعِبِّ النَّسِيمِ بَهَنَ فِي أَظْلَالِهِ حَتَّى لَبَسْنَ زَمَانَ عَيْشٍ غَافِلِ
يَأْخُذْنَ زِينَتَهُنَّ أَحْسَنَ مَا يُرَى وَإِذَا عَطَّلْنَ فَهِنَّ غَيْرَ عَوَاطِلِ
وَإِذَا أُرِينَ خَدُودَهُنَّ أُرِيْنَهَا حَدَقَ الْمُهَى وَأَخَذْنَ سَهْمَ الْقَاتِلِ
وَرَمَيْنَنِي لَا يَسْتَتِرْنَ بُحْنَةً إِلَّا الصَّبَا وَعَرَفْنَ أَيْنَ مَقَاتِلِي
وقال العباس بن طرخان :

نَقَسْنَ قَلْبًا كَانَ مَجْتِمِعَ الشَّمْلِ وَفَرَّقْنَهُ بَيْنَ الْمَسَالِكِ وَالشُّبْلِ
زَوَّغْنَ الْهَوَى فِي الْقَلْبِ ثُمَّ سَقَيْنَهُ صَيَابَاتِ مَاءِ الشُّوقِ بِالْأَعْيُنِ النَّجْلِ
رَمَيْنَ فَلَمَّا أَنْ أَصَبْنَ مَقَاتِلِي تَوَلَّيْنَ وَانْضَمَّتْ جِرَاحِي عَلَى النَّبْلِ
وقال البحترى :

لَمَّا مَشَيْنَ بِذِي الْأَرَاكِ تَشَابَهَتْ أَعْطَافُ قُضْبَانٍ بِهِ وَقُدُودُ^(١)
فِي يَمْنَى حَبَرٍ وَرَوْضٍ فَالتَقَى وَشِيَانُ : وَشَى رُبًّا وَوَشَى بُرُودِ
وَسَفَرْنَ فَاْمْتَلَأَتْ عَيُونٌ رَاقَهَا وَرْدَانُ : وَرَدَّ جَنَى وَوَرْدُ خُدُودِ
وَمَتَّى يَسَاعِدُنَا الْوَصَالُ وَدَهْرُنَا يَوْمَانُ : يَوْمَ مَنَى وَيَوْمَ صُدُودِ !

وقال التهامي :

ماتَتْ لَفَقْدِ الظَّاعِنِينَ ديارُهُمْ
فَكَانَهُمْ كَانُوا لَهَا أَرْوَاحًا^(١)
لا عيبَ فيهم غير شحِّ نساءهم
ومِنَ السَّاحَةِ أَنْ يَكُنَّ شَحاحًا
طرقته في أترابها فحلت له
وهنا من الغرر الصُّباح صباحا
وأشد الأصمعي :

خُزاعِيهِ الأَطرافُ مُرِّيَّةُ الحَشَى
نِزَارِيَةِ العَيْنِينَ طائِيَةِ الفَمِ
لها حُكْمُ لِقائِ وَصُورَةُ يَوْسُفَ
وَنَعْمَةُ دَاوُدَ وَعِفَّةُ مَرْيَمَ
وقال الأسعد بن نبيط :

عَلَامِيَّةٌ جَاءَتْ وَقَدْ جَعَلَ الدُّجَى
نِخَامُهَا فِيهَا فَصَّرَ غَانِيَةً خَطًّا
قَلَّتْ : أَحاجِيهَا بِنَا فِي جَفُونِهَا
وما بالشفاه الأعمس من حُسْنِهَا المَعطَى
مَحَبَّةُ العَيْنِينَ مِنْ غَيْرِ سَكْرَةٍ
مَتَى شَرَبْتَ الحَاظَ عَيْنِكَ اسْتَفْنَطَا
أَرَى صُفْرَةَ المِسْوَكَ مِنْ مُخْمَرَةِ اللَّيْ
وَشَارِبِكَ المَخْضَرَّ بِالمِسْكَ قَدْ خُطًّا
عَسَى قَدْ حَقَّ قَبْلَتِهِ فَأَخَالَه
على الشفة اللَّمِيَاءُ قَدْ جَاءَ مُنْحَطًّا

فتصور في البيتين قبل هذا أحسن مقابلة ، وتصور في البيتين من آخر
هذه القطعة ثلاث تشبيهات شَبَّهَتْ بِشَيْءٍ واحدٍ يَتَضَمَّنُهَا جَمْعِيًّا !

وقال ابن شرف :

قَامَتْ تَجْرُ ذِيُولُ العَصَبِ والحَبْرِ
ضَعِيفَةُ الخَطِّ وَالْمِشَاقِ وَالنَّظَرِ
تَخْطُو فَنَوَلِي الحِصَا مِنْ حَلِيهَا نُبْدًا
وَتَخْلِطُ المَنْبَرِ الوردِي بِالْعَفْرِ
تَلَفَّتْ عَنْ طَلَاؤُسَنَانٍ وَابْتَسَمَتْ
عن واضحٍ مِثْلَ نَوْرِ الرُّوضَةِ المَطَرِ

(١) ديوانه ١٠

مالد للعين نومٌ بعد ما ذكرتُ ليلاً سمرناه بين الضال والسمرِ
تساقطَ الطلُّ من فوق النحورِ بهِ تساقطَ الدُّرّ في اللَّبَّاتِ والثَّغَرِ
وقال الرمادى :

شَعَلْتُ نواهم بشمسٍ في هواجهم لولا تَلألُوها في ليلهم عَشُوا
شَكَتُ محاسنها عيني وقد عذرتُ لأنها بضيرِ القلب تنخمشُ
شَفَرْتُ ووجههُ تبارى في افتخارها لحسن هذا وذاك الرُّومُ والحَبَشُ
شَكَتُ في سَقَمي منها، أفي فرشي إذا تأملتُ إلّا الطيفُ والفرشُ؟
ولبعض أصحابنا :

سَأَلْتُ سُقَاةَ الحَيِّ عنِ نَجْدِيَّةٍ وردَ الحَجِيجُ بها سقايةَ زَمَرٍ
صفراء كالدينارِ رُغْلٍ تَرِيهها بالزَّعفرانِ وخَدَّها بالعندمِ
لبستُ بُرودَ السابريِّ فأفضلتُ من ذيلها ولبستُ جِلدَ الأَرَمِ
ياليت شعري وهى أنسك ناسكٍ لم تستحلِّ دَمَ الحَبِّ المُسَلِّمِ !
نَبَّتُ أنَّ الظَّاعِنينَ بها سَعُوا للأجرِ فانقلبوا بكُبرِ المائِمِ
سَفَكُوا دماءَ الرَّائِحينَ إلى مِنى يحفونها ونجّوا بسافكةِ الدَمِ

وهذا القدر في هذا الموضع كاف ، وقد تضمن هذا الديوان مقطعات بديعة
في أوصاف النساء .

[ما جاء في الاستمناء]

قوله : لتجلد عميرة ، يقال لهذا الفعل الخضخضة والتدليك والاستمناء .
والاعتمار ، واعتمر الرجل : جمع يديه وضمهما لذلك ، والإلطاف للنساء مثل
الخضخضة للرجال ، يقال منه : ألطفت المرأة ، وقال القتيبي بيتاً ما سمعناه على
وجه الدهر :

إذا سررتَ بوادي لا أنيس به فاضربُ عُمية لا عاراً ولا حرجاً

آخر :

بيدي ورجلي لا عدمت كليهما أصبختُ أغنى من يروح ويفتدي
أمشي على هذي وأنكح هذه فطيتي رجلي وجاريتي يدي

آخر :

تسألني عن عتدي وعندي فإنني يا بنـة آل مرثد

* راحلتى رجلاى وامراتى يدي *

وقال أعرابي :

إن تبخلى بالركب المخلوق فإن عندي راحتي وريقي
ودلكات لسن للتمزيق أشهى من التصليح والتغبيق

وقال الخزامي :

خطبتُ إلى ساعدي راحتي وما كنتُ من شرِّ خطَّابِها
وما إن تكلفتُ من مهرِها سوى ربيعة أتجرى بها
فإن شئتُ أوئى بها ثيباً وبكراً إذا شئتُ أوئى بها
وترَّهت نفسي عن الغانيات وعن ذكر سلمى وأثرابها

وقال الحسن :

إذا أنت أنكحتَ الكريمة كفوها

فأنكح حسيباً راحة لابن ساعدي

وقل بالرفا ما نلت من وصل حرة لها ساحة حُف بخمسٍ ولائد

وقال ابن الرقعمق :

ومن بلائي أبو عمير
ممرضٌ بي إلى المنون
منتصباً ما ينام وقتاً
وليس يهدأ من الزَّنين
من يك ذا زوجة فإني
لشقوتي زوجتي يميني
عميرة قد جلدتُ حتى
خشيت والله تجلدوني
فراقبوا الله في يميني
وخلصوها وزوجوني

وقال آخر يشتكي غلظ يده :

لو أنها لذنة قضيتُ من وطري
لكنه خَشِنٌ أرْبَى على السفين
أشكو إلى الله نعظاً قد مُنِيت به
وما ألاق من الإملاق والحزن
آخر :

ومفتابٍ إذا نبجاً
يظنّ سواه قد جُرْحاً
ومن لم يدر لم يَألم
فعاد عليه ما اجترَحاً
كنا كح كفه يَنْوِي
فتاةً كانَ قَدْ لَحَا
وما نكح الفتى أحداً
ولكنْ نَفْسَهُ نَكَحَا

فنكاحُ الكفِّ هو جلدُ العميرة .

قال ابن الأَزهري : مررت على برذعة الموسوس ، وقد أدخل يده في جيبه ، وهو يخضعض ، فضربته برجلي ، فانكشف ، فإذا هو منعظ ، فقلت : ما هذا ؟ فقال : أما ترى تلك ! وأشار بيده إلى جارية جميلة في عِلِيَّة متطلعة ، فقال : إني دعوتها إلى نفسي فلما لم تجبني أحببتها ، فقلت : قبَّحك الله ! ووليتُ عنه . فلم يلبث أن لحق بي ، وقال : قضيتُ الحاجة على رغم أنفك ، ثم أنشدني :
أَأَنْكَرْتَ مَا كُنْتَ مِنْ كُنْ دَالِكٍ وهل يُنْكَرُ التَّدْلِيكُ فِي قَوْلِ مَالِكٍ

لقد أَمِنَ الدَّلَّاءُكَ مِنْ أَنْ تَنَالَهُمْ خُدُودَ الزَّئَنَاءِ فِي وَاضِحَاتِ الْمَسَالِكِ
وَإِنِّي قَدْ سَكَنْتُ عَزْمَةَ عَمَلَتِي بِحَسَنِ عِيُونِ وَالثَّدْيِ الْعَوَاتِكِ

كذب على مالك والشافعي ، وعامة العلماء يحرّمون الاستمناء ، وحجّتهم
قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَفْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ
أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ .

الفنجديهي : وقد جاء في تحرّيم الخُضْخُضَةِ حديث مشهور ، وسنده إلى
أنس بن مالك رضى الله عنه قال : « سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ،
ولا يزكّيهم ولا يحجّهم مع العالمين ، ويُدْخِلُهُمُ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ؛ إِلَّا أَنْ
يَتُوبُوا ، فَمَنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ : النَّاكِحُ يَدَهُ ، وَالْفَاعِلُ وَالْمَفْعُولُ بِهِ ، وَمُدْمِنُ
الْخَمْرِ ، وَالضَّارِبُ أَبَوَيْهِ حَتَّى يَسْتَغْفِرَا ، وَالْمُؤَذِّي جَبْرَانَهُ حَتَّى يَلْعَنُوهُ ، وَالنَّاكِحُ
حَلِيلَةَ جَارِهِ » . وَإِنَّمَا رُوِيَ الرِّخْصَةُ فِي ذَلِكَ عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ .

وروى عن ابن عباس أنه سئل عن الخُضْخُضَةِ فقال : نكاح الأمة خيرٌ
منها وهي خير من الزنا .

الأزهري : أبو عمير ذَكَرَ الرَّجُلَ .

الفنجديهي : سمعتُ الحافظَ أبا العلاء يقول : الخُضْخُضَةُ عَلَى مَذْهَبِ الْإِمَامِ
أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ جَائِزَةٌ إِنْ اسْتَوَلَتْ عَلَيْهِ الشَّهْوَةُ حَتَّى خَافَ عَلَى نَفْسِهِ
إِتْيَانُ الْفَوَاحِشِ .

أبو الفرج محمد بن أبي جعفر الطائي بِهِ ذَنَانٌ ، قَالَ : أَنْشَدَنَا الْإِمَامُ
أَبُو الْمُظَفَّرِ الْمَعَاوِي لِنَفْسِهِ ، وَكَانَ مِنْ أَرْوَعِ الْفَضْلَاءِ وَأَزْهَدِهِمْ :

خَلِيلِي لَا بَعْدَادَ تَدْنُو فَتَنْقِضِي هُمُومِي وَلَا الرِّىَ الْبَغِيضَةَ تَبْعُدُ
فَلَيْسَ مِنَ الْأَنْصَافِ وَالْعَدْلِ أَنْكُمْ تَنْيَكُونُ رَبَّاتِ الْحِجَالِ وَتُجْهَلَدُ
وَتَرْضَوْنَ بِالْحَرَمَانِ لِلْفَيْشَةِ الَّتِي عَلَى غَضَبِ بَاتِ تَقُومُ وَتَقْعُدُ

فلا تحسبو جَلْدِي عُمِيرَةً وَصِمَةً عَلَى فَقْدِ أَفْتَى بِهَا الشَّيْخُ أَحَدُ
ولو وسعتها راحتي لاحتملتها فما حيلتي إذ ضاق ذرعاً بها اليدُ
وذَكَرَ بَيْنَ آخِرِينَ .

قال : وأنشدني إمام أهل اللغة أبو المعالي إسماعيل بن الحسن البديع
لبعضهم :

إِنَّمَا هُمِّي كُثِيرَةٌ نَشَفْتُ مَاءَ قُدِيرَةٍ
وَخَيْرَةٌ فِي ذُكْرِهِ مُبْلَغَتِي مِنْهَا سُكْرِيَّةٌ
وَعِلَامٌ أَوْ فَتَاةٌ قَدْ كَفَى جِلْدَ عُمِيرَةٍ
مَنْ رَأَى عَيْشِي هَذَا عَاشَ لَا يُوَثِّرُ غَيْرَةٍ

قال : وأنشدني البديع أيضاً لبعضهم :

يَا سِيدِي نَحْنُ فِي زَمَانٍ أَبَدَلْنَا اللَّهَ مِنْهُ غَيْرَةٍ
فَكُلْ ذِي خِسَّةٍ وَذَلٍّ مَتَّعَ بِالطَّيِّبَاتِ أَيْرَةٍ
وَكُلْ ذِي فِطْنَةٍ وَكَيْسٍ يَجْلِدُ فِي بَيْتِهِ عُمِيرَةٍ

* * *

قوله : أَشَبَّ قَرْنِكَ : يُدْعَى بِذَلِكَ لِلصَّبِيِّ أَنْ يَكْبُرَ وَنَطُولَ قَامَتِهِ ، كَمَا تَقُولُ
لِلصَّبِيِّ فِي ضِدِّ ذَلِكَ : لَا كِبَرَكَ اللَّهُ . وَيُقَالُ : شَبَّ الصَّبِيُّ يَشِبُّ بِكَسْرِ الشَّيْنِ
شَبَابًا بِفَتْحِ الشَّيْنِ وَكَسْرِهَا ، إِذَا طَالَ وَنَمَّا جَسْمُهُ وَالصَّبِيُّ شَابَ ، وَأَشَبَّ اللَّهُ قَرْنَهُ ،
أَيَّ جَعَلَهُ شَابًا أَسْوَدَ الذَّوَابَةِ ، وَالْقَرْنُ الضَّفِيرَةُ ، وَهِيَ الذَّوَابَةُ وَقِيلَ : الْقَرْنُ جَانِبُ
الرَّأْسِ . الْمَرَّاحُ كَالْمَرَّاحِ . الْخَزْيَانُ : الْمُهَانُ وَالْمُسْتَحْيِ ، وَخَزَيَ يَخْزِي خَزْيًا :
أُهِنَ ، وَخَزَايَةً اسْتَحْيَا ، فَهُوَ خَزْيَانٌ أَيْ مُسْتَحْيٍ ، وَقَوْمُ خَزَايَا .

وَتُبْتُ مِنْ مِشَاوَةِ الصَّبِيَّانِ ، قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : خَصَلْتَانِ مِنْ عِلَامَةِ
الْجَهْلِ : مِشَاوَةِ النِّسَاءِ وَالصَّبِيَّانِ ، وَاسْتَكْتَامِ السَّرِّ النِّسَاءِ وَالصَّبِيَّانِ .

* * *

قال الحارث بن همام : فقلتُ له : أُقسِمُ بَمَنْ أُنَبِّتُ الْإِيكَ ، أَنَّ
الجدَلَ مِنْكَ وَإِلَيْكَ ؛ فَأَغْرَبَ فِي الضَّحِكِ ، وَطَرِبَ طَرَبَةَ الْمُنْهَمِكِ ،
ثم قال : أَلَعَيِ الْعَسَلُ ، وَلَا تَسَلْ ، فَأَخَذْتُ أُسْهَبُ فِي مَدْحِ الْأَدَبِ ،
وَأَفْضَلُ رَبِّهِ عَلَى ذِي النَّشَبِ ، وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى نَظَرِ الْمُسْتَهْجِلِ ، وَيَغْضَى
عَنِّي إِعْضَاءَ الْمَتَمِّهِلِ . فلما أفرطتُ فِي الْعَصَبِيَّةِ ، لِلْعُصْبَةِ الْأَدَبِيَّةِ ، قَالَ لِي :
صَهْ ، وَاسْتَمِعْ مِنِّي وَافَقَةً :

يَقُولُونَ إِنَّ جَمَالَ الْفَتَى وَزِينَتَهُ أَدَبٌ رَامِسِيخُ
وَمَا إِنْ يَزِينُ سِوَى الْكَثْرَيْنِ وَمَنْ طَوْدُ سُـ وَدِدِهِ شَامِسِيخُ
وَأَمَّا الْفَقِيرُ فَخَيْرٌ لَهُ مِنْ الْأَدَبِ الْقُرْصُ وَالْكَامِسِيخُ
وَأَيُّ جَمَالٍ أَنْ يَقَالَ أَدِيبٌ يَعْلَمُ أَوْ نَاسِيخُ !
ثم قال : سَيَصِيحُ لَكَ صَدَقْ لَهْجَتِي ، وَاسْتِنَارَةَ حُجَّتِي .

الأيك : شجر . الجدَل منك وإليك ، أي إنما كان هذا الخصام بينك
وبين نفسك ، ولم يكن ثم صبي تحاوره ، أي أن حديثك مصنوع لأصل له .

[بعض الحكايات المصنوعة]

ومن مستعمل الأخبار المصنوعة ما يحكى أن حبيب بن أوس ، قال : لِقِينَا
أَعْرَابِيٌّ ، وَقَدْ خَرَجْتُ فِي أَيَّامِ الْوَاتِقِ إِلَى سِرِّ مَنْ رَأَى ، فَقُلْتُ لَهُ : مَنْ ؟ قَالَ : مَنْ
بَنَى عَامِرَ ، قُلْتُ : كَيْفَ عَمَلَكُ بِمُسْكِرِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قَالَ : قَتَلْتُ أَرْضًا عَالِمَهَا ، قُلْتُ :
مَا تَقُولُ فِي أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قَالَ : وَثِقَ بِاللَّهِ فَكَفَاهُ ، أَشْجَى الْعَاصِيَةِ ، وَفَمَعَ
الْعَادِيَةِ ، وَعَدَلَ فِي الرِّعْيَةِ . قُلْتُ : فَمَا تَقُولُ فِي أَحْمَدَ بْنِ أَبِي دَوَادٍ ؟ قَالَ : هَضْبَةٌ

لا ثرام ، وجبل لا يُضام ، تُشَحِّدْهُ أَلَدَى ، وَتُنْصَبْ لَهُ الْجَبَائِلُ ، حَتَّى إِذَا قَيَّدَ
وَتَبَ وَتَبَةَ الذُّئْبُ ، وَخَتَلَ خَتَلَ الصَّبِّ . قلت : فحمد بن عبد الملك ؟ قال :
وسمع الداني شره ، ووصل البعيد ضره ، له في كل يوم صريع ، لا يرى فيه
أثر نابٍ ، ولا تَدَبَّ مَخْلَبٌ ، قلت : فما تقول في الفضل بن مروان ؟ قال :
ذلك الرجل نُشِرَ بعد ما قُبِرَ ، فعليه حياة الأحياء ، وخَفَّتْهُ الموتى . قلت : فابن
الخصيب ؟ قال : أَكَلْ أَكَلَةَ نَهْمٍ ، وَذَرَقَ ذَرَقَةَ بَشِمٍ ، قلت : فأخوه إبراهيم ؟ قال :
أَمْوَاتٌ غَيْرَ أَحْيَاءَ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ، قلت : فإحمد بن إبراهيم ؟ قال :
لَهُ دَرَّةٌ ! أَى رَجُلٍ هُوَ ! اتَّخَذَ الصَّبْرَ دَنَارًا ، وَالْحَقَّ شَعَارًا ، وَإِنْ هَوَّنَ عَلَيْهِ يَهُمٌ ،
قلت : فسليمان بن وهب ؟ قال : ذلك رجلُ السلطان ، وبهاء الديوان ، قلت :
فأخوه الحسن ؟ قال : عُودٌ نَضِيرٌ ، غُرْسٌ فِي مَنَابِتِ الْكَرْمِ حَتَّى إِذَا اهْتَزَلُمْ
حَصَدُوهُ ، قلت : فإبراهيم بن نجاح ؟ قال : ذلك رَجُلٌ أَوْتَقَهُ كَرَمُهُ ، وَأَسْلَمَهُ
حُسْبُهُ ، وَلَهُ دَعَاءٌ لَا يُسَلِمُهُ ، وَرَبٌّ لَا يَخْذَلُهُ ، وَخَلِيفَةٌ لَا يَظْلَمُهُ ، قلت : فنجاح
ابن سامة ؟ قال : لَهُ دَرَّةٌ أَى طَالِبٍ وَثَرٍ وَمَدْرِكٍ نَارٍ ! يَلْتَهَبُ كَأَنَّهُ شَعْلَةُ نَارٍ ،
له من الخليفة في الأنام جلسة تزيل نعمًا ، وتحلّ نعمًا ، قلت : يا أعرابي أين
منزلك ؟ قال : اللَّهُمَّ غَفِرًا إِذَا اشْتَمَلَ الظَّلَامُ ، أَلْتَحَفَ اللَّيْلُ ، فحَيْثَا أَدْرَكَ الرِّقَادَ
رَقَدَتْ ، وَلَا أَخْلَقَ وَجْهِي بِمَسْأَلَتِهِمْ ؟ أَمَا سَمِعْتَ هَذَا الطَّائِي يَقُولُ :

وَمَا أَبَالِي وَخَيْرُ الْقَوْمِ أَصْدَقُهُ حَقَّقْتُ لِي مَاءَ وَجْهِى أَوْ حَقَّقْتُ دُمِي
فقلت له : أنا قائل هذا الشعر ، قال : أَتُنَكِّ لَأَنْتَ الطَّائِي ! قلت : نعم ،
قال : اللَّهُ أَبُوكَ ، أَنْتَ الَّذِي تَقُولُ :

مَا جُودُكَ فَكَفَّكَ إِنْ جَادَتْ وَإِنْ بَحَلَتْ مِنْ مَاءِ وَجْهِى إِذَا أَخْلَقَتْهُ عِيْضُ
قلت : نعم ، قال : أَنْتَ أَشْعَرُ أَهْلِ زَمَانِكَ .
وَنَمِي خَبْرَهُ إِلَى ابْنِ أَبِي دَاوُدَ فَأَوْصِلْهُ إِلَى الْوَائِقِ ، فَأَعْطَاهُ أَلْفَ دِينَارٍ ،
وَأَخَذَ لَهُ مِنْ أَهْلِ الدَّوْلَةِ مَا غَنَى بِهِ عَقْبُهُ بَعْدَهُ .

وهذا الخبر خرج عن أبي تمام ، فإن كان صادقاً^(١) وما أَراده ، فقد أحسن الأعرابي الوصف ، وإن كان صنعه فقد قَصَّرَ إذ منزلته أكبر من هذا .

* * *

قوله : أغرب ، أى أكثر الضحك حتى دمت عيناها . المنهمك : المبالغ الطرب . العق العسل ولا تسَلْ ، معناه إن طاب لك الكلام فاحفظه ولا تسَلْ عن صدقه ولا باطله ، كما إذا وجدب العسل حلواً فلا يلزمك السؤال عن نَحْلِهِ وقد قال فيما مضى :

* ولا تسأل الشَّهَد عن نَحْلِهِ *

فهذا هو ذلك . أسهب : أبالغ وأكثر . ذى التَّشْب : صاحب المال . يفضى : يتغافل . المستجهل : الذى يحسبني جاهلاً . المهل : المؤخر ، وقد أمهله أى أخره . صه : معناه اسكت . القُرْص : الخبز ، وتسمى الخبزة قرصة ؛ لأن الخابز بقرصها من العجين ، أى يقطعها .

[الكامخ]

والكامخ : شئ يصنع من اللبن الحامض ، وهو أنواع . وقد قدّم لأعرابيٍّ كامخ ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : كامخ ، فقال : قد علمت فأنيكم كمخ به ؟ يقال : كمخ البعير إذا أخرج نكَلَه رقيقاً . وقدّم لأعرابيَّين كامخ ، فذاقه أحدهما ، فلم يستطبه ، فقال : هذا خمر ، وذاقه الآخر فاستطابه ، فقال : يوشك أن يكون خمر الأمير ! وقدّم لأعرابيٍّ كامخ فلم يستطبه قال : ما هذا ؟ قالوا كامخ ، قال : ومن أى شئ صنع هذا ؟ قالوا : من الحنطة واللبن قال : أبوان كريمان : وما أنجبا .

(١) الخبر في أخبار أبي تمام للصولي ٨٩ - ٩٣

وقُدِّمَ لأعرابيٍّ كامخ، فلم يستطِبه، وأكل منه شيئاً وخرج، ودخل المسجد والإمام في الصلاة يقرأ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾، فقال الأعرابي: والكامخ لا تنسه أصلحك الله!

وقيل: هو طعامٌ يؤتَدَمُ به.

وقيل: هو البقل في الطعام مثل الكبر والزيتون والمرء والعتاب إذا غلب طغاء الشحم على المعدة، أخذ الرجل منه شيئاً، فأنجلى عن معدته، وتنشط الأكل.

وقال أعرابي يصف إبطيه بالثنتين:

كَأَنَّ إِبْطِيَّ وَقَدْ طَالَ الْمَدَى نَفْثَةُ خُرْءٍ مِنْ كَوَامِيخِ الْقُرَى^(١)
الأصمعي: قدم علينا أبو طَيِّبَةِ الأعرابي بعد ما خرج إلى البادية، وتفقّه، فقلنا له: ما قولك في البيض؟ قال: حرام، فقلنا: ولم؟ قال: لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾ والدجاج عندي من ذوى الأظفار. قلنا: فما قولك في الكامخ؟ قال: حرام، قلنا: ولم؟ قال: لقوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾، والكامخ يتخذ من الفخار، فأظنُّ بينه وبين الجلد نسبة.

قوله: واقفه، معناه افهم. راسخ: ثابت. الكثيرين: الأغنياء. طَوْدٌ سَوْدُودٌ: ارتفاع سيادته. والطود: الجبل. شامخ، أى ثابت مرتفع. وقال النبي صلى الله عليه وسلم «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ فِيهِ أَصْفَرٌ وَأَبْيَضٌ لَمْ يَتَمَنَّ الْعَيْشُ» - يعنى الذهب والفضة.

وقال مهيار الديلمي:

تَشَرَّفَ بِحِطٍّ فَإِنْ الْحُظُوظَ حُلِيَ كُلُّ ذِي نَسَبٍ يَفْضُلُ^(٢)

وما الحظ في أدب مُفصحٍ وَمِنْ دونه نسبٌ مُجهلٌ
تُراخى الفتى رتبة وهو حيث يجعله ماله يُجَعَلُ

وقال ابن قاضي ميلة :

أُسعدُ بِجِدِّكَ لا تكونُ أديبا أو أن يرى فيك الورى تَهْذِيبا
إن كنتَ مستوياً ففعلك كلُّهُ عِوَجٌ، وإن أخطأت كنت مصيباً
كالنَّقش ليس يصحُّ معنى خَتَمِهِ حَتَّى يكون بناؤه مقلوباً

قوله : لَهَجَتِي ، أى منطقى ، وقيل : هى جَرَسُ الكلام ، وقيل : هى
طَرَفُ اللسان ، وفلان فصيحُ اللَّهجة ، وهى لغته التى جُبِلَ عليها فاعتادها ونشأ
عليها . استنارة : ظهر نورها .

* * *

وسِرْنَا لا نَأَلُو جُهْدًا ، ولا نستفيق جَهْدًا ؛ حَتَّى أَدَانَا السَّيْرُ ،
إلى قريةٍ عَزَبَ عنها الخَيْرُ ، فدخلناها لللازِتِيَّادِ ، وَكِلَانَا مُنْفِضٌ من
الزَّادِ ؛ فما إنْ بَلَّغْنَا المَحَطَّ ، والمناخَ المَخْطَطَ ، أو لَقِينَا غلامٌ لم يبلُغ الحِثَّ
وعلى عاتقه ضِغث . خِيَّاه أبو زيدٌ تَحِيَّةَ المُسلم ، وسأله وَفَقَةَ المُفْهِم ، فقال :
وعمَّ تَسأل وفَّقكَ الله ؟ قال : أَيْبَاعُ هاهنا الرُّطْبُ بِالْخَطْبِ ؟ قال : لا
والله . قال : ولا الْبَلَحُ بِالْمَلَحِ ؟ قال : كَلَّا والله ، قال . ولا الثَّمَرُ بالسَّمَرِ ؟
قال : هيهات والله . قال : ولا الْعَصَائِدُ بِالْقَصَائِدِ ؟ قال : اسْكُتْ
عافاك الله . قال : ولا الثَّرَائِدُ بِالْفَرَائِدِ ؟ قال : أين يذهبُ بِكَ أَرْشَدَكَ
الله ! قال : ولا الدَّقِيقُ بالمعنى الدَّقِيق ؟ قال : عَدَّ عن هذا أصلحك الله !

* * *

نألو : نقصر . جهداً : طاقة واجتهاداً . نستفيق جُهداً : نستريح من المشقة .
 أدّانا : أوصلنا . والقرية : في كلامهم : الموضع الذي يجتمع الناس فيه ، وقريةُ
 الماء في الحوض جمعه فيه . وعزب : بعد . للارتداد : لطلب ما يؤكل .
 مُنفِض : فارغ ، وأنْفَضَ : فنيَ زاده فنفض مِرْودَه من الفتات . الحطّ :
 المنزل الذي تحطّ فيه الأحمال . والمناخ : مثله في المعنى . والمُختطّ : المُعَلَّم عليه
 بخطّ ، وكلّ موضع أردت حمايته ومنعه خططت عليه بخطّ ، فمن رآه علم أنه
 محمى فاجتنبه . الحنث : الإنم ، أى لم يبلغ حدّ التكليف ، وهو الحلم فيكتب
 عليه إثم . على عاتقه ضُفْتُ ، أى على عنقه حزمة حشيش ، والعائق : ما بين
 المنكب والعنق ، والضُفْتُ قبضة من أخلاط النبات أو من قُضبان مختلفة .
 المُفْهِم : الخبر المبين . أبيع هاهنا الرُطْبُ بالرُطْبِ ؟ الرُطْبُ والبلح نوعان من
 التمر . والسمر : السهر بالليل على الحديث . هيهات ، أى بعد .

ابن عباس رضى الله عنهما : ما باع الدقيق برّ ولا فاجر إلا أصفر لونه
 وقسا قلبه ، ونزعت الرّحمة من قلبه .

الفرائد : جواهر الكلام . أين يذهب بك : أين تتلف وتضل ! ولذلك
 دعا له ، فقال : أرشدك الله ، أى هداك الطريق . عدّ : كُفّ واضرف .

* * *

واستخلى أبو زيد تراجمَ السّؤالِ والجوابِ ، والتّكأيلِ مِنْ
 هذا الجِرابِ . ولَحَ الغلام أن السّوْطَ بَيطين ، والشّيخ شويْطين ، فقال
 له : حسبك يا شيخ قد عرّفت فنك ، واستبنت أنّك ، نخذ الجوابَ
 صبرة ، واكتف به خبرة ؛ أمّا بهذا المكانِ فلا يُشترى الشّعْرُ بشعيرة ،
 ولا الثّر بثنارة ، ولا القصص بقصاصة ، ولا الرّسالة بفسالة ، ولا حِكْمُ

لُفْهَانِ بِلُفْهَةٍ ، وَلَا أَخْبَارُ الْمَلَا حِمٍ بِلِخْمَةٍ . وَأَمَّا جَيْلُ هَذَا الزَّمَانِ ، فَمَا مِنْهُمْ
 مِنْ يَمِيحٍ ، إِذَا صَيَّغَ لَهُ الْأَمْدِيحُ ، وَلَا مَنْ يُحْيِزُ ، إِذَا أُنْشِدَ لَهُ الْأَرَّاجِيزُ ،
 وَلَا مَنْ يُغِيثُ ، إِذَا أَطْرَبَهُ الْحَدِيثُ ، وَلَا مَنْ يَمِيرُ ، وَلَوْ أَنَّهُ أَمِيرُ .
 وَعِنْدَهُمْ أَنْ مِثْلَ الْأَدِيبِ ، كَالرَّبْعِ الْجَدِيبِ ، إِنْ لَمْ تَجِدِ الرَّبْعَ دِيمَةً ،
 لَمْ تَكُنْ لَهُ قِيَمَةً ، وَلَا دَاتَهُ بِهَيْمَةٍ . وَكَذَلِكَ الْأَدَبُ ، إِنْ لَمْ يَعْضُدْهُ نَشَبُ ،
 فَدَرْسُهُ نَصَبٌ ، وَخَزَنُهُ حَصَبٌ . ثُمَّ انْسَدَرَ يَعْدُو ، وَوَلَّى يَخْدُو .

* * *

لمح : نظر . الشَّوْطُ : الطَّلَقُ والجُرْئِي إِلَى الْغَايَةِ : الْأَخْفَشُ الشَّوْطُ أَنْ
 تَأْتِيَ إِلَى مَوْضِعٍ تَرِيدُهُ ، ثُمَّ تَرْجِعُ وَإِنْ رَجَعْتَ إِلَيْهِ مَرَّةً أُخْرَى ، فَذَلِكَ شَوْطٌ
 آخَرُ ، وَمَنْ الْحَجَرُ إِلَى الْحَجَرِ شَوْطٌ : وَجَرَى الْفَرَسُ شَوْطًا إِذَا بَلَغَ مَجْرَاهُ ثُمَّ
 عَادَ . بَطِينٌ : مُتَّسِعٌ ، وَمَعْنَاهُ : عِلْمٌ أَنْ كَلَامَ الشَّيْخِ كَثِيرٌ . وَرَجُلٌ بَطِينٌ : عَظِيمُ
 الْبَطْنِ ، وَكَيْسٌ بَطِينٌ ، أَيْ مَلَانٌ ، وَأَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ :

وَزَحَزْخَنْ بَيْنَ أَدَانِي الْغَضَى وَبَيْنَ عُيْنِزَةِ شَوْطًا بَطِينًا

شُوَيْطَانٍ ، أَيْ دُوَيْهِيَّةٌ لَا تَقَاوِمُ ، وَتَصْغِيرُهُ بِمَعْنَى التَّعْظِيمِ . حَسْبُكَ :
 يَكْفِيكَ . فَتَنُكَ : نَوْعُكَ وَطَرِيقُكَ . اسْتَقْبَنْتُ أَتُوكَ ، أَيْ تَحَقَّقْتُ أَنَّكَ دَاهِيَةٌ :
 صُبْرَةٌ : أَيْ جُمْلَةٌ بَغِيرُ كَيْلٍ ، وَكَدْسُ الْقَمْحِ ، وَمَا يَكَالُ يُسَمَّى صُبْرَةً . اِكْتَفَى :
 اقْتَنَعَ . خَبْرَةٌ : اخْتِبَارٌ . النَثْرُ : ضِدُّ النِّظْمِ مِثْلُ التَّرَاسُلِ وَالْخُطْبِ . وَالنُّثَارُ :
 مَا تَنَاقَشَ مِنْ الشَّيْءِ ، أَيْ تَفَقَّتْ ، تَقُولُ : نَثَرْتُ الشَّيْءَ أَيْ رَمَيْتُهُ بِهِ مُفْتَرِّقًا ، وَاسْمُ
 مَا يَتَسَاقَطُ مِنْهُ النُّثَارَةُ . وَالْقَصَصُ : أَخْبَارُ الْمُتَقَدِّمِينَ . وَالْقَصَاصَةُ : مَا تَسَاقَطَ
 مِنَ الشَّعْرِ إِذَا قُصَّ . وَالغُسَالَةُ : الْمَاءُ الَّذِي قَدْ غُسِلَ بِهِ بِمَيَّةِ الطَّعَامِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ

(م ٩ - شرح مقامات الحريري - ج ٥)

ويروى : « بفضالة » ، مكان غسالة ، والفضالة من الزرع إذا غُرِبِلَ تَبَقَّى في الغربال فتدرَس بعد ذلك ، ويخرج ما فيها من الزرع .

وَأُنْشِدَ الْفَنَجْدِيَّ فِي هَذِهِ الْمَعَانِي :

عرضت على الخباز نموَّ المبرِّدِ وكُتِبَ حساناً للخليل بن أحمدِ
ورؤيا ابن سيرين وخطَّ مهلهلِ وتجويد عمرٍو بعدَ قسه محمدِ
وأشدته شعر الكُمَيْتِ وجِرْوَلِ وغنَّيته لحنَ الغريصِ ومَعْبِدِ
فما ففَعْتَنِي دُونَ أَنْ قَلْتُ هَا كَمَا مدوِّرة صُفْراً تَطْنُ عَلَى الْيَدِ

وقال أخبرني أبو المحاسن بن أبي العلاء بن محمد الأديب ، قال : أنشدني
لنفسه أبو يوسف بن محمد يعقوب الأديب .

[ذكر لقمان عليه السلام]

قوله : ولا حكم لقمان بلقمة ، في لقمان سبعة أقوال :
قال قتادة : خيَّره الله بين النبوة والحكمة ، فاختر الحكمة ، فخذفها عليه
جبريلُ ، وهو نائم ، فأصبح ينطق بالحكمة ، فسئل عن ذلك ، فقال : لو أرسل
الله إلى النبوة عزمة ، لرجوت الفوز بها ، ولكنه خيَّرني فخفت أن أضعف
عن النبوة .

وقيل : كان من الثوبة قصيراً أفطس الأنف .

وقيل : كان حبشياً .

سعيد بن المسيب : كان أسود من سودان مصر ، ذا مشقرٍ ، حكمته
حكمة الأنبياء .

وقيل : كان خياطاً .

وقيل : كان راعياً ؛ فراه رجلٌ كان يعرفه قبل ذلك ، فقال : ألسنت عبد

بنی فلان كنت ترعى بالأمس ؟ قال : بلى ؟ قال : فما بلغ بك ما أرى ، قال :

وما يُعْجِبُكَ مِنْ أَمْرٍ؟ قَالَ: وَطءُ النَّاسِ بِسَاطِطِكَ، وَغَشْيُهُمْ بِأَبْكَ؟ وَرِضَاهُمْ بِقَوْلِكَ؟ قَالَ: يَا بْنَ أَخِي، إِنْ صَنَعْتَ مَا أَقُولُ لَكَ كُنْتَ كَذَلِكَ، قَالَ: وَمَا تَصْنَعُ؟ قَالَ غَضَّ بَصْرِي، وَكَفْتُ لِسَانِي، وَغَفَّةَ طَعْمِي، وَحَفِظْتُ فَرْجِي، وَقِيَامِي بِعَهْدِي، وَوَفَائِي بِوَعْدِي، وَتَكْرِمَةَ ضَيْفِي، وَحَفِظْتُ جَارِي؛ وَتَرَكْتُ مَا لَا يَعْنِينِي؛ فَذَلِكَ الَّذِي صَيَّرَنِي كَمَا تَرَى.

ويروى أنه قال: قَدَّرَ اللَّهُ وَأَدَّاءُ الْأَمَانَةِ وَصَدَقَ الْحَدِيثُ وَتَرَكْتُ مَا لَا يَعْنِينِي. أنس رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الحكمة تزيد الشريف شرفاً، وترفع المملوك حتى يجلس مجالس الملوك»، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ (١).

وقال الإمام أبو إسحاق أحمد بن محمد إبراهيم الثعالبي المفسر: اتفق العلماء على أن لقمان كان حكيماً، ولم يكن نبياً، إلا عكرمة فإنه تفرد بأنه نبي. ابن عمر رضي الله عنهما: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: حقاً أقول، لم يكن لقمان نبياً ولكن كان عبداً صمّاماً، كثير التفكير، حسن اليقين، أحب الله فأحبه، ومن الله عليه بالحكمة.

وهب بن منبه: كان لقمان ابن أخت داود عليه السلام، وقيل: ابن خالته، وكان في زمنه، وكان داود يقول له: طوبى لك! أوتيت الحكمة، وصرفت عنك البلوى، وأوتيت داود الخلافة وبلية البلية. وكان داود يغشاه ويقول: انظروا إلى رجل أوتي الحكمة، ووقى الفتنة.

عبد الوارث: أوتي لقمان الحكمة في قالة قالها، فقيل: وهل لك أن تكون خليفة فتعمل بالحق؟ فقال: إن تحترلى فسمماً وطاعة، وإن تحيّرني أختار العافية. قيل: وما عليك أن تكون خليفة فتعمل بالحق؟ قال: فإن أعمل بالحق

فبالحرى أن أنجو، وإن أخطىء الحق أخطىء طريق الجنة، وإنه من بيع الآخرة بالدنيا يخسرهما جميعاً، وأن أعيش حقيراً ذليلاً أحبُّ إلى من أن أعيش قوياً عزيزاً. فشكر الله تعالى مقالته، ففطه في الحكمة غطة فأصبح وهو أحكم الناس.

وقيل: كان عبداً نجاراً فقال له سيده: اذبح شاة وأتني بأطيب مضغتين، فأماه بالقلب واللسان، ثم أمره بمثل ذلك، وأن يُخرج أخبث مضغتين، فأخرج القلب واللسان، فقال له: ما هذا؟ فقال: ليس شيء أطيبُ منهما إذا طابا، ولا أخبثُ منهما إذا خُبئَا.

وأما حكمته فقد ذكر الله تعالى منها في كتابه ما علم، وذكر مالك في موطئه منها كلاماً كثيراً، وذكر منها فصلاً في كتاب الجامع من الموطأ.

ومن حكمته: يا بني إنَّ الناس قد تطاول عليهم ما يوعدون، وهم إلى الآخرة مِرَاعاً يذهبون، وإنَّك قد استدبرت الدنيا منذ كنت، واستقبلت الآخرة، وإن داراً تسير إليها أقرب من دارٍ تخرج منها. يا بني ليس غنى كصحة، ولا نعيمٌ كطيب نفس. يا بُنى لا تجالس الفُجَّار ولا تماشيهم؛ اتق أن ينزل عليهم عذابٌ من السماء فيصيبك معهم، وجالس العلماء وزاحمهم بركبتك، فإن الله تعالى يُخفي القلوب الميتة بالعلم، كما يُخفي الأرض بوابل المطر.

أبو إسحاق الثعالبي يأسناده له عن عكرمة، قال: كان لقمان من أهن عماليك سيده عليه، فبعثه مولاه مع عبيدٍ له إلى بستانه يأتونه بشيء من ثمرِ نخاموه وما معهم شيء، وقد أكلوا الثمر، وأحالوا على لقمان، فقال لقمان لمولاه: ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً، فاستقني وإياهم ماء حياً. ثم أرسلنا لنعدو ففعل فجعلوا يتقيثون تلك الفاكهة ولقمان يتقيأ ماء، فعرف مولاه صدقه وكذبهم.

قال: وأول ما عُرِف من حكمته أنه كان مع مولاه؛ فدخل مولاه المبرز فآطال فيه الجلوس، فناداه لقمان: إنَّ طولَ الجلوس مع الحاجة ليجع منه

الكبد، ويورث البأسور، ويصعد الحرارة إلى الرأس، فاجلس هويئى، قال :
فخرج وكتب حكمته على باب الحش.

قال : وسكر مولاه يوماً فخطر قوماً أن يشرب ماءً بحيرة ، فلما أفاق عرف
ما وقع فيه ، فدعا لقمان فقال له : لمثل هذا كنت اختبأتك . فقال لمولاه : أخرج
أباريقك ثم اجمعهم ؛ فلما اجتمعوا قال : على أى شئ خاطرتموه ؟ قالوا : على أن
يشرب ماء هذه البحيرة . قال : فإن لها مواداً فاحبسوا عنها موادها ، قالوا :
وكيف نستطيع ذلك ! قال لقمان : وكيف يستطيع هو أن يشربها ولها مواد !
وأراد مولاه بيعه . فقال : يا مولاي إن لى عليك حقاً فلا تبعنى إلا .
ممن أحب . قال : لك ذلك ، فكان الرجل إذا جاء يستامه قال : لأى شئ
تريدنى ؟ فقال أحدهم : تحفظ على أبى . قال : اشتريتى ، فلما جنّه الليل أغلق
الباب ، وقام يصلّى فى الدهليز . وكان لبنات الرجل أخلاء فجاءوا فضربوا
الباب ، فقلن : يا لقمان ، افتح الباب ، فقال : أبى أتنّ وأمى ! ليس لهذا
اشترانى أبوكنّ ، فضربنه ضرباً كيدنّ أن يأتين منه على نفسه ، فلما أصبح
لم يخبر أباهنّ ، فلما كانت الليلة الثانية عاودنه بمثل ذلك ، فلما أصبح لم يخبر
أباهنّ ، فلما كانت الليلة الثالثة عاودنه بمثل ذلك ، فلما أصبح لم يخبر أباهنّ ، فأقبل
بعضهنّ على بعض فقلن : ما جعل الله هذا العبد الأسود أولى بهذا الخير منا ،
قال : فنسكنن نسكاً لم يكن فى بنى إسرائيل أفضل منهنّ .

عبد الله بن دينار ، قال : قدّم لقمان من سفر ، فاستقبله غلام له فى الطريق ،
فقال له لقمان : ما فعل أبى ؟ قال : مات ، قال : الحمد لله ملكتُ أمري ، قال :
ما فعلتُ أمى ؟ قال : ماتت ، قال : الحمد لله ، ذهب همى . قال : ما فعلتُ امرأتى ؟
قال : ماتت ، قال : الحمد لله جدّد فراشى ، قال : ما فعلت ابنتى ؟ قال : ماتت ،
قال : الحمد لله سترت عورتى ، قال : ما فعل ابنى ؟ قال : مات ، قال : إنّا لله
وإنّا إليه راجعون ، انتقطع ظهري !

وقيل له : ما أقبح وجهك ! قال : أتعيب على هذا النقش أم على النقاش !
وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « سادة السودان أربعة : لقمان والنجاشي
وبلال ومهجع » .

وتمَّ لقمان آخر وهو لقمان بن عاد ، وهو تذكره العرب في أخبارها ،
وكان أيضاً حكيماً ، وكانت له أخت محمّقة فقالت لامرأته : هذه ليلة طهوري ،
فهي لي ليلتك ، طمعاً في أن تعلق من أخيها ينجيب ، ففعلت فولدت لقسيم بن
لقمان ، وفيه يقول النمر بن تولب :

لُقَيْمُ بْنُ لُقْمَانَ مِنْ أُخْتِهِ فَكَانَ ابْنُ أُخْتِهِ وَابْنَمَا^(١)
وقال السيب يذكره :

أَنْتَ الرَّئِيسُ إِذَا هُمْ نَزَلُوا وَتَوَاجَهُوا كَالْأَسَدِ وَالنَّمِرِ
وَلَأَنْتَ أَبِينِ حِينَ تَنْطِقُ مِنْ لُقْمَانَ لَمَّا عَى بِالْفَكْرِ
وقالت بنت عثمان بن وثيمة تراثي أباه :

الْوَاهِبُ الْمَائَةِ التَّلَا دَلَّنَا وَيَكْفِينَا الْعَظِيمَةَ
وَالدَّافِعُ الْخَصْمَ الْأَلَدَّ إِذَا تَفَوَّضَ فِي الْخَصُومَةِ
بِلِسَانِ لُقْمَانَ بْنِ عَا دَ وَفَصَّلَ خُطْبَتَهُ الْحَكِيمَةَ
أَجْلَسْتَهُمْ بَعْدَ التَّجَا ذُبَ وَالتَّدَافِعِ فِي الْحُكُومَةِ

* * *

قوله الملاحم : مواضع الحروب التي تلتجِم فيها الجموع ، وتختلط عند القتال
وتسمّى أخبار الوقائع والحروب ملاحِم . جيلك : أهل عصرك . الأوان :
الحين والعصر . يميح : يعطى معروفاً ؛ ويحتمل أن يريد يسقيك ماء ، والمأمح :
النازل في قعر البئر ، يخرج ماءها ، وقد ماح الماء ، إذا استقاه . صيغ : صنّع -
يُجَيِّزُ : يُعْطَى الجائزة . يُغِيثُ : يتكرّم ويجود ، وهو من الغيث . يميح :

(١) اللسان (لقم) من غير نسبة .

يُعْطَى الميرة . والميرة : الطعام المجلوب . والرَّبع : المنزل . الجديب : الذي لا يُمْطَر . ديمة : مَطَرٌ دَائِمٌ . دانت : قاربت . يعصده : يقويه . نَسَب : مال . نَصَب : تعب . حِزْبُهُ : أهله . والحَصَب : هو الخطب الملقى في النار ، وكل ما تطعمه النار فهو حَصَب ، وهو من حَصَبْتُهُ بالحصباء ، أى رميته بها . انسَدَر : جرى وانصبَّ في جريه ، وانسدر البازي ، إذا انحطَّ . يَعْدُو : يسرع . يحدو : يتابع الجري ، وكل شيء اتبعته فقد حَدَوْنَهُ .

* * *

فقال لى أبو زيد : أَعْلِمْتَ أَنَّ الْأَدَبَ قَدْ بَارَ ، وولت أنصاره الأذبار ؛ فبؤت له بِحُسْنِ البصيرة ، وسأمت بِحُكْمِ الضرورة . فقال : دَعْنَا الْآنَ مِنَ الْمِصَاعِ ، وَخُضْ فِي حَدِيثِ الْقِصَاعِ ، واعلم أَنَّ الْأَسْجَاعَ ، لَا تُشْبِعُ مَنْ جَاعَ ؛ فما التدير فيما يُمْسِكُ الرَّمَقَ ، وَيُطْفِئُ الْحَرْقَ ؟ فقلت : الْأَمْرُ إِلَيْكَ ، وَالزُّمَامُ بِيَدَيْكَ ، فقال : أَرَى أَنْ تَرْهَنَ سَيْفَكَ ، لِتُشْبِعَ جَوْفَكَ وَضَيْفَكَ ، فَنَاوِلْنِيهِ وَأَقِمْ ، لِأَنْتَقِلَ إِلَيْكَ بِمَا تَلْتَقِمُ .

فأحسنت به الظنَّ ، وَقَلَّدْتَهُ السَّيْفَ وَالرَّهْنَ ، فإلبث أن ركب الناقة ، ورفض الصَّدَقَ وَالصَّدَاقَةَ ؛ فَكَشَتْ مَلِيًّا أَتْرَقَبُهُ ، ثُمَّ نَهَضَتْ أَتَعَقَبُهُ ؛ فَكَنْتُ كَمَنْ ضَيَّعَ اللَّبَنَ فِي الصَّيْفِ ، وَلَمْ أَلْقَهُ وَلَا السَّيْفَ .

* * *

بَارَ : هَلَكَ ، وَمِنْهُ بَارَ الطَّعَامُ ؛ إِذَا كَسَدَ ، وَفِي الْحَدِيثِ : « نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ بَوْرِ الْأَيْتِمِ » أَيْ مِنْ كَسَادِهَا . وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ ﴾ ^(١) أَيْ لَنْ

(١) سورة ناطر ٢٩

تَكَسَدَ ، وقال تعالى : ﴿ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ أى هالكين . قال الفراء :
البُور يكون للمذكر والمؤنث والاثنتين والجمع بلفظ واحد . أبو عبيدة رحمه الله :
هو جمع بائر كعائذ وعوذ ، ويدل على صحة قول الفراء قول ابن الزبعرى :
يا رسول الملوك إنَّ لسانى رائق ما فتقتُ إِذْ أَنَا بُورٌ^(١)

بُوت : رجعت . البصيرة : اليقين والاعتماد الصحيح . المصاع : مراجعة
الكلام . والمصاع فى الأصل : القتال والدِّفاع وكل ما عانته بشدة وجِدَّة فقد
ماصعته . القِصاع فى الأصل : صحاف الطعام . الأسجاع : الكلام المفقّر . الرَّمَق :
بقية النفس . والحرق : جمع حُرقة ، وأراد بطفء الحرق تسكين ألم الجوع .
ما لبث : ما أقام ولا استقرّ . رَفَضَ : ترك . الصَّدق : قول الحق ، والصدّاقة :
الصحبة . مكثت ملياً : أقت زماناً . أترقبه : أنتظر مجيئه . أتعبه : أمشى
فى أثره وأطلبه .

[أصل المثل : الصَّيْفُ ضَيَّعَ اللّبن]

وضيَّع اللّبن فى الصّيف ، مثل يُضرب لكل مَنْ ضَيَّع أمره ، ثم تعرّض
لاستدراكه بعد فوته ، قاله عمرو بن عُدَس التميمى ، وكان تزوّج دَخْتَنُوس
بنت لقيط بن زُرارة - وكان شيخاً مُسِنَّاً ذا مال كثير - فأبغضته بسبب كِبَره
وسألته طلاقها ، فطلقها وتزوَّجها عمير بن مُعبد بن زُرارة - وكان شابّاً معدماً -
فبينما هو معها جالس إذ مرّت بهما إبل عمرو بن عمرو بن عُدَس كالليل
لكثرتها ، فقال لها عمير : ابعثى إلى عمرو يعطيك لبناً أو حلوبة ، فأرسلت إليه
رسولاً بذلك ، فقال لرسولها قل لها : الصَّيْفُ ضَيَّعَ اللّبن^(٢) ، فلما بلغها ذلك
ضربت على كتف ابن عمها ، وقالت : هذا ومذقه خير ، ف يريد أنه طلقها فى
الصَّيْف فضاع لبنها فى ذلك الوقت . وقال فى الدرة : خصَّ الصَّيْف بالذكور
لأنها كانت سألته الطلاق فيه ، فكأنها يومئذ ضيَّعت اللّبن . والله تعالى أعلم .

(١) طبقات الشعراء ٢٠٢

(٢) جبهة الأمثال ١ : ٥٧٥

المفامه الرابعه والاربعون وتعرف بالشتويه

حكى الحارث بن همام قال : عَشَوْتُ فِي لَيْلَةٍ دَاجِيَةِ الظُّلَمِ ،
فَاحِجَةِ اللَّامِ ، إِلَى نَارٍ تُضَرِّمُ عَلَى عِلْمٍ ، وَتُخْبِرُ عَنْ كَرَمٍ ، وَكَانَتْ لَيْلَةً
جَوُّهَا مَقْرُورٌ ، وَجَنِبُهَا مَزْرُورٌ ، وَتَجْمُهَا مَغْمُومٌ ، وَغَيْمُهَا مَرَكُومٌ ،
وَأَنَافِهَا أَضْرَدُ مِنْ عَيْنِ الْحَرْبَاءِ ، وَالْعَنْزِ الْجَرْبَاءِ ، فَلَمْ أَزَلْ أَنْصُ عَنْسِي ،
وَأَقُولُ : طُوبَى لَكَ وَلِنَفْسِي ، إِلَى أَنْ تَبْصُرَ الْمُوقِدَ آلِي ، وَتَبَيَّنَ إِزْقَالِي ،
فَاتَّحَدَرَ يَعْدُو الْجَمْزَى ، وَمِنْشِدُ مُرْتَجَزَا !

* * *

دَاجِيَةِ وَفَاحَةِ : شَدِيدَةُ السَّوَادِ . وَاللَّامُ : جَمْعُ لَيْلَةٍ ، وَفِي مُجْمَعِ الشَّعْرِ الَّتِي
أَلَمَّتْ بِالْمَنْسَكِبِ ، أَيْ قَارِبَتِهِ . وَجَعَلَ لِلَّيْلَةِ لَيْلَةً مُجَازَاً ، وَهُوَ يَرِيدُ شِدَّةَ سَوَادِهَا .
تُضَرِّمُ : تُوقِدُ . عِلْمٌ : جَبَلٌ . جَوُّهَا : نَاحِيَةُ سَمَائِهَا . مَقْرُورٌ : بَارِدٌ ، وَأَرَادَ
أَنْ مَا يَحْيَى مِنْ جَوِّهَا مِنَ الرِّيحِ وَالْهَوَاءِ بَارِدًا جَدًّا . مَزْرُورٌ : مُشْدُودٌ بِالْأُزْرَارِ ،
وَهِيَ أَطْوَاقُ الثِّيَابِ ، وَهَذَا يَكُونُ فِي طَوِّقِ الصَّغِيرِ يُشَقُّ فِي صَدْرِ الثَّوبِ عِوَضًا
عَنِ الْجَنِيبِ ، وَيُتْرَكُ مِنَ الطَّوِّقِ طَرَفَانِ عَلَى ذَلِكَ الشَّقِّ ، فَإِذَا لَبَسَ الثَّوبَ شِدَّةَ
الطَّرَفَيْنِ ، فَيَقَالُ عِنْدَ ذَلِكَ : قَدْ زَرَرْتُ الثَّوبَ ، يَرِيدُ أَنْ السَّحَابُ قَدْ تَكَاثَفَ
فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ ، فَلَا تَبْصُرُ الْعَيْنُ فِيهَا لَشِدَّةَ ظِلَامِهَا ، لِأَنَّ الثَّوبَ إِذَا شَدَّدْتَ
أُزْرَارَهُ ، لَمْ يَجِدْ رَأْسُ الْإِنْسَانِ مِنْ أَيْنَ يَخْرُجُ ، فَلَمَّا جَعَلَ لِلَّيْلَةِ ثَوْبًا مِنَ الظَّلَامِ
وَالسَّحَابِ جَعَلَهُ مَرْبُوطًا مُشْدُودًا مَغْمُومًا مُسْتَوْرًا . غَيْمُهَا : سَحَابُهَا . مَرْكُومٌ ،
أَيْ مَتْرَاكِبٌ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ . أَنْصُ عَنْسِي ، أَيْ أَجْهَدُ نَاقَتِي وَأَتَعِبُهَا ، وَالنَّصَّ
رَفَعَ السَّيْرَ ، وَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : مَا كُنْتُ قَائِلَةً لَوْ أَنَّ

رسول الله صلى الله عليه وسلم عارضك ببعض الفلوات ناصّة قلوصاً من منهل
إلى آخر ، ومنه نصّ الحديث إلى فلان ، أى رفعه إلى شخص . وإرقالى :
سُرْعَتى . يعدو : يُسْرِع . الجزى : عدو شديد .

* * *

حُمِيتَ من خابط ليل سارى	هَدَاه بل أهداه ضوء النار
إلى رحيب الباع رَحْب الدار	مُرَحَّب بالطَّارِقِ الْمُتَّارِ
تَرَحَّبَ جَعْد الكفِّ بالدِّينَارِ	ليس بمنزور عَنْ الزُّوَارِ
ولا يَغْتَامِ القِرَى مِنْخَارِ	إذا اقشَعَرَّتْ تَرْبُ الأَقْطَارِ
وضنتِ الأنواء بالأمطارِ	فهو على بُؤس الزَّمان الضارى
جَمُّ الرَّمَادِ مُرْهَفُ الشَّفَارِ	لم يَخْلُ في ليلٍ ولا نهارِ

* من نَحَرَ وَارٍ واقتداح وارى *

* * *

قوله : سارى ، أى آتٍ بالليل . والخابط : الماشى على غير علم بالطريق .
هداه ، من الهداية . وأهداه ، من الهدية . رحيب الباع : كثير البر . واسع
العطاء : واسع البر . والرَّحْب : المتسع . مُرَحَّبٌ ؛ يقول : مرحباً بك . والطَّارِقُ :
الآتى بالليل . المِيتَار : طالب الميرة ، وهى الطعام يُجَلَّب من بلد إلى بلد . جَعْدُ
الكفِّ ، هو البخيل أى يَرَحَّب بالضيف كما يَرَحَّب البخيل بالدِّينَار إذا وقع
في كفه .

نظر أعرابيٌّ إلى درهم في يد رجل ، وأدام النَّظَرَ إليه ، فقال له الرجل :
لو كان لك ما كنت صانعاً ؟ قال : كنت أنظر إليه نظرة ثم تكون آخر
عهده باليد .

وكان بعضُ البخلاء إذا وقع الدرهم في يده يخاطبه ويقول له : أنت عَقْلِي
وديني وصلاتي وصيامي وجامع شملي وقرّة عيني وأنسى ، وقوتي وعُدّتي وعمادي
ثم يقول له :

أهلاً ومنهلاً بك من زائري كنتُ إلى وجهك مشتاقاً

ثم يقول : يا نورَ عيني وحيبَ قلبي ، قد صرتَ إلى من يصونك ، ويعرف
قدرك ، ويُعظّم حقّك ، ويرعى قيمتك ، ويشفق عليك ، وكيف لا تكون
كذلك وأنت تعظّم الأقدار وتعمّر الدّيار ، وتُفتَضُّ بك الأبقار ، وتسمو
على الأشراف ، وترفع الذكر ، وتُعَلِّي القَدْر ، وتؤنس من الوحشة ، ثم يطرحه
في الكيس ، ويقول :

بنفسي محبوبٌ عن العين شخصه ومَنْ ليس يخلو من لساني ولا قلبي
ومَنْ ذكره حظي من الناس كلهم وأوّل حظي منه في البعد والقربِ

مُزَوَّرٌ : منقبض . معتام : مؤخر مبطن . والقري : طعام الضيف ،
معناه أنه لا يؤخر طعامه ، ويقال : أَعْتَمَ يابلّه إذا أخر حلّ بها ، ومنه العتمة
لتأخر وقتها . متخار : كثير التأخر . اقشعرت : انقبضت من شدّة البرد .
تُرَبّ : جمع تُربة وهي وجه الأرض . والأقطار : البلاد والنواحي . ضنّت
الأنواء : بخلت النجوم ، وكانوا يستمطرون بها . بُؤس : شدّة . الضّاري :
المعتاد ، أي الذي عادته ألا يكون فيه غير بُؤس . جمّ : كثير ، وإذا كثّر
الرماد كان عن كثرة النار ، وكثرة ما يُطْبَخ عليها . مُرَهَف : قاطع . اقتداح :
ضرب بالزند . وارٍ : بعير سمين ، ووَرِيّ المتخّ : اكتنز فهو وارٍ ، ووَرِيّ الزند
فهو وارٍ ، أي مبدٍ للنار .

* * *

ثُمَّ تَلَقَّانِي بِحَيٍّ حَيٍّ ، وَصَاحَنِي بِرَاحَةٍ أَرِيحِي ، وَاقْتَادَنِي إِلَى
بَيْتِ عِشَارِهِ تَحُورٌ ، وَأَعْشَارُهُ تَقُورٌ ، وَلَائِدُهُ تَمُورٌ ، وَمَوَائِدُهُ تَدُورُ ،
وَبَأْكَسَارِهِ أَضْيَافٌ قَدْ جَلَبَهُمْ جَالِي ، وَقُلِّبُوا فِي قَالِي ، وَهُمْ يَجْتَنُونَ
فَاكْهَةَ الشِّتَاءِ ، وَيَمْرَحُونَ مَرَحَ ذِي الْفَتَاءِ ، فَأَخَذْتُ مَا خَذَهُمْ فِي
الْاضْطِلَاءِ ، وَوَجَدْتُ بِهِمْ وَجَدَ الثَّمَلِ بِالطَّلَاءِ .

* * *

مُحْيَاً : وَجْه . صَاحَنِي : وَاجَهْنِي وَقَابِلْنِي . بَرَاةً : بَكَفٌ . أَرِيحِي : كَرِيمٌ
يَهْتَرُ لِلْكَرَمِ . اقْتَادَنِي : سَاقَنِي . وَلَائِدُهُ : خَدَمُهُ . تَمُورُ : تَسِيرُ وَتَخْتَلِفُ .
بِالطَّعَامِ مَوَائِدُهُ : جَمْعُ مَائِدَةٍ .

أَبُو عُبَيْدٍ : سُمِّيَتْ مَائِدَةٌ لِأَنَّهَا مِيدَ بِهَا صَاحِبُهَا ، أَيْ أُعْطِيَهَا وَتُقْضَى عَلَيْهِ
بِهَا ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ : مَادَنِي فَلَانٌ يَمِيدُنِي ، إِذَا أَحْسَنَ إِلَيَّ ، فَكَأَنَّ الْمَائِدَةَ تَمِيدُ
مِنْ حَوَالِيهَا مِمَّا أُحْضَرُ عَلَيْهَا ، قَالَ رُوْبَةُ :

* إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَأَدِّ * (١)

أَيُّ الْمُسْتَعْطَى غَيْرُهُ ، سُمِّيَتْ مَائِدَةٌ لِأَنَّهَا تَمِيدُ بِهَا عَلَيْهَا ، أَيْ تَتَحَرَّكُ ، وَمَادُ
الْفَصْنُ يَمِيدُ : مَالٌ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلْنَا الْأَرْضَ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ ﴾ .
الْجُرْمِيُّ يَقَالُ : مَائِدَةٌ وَمَمِيدَةٌ وَأَنْشَدَ :

وَمَمِيدَةٌ كَثِيرَةُ الْأَلْوَانِ تُصْنَعُ لِلْإِخْوَانِ وَالْجِيرَانِ

وَذَكَرَ الْقَوْلِينَ أَبُو مُحَمَّدٍ فِي دُرَةِ الْفَوَاصِ (٢) وَزَادَ أَنَّهُ لَا يَقَالُ لَهَا مَائِدَةٌ
إِلَّا أَنْ يُحْضَرَ عَلَيْهَا طَعَامٌ ، وَإِلَّا فَهِيَ خِيَانٌ ، وَاسْتَدَلَّ بِأَنَّ الْخَوَارِثِينَ لَمَّا اقْتَرَحُوا

(١) ديوانه ٢٠

(٢) دُرَةُ الْفَوَاصِ ١٠

على عيسى عليه السلام أن يُنزل عليهم مائدة ، قالوا نريد أن نأكل منها .
 قال : وحكى الأصمعي قال : غدوت ذات يوم إلى زيارة صديق لي ، فلقيني
 أبو عمرو بن العلاء فقال لي : إلى أين يا أصمعي ؟ فقلت : إلى صديق لي ،
 فقال : إن كان لفائدة أو لعائدة أو لمائدة ، وإلا فلا ، وهذا باب يتسع كثيراً ،
 وسأسوق جملة تأتي على أكثره .

[فصل فيما قيل في الكرم وإيقاد النار للضيف]

وهذه الحالة التي وصف من إيقاد النار هي التي كان يفعل حاتم . وكان إذا
 اشتد البرد وكَلَبَ الشتاء أمر غلامه ، فأوقد ناراً في يفاعٍ من الأرض ، لينظر
 إليها مَنْ أَضَلَّ الطريق ليلاً فيهتدى إليها ، وقال في ذلك :

أوقِدْ فإنَّ الليلَ ليلٌ قَرٌ والريحُ يا موقِدُ ريحٌ صِرٌ^(١)
 علَّ يَرَى ناركَ مَنْ يَمُرُّ إن جلت ضيقاً فأنت حرٌ

ولابن هرمة في هذا أشعار مُسْتَحْسَنَة منها :

أغشى الطريق بقبتي ورواقها وأحلُّ في قللِ الرُّبَا وأقيمٌ^(٢)
 إن امرأ جعلَ الطريقَ لبيته طنباً وأنكر حقَّه للثيمِ
 وقال مهيار :

ضربوا بمدرجة الطريق قبابهم يتقارعون على قري الضيفان^(٣)
 ويكاد موقدها يمؤد بنفسه - حُبِّ القرى - حطباً على النيران

(١) ديوانه ٦٠

(٢) ديوانه ١٩٤

(٣) ديوانه ٥١ : ٢

ولابن هرمة أيضاً :

ومستنجح تستكشط الرِّيح ثوبه
عَوَى في سواد الليل بعد اعتساقه
فجاوبه مُسْتَسْمِع الصَّوْتِ لِلْقَرَى
يكاد إذا ما أبصر الضَّيْفَ مَقْبلاً
ليسقط عنه وهو بالرَّمْلِ مُعْصِمٌ^(١)
لَيَنْبَحِ كَلْبٌ أَوْ لِيَفْزَعَ نَوْمُ
له عند إتيان المَلِيّنِ مَطْعَمُ
يَكْلُمُهُ مِنْ حُبِّهِ وَهُوَ أَعْجَمُ

وقال بعض المحدثين :

ويدلّ ضيفي في الظلّام على القرى
حتى إذا واجهته ولقيته
وتكاد من عرفان ما عودته
إشراق ناري أو نباح كلابي
حيّنه ببصائص الأذنان
من ذاك أن يفصحن بالترحاب

ولابن هرمة في ذلك أيضاً :

كيف احتيالي لبسط الضيف من حصري
عند الطعام فقد ضاقت به حيلي^(٢)
أخاف تردد قولي : « كل » فأقطعه
والسكت ينزله مني على البخل

وقال حاتم :

سلي الطارق المتار يا أم مالك
أبُسْفِر وجهي إنه أول القرى
إذا ما اعتراني بين قدري وبحزري^(٣)
وأبذل معروفى له دون منكري

(١) ديوانه ٤٩

(٢) ديوانه ١٨٢

(٣) الغمر لعروة بن الورد ، ديوانه ٩٩

وقال أيضاً :

أما والذي لا يعرف السرَّ غيره ويحي العظام البيض وهي رميم^(١)
لقد كنت أختار القرى طوى الحشى محافظة من أن يقال لنيم
وإني لأستحي يميني وبينها وبين في داجي الظلام بهم

وقال أيضاً :

أكف يدي من أن تنال التيماء أكف صحابي حين حاجتنا مع^(٢)
أيت هضم الكشح مضطرم الحشى من الجوع أخشى الذم أن أتضلعاً
وإني لأستحي رفيقي أن يرى مكان يدي من جانب الزاد أقرعاً
وإنك إن أعطيت بطنك سؤله وفرجك نالاً منتهى الدم أجمعا

وقال أبو زياد الأعرابي :

له نارٌ تُشبَّ على يفاعٍ إذا النيران ألْبَسَتِ القِنَاعَا
فلم يكُ أكثرَ الفتيانِ مالا ولكن كان أرحبهم ذِراعَا

وقال آخر :

لعلَّ عاراً إذا ضيفَ تأوَّبني

ما كان عندي إذا أعطيت مجهودى جُهدَ المُقِلِّ إذا أعطاك فائله
ومكثُ في الفنى سيَّان في الجود

وقال آخر :

تركت ضائي تود الذئب راعيها وأنها لا تراني آخر الأبد

(١) ديوانه ٨٧

(٢) ديوانه ٦٩

الذئب يطرقُها في الدهر واحدة وكلّ يوم ترانى مديّة بيدي
وقال آخر :

وسّع بمدك ماء اللحم تقسيمه وأكثر الشؤب إن لم يكثر اللبن
وسّع به وتلفت نحو حاضره إنَّ الكريم الذي لم يخله الفطن
وقال الغنوى :

لحافٍ لحاف الضيف والبيت يته وألم يلهى عنه غزالٌ مُقنعٌ
أحدته إن الحديث من القرى وتكلاً عيني عينه حين يهجع
وقال آخر :

وإنّا لمشّاؤون بين رحالنا وإلى الضيف منّا لاحفٌ ومُنيمٌ^(١)
فدو الحلم منّا جاهل دون ضيفه وذو الجهل منّا عن أذاه حلیم
وقال آخر :

سأقبح من قدري نصيباً لجارتى وإن كان ما فيها كفافاً على أهلى
إذا أنت لم تُشرك رفيقك فى الذى يكون قليلاً لم تشاركه فى الفضل
ولبعض أصحابنا :

وسارٍ تحلى أنجم الليل زينةً ويلبس من ظلماتها ثوباً ثاملاً
رفعت له نارى فأنس ضوءها كما أنس الظمان برد المناهل
أتانا فحيانا فكان جوابه صليل شفار السيف فى ساق بازل
وما أنا من سؤاله بمن الفتى وتلك سحاباً كلّ أطلس بالى
فذاك الذى أودى بما اكتسبت يدي وإن عاد وفري عُدت غير مواكل

[ما قيل في البخل]

وقال آخر في ضد ما قلناه :

أراني من بني حكمٍ غريباً على قترٍ أزور ولا أزارُ
أناسٌ يأكلون اللحمِ دوني ويأتيني المعاذِرُ والقتارُ
القتَر والقَطَر : الجانب .

وقال آخر :

مات في عُرْسٍ سُلَيْمًا نَ من الجُوعِ جَمَاعَةً
مات أقوامٌ وقومٌ حملوا فيه القنَاءَةَ
لم يكن يوجد فيه الخبز إلا بشفَاءِهِ

آخر :

وما تُدْسِنِي الأيامُ لا أنسَ جوعنا بدار بني بَذَرٍ وطولَ التَلَدِّ
ظللنا كأننا بينهم أهلُ مَأْتَمٍ على مَيِّتٍ مستودع بطنٍ مَلْحَدٍ
يحدث بعضٌ بعضنا عن مصابه ويأمر بعضٌ بعضنا بالتجلدِ
وفي هذا طرف من قول الآخر :

إذا ما عراكمُ حادثٌ فتحدّثوا فإنَّ حديثَ القومِ يُنْسِي المَصَابِيَا
وأهلُ الحزنِ يستعملون الحديثَ اشتغالاً عن المصيبة .

وقال بشار :

أبناء عمرو ولقي خفضٍ وفي دعةٍ وفي عطاءٍ لعمري غيرِ مَمْنُوعٍ
وضيف عمرو وعمرو ساهمانِ معاً عمرو لبطنته والضيفُ لِلْجُوعِ
آخر :

ما كنتُ أحسبُ أن الخبزَ فاكهة حتى نزلتُ على قومٍ بِمَيْسَانِ

(م ١٠ - شرح مقامات الحريري - ج ٥)

قوم إذا حلّ ضيفٌ بين أظهرهم لم يُنزِلُوهُ ودلّوه على الخانِ
آخر :

والناس في فِطْرِ سَوى شهرهم ودهر أضيافك شهر الصيام
آخر :

كُتبت له صيفا فظنّ بأنّي كُتبت له ضيفا فقام إلى السيف
فقلتُ خيراً فظنّ بأنّي ذُكرتُ له خبزاً فأت من الخوف

وإن ابنَ هَرَمَةَ الْأُمِّ الناس مع ادّعاءه في شعره الكرم ، قال رجل :
أتيناها في جماعة من قريش أحبينا أن يتنزه عندنا ، ومشينا بزادٍ كثير ، فخرج
علينا ، وقال : ما جاء بكم ؟ قلنا : شعرك حيث قلت : إن امرأ جعل الطريق
لبيته ... ، وقولك أيضاً :

وإذا تنوّر راكبا مستنبحٌ نَبَحَتْ فدلّته على كلابي^(١)
وعوّن يستعجلنه فلقينه بَصْرِيَّةُ بَشْرَاسِيفِ الْأَذْنَابِ^(٢)
وسمعناك تقول :

كم ناقةٍ قد وجأت منحَرها بمستهلّ الشُّبُوبِ أو بجَلِ^(٣)
لا أُمْتِجِ الْعُوذَ بِالْفَصَالِ وَلَا أَتْبَاعَ إِلَّا قَرِيبَةَ الْأَجْلِ

فنظر إلينا وقال : ما على وجه الأرض عصبَةٌ أسخفُ عقولاً منكُم ،
أما سمعتم قول الله عز وجل : ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ في الشعراء ،
والله إني لأقول ما لا أفعل ، وأتم تريدون أن أفعل ما أقول ، والله لا أغضب
ربّي في رضاكم . فضحكنا منه وأخرجناه معنا يتنزه حتى فَنِيَ الزَّادُ .

(١) ديوانه ٧٣.

(٢) في الديوان : « وفرخن إذ أبصرنه فلقينه »

أتى الحطيئة رجلٌ وهو في غنمه ، وقال : يا صاحب الغنم ، سلام عليك ،
 قرفع الحطيئة العصا ، وقال : إنها تجزأ من سلمٍ ، فقال الرجل : إني ضيف ،
 فقال : للضيفان أعددتُها ، فأعاد السلام ، فقال : إن شئتَ قتُ بها إليك .

ومرّ به ابن حمامة وهو جالس بفناء بيته ، فقال : السلام عليكم ، فقال :
 قد قلتَ مالا ينكر .

وقال : خرجت من أهلى بغير زاد ، قال : ما ضمنتُ لأهلك قراك ، قال :
 أفنأذن لي أن آتى ظلَّ بيتك ؟ قال : دونك الجبل يني عليك ، قال : أما
 ابن حمامة ، قال : انصرف وكن ابن أوى طائرٍ شئت . يروى هذا عن
 أبي الأسود الدؤلى .

ونزل الغضبانُ بن القَبَعْرِى خارج كِرْمان وهى قرية كثيرة الرّمضاء ،
 ف ضرب قَبْتَه ، فورد عليه أعرابى من بكر ، فقال : السّلام عليك ، قال : السّلام
 عليك كثير ، وهى كلمة مقولة ، قال الأعرابى : ما اسمك ؟ قال : آخذ ، قال أو
 تعطى ؟ قال : ما أحبّ أن يكون لى اسمان ، قال : ومن أين جئت ؟ قال : من
 الدّلّول ، قال : وأين تريد ؟ قال : أرضنا أمشى فى مناكبها ، قال : ومن عرض
 اليوم ؟ قال آل فرعون على النّار ، قال : فمن بُشّر ؟ قال : الصّابرون ، قال : فمن
 علب ؟ قال : حزبُ الله قال : أفقرض ؟ قال : إنما تقرض الفأرة ، قال : أفنسمع
 قال : إنما نسمع القينة ، قال : أتُنشد ؟ قال : إنما تُنشد الضّالة ، قال : أفنقول ؟
 قال : إنما يقول الأمير ، قال : أتُسجّع ؟ قال : إنما تسجع الحمامة ، قال :
 أفنتنطق ؟ قال : كتاب الله ينطق ، قال : إنك لمنكر ، قال : إني لمعروف ،
 قال : ذلك أريد ، قال : وما إرادتك ؟ قال : الدّخول عليك ، قال : وراءك
 أوسع ، قال : قد أضرتنى الشّمس ، قال : الساعة يأتىك النّفى ، قال : الرّمضاء
 أحرقَت قدمى ، قال : بُلّ عليهما تبرّدًا ، قال : قد أوجعنى الحرّ ، قال : ليس لى

عليه سلطان ، قال : إني لا أريد طعامك ولا شرابك ، قال : أتعرض بهما ؟
والله لاتذوقهما عندي ، قال : سبحان الله ! قال : قبل كَوْنِكَ ، قال : ما أرى
عندك ؟ قال : هراوة أرزن ، أدق بها رأسك . فتركه وانصرف .

الأصمعيّ: عَدَلْتُ أعرابية أباهَا في إتلاف ماله ، فقالت : يا أبتِ ، حبس المال
أنفع للعيال من بذل الوجه للسؤال ، وقد أتلفت التلاد ، وبقيت ترقب ما بأيدي
العباد ، ومن لم يحفظ ما ينفعه يُوشك أن يقع فيما يضره ، أخذه ابن المعتز فقال :
يا ربَّ جودٍ جرَّ فقر امرئٍ فقام للناس مقامَ الذليل^(١)
فاشدُّدُ عُرَا مالك واستبقه فالخل خيرٌ من سؤال البخيل
وقال بعض البخلاء :

أَعْدَدْتُ للأضياف كلباً ضارياً عندي وفضل هراوة من أرزن
ومعاذراً كذباً ووجهاً باسراً وتشكياً عضَّ الزمان الأذن
الأذن : المضيق .

محمد بن الجهم : ودِدْتُ أَنْ عَشْرَةً من الفقهاء ، وعشرة من الشعراء ،
وعشرة من الخطباء ، وعشرة من الأدباء ، تواطئوا على ذمي حتى ينتشر ذلك
عنهم في الآفاق ، فلا يمتدَّ إلى أمل أمل ، ولا يَبْسِطُ نحوي رجاء لراج .

وكان يقول : مَنْ وَهَبَ في عمله فهو مخدوع ، ومن وَهَبَ بعد العزل فهو
أحق ، ومن وَهَبَ في جوائز سلطانه ، أو عمل لم يتعب فيه فهو مخذول ،
ومن وَهَبَ من كسبه وما استفاد بحيلته فهو المطبوع على قلبه ، المحتوم على
سمعه وبصره .

وقال : منع الجميع ، أَرْضَى للجميع . وهذا كقول الأصمعي ! لو قسمت في

الناس ألف ألف لكان أكثر للأثمي من لو أخذتها منهم ، قالوا : ولم يُرد البخل ؛ ولكن إذا تعذر عليه أن يعم فلا يخلص .

وقال آخر : قول « لا » يدفع البلاء وقول « نعم » يزيل النعم .

دعبل كتنا يوماً عند سهل بن هارون وأطلنا الحديث حتى أضرب به الجوع ، فدعا بفدائه ، فإذا بصحفة فيها مرق ولحم ديك ، قد هَرِم ، لا تحز فيه سكين ، ولا يؤثر فيه ضرس ، فأخذ قطعة من خبز قلع بها جميع المرق ، وقعد الرأس ، فبقي مطرقاً ساعة ثم رفع رأسه إلى الغلام وقال : أين الرأس ؟ قال : رميتُ به ، قال : ولم ؟ قال : لم أظنك تأكله ، قال : ولم ظننت ذلك ؟ فوالله إنني لأمقت مَنْ يرى برجله فضلاً عن رأسه ، والرأس رئيس الأعضاء وفيه الحواس الخمس ، ومنه بصيح الديك ، وفيه عيناه اللتان يُضرب بهما المثل في الصفاء ، فيقال : شراب مثل عين الديك ، ودماغه عجيب لوجع السكاكية ، فإن كان بلغ من جهلك أننى لا آكله ، فإنَّ عندنا مَنْ يأكله ، انظر أين هو ؟ قال : والله لا أدرى أين رميتُ به ، قال : لكنى والله أدرى ، رميتُ به في بطنك .

ولسهل هذا رسالة مدح فيها البخل وفضله على السخاء ، ليرى في ذلك بلاغته ، وأهداها إلى الحسن بن سهل في وزارته للمأمون فوقع عليها : لقد مدحت ما ذمَّ الله ، وحسنت ما قبح ، وما يقوم صلاح لفظك بفساد معنأك ، وقد جعلنا ثوابك عليها قبول ما فضلت فيها ، وتنادب فيها بأدبك . ولم يعطه شيئاً .

وقيل : إنَّ الذي أهدى إليه كتاب ألفه ، مدح فيه البخل ، وذمَّ الجود فوقع عليه بما تقدم . قال دعبل :

صدَّق أليته إن قال مجتهداً لا والرغيف فذاك البرُّ من قسَمِه^(١)
فإن هممت به فافتك بخبزته فإن موقعها من لحمه ودمه

(١) ديوانه ١٨٨ ، المعتد ٦ : ١٩٠ ، نهاية الأرب ٣ : ٣٠٩ ، عيون الأخبار ٢ : ٦٤٦

تد كان يعجبنى لو أن غيرته
أبو نواس في البؤبؤ الزنديق :
لقيت في آل زياد فتى
ينزل للضيف بنياته
وإن في النيك مستمتعا
آخر :

أما الرغيف لدى الخوا
ما إن يُحسّ ولا يمسّ
فتراه أخضر يابسا
آخر :

أبو نوح دخلت عليه يوما
وقدم بيننا لهما سميناً
فلما أن رفعت يدي سقاني
فكان كمن سقى الظمان آلاً
وقال في أبي نوح أيضاً :

لأبي نوح رغيف
فهو تحميه مدى الده
وله كاتب صدق
فسيكفيكم الله
أبدًا في حجر دابة
ر بكم ووقاية
خط فيه بعناية
إلى آخر الآية

(١) الجرائق : نوع من الخبز

(٢) المعقد ٦ : ٨

آخر :

استبقي وذأبي القسا تل حين تأكل من طعامه^(١)
سيان كسر رغيغه أو كسر عظم من عظامه
فارق بكسر رغيغه إن كنت ترغب في كلامه
وتراه من خوف التزو ل به يروّع في منامه

آخر :

خان عهدي عمرو وما خنت عهده وجفاني وما تغيّرت بعده
ليس لي مذ حيت ذنب إليه غير أنني يوماً تغدّيت عنده

آخر :

أبو جعفر رجل عالم بما يصلح المعدة الفاسدة
تخوف تحمة أضيافه فعودهم أكلة واحدة

أبو نواس :

فتي لرغيغه قرط وشنف ولؤلؤتان من خرز وشذر
ودون رغيغه قلع الثنايا وحرب مثل وقعة يوم بدر
وإن كسر الرغيغ بكى عليه بكاء الخنساء إذ فجعت بصخر

آخر :

رغيغ أبي على حلّ خوفاً من الأضياف منزلة الشماك
إذا كسروا رغيغ أبي على بكى يبكي بكاء فهو بالك

(١) من أبيات في ميون الأخبار ٢ : ٣٦ ورواية البيت الأول فيه

أرفق بحفص حين تأكل يا معاوي من طعامه

آخر :

إِنَّ هَذَا الْفَتَى يَصُونُ رَغِيفًا مَا إِلَيْهِ لِنَظَرٍ مِنْ سَبِيلِ
هُوَ فِي قُفَّتَيْنِ مِنْ أَدَمِ الطَّا ثَفٍ فِي سَلْتَيْنِ فِي مِندِيلِ
فِي جَرَابٍ فِي جَوْفِ تَابُوتِ مُوسَى وَالْمَفَاتِيحِ عِنْدَ مِيكَائِيلِ
ابن بسام :

أَنَا نَا بَخْبِزٍ لَهُ يَابِسٍ كَمَثَلِ الدَّرَاهِمِ فِي خَلْقَتِهِ
إِذَا مَا تَنَفَّسْتُ عِنْدَ الْخَوَانِ تَطَايَرُ فِي الْبَيْتِ مِنْ خِفَّتِهِ

وقال عباس الخياط :

رَغِيفُهُ التَّجَمُّ لِمَنْ رَامَهُ يُرَى وَلَا يُطْمَعُ فِي لَمْسِهِ
كَأَنَّهُ فِي جَوْفِ مِرَاتِهِ يَبْدُو وَلَا يُطْمَعُ فِي جَسِّهِ
وَفَلَسُهُ الْأَمْسُ الَّذِي قَدْ مَضَى بَلْ أَمْسُهُ أَوْجَدُ مِنْ فَلْسِهِ
آخر :

رَغِيفٌ فِي الْحِجَالِ عَلَيْهِ قُفْلٌ وَخَزَانٌ وَأَبْوَابٌ مَنِمَةٌ
رَأَى فِي يَتِّهِ يَوْمًا رَغِيفًا فَقَالَ لَضِيفِهِ هَذَا وَدِيعَةٌ
اعْتَلَّ أَبُو هِقَانَ فِي مَنْزِلِ ابْنِ أَبِي طَاهِرٍ فَأَبْطَثُوا عَلَيْهِ بِالْقَدَاءِ فَقَالَ :

أَنَا فِي مَنْزِلٍ خِلٍّ مَشْفُوقٌ بِي وَرَفِيقِي
رَجُلٌ أَعْمَرُ مِنْ مَنْزِلِهِ ظَهَرَ الطَّرِيقِ
لَيْسَ لِي أَكْلٌ سِوَى لَحْمِي وَشَرْبٌ غَيْرُ رَيْقِي
ولجحظة يهجو رجلاً :

لَا تَعْذِلُونِي إِنْ هَجَرْتُ طَعَامَهُ خَوْفًا عَلَى نَفْسِي مِنَ الْمَأْكُولِ
فَتَى أَكَلَتْ قَتْلَتَهُ مِنْ بَحْلِهِ وَمَتَى قَتَلْتُ قَتْلَتَ بِالْمَقْتُولِ

وله أيضاً يذم بخيلاً :

تَبَرَّم إِذْ جُنْتُهُ لِّلسَّلَامِ وَأَبْدَى لِي الْكُرَّةَ لَمَّا دَخَلْتُ
قُلْتُ لَهُ : لَا يَرُغَّكَ الدُّخُولُ فَوَاللَّهِ مَا جُنْتُ إِلَّا أَكَلْتُ

أين هذا من قول إبراهيم بن العباس الصولي :

لَنَا إِبِلٌ كَوْمٌ يَضِيقُ بِهَا الْفَضَا وَتَقْتَرُّ عَنْهَا أَرْضُهَا وَسَمَاوُهَا (١)
فَمِنْ دُونِهَا أَنْ تَسْتَبَاحَ دِمَاؤُنَا وَمِنْ دُونِنَا أَنْ تُسْتَذَمَّ دِمَاؤُهَا
حِمَى وَقِرَى فَالْمَوْتُ دُونَ مَرَامِهَا وَأَهْوَنُ خَطْبٍ فِي الْحَقْوَى بِنَاؤُهَا (٢)

وقوله :

لَا تَلُمِي فَإِنَّ هَمَّكَ أَنْ تُثَرِّيَ وَهَمِّي مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ (٣)
كَيْفَ يَسْتَطِيعُ حِفْظَ مَا جَمَعْتَ كَفَاهُ مَنْ ذَاقَ لَذَّةَ الْإِنْفَاقِ

وقوله :

تَلَجُّ الضُّيُوفُ بُيُوتَهُمْ وَتَرَى لَهَا عَنْ جَارٍ يَتَّبِعُهُمْ أَزْوَارَ مَنْكَ كِبِ (٤)
وَتَرَاهُمْ بِسُيُوفِهِمْ وَشَفَارِهِمْ مُسْتَشْرِفِينَ لِرَاغِبٍ أَوْ رَاهِبٍ
حَامِينَ أَوْ قَارِينَ حَيْثُ لَقِيَتْهُمْ نَهَبَ الْعَفَاةِ وَنَهْزَةَ لِلرَّاغِبِ

وجلس هارون بن محمد بن الزيات في مجلس عبد الله بن سليمان ، فجعل هارون يُنشد من شعر أبيه محاسنه ، فقال له ابن برد الخباز : إن كان لأبيك مثل قول إبراهيم :

أَسَدٌ ضَارٍ إِذَا مَا هَجَّتْهُ وَأَبٌّ بَرٌّ إِذَا مَا قَدَّرَا (٥)
يعرف الأبعد إن أثرى ولا يعرف الأدنى إذا ما افتقرا

(١) ديوانه ١٥٣

(٢) رواية الديوان « وأيسر خطب يوم حق نناؤنا » .

(٣) ديوانه ١٨٦

(٤) ديوانه ١٢٩

(٥) ديوانه ١٣٣

أو مثل قوله : « تلج الضيوف » البيتين فاذْكُرْه وفاخرْ به ، وإلا فأقللْ
من الفخار والتطاول بما لا طائل فيه ، فنجلْ هارون .
وإبراهيم هذا أشعر الكتاب بلا خلاف .

[في وصف القدور]

وذكر الحريرى القدور ، ومن وصفها ، فأحسن الفرزدق حين قال :
وقد علم الجيرانُ أنْ قَدُورَنَا ضَوا منْ للأرزاق والريح زَفَزَفُ^(١)
تُفَرِّغُ في شِيزَى كأنَّ جفانهم حياضُ المَلَأَ منها ملاء وتُصَفِّ^(٢)
ترى حولهنَّ المعتفين كأنهم على صَنَمٍ في الجاهلية عَكَفُ
وقال أُمِيَّة بن أَبِي الصَّلْتِ :

وكانها بِفِنَاءِ للضيف مترعة زواجره^(٣)
وكانهنَّ بما شحْنُ وما حين به ضرائرُ
زبد وقرقرة كقررة الفحول إذا تُخَاطِرُ

وقال النابغة في مثله :

له بِفِنَاءِ البيت سَوْدَاءَ فَحَمَّةٌ تَلَقَّمُ أعضاء الجزورِ المراعِرِ^(٤)
بقية قَدَرٍ من قُدُورٍ تُورِّثُ لآلِ جُلَاحٍ كَابِراً بعد كَابِرٍ
يَظُلُّ الإمام يتدرب قديحها كما ابتدرت سعدُ مِيَاءَ قَرَاقرٍ
- قديحها : مرقها لأنه يقدح ، أى يؤخذ بالمقدحة ، وهى المرفقة -

وقال آخر :

وسوداء لا تكسى الرقاعَ نبيلةٌ لها عند قرأت العشياتِ أزمَلُ

(١) ديوانه ٥٦٠

(٢) الشيزى : قصاع من خشب الجوز .

(٣) ديوانه ١٧٣ (نشرة الذكور شكرى فيصل) .

(٤) ديوانه .

إِذَا مَا قَرَيْنَاهَا قَرَاهَا تَضَمَّنَتْ قَرَى مَنْ عَرَانَا أَوْ تَزِيدُ فَتَفْضِلُ
وَقَالَ مَسْكِينُ الدَّرَامِيِّ :

كَأَنَّ قُدُورَ قَوْمِي كُلِّ يَوْمٍ قِبَابُ التَّرْكِ مَلْبَسَةُ الْجِلَالِ
بَأَيْدِيهِمْ مَغَارِفُ مِنْ حَدِيدٍ أَشْبَهَهَا مَقْيَرَةُ الدَّوَالِي^(١)
الذَّالِيَّةُ : الْخَطَّارَةُ .

وَفِي ضِدِّ ذَلِكَ لِأَبِي نَوَاسٍ :

رَأَيْتُ قُدُورَ النَّاسِ تَبَلَّى عَلَى الصَّلَى
وَقَدَّرَ الرَّقَاشِيَّينَ بِيضَاءَ كَالْبَذْرِ^(٢)
يَضِيقُ بِحَيْرُومِ الْبَعُوضَةِ صَدْرُهَا وَيُخْرِجُ مَا فِيهَا عَلَى طَرَفِ الظُّفْرِ
إِذَا مَا تَنَادَوْا لِلرَّحِيلِ سَعَى بِهَا أَمَامَهُمُ الْحَوْلَى مِنْ وَلَدِ الذَّرِّ
وَقَالَ الْفَرَزْدَقُ :

لَوْ أَنَّ قَدِرًا بَكَتْ مِنْ طُولِ مَا جَهَشَتْ
عَلَى الْجَفُوفِ بَكَتِ قَدِرُ بْنُ عَمَّارٍ^(٣)
مَا مَسَّهَا دَسَمٌ مَذْفُوضٌ مَعْدِنُهَا وَلَا رَأَتْ بَعْدَ نَارِ الْقَيْنِ مِنْ نَارِ
وَتَسَمَّى النَّارُ فَكَلِمَةُ الشَّتَاءِ لَمَّا يَجْتَنِي مِنْ تَسْخِينِهَا .
وَقَدْ أَحْسَنَ ابْنُ صَارَةَ فِي وَصْفِهَا حَيْثُ قَالَ :

هَاتِ الَّتِي لِلْأَيْكِ أَصْلُ وَلَادِهَا وَلَهَا جَبِينُ الشَّمْسِ فِي الْأَشْمَاسِ
يَتَقَشَّعُ الْيَاقُوتُ مِنْ لَبَّائِهَا يَوْسَاسُ تَشْفِي مِنَ الْوَسَاسِ

(١) البيت في اللسان (ولا) وقال : الذالِيَّةُ : الناعورة .

(٢) ديوانه ١٧٧

أنسُ الوحيد وصبح عين المجتلي ولباس من أمسى بغير لباس
 حمراء ترقلُ في السواد كأنها ضربت بعرق من بني العباس
 وقال آخر :

لابنة الزند في الكوانين جمر كالداراري في الليلة الظلماء
 خبروني عنها ولا تكذبوني أديها صناعة الكيمياء
 سبكت فحمها سبائك تبر رصعتها بالفضة البيضاء
 كلما ولول النسيم عليها رقصت في غلالة حمراء
 سفرت عن جبينها فارتنا حاجب الشمس طالعا في العشاء
 لو ترانا من حولها قلت شرب يتعاطون أكوس الصهباء

وقال الفقيه الأديب ابن لبّال رحمه الله :

فم ذكت في حشاه نار فقلت مسك وجلنار
 أو خذ من قد هويت لما أظلل من فوقه العذار
 وقال البحرى يصف كانوناً :

وذى أربع لا يطيق النهو ض لا يالف السير فيمن مرى^(١)
 تحمله سبجا أسودا فيقلبه ذهابا أحمر

* * *

قوله : قلبوا في قالبي ، أى هم أمثالى لأن قالب الشيء كل ما يجعل فيه
 ليجيء مثله ، وقلّبوا : جعّلوا في القالب . يمرحون : ينشطون ويطنّون . ذوى
 الفتاء : أهل الفتوة . والفتاء : الحداثة والشباب ، يقال منه : فتو فتأ فتاء ،
 ويقال أيضاً : بكر فتى بين الفتاء ، وفتى من الناس : بين الفتوة ، والفتى

والفتية : الشاب والشابة . الاصطلاء : التسخن بالنار . الثمل : السكران .
والطلاء : الحمر ، وأصل الطلاء الرطب التخين الأسود ، فسميت الحمر الصافية
طلاء بضد صفتها ، كما سُمي اللدغ سليماً ، والأسود أبا البيضاء ، والذئب أبا جمعة ،
وجمعة اسم الشاة .

* * *

ولما أن سرى الحصر ، وأنسرى الحصر ، أتينا بموائد كالهالات
دوراً ، والروضات نوراً ، وقد سُجِنَ بِأَطْعَمَةِ الْوَلَامِ ، ومُحِينٍ من
العائب واللائم ، فرَضْنَا مَا قِيلَ فِي الْبِطْنَةِ ، ورَأَيْنَا الْإِمْعَانَ فِيهَا
من الْفِطْنَةِ ، حَتَّى إِذَا اكْتَلْنَا بِصَاحِ الْخَطَمِ ، وَأَشْفَيْنَا عَلَى خَطَرِ الثَّخَمِ ،
تَعَاوَزْنَا مَشُوشَ الْعَمَرِ ، ثُمَّ تَبَوَّأْنَا مَقَاعِدَ السَّمَرِ ، وَأَخَذَ كُلُّ وَاحِدٍ
مِنَّا يَشُولُ بِلِسَانِهِ ، وَيُنْشُرُ مَا فِي صَوَانِهِ ، مَا عَدَا شَيْخًا مُشْتَبِهًا فَوْدَاهُ
مَخْلُوقًا بُرْدَاهُ ؛ فَإِنَّهُ رَبَّضَ حَجْرَةً ، وَأَوْسَعَنَا هِجْرَةً ، فَعَاظَنَا تَجَنُّبُهُ ،
الْمُلْتَبِسُ مُوجِبُهُ ، الْمَعْدُورُ فِيهِ مُؤْتَبِهُ ، إِلَّا أَنَا أَلْتَالَهُ الْقَوْلُ ، وَخَشِينَا فِي
الْمَسْأَلَةِ الْعَوْلُ ، وَكَلَّمَا رُمْنَا أَنْ يَفِيضَ كَمَا فِضْنَا ، أَوْ يَفِيضَ فِيمَا أَفْضْنَا
أَعْرَضَ إِعْرَاضَ الْعِلْيَةِ الْأَزْدِلِينَ ، وَتَلَا ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ .
ثُمَّ كَأَنَّ الْحَمِيَّةَ هَاجَتْهُ ، وَالتَّفَنُّسَ الْآيَّةَ نَاجَتْهُ ، فَدَلَفَ ، وَازْدَلَفَ ، وَخَلَعَ
الصَّلَافَ ، وَبَدَّلَ أَنْ يَتَلَفَى مَا سَلَفَ ، ثُمَّ اسْتَرْعَى سَمْعَ السَّامِرِ .
وَانْدَفَعَ كَالسَّيْلِ الْهَامِرِ وَقَالَ :

* * *

مَرَى الْخَصَر ، أى زال السكوت ، والخصر : انقطاع الكلام ، وهو العي ، وخصر يخصر : عى ، والخصر أيضاً : ضيق الصدر . انسرى انخصر : ذهب البرد ، والخصر : البارد ، وخصر الرجل : إذا آذاه البرد وآلمه فى أطرافه . والروضات نورا ، أى هى فاعمة بكثرة الطعام وأنواع الألوان . شجن : ملئن . الولائم : الأعراس . مُحِين : مُنِعِن . العائب : الذى يعيب الطعام . واللائم : الذى يقف على رءوس أضيافه ، فيقول : ما أكلتم ، استعملوا ، زد يا فلان ، فينجل أضيافه لذلك ، فلا يتمكنون من الطعام . رفضنا : تركنا .

[مما قيل فى البطنة]

البطنة : الامتلاء من الطعام ، والذى قيل فى البطنة : البطنة تُذهب الفطنة ، فقال تركنا هذا المعنى وخالفناه ، ورأينا أن البطنة وهى امتلاء البطن من الطعام والإمعان فيه ، أى المبالغة فى الأكل يقوى الفطنة ، ويولدها لا أنه يُذهبها . والفطنة : الذكاء وحدة الذهن .

معاذ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما أحلّ الله حلالاً أبغض إليه من بطنٍ ملىء طعاماً ، فقصرّوا من الطعام تملثوا من الحكمة » .

المتقدم بن معديكرب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما ملأ آدمى وعاء شراً من بطنه ، بحسب ابن آدم أكالات يُقمن صُلبه ، فإن كان لا محالة ، فثلاث لطعامه ، وثلاث لشرابه ، وثلاث لنفسه » .

عمر بن الخطاب رضى الله عنه : يأبى الناس ، إياكم والبطنة ، فإنها مكسلة عن الصلاة ، مفسدة للجسد ، مورثة للسقم .

وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : إياكم والبطنة فإنها مفسدة للقلب الأصمى قال أعرابى : إذا كنت بطينا فعد نفسك زوماً .

وقال الحارث بن كلدة : أربعة أشياء يهزم من البدن : الغشيان على البطننة ، ودخول الحُمَام على الامتلاء ، وأكل القديد ، ومجامعة العجوز .

وقال الأصمعي : كنت عند هارون الرشيد فقدمت إليه فالودجة فقال : يا أصمعي ، حدثني بحديث مزرد أخى السماخ ، قلت : إنَّ مزرداً كان رجلاً جسيماً ، وكانت أمه تؤثر عيالها بالزاد ، وكان يُحَفِّظُه ذلك منها ، فذهبت يوماً في بعض حقوق أهلها ، وخلفته في يديها ، فدخل خيمتها فأخذ صاعين من دقيق ، وصاعاً من عجوة ، وصاعاً من سمن ، فضرب بعضه ببعض وأكله ثم أنشأ يقول :

وما مضت أُمِّي تزورُ عيالها أغرت على المك الذي كان يُمنَعُ
خلطت بصاعِي حنطة صاعَ عجوةٍ إلى صاع سمن فوقها يترعُ
ودليت أمثال الأثافي كأنها رهوس لعادٍ قُطِّعت لا تجمعُ
وقلت لبطنى أبشر اليوم إنه حمى آمنٌ مما يُغِيرُ ويُفزعُ
فإن مصفوراً فهذا داوؤه وإن كنت غرثاً نأفاً فذا اليوم تشبعُ

فاستضحك منه حتى أمسك بطنه ، واستلقى على ظهره ، ثم قدم يده بمال ، وقال : خذ ، فهذا يوم تشبع يا أصمعي .

قوله الحُطَم ، أى الذى يحطّم ويُسكسر ، ورجل محطّم وحُطمة ، إذا كان قليل الرحمة للماشية ، وفي المثل : شرُّ الرِّعاء الحُطمة . وقال الزَّاجِر :

* قَدْ لَفَّهَا اللَّيْلُ بِسَوَاقِ حُطَمٍ *

فعنى اكتلنا بصاع الحُطَم ، أى أكلنا أكل أكل لا يُشْفِق على نفسه من السَّتم . وأشفيئنا : أشرفنا . حَطَر : غَرَّر التُّخَم : جمع تُخْمَة بفتح الخاء ، وهو أن يثقل الطعام على المعدة ويتغير ، والعامّة تسكّن الخاء ، وقد يحى ذلك في الشعر قال أعرابي :

وَإِذَا الْمَعْدَةُ جَاشَتْ فَارْمِهَا بِالْمِنْجَنِيْقِ

بثلاثٍ من نبيذ ليس بالخلو الرقيقِ

تَهْضُمُ التَّخْضُمَةَ هَضْمًا حِينَ تَجْرَى فِي الْعُرُوقِ

وتعاورنا الشيء : تداولناه ، وأخذ به بعضنا من بعض ، وأزلناه من موضع إلى موضع . وَعَوَّرُ العين : زوالها . وَالْعَمَر : ربح اللحم وزهقه . تَبَوَّأْنَا : أخذنا ونزلنا . السَّمر : الحديث يُسَمَّر عليه . يشول بلسانه ، أى يضرب به فى كلِّ كلام ، وشال : رفع . والصَّوان : وعاء يُصان فيه الشيء . فواده : ناحيتا رأسه ، والفؤاد : ما بين طرف الجبهة والأذن . مخلولًا : كثير البلى . بُرداه : ثوباه . رَبَضَ : جلس ، وفى المثل : فلان يَرِبُضُ حَجْرَةً ، ويرتقى وسطًا ، يضرب مثلاً لمن يساعدك ما دمت فى خير ، فربض حَجْرَةً ، أى جلس ناحية وبرك . أَوْسَعْنَا : كثر لنا . الهجرة : المبادعة والمقاطعة ، يريد أنه اعتزلهم وجلس ناحية ولم يكلمهم بكلمة . تَجَنَّبَهُ : تبعده ، يقال : تَجَنَّبْتُكَ وَتَجَانَبْتُكَ ، أى تباعدت عنك ، والجار الجُنُب : البعيد . وما زاره إلا عن جَنَابَةٍ ، أى عن بعد . المتلبَّس موجه ، أى الذى التبس علينا ما أَوْجَبَهُ . مؤنَّبه : لائمه . العول : الزيادة . رُمْنَا : طلبنا . يَفِيضُ كما فِضْنَا : يتكلم كما تكلمنا والفيض زيادة الماء ، ويُفيض فيما أفضنا ، أى يأخذ معنا فى النوع الذى أخذنا فيه . أعرض : لوى وجهه . لِلْعَلِيَّةِ : الأشراف . الأرذَلين : الأدنياء . أساطير : تأليف وكتب . الحمية : عزة النفس . حاجته : حرَّكته . الأبية : العزيزة . نَاجَتْهُ : حَدَّثَتْهُ . دلف : مشى إلينا ، وازدلف : تقرب . خلع : أزال . الصلَف : مجاوزة قدر الظرف حتى يفضى به ذلك إلى أن تأخذ به بابًا ما فيخالفك ولا يعبأ بك . يتلاق : يتدارك . سلف : مضى . استرعى : دعاهم للاستماع يقال : أرعيت سمعك أى أسمع منى . الهامر : الكثير الانصباب .

* * *

عندى أعاجيبُ أروِيها بلاَ كذبِ

عن العِيانِ فكنُوني أباَ العَجَبِ
رأيتُ يا قومِ أقواماً غِذاؤُهُمْ بولُ العجوزِ وما أعني ابنةَ العَنَبِ
— بولُ العجوزِ : لبن البقرة ، والعجوز أيضاً من أسماء الخمر —

ومُسْنِتَيْنِ من الأعرابِ قسوتَهُمْ
أَنْ يَشْتَوُوا خِرْقَةً تُغْنِي من السَّعْبِ
— الخِرْقَةُ : القطعة من الجراد —

وقادِرِينَ متى ما ساءَ صنعُهُمْ
أو قَصَّروا فيه قالوا الذَّنْبُ لِلْحَطَبِ
— القادر : الطَّائِحُ في القَدَرِ ، والقَدِيرُ : المطبوع فيها .

وكاتبِينَ وما خَطَّتْ أُناملُهُمْ حرفاً ولا قرءوا ما خُطِّ في الكتبِ
— الكتّابون الخزازون ؛ يقال : كتب السقاء والمزادة ؛ إذا خَرَزَها
وكتب البغلة أو الناقة ، إذا جمع بين شفرِها وخاطِهما ، قال الشاعر :

لا تَأْمَنَنَّ فزاريّاً خَلَوْتَ به على قَلوصِكَ واكتبها بأسيار
وتابعين عقاباً في مسيرِهِمْ على تَكْمِيهِمْ في البَيْضِ وَالْيَلْبِ
— العُقَاب : الراية ، وكانت راية النبي صلى الله عليه وسلم تسمى العُقَاب .

* * *

العِيان ، أي المشاهدة بالعين . مسنَتَيْنِ : أصابتهن السَّنة ، أي اشتدَّ عليهن .
يَشْتَوُوا : يتخذوا شواء . السَّعْب : الجوع . تَكْمِيهِمْ : استترهم . البَيْض :
ما يجعل في الروس في الحرب .

ومتدِينَ ذَوِي نُبُلٍ بَدَتْ لَهُمْ نَبِيلَةٌ فَأَنْشَنُوا مِنْهَا إِلَى الْهَرَبِ
 — النَبِيلَةُ : الجَيْفَةُ ، وَمِنْهُ تَنْبَلُ الْأَمِيرُ ؛ إِذَا مَاتَ وَأَرْوَحَ ، يَعْنِي تَنَ .
 وَعُصْبَةٌ لَمْ تَرَ الْبَيْتَ الْعَتِيقَ وَقَدْ حَجَّتْ جُثْيًا بِلَاشِكٍ عَلَى الرُّكْبِ
 — مَعْنَى حَجَّتْ جُثْيًا ، أَيْ غَلَبَتْ بِالْحِجَّةِ مُجَادِلِينَ جَانِبِينَ عَلَى الرُّكْبِ ،
 وَجُثْيٍ : جَمْعُ جَاثٍ .

وَنَسُوءَةً بَعْدَمَا أَذْلَجْنَ مِنْ حَلَبٍ صَبَّخْنَ كَاظِمَةً مِنْ غَيْرِ مَا تَمَبٍ
 — كَاظِمَةٌ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ مِنْ كَظَمَ الْغَيْظَ —
 وَمُدْلِحِينَ سَرَوْا مِنْ أَرْضٍ كَاظِمَةٍ

فَأَصْبَحُوا حِينَ لَاحَ الصُّبْحِ فِي حَلَبٍ
 — فِي حَلَبٍ ، أَيْ أَصْبَحُوا يَحْلُبُونَ اللَّبَنَ —

وَيَافِعًا لَمْ يَلَامِسْ قَطُّ غَانِيَةً شَاهِدَتْهُ وَلَهُ نَسْلٌ مِنَ الْعَقَبِ
 — النَّسْلُ هَاهُنَا : الْعَدُوُّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾ .
 وَالْعَقَبُ : مُؤَخَّرُ الْقَدَمِ .

* * *

مُتَدِينٍ : مُجْتَمِعِينَ . انْشَنُوا : رَجَعُوا . وَالنَّبِيلَةُ : الْحَادِثَةُ فِي فَعْلِهَا . عُصْبَةٌ :
 جَمَاعَةٌ . أَذْلَجْنَ : سَرْنَ بِاللَّيْلِ ، وَمِثْلُهُ سَرَوْا . لَاحَ : ظَهَرَ . يَافِعًا : شَابًا .
 يَلَامِسُ : يَلْعَبُ ، وَيَمْسَسُ بِيَدِهِ . غَانِيَةٌ : امْرَأَةٌ جَمِيلَةٌ غَنِيَتْ بِحُسْنِهَا عَنِ الزَّيْنَةِ .
 صَبَّخْنَ كَاظِمَةً ، أَيْ سَقَيْنَ الصُّبُوحَ كَاظِمَةً غِيظَهَا . وَصَبَّحَهُ . سَقَاهُ صَبُوحًا ،
 وَكَظَمَ غِيظَهُ : تَجَرَّعَهُ ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى الْإِيقَاعِ بَعْدُوهُ وَلَمْ يَمِضْهُ ، وَكَظَمَ خَصْمَهُ :
 أَجَابَهُ بِالْمَسِكِ فَأَحْمَهُ ، وَأَصْلُ الْكَظْمِ لِلْبَعِيرِ ، وَهُوَ أَنْ يَرُدَّ جِرَّتَهُ فِي حَلْقِهِ
 وَلَا يَجْتَزِيهَا : وَكََاظِمَةٌ : مَوْضِعٌ عَلَى سَيْفِ الْبَحْرِ ، أَيْ عَلَى سَاحِلِهِ عَلَى مَرَحَلَتَيْنِ
 مِنَ الْبَصْرَةِ ، وَفِيهِ رَكَايَا كَثِيرَةٌ ، وَمَاؤُهَا شَرُوبٌ .

* * *

وشائبًا غَيْرُ مُخْفٍ لِلْمَشِيبِ بَدَا فِي الْبَدْوِ وَهُوَ فَنَى السَّنَّ لَمْ يَشِبِ
— الشائب هاهنا : مازج اللبن ، والمشيب : اللبن المزوج ، ويقال فيه
مَشِيبٌ وَمَشُوبٌ .

وَمُرْضَعًا بِلَبَانٍ لَمْ يَفْهَ قَهْ رَأَيْتُهُ فِي شَجَارِ بَيْنِ السَّبَبِ
— الشَّجَار : الحقة ما لم تكن مُظَلَّةً فَإِنْ ظَلَّتْ فَهُوَ الْهُودَج . والسَّبَب
هاهنا : الحبل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ﴾ —

وَزَارِعًا ذُرَّةً حَتَّى إِذَا حُصِدَتْ
صَارَتْ غَبِيرَاءَ يَهْوَاهَا أَخُو الطَّرَبِ
— الْغَبِيرَاء : الْمُسْكِرُ الْمَتَّخِذُ مِنَ الذَّرَّةِ وَيُسَمَّى أَيْضًا الشُّكْرَكَ .
وفي الحديث : « إِيَّاكُمْ وَالْغَبِيرَاءَ فَإِنَّهَا خَرَّ الْعَالَمُ » .

وَرَاكِبًا وَهُوَ مَغْلُولٌ عَلَى فَرَسٍ قَدْ غُلَّ أَيْضًا وَمَا يَنْفَكُ عَنْ خَبَبِ
— الْمَغْلُولُ هَاهُنَا الْمَطْشَانُ ، وَغُلَّ ، أَيْ عَطَشَ .

وَذَا يَدٍ طُلُقٍ يَقْتَادُ رَاحِلَةً
مُسْتَعِجَلًا وَهُوَ مَأْسُورٌ أَخُو كَرْبِ
— الْمَأْسُور : الَّذِي يَجِدُ الْأَمْرَ ، وَهُوَ احْتِبَاسُ الْبُولِ .

* * *

الْبَّان : ابْنُ الْآدَمِيَّاتِ . يَفْهَ : يَنْطِقُ . يَهْوَاهَا : يُحِبُّهَا . أَخُو الطَّرَبِ :
صَاحِبُهُ اللَّوْلُجُ بِهِ . يَنْفَكُ : يَزُولُ . خَبَبٌ : نَوْعٌ مِنَ السَّيْرِ . طُلُقٌ : سَارِحٌ .
كَرْبٌ : مَمٌ .

* * *

وجالسا ماشيا تهوى مطيته به وما في الذي أوردت من ريب

— الجالس : الآتي تجداً ، والماشي : الذي كثرت ماشيته ، وعليه فسر بعضهم قوله تعالى : ﴿ أَنْ امشُوا ﴾ ؛ كأنه دعاء عليهم بكثرة الماشية والنماء والبركة

وحائكا أجدم الكفين ذا خرسٍ فإن عجبتم فكم في الخلق من عجب

— الحائك ها هنا : الذي إذا مشى حرك منكبيه وفجّ بين ركبتيه .

وذا شطاطٍ كصدّر الرُمح قامته صادقته ينني يشكو من الحذب

— الحذب : ما ارتفع من الأرض —

وساعياً في مسرّات الأنام يرى إفراحهم كالظلم والكذب

— إفراحهم : إيقاظهم بالدين ، ومنه قوله عليه السلام : « لا يُترك في الإسلام مُفْرَح » أي مُنْقَلٍ من الدين أو يقضى عنه دينه —

ومُغرماً بمناجاة الرجال له وما له في حديث الخلق من أرب

— الخلق ها هنا : الكذب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴾ —

وذا زمامٍ وقتٍ بالعهدِ ذمّته ولا ذمامَ له في مذهب العرب

— الذمام الثاني : جمع ذمة ، وهي البئر القليلة الماء . وعنى بالمذهب المسلک ، أي ماله آبار قليلة الماء في البدو .

* * *

تهوى : تسقط وتسرع . ريب : شكوك . أجدم : مقطوع . خرس : بكم . شطاط : طول . مُغرماً : شديد الحب . مناجاة : محادثة . أرب : حاجة .

* * *

وَذَا قُوًى مَا اسْتَبَانَتْ قَطُّ لِيَمْتُهُ وَلِبْنُهُ مُسْتَبِينَ غَيْرُ مُحْتَجِبٍ

— اللّين : نخيل الدّفل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ ﴾ .

وَسَاجِدًا فَوْقَ فَلَاحٍ غَيْرَ مَكْتَرٍ بِمَا أَتَى بَلَّ يَرَاهُ أَفْضَلَ الْقُرْبِ

— الفعل : الحَصِيرُ المَتَّخَذُ مِنْ مُخَالِ النخْلِ .

وَعَاذِرًا مَنْ ظَلَّ يَفْذِرُهُ مَعَ التَّلَطُّفِ وَالْمَعذُورُ فِي صَحْبٍ

— العاذر : الخائن . والمعذور : المَخْتُونُ .

وَبَلَدَةٌ مَا بَهَا مَاءٌ لِمَفْتَرٍ وَالْمَاءُ يَجْرِي عَلَيْهَا جَرًى مُنْسَرِبٍ

— البلدة : القرُجة بين الحاجبين ، وتسمى أيضاً البلجة —

وَقَرْيَةٌ دُونَ أَفْوَصِ الْقَطَا شُحِنَتْ

بِدَيْلِمٍ عَيْشُهُمْ مِنْ خُلْسَةِ السَّلْبِ

— القرية : بيت النمل . والدَيْلِمُ النمل الكثير . وخُلْسَةُ السَّلْبِ :

لِحَاءُ الشَّجَرِ .

وَكَوْكَبًا يَتَوَارَى عِنْدَ رُؤْيَتِهِ الْإِنْسَانُ حَتَّى يُرَى فِي أَمْنَعِ الْحُجُبِ

— الكوكب : النّكّته البيضاء التي تحدث في العين . والإنسان هاهنا :

لإنسان العين .

* * *

مَكْتَرٍ : منكسر من الهم . القُرب : جمع قُرْبَةٍ ، وهي ما يتقرب به إلى

الله تعالى من أعمال البرّ . عاذر : قابل العذر . مؤلماً : موجعاً . التلطف :

الرفق واللين . الصّخب : الصياح ، وتفسير ظاهر البيت أن تقول : رأيتُ عاذراً

يوجع الذي يعتذر له مع تلطف العاذر للمعتذر وتكليمه القول له ، والمعتذر في

صياحٍ من شدة ضَرَرٍ لعاذره ، فتقابل هذه الأضداد ، فإذا فسرتَ بتفسير
الحريريّ صحَّ المعنى . ومُنسَرَب : داخل في السَّرَب وهو الحفير في الأرض .
قرية : مدينة ، وأخوص القطأ : مرقدُها وهي تَفَحَّصُهُ : برجلينها توسَّعه . شُحِنَتْ :
ملئت . والدَّيْلَم : أمة من العجم . حُلْسَة : سرقة . والسَّلَب : المال المسلوب .
يتوارى : يتغطى ، وقال الحسن بن هانئ في صفة الكواكب الذي هو النكتة
على إنسان العين :

أعورُ المقلّة من غيرِ عِوَجٍ لو عداه عَوْرُ العين انْسَمَجَ^(١)
تحسب النكتة في ناظرِه درّةً بيضاء في فصٍّ مَبَجَجٍ

* * *

ورَوْنَةٌ قُوْمَتٌ مالا لَهُ خَطَرٌ ونفسُ صاحبها بالمال لم تَطِيبِ
— الرَوْنَةُ : مقدّم الأنف —

وصحفةٌ مِنْ نُضَارٍ خالصِ شُرَيْتٍ بَعْدَ المِكَاسِ بَقِيرَاطٍ مِنَ الذَّهَبِ
— النُّضَارُ هاهنا : شجر النَّبْع ، ومنه قول بعض التابعين : لا بأس أن
يُشْرَبَ في قدح النضار ؛ عَنَى به هذا .

ومُسْتَجِيشًا بِخَشْخَاشٍ لِيَدْفَعَ مَا أَظْلَهُ مِنْ أَعَادِيهِ فلم يَخْبِ
— الخَشْخَاش : الجماعة عليهم دُرُوعٌ وأَسْلِحَةٌ —

وطالما مرّ بي كلبٌ وفي فيه ثَوْرٌ ، ولكنّه ثورٌ بلا ذَنَبٍ
— الثَّوْرُ : القطعة من الأَقِط ، وهو نوع من الجبن .

وكم رأى ناظري فيلاً على جلٍ وقد تورّك فوق الرّحلِ والقَتَبِ
— الفيل : الرّجل الفائل الرأى .

وكم لقيتُ بمرُض اليدِ مُشتكِياً وما اشتكى قَطُّ في جدٍّ ولا تعبٍ
— المشتكى : المتخذ شكوةً وهى القرينة الصغيرة .

* * *

قوله : خَطَر ، أى حظ كثير ، والخطير : الرفيع القدر ، نُصار : ذهب
أحمر . المِكَاس : الماكسة بين المتبايعين ، وهو أن يطلب صاحب السلعة من
المشتري سَوْماً ، فلا يزال المشتري يراجعه وينقص له ممّا طلب شيئاً حتى يتفقا
على ما يتراضيان عليه . والمستجيش : الجامع للجيش . والخشخاش : بنت معروف ،
وقال ابن وكيع يصفه :

وخشخاش كأننا منه نفرى قيصَ زَبَرٍ جدٍ عن جسمِ دُرٍّ^(١)
كأقداح من البلّور صيغتْ وأغشية من الدّيباج خُضرٍ
أظله قَرُب منه ، وكأنه أغشاه ظله . القَتَب : خشب الرّحل ، والرّحل
برذعة البعير . بمرُض اليد : بجانب القفار .

* * *

وكنت أبصرتُ كرازاً لرّاعيةٍ بالدّوّ ينظر من عينين كالشّهْبِ
— الكراز : كبش يَحْمِل عليه الرّاعى أَدَانَهُ .

وكم رأتُ مقلتي عَيْنين ماؤهما
يجرى من الغُربِ والعَيْنانِ فى حَلَبٍ
— الغُرب : مجرى الدمع . والعَيْنان : المقلتان .

(١) ديوانه ٦٢ . ونفرى : نقطع .

وصادعاً بالقنا مِنْ غَيْرِ أَنْ عَلِقَتْ كَفَّاهُ يَوْمًا بِرَمَحٍ لَا وَلَمْ يَثْبُ
— الْقَنَا : ارتفاع الأنف وتحذُّبِ وسطه ، وصَدَع به ، أى كشفه .

وَكَمْ نَزَلْتُ بِأَرْضٍ لَا تُخِيلَ بِهَا
وَبَعْدَ يَوْمٍ رَأَيْتُ الْبُسْرَ فِي الْقُلْبِ
— الْبُسْرُ : جمع بُسْرَةٍ ، وهو الماء الحديث العهد بالمطر . وَالْقُلْبُ :
جمع قَلْبٍ —

وَكَمْ رَأَيْتُ بِأَقْطَارِ الْفَلَا طَبَقًا يَطِيرُ فِي الْجَوِّ مُنْصَبًّا إِلَى صَبَبٍ
— الطَّبَقُ : القطعة من الجراد .

وَكَمْ مِنْ مَشَايِخَ فِي الدُّنْيَا رَأَيْتُهُمْ غُلَّادِينَ ، وَمَنْ يَنْجُو مِنَ الْعَطْبِ
— الْغُلَّادُ : الذى أَبْطَأَ شَيْبُهُ —

وَكَمْ بَدَأَ لِي وَحْشٌ يَشْتَكِي سَفَبًا بِمَنْطِقٍ ذَلِقَ أَمْضَى مِنَ الْقُضْبِ
— الْوَحْشُ : الرَّجُلُ الْجَانِعُ .

وَكَمْ دَعَانِي مُسْتَنْجٍ فَحَادَثَنِي وَمَا أَخَلَ وَلَا أَخْلَلْتُ بِالْأَدَبِ
— الْمُسْتَنْجَى : الجالس على نَجْوَةٍ ، وَهوَ الْمَكَانُ الْمُرْتَفِعُ .

* * *
كَرَّازٍ : إِنَاءٌ . وَالْدَّوْ : الصَّحْرَاءُ ، وَالْفَرْبُ : الدَّلْوُ الْعَظِيمَةُ . فِي حَلَبٍ :
فِي سَيْلَانٍ وَجَرِيٍّ . الْبُسْرُ : التَّمْرُ الَّذِي لَمْ يَطْبُ . الْقَلْبُ الْبَرُّ ، وَالْجَمْعُ الْقُلُوبُ .
أَقْطَارُ الْفَلَا : نَوَاحِي الْقِفَارِ . وَالصَّبَبُ : الْإِنْحِدَارُ . الْعَطْبُ : الْهَلَاكُ . السَّفَبُ :
الْجُوعُ . ذَلِقَ : حَادَّ . أَمْضَى : أَقْطَعَ . الْقُضْبُ : السِّیُوفُ . أَخَلَ : نَقَصَ .
الْمُسْتَنْجَى : الْجَالِسُ لِقَضَاءِ حَاجَةِ الْإِنْسَانِ .

* * *

وكم أَنَحْتُ قُلُوصِي تَحْتَ جُنْبَذَةٍ تُظِلُّ مَاشَتْكَ مِنْ عَجْمٍ وَمِنْ عُرْبٍ
— الجُنْبَذَةُ : القَبَّةُ . والعُرْبُ : جمع عَرُوبٍ ؛ وهى المتحبة إلى زوجها ،
من قوله تعالى : ﴿ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ .

وكم نظرتُ إِلَى مَنْ سُرَّ سَاعَتُهُ وَدَمَعُهُ مَسْتَهْلُ الْقَطْرِ كَالشُّحْبِ
— سُرَّ ، أى قطع سَرَرَهُ ، ويسمى ما يبقى بعد القطع السَّرَّةَ —

وكم رأيتُ قَيْصًا ضَرَّ صَاحِبَهُ حَتَّى انْتَنَى وَاهَى الْأَعْضَاءُ وَالْعَصَبِ
— القَيْصُ : الدَّابَّةُ الكثيرة القِصَاص ، وهو الوئوب والقفز .

وكم إزارٍ لَوَانٍ الدَّهْرُ أَتْلَفَهُ
لَجَفَّ لِبْدٌ حَثِيثِ السَّيْرِ مُضْطَرَبِ
— الإزار : المرأة ، ومنه قول الشاعر :

* فَدَى لَكَ مِنْ أَخِي ثَقَةَ إِزَارِي *

هَذَا وَكَمْ مِنْ أَفَانِينَ مُعْجِبَةٍ عِنْدِي وَمِنْ مَلَحٍ تُلْهِى وَمِنْ مُنْجَبِ
فَإِنْ فَطِنْتُمْ لِلْحَنِ الْقَوْلِ بَانَ لَكُمْ صَدَقِي وَذَلَّكُمْ طَلَعِي عَلَى رُطْبِي
وَإِنْ شُدِّهْتُمْ فَإِنَّ الْعَارَ فِيهِ عَلَى مَنْ لَا يُعَيِّزُ بَيْنَ الْعُودِ وَالْخَشَبِ

* * *

أُنَحْتُ : أْبْرَكَت . قُلُوصِي : نَاقَتِي الْفَتِيَّة . تَظِلُّ : تَسْتَرُ . سُرَّ : أَدْخَلَ
عَلَيْهِ السَّرُورَ ، وَقَدْ بَيَّنَّ هُوَ أَنَّهُ الْمَقْطُوعُ السَّرَّةَ ، وَقَالَ فِي الدَّرَةِ فِيمَا يَكْنَى فِي
الْمَاصِرِضِ . الْمَقُولُ : الَّذِي ضُرِبَتْ قَلْتُهُ ، أَيْ أَعْلَاهُ ، وَالْمَرْكُوبُ : الَّذِي
ضُرِبَتْ رَكْبَتُهُ ، وَالْمَذْكُورُ : الَّذِي قُطِعَ ذَكَرُهُ . وَالسَّرُورُ : الَّذِي قُطِعَتْ سَرَّتُهُ ،
قَالَ : وَمِنْ الْأَحَاجِي بِأَيَاتِ الْمَعَانِي :

تَسْرَهُمْ وَإِنْ هُمْ أَقْبَلُوا وَإِنْ أَدْبَرُوا فَهُمْ مِنْ سَبَبٍ
أَي نَظْفِهِمْ إِذَا أَقْبَلُوا فِي السَّيْرِ ، وَإِذَا أَدْبَرُوا فِي الشُّبَّةِ وَهُوَ الْإِسْتِ .
وَأُنْشِدْ أَيْضًا :

ذَكَرْتُ أَبَا عَمْرٍو فَمَاتَ مَكَانَهُ فَوَاعِجِبَا هَلْ يَهْلِكُ الْمَرْءُ مِنْ ذَكَرٍ
وَزُرْتُ عَلِيًّا بِمَدَّةٍ فَرَأَيْتُهُ ففارق دنياه ومات على صبرٍ
ذَكَرْتُهُ : قَطَعْتُ ذَكَرَهُ ، وَرَأَيْتُهُ : قَطَعْتُ رِثَتَهُ . مُسْتَهْلٌ : سَائِلٌ . الْقَطْرُ :
مَصْدَرُ قَطَرَ ، إِذَا سَقَطَ ، وَلَا يُقَالُ : اسْتَهَلَ حَتَّى يَكُونَ مَعَ انْصِبَابِهِ صَوْتٌ . وَاهِيٌ :
ضَعِيفٌ . الْقَصَبُ : حَبَالُ الْجَسَدِ . الْإِزَارُ ، هُوَ الْمُنْزَرُ الَّذِي يَجْعَلُ عَوَضًا مِنْ
السَّرَاوِيلِ . حَيْثُ : مُسْرِعٌ أَرَادَ بِهِ ذَكَرَ الْإِنْسَانِ فِي حَالِ نِكَاحِهِ الْمَرْأَةَ إِنَّهُ
مُضْطَرَبٌ سَرِيعُ السَّيْرِ وَالِدْفَعُ فَيَقُولُ : إِنْ الْمَرْأَةَ الَّتِي كَانَتْ تَبْلُ الذَّكَرَ عِنْدَ
الْجَمَاعِ لَوْ هَلَكْتَ لَبَقِيَ جَافًا وَأَرَادَ بِاللَّبْدِ مَوْضِعَ اللَّبْدِ وَهُوَ الظَّهْرُ ، الْفَنَجْدِيهِى
يَقُولُ : كَمْ مِنْ امْرَأَةٍ لَوْ مَاتَتْ لَتَرَكَ زَوْجُهَا كَثْرَةَ الْحَرَكَةِ فِي طَلَبِ الْمَعَاشِ مَرْضَاةً
لَهَا ، وَجُفُوفَ الْعَرَقِ قَدْ يَكُونُ مِنَ السَّكُونِ ، وَالتَّفْسِيرُ الْأَوَّلُ أَبِينُ ، وَهَذَا
الثَّانِي يَحْتَمِلُ إِمَّا وَصْفَهُ بِالسَّرْعَةِ وَالِاضْطِرَابِ ، وَهُوَ صِفَةُ فَرَسٍ جَعَلَ لَهُ لَبْدًا
فَالْفَرْزُ بِذَلِكَ ، وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ مَاتَتْ امْرَأَتُهُ :

وَكُنْتُ فَرَيْسَتِي وَغِلَافَ بُضْعِي فَأَمْسَى الْبُضْعُ لَيْسَ لَهُ غِلَافٌ
وَمِنَ الْفَرْزِ فِيهِ قَوْلُ الْآخَرِ :

وَصَاحِبٍ مُعْجَبٍ فِي طَوْلِ مُحَبَّتِهِ لَا يَنْفَعُ الدَّفْعُ إِلَّا وَهُوَ مَحْمُومٌ
تَأْتِيكَ فِي نَافِضِ الْحِمَى مَنَافِعُهُ وَإِنْ أَفَاقَ يُرَى فِي وَجْهِهِ اللَّوْمُ
وَقَالَ الْأَقْبِشَرُ : وَكَانَ عَيْنِي ، فَغَالَطَ فِي شَعْرِهِ بِالضَّدِّ :

وَلَقَدْ عَدَوْتُ بِمَشْرِفٍ يَا فَوْحُهُ عَسِرَ الْمَكْرَةَ مَاؤُهُ يَتَدَفَّقُ

أَرْنَ يسيل من النشاط لعابه ويكاد جـلد إهابه يتمزق
 حتى علوت به مشق تذيئة طوراً يفور بها وطوراً يفرق
 قوله : أفانين ، أى ضروب وأنواع ، والأفانين : الأساليب وهى أجناس
 الكلام وطرقه ، الأزهرى : أفانين : جمع أفنان : جمع فَنَن ، وهو الفصن
 والخطلة من الشعر ، وقيل : الأفنُونُ الفن ، وهو ضربٌ من الشجر ، والحبال ،
 والجمع أفانين . مُلَح : ما يتكلم به من حلو الكلام والغازله . تُلمهى : تشغل
 تُحب : مختارة . لحن القول : معناه ومذهبه ، واللحن التورية ، وهى أن تظهر
 خلاف ما نضمر . الطَّلَع : أول ما يخرج من الثمر . والرُّطَب : الطيب منه .
 شُدِّهْتُمْ : تحيرتم .

* * *

قال الحارث بن همام : فطفقنا نَحْبِطُ فى تَقْلِبِ قَرِيضِهِ ، وتَأْوِيلِ
 مَعَارِيضِهِ وهو يلهو بنا لهو الخلى بالشجى ، ويقول : لَيْسَ بُمَشْكٍ
 فاذْجِى ، إلى أن تَعَسَّرَ النَّتَاجُ ، واستحكم الارتجاج ؛ فآلقينا إليه المَقَادَةَ ،
 وخطبنا منه الإِفَادَةَ ؛ فوَقَفْنَا بين المَطْمَعِ واليَأْسِ ، وقال : الإِيْناسُ قَبْلَ
 الإِنْسَاسِ ؛ فَعِلْمُنَا أَنَّهُ مِمَّنْ يَرْغَبُ فى الشُّكْمِ ، وَيَرْتَشِي فى الحُكْمِ ،
 وساء أبا مثنوانا أن نُعَرِّضَ للُغْرَمِ ، أو نَحْيَبَ بالرُّغْمِ ؛ فأحضر صاحبُ
 المنزل ناقةً عَيْدِيَّةً ، وَحُلَّةً سَعِيدِيَّةً ، وقال لَهُ : خُذْهَا حَلالاً ولا ترزأُ
 أَضْيافى زبالاً ، فقال : أَشْهَدُ أَنَّهَا سَيْنَسِنَةٌ أَخْزَمِيَّةٌ ، وَأَزِيحِيَّةٌ حَاتِمِيَّةٌ .

* * *

طَفِقْنَا : أخذنا نَحْبِطُ : نتكلم بالزائد والناقص . تأويل : تفسير .
 معاريضه : ما عُرِّضَ به ولم يَتَمَّه . الخلى : الذى لا قَمَ له ، والشجى : الحزن
 وياء الخلى مشددة وياء الشجى مخففة ، وقد شُدِّدَتْ ياء الشجى فى الشعر إتباعاً

لياء اتَّخَلَّى، وقالوا: إني لآتية بالغدايا والعشايا، فحملوا الغدايا على المشايا، وحكى ثعلب في غير الفصيح عن الأصمعيّ تفقيل الياء فيهما، وَمَنْ جَعَلَ شَجِيّ فَعِلْ كحذر خَفَّفَ، ومن جعله فعيل مثل غنى شَدَّدَ، وفعل بغير ياء أقيس، والتشديد في المثل أحسنُ للازدواج. تَعَسَّرَ: صُعُبَ. النَّتَاجُ: ما ينتج لهم من المعاني. استحکم: توثق. الارتجاج: الانفلاق، وأزَّجَ على القارئ وارتجج، إذا لم يقدر على القراءة كأنه أُطْبِقَ عليه. ويرثى: يأخذ الرُّشوة. وعن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لعن الله الراشئ والمرثى والرائش»، فقيل: وما الرأش؟ قال: الذي يمشى بينهما.

ألقينا إليه المقادة: أى اتقدنا له، ورزأتُ الرَّجُلَ أرزؤه؛ إذا أصبت منه خيراً، ورزأته ماله: نقصته والزَّبال بالكسر: ماتحملة النملة بفيها. والأورحية: الاهتزاز للجود. ساء: حزن. والرتغم: الذلة والهوان. شِنْشِنَة: طبيعة حامية منسوبة إلى حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج أحد بني ثعل بن عمرو بن الغوث بن طيء.

[ذكر حاتم الطائي]

يكنى أبا سقانة وأبا عدى. فارس شاعر جاهليّ، أحد الأجداد الذين يُضَرَّبُ بهم المثل، بل هو أشهر منهم، وهم: كعب بن مامة، وهريم بن سنان، وحاتم، وكان إذا قاتل غلب، وإذا غنم نهب، وإذا سئل وهب، وإذا قامر سبق، وإذا أسر أطلق، وإذا أثرى أنفق. ويقال: إنه لا يعرف ميت قرى أضيافه إلا هو، وذلك أن ركبا من العرب نزلوا بموضع قبره، وقد نفذ زادهم، وفيهم رجل يكنى أبا خيرى، فجعل يقول: أبا سقانة، أما تقرى أضيافك أبا سقانة، إن أضيافك جياع، يعيدها، فلما نام ثار من نومه، وهو يقول: وارا حلتاه! عُفِّرَتْ والله ناقتى، فقال له أصحابه: وكيف؟ قال: رأيت أبا سقانة قد انشق عنه قبره، فاستوى قائماً ينشدنى:

أبا خيرى لأنّ امرؤ ظلوم العشرة لَوَامُهَا
وماذا تريد إلى رمة بدوية صخب هامها
تبغى أذاها وإسعارها ودونك طي وأنعامها

ثم عمد إلى سيفي ، فانتضاه من غمده ، وعقر ناقتي ، وقال : دونكم
فما أيقظني إلا رغاؤها ؛ وإذا بالناقة ترغو ما تنبعث ، فقالوا : قد والله قرأك
حاتم فحروها ، وأكلوا وتزودوا واقتسموا متاع أبي خيرى ، واستسروا
لوجهتهم ، فلما صاروا في الظهيرة وضح لهم راكب يجنب بعيداً يوم سمتهم ،
حتى التقوا فقال لهم : أفيكم أبو خيرى ؟ قالوا : نعم ، فقال : فإن عدى
ابن حاتم رأى أباه البارحة ، وهو يقول : إنّ أبا خيرى وأصحابه استقروني ،
فقريتهم ناقته ، فعوضه منها ، وزده بكرأ يحمل عليه متاعه ؛ وهذه الناقة
وهذا البكر ، فارتحل أبو خيرى الناقة ، وتخفّ هو وأصحابه من أزوادهم ،
على البكر ، ومضوا بأنهم قرى .

وأدرك عدى ابنه النبي صلى الله عليه وسلم وروى عنه ، وكان يحدث
أصحابه بهذا الحديث بعد إسلامه وقال الشاعر في عدى :

أبوك أبو سفانة الخير لم يزل لدن شبّ حتى مات في الخير راغباً
قرى قبره الأضياف إذ نزلوا به ولم يقر قبر قبّله الدهر راكباً

وكانت سفانة بنته من أجود نساء العرب ، وكان أبوها يعطيها الصرمة
من إبله فتمبها وتمطيها الناس . فقال لها أبوها : يا بنية إن الغويين إذا اجتمعا
في المال أتلغاه ، فإذا أن أعطى وتمسكي ، وإما أن أمسك وتمطي أنت ؛ فإنه
لا يبقى على هذا شيء ، فقالت : والله لا أمسك أبداً ، قال : وأنا لا أمسك أبداً
قالت : فلا تتجاوز ، فقاسمها ماله وتباينا .

وحكى أن أمه كانت من أسخى الناس ، وأقراهم للضيف ؛ وكانت

لا تحبس شيئاً تملكه ، وهى عُتْبَةُ بنت عُقَيْف بن عمرو بن عبد القيس ، فلما رأى إخوتُها إتلافَها ، حجرُوا عليها ومنعوها مالها ؛ حتى إذا ظنوا أنها قد وَجَدَتْ أَلَمَ ذلك أعطوها صِرْمَةً من إبلها ، فجاءتها امرأة من هوازن تسألها ، فقالت : دونك الصِّرْمَةُ ، نخذيها ، فوالله لقد عَضَّني من الجوع ما لا أُمْنَعُ بعده سائلاً أبداً ، ثم أنشأت تقول :

لَعَمْرِي لَقَدْ مَا عَضَّني الجوع عَضَّةً فَاكَلْتُ أَلَا أُمْنَعُ الدَّهْرَ جَانِئاً^(١)
 فقولاً لهذا اللائم : اليوم أعفني فإن أنت لم تفعل فعضّ الأصابعاً
 فإذا عسيتم أن تقولوا لأختكمُ

سوى عذلكم أو عذلي مَنْ كان مانعاً
 وهل ما ترون اليوم إلا طبيعة وكيف بتركي يا بن أمّ الطَّبائِعا
 قد اكتنفته الجودُ من أمه وأبيه .

وقالت امرأتُه النوار : أصابتنا سنة اقشعرت لها الأرض واغبرّ أفق السماء ، وضنّت المراضع عن أولادها فما تبضّ بقطرة ، فأيقنا بالهلاك ، فوالله إني لفي ليلة صَبِيْرَةٍ^(٢) بعيدة الطرفين ، إذ تضاعى صبيئنا جوعاً : عبد الله وعدى وسفانة ، فقام إلى الصبيّين وقت إلى الصبيّة ، فوالله ما سكثوا إلّا بعد هدأة من الليل ، وأقبل يعلّني بالحديث ، فعرفت ما يريد ، فتناومت ، فلما تفوّرت النجوم إذا شيء قد رَفَعَ كَسَرَ البيت ، فقال : مَنْ هذا ؟ فقالت : جاريتك فلانة أتيتك من عند صَبِيْة يتعاونون من الجوع غواء الذئاب ، فما وجدتُ معولاً إلّا عليك أبا عدى ، فقال : أعجلهم فقد أشبعك الله وإيتاهم ، فأقبلت تحمل اثنين ، ويمشى إلى جانبها أربعة ، كأنها نعامة حولها رِثالُها ، فقام إلى فرسه فوجأ لبتّها بمديّة ،

(١) الخبر والشعر في طبقت الشعراء ٢٤٢

(٢) صبيرة : شديدة البرد .

تَفَرَّتْ ، ثُمَّ كَشَطَ الْجِلْدَ ، وَدَفَعَ الْمُدِيَّةَ إِلَى الْمَرْأَةِ وَقَالَ شَأْنُكَ ، فَاجْتَمَعْنَا عَلَى
اللَّحْمِ نَشْوِي وَنَأْكُلُ ، ثُمَّ جَمَلَ بِأَتْنِهِمْ بَيْتًا بَيْتًا ، وَيَقُولُ : هُبُّوا أَهْيَا الْقَوْمَ ،
عَلَيْكُمْ بِالنَّارِ ، فَاجْتَمَعُوا وَالتَّفَّ فِي ثَوْبِهِ نَاحِيَةً يَنْظُرُ إِلَيْنَا ، وَاللَّهِ إِنْ ذَاقَ مِنْهَا
مُزْزَعَةً ، وَإِنَّهُ لَأَحْوَجُ إِلَيْهَا مِنَّا ، فَأَصْبَحْنَا وَمَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْهَا إِلَّا عَظْمٌ
وَحَافِرٌ ، فَأَنشَأَ يَقُولُ :

مَهْلًا نَوَارُ أَقْلَى اللُّوْمِ وَالْمَذَلَا وَلَا تَقُولِي لَشَيْءٍ فَاتَ مَا قَعَلَا^(١)
وَلَا تَقُولِي لَشَيْءٍ كُنْتُ مَهْلَكُهُ

مَهْلًا وَإِنْ كُنْتُ مَعْطَى الْعَنْسِ وَالْجَلَا
يَرَى الْبَغِيلُ سَبِيلَ الْمَالِ وَاحِدَةً إِنْ الْجَوَادِ يَرَى فِي مَالِهِ سُبُلًا
وَلَمْ يَكُنْ يَمْسُكُ شَيْئًا مَا عَدَا فَرْسَهُ وَسِلَاحَهُ ، فَإِنَّهُ كَانَ لَا يَجُودُ بِهِ .

وَذَكَرَ الْحَرِيرِيُّ أَنَّ عُقَيْلًا تَمَثَّلَ بِتَوَلِّدِ حَاتِمٍ :

* شِنْشِنَةُ أَعْرِفُهَا مِنْ أَخْزَمِ *

وَكَانَ عُقَيْلٌ^(٢) بِنَ عُلُقَةَ الْمَرْيِّ غَيُورًا نَخُورًا وَكَانَتْ الْخُلُقَاءُ تُصَاهِرُهُ ،
فَحَطَبَ إِلَيْهِ عَبْدُ الْمَلِكِ ابْنَتَهُ لِبَعْضِ وَلَدِهِ ، فَقَالَ : أُمَّا إِنْ كَانَ وَلَا بَدَ ، فَجَنَّبَنِي
هُجْنَاءَ وَلَدِكَ ، وَخَرَجَ يَمْتَارُ وَمَعَهُ ابْنُهُ وَابْنَتُهُ الْجَرْبَاءُ فَنَزَلُوا بِالشَّامِ بِدَيْرِ سَعْدٍ ،
فَلَمَّا ارْتَحَلُوا قَالَ عُقَيْلُ :

قَضَتْ وَطَرًا مِنْ دَيْرِ سَعْدٍ وَرَبَّمَا عَلَى عُرْضٍ نَاطَحَتَهُ بِالْجَمَاجِمِ^(٣)
ثُمَّ قَالَ لِابْنِهِ أَجْزِيَا عَمَلَسَ ، فَقَالَ^(٤) :

(١) ديوانه ٧٤

(٢) الأغصى ١٢ : ٢٥٦

(٣) دير سعد : موضع بين بلاد فطنان والسلام ، ويعد في الأغصى :

إِذَا هَبَطْتَ أَرْضًا يَمُوتُ غَرَابُهَا بِهَا عَطَشًا أُعْطِينَهُمْ بِالْخَزَامِ

(٤) في الأغصى : « اتفد يا ملقة » .

فأصبحت بالمواة يحملن فتيةً نساوى من الإدلاج ميل العامم^(١)
ثم قال لابنته الجرباء : أجزى ، فقالت^(٢) :
كان الكرى أستاذهم صرخديةً عفاراً تمشت في المطا والقوائم^(٣)
فقال لها : وما يدريك ما نعتُ الخمر ؟ ثم سلّ السيف ، فاستغاثت بأخيها
فاختبل فحذيه بسهم ، فبرك ومضوا وتركوه حتى بلغوا المياه الدانية إليهم ، فقالوا
لأهل المياه : إنا أسقطنا جزوراً ، فأدركوها فوجدوا عُقيلاً باركاً ، وهو يقول :
* إن بنى ضرجوني بالدم *^(٤) الأبيات

* * *

ثم قابلنا بوجهٍ بشره يشف ، ونضرته ترف ، وقال : يا قوم ؛ إن
الليل قد اجلود ، والتعاس قد استخوذ ، فافزعوا إلى المراقد ، واغتنيوا
راحة الرائد ، لتشرّبوا نشاطاً ، وتبعثوا نشاطاً ، فتمعوا ما أفسر ،
وبتسمّل لكم المتعسر ، فاستصوب كلُّ ما رآه ، وتوسّد وسادة كراه .
فلما وسنت الأجنان ، وأغقت الضيفان ، وثب إلى الناقة فرحها
ثم ارتحلها ، وقال مخاطباً لها :

(١) بعده في الاغانى :

إذا علم غادرته بنوفاً تذاغن بالأيدي لآخر جاسم

(٢) في الاغانى : « ثم قال أنفذ بى يا جرباء ، فعملت : « وانا آمنة ؟ قال : نعم ،
فعملت »

(٣) الصرخدية نسبة الى صرخد : بلد قريب من دمشق . والعفار : الخير . والمطا :
الظهر .

(٤) رواية الاغانى للابيات :

إن بنى سرجوني بالدم من يلق أبطال الرجال يكلم
ومن يك ذا أود يقوم شنشنة أعرفها من أخزم

وأخزم نحل كان لرجل من العرب وكان منجبا مضرب في ابل رجل آخر — ولم يعلم
صاحبه — فرأى بعد ذلك من نسله جبلا فقال : شنشنة أعرفها من أخزم .
وانظر الاغانى واللسان — خزم .

سَرُوجُ يَانَاقُ سِيرِي وَخِدِي وَأَذْلَجِي وَأَوْبِي وَأَسْـئِدِي
 حَتَّى تَطَا خُفَّاكَ مَرَعَاها النَّدِي فَتَنْعَمِي حَيْثُ نَدِي وَتَسْعَدِي
 وَتَأْمِنِي أَنْ تُتْهِمِي وَتُنْجِدِي إِلَيْهِ فَدَتْكَ النُّوقُ جِدِّي وَاجْهَدِي
 وَافْرِى أَدِيمٍ فَدَفَدٍ فَفَدَفَدٍ وَاقْتَنَعِي بِالنَّشِيجِ عِنْدَ الْمَوْرِدِ
 وَلَا تَحْطِي دُونَ ذَاكَ الْمَقْصِدِ فَقَدْ حَلَفْتُ حَلْفَةَ الْمُجْتَمَعِ
 بِجُرْمَةِ الْبَيْتِ الرَّفِيعِ الْعُمْدِ إِنَّكَ إِنْ أَحْلَلْتَنِي فِي بَلَدِي
 * حَلَلْتِ مَنِّي بِمَحَلِّ الْوَلَدِ *

* * *

قوله : بشره ، أى طلاقته . يشف : يتلأأ ويرق حتى يكاد يصف ما وراءه .
 من الشرور . نُضْرَتُهُ : نعمته وروقه . تَرَفٌ : تندی . استحوذ : غلب
 واستولى . افزعوا : الجثوا . لتشربوا نشاطاً ، أى يتمشى النشاط فى أجسادكم
 حتى تُروا به . تُبْعَثُوا : تنتهبوا . نشاطاً : جمع نشيط ككريم وكرام ، ونشط
 ينشط فهو نشيط ، إذا كان طيب النفس للعمل . تعوا : تحفظوا . المتعسر :
 الصعب . كراه : نومه . سَلَّتْ : خالطها الوُسن ، وهو النوم . أغفت : نامت .
 قوله : خِدِي ، أى أسرعى . تُتْهِمِي وَتُنْجِدِي : تقصدى تهماً وتنجداً .
 إليه ، معناه زیدی فى سيرك . اجهدى : اتعبى . افرى : اقطعى . أديم : جلد .
 فدَد : أرض صُلْبَة ، وقيل مستوية ، وقيل فلاة ، وأراد بالأديم وجه الأرض .
 ونَشَحَ بنَشَحٍ نَشَحًا : شرب قليلاً قليلاً . تَحْطِي : تنزلى . العُمد ، والعمود :
 ما يقوم عليه الخباء .

وقوله يخاطب ناقته :

إِنَّكَ إِنْ أَحْلَلْتَنِي فِي بَلَدِي حَلَلْتِ مَنِّي بِمَحَلِّ الْوَلَدِ

(م ١٢ - شرح مقامات الحريري - ج ١ ،)

قد جاء في كلامهم نظيره وضده ، وكلاهما في بابه حسن . قال الشماخ في
ضده من مجازاة الناقاة على إحسانها بالسوء :

إِذَا بَلَّغْتَنِي وَحَمَلْتَ رَحْلِي عَرَابَةً فَأَشْرَقَ بَدَمِ الْوَتِينِ^(١)
وناقضه الآخر فقال :

أَقُولُ لِنَاقَتِي إِذَا بَلَّغْتَنِي لَقَدْ أَصْبَحَتْ مِنِّي بِالْيَمِينِ
فَلَمْ أَجْعَلْكَ لِلْقُرْبَانِ طَعْمًا وَلَا قَلْتُ أَشْرَقَ بَدَمِ الْوَتِينِ
وتبعه ذو الرثمة فقال :

أَقُولُ لَهَا إِذَا شَمَّرَ اللَّيْلُ وَاسْتَوَتْ بِهَا الْبَيْدُ وَاسْتَنْتَ عَلَيْهَا الْحَزَاوِرُ^(٢)
إِذَا ابْنُ أَبِي مُوسَى بَلَالًا بَلَّغْتَهُ فَقَامَ بَقَاسٍ بَيْنَ رَجْلَيْكَ جَاوِرُ

وتوجيه الحسن في هذا المذهب على شناعة ظاهره أنه لا يبالي بفقدها ، لأن
المدوح يحمله ، ويعطيه فهو في غنى عنها . ومن يعيب هذا يقول مجازاة الحسن
بالسوء قبيح ، وقد قال رسول الله عليه وسلم للمرأة التي قالت وقد نجت على
ناقته : نذرتُ إن نجاني الله عليها أن أنحرها : « بئس ما جازيتها ، ولا نذر لك
في مال غيرك » والمذهب الأحمد في ذلك قولُ عبد الله بن رواحة رضى الله عنه
حين خرج في جيش مؤتة يخاطب ناقته :

إِذَا بَلَّغْتَنِي وَحَمَلْتَ رَحْلِي مَسِيرَةَ أَرْبَعٍ بَعْدَ الْحِسَاءِ^(٣)
فَشَأْنُكَ فَا نَعْمِي وَخَلَاكِ ذِمِّي وَلَا أَرْجِعُ إِلَى أَهْلِي وَرَأْيِي
ولهذا تبعه الحريري في شعره .

وقال الحسن :

(١) ديوانه ٣١٩٥

(٢) ديوانه ٢٥٣

(٣) الحساء : موضع وانظر معجم البلدان ٢ : ٢٧٤

وَإِذَا الْمَطَىٰ بَنَىٰ بَلْعَنَ مُحَمَّدًا فَظَهَرَهُنَّ عَلَى الرَّجَالِ حَرَامٌ ^(١)
 قَرَّبْنَا مِنْ خَيْرٍ مِنْ وَطِيءِ الثَّرَىٰ فَلَهَا عَلَيْنَا حُرْمَةٌ وَذِمَامٌ
 وَقَالَ دَاوُدُ بْنُ أَسْلَمٍ يَمْدَحُ قُتَيْبَ بْنَ الْعَبَّاسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا :

مَجُوتٍ مِنْ حَلٍّ وَمِنْ رِخْلَةٍ يَا نَاقَ إِنْ بَلَّغْتَنِي مِنْ قُتَيْبٍ ^(٢)
 إِنْكَ إِنْ بَلَّغْتَنِيهِ غَدًا عَاشَ لَنَا الْخَيْرُ وَمَاتَ الْعَدَمُ

* * *

قَالَ : فَعَلِمْتُ أَنَّهُ التَّمْرُوجِيُّ الَّذِي إِذَا بَاعَ أَنْبَاعٌ ، وَإِذَا مَلَأَ
 الصَّاعَ انْصَاعَ .

وَلَمَّا انْبَلَجَ صَبَاحُ الْيَوْمِ ، وَهَبَّ النِّوَامُ مِنَ التَّوَمِ ، أَغْلَشْتُهُمْ أَنْ
 الشَّيْخَ حِينَ أَغْشَاهُمْ الشُّبَاتِ ، طَلَّقَهُمُ الْبَتَاتِ ، وَرَكِبَ النَّاقَةَ وَقَاتِ ؛
 فَأَخَذَهُمْ مَا قَدَّمَ وَمَا حَدَّثَ ، وَنَسُوا مَا طَابَ مِنْهُ بِمَا خَبِثَ ؛ ثُمَّ انْشَعَبْنَا
 فِي كُلِّ مَشْعَبٍ ، وَذَهَبْنَا تَحْتَ كُلِّ كَوْكَبٍ .

* * *

قَوْلُهُ : أَنْبَاعٌ ، أَيْ جَرَى وَمَدَّ بَاعُهُ ، وَمَعْنَاهُ هَرَبَ مِنْهُ فِي سِيرِهِ .
 يُقَالُ : صُغْتُ الشَّيْءَ فَأَنْصَاعَ ، أَيْ فَرَّقْتَهُ فَتَفَرَّقَ ، وَمَعْنَاهُ إِذَا مَلَأَ كَيْسَهُ مِنْ
 عَطَاءٍ قَوْمَ رَاحَ عَنْهُمْ . انْبَلَجَ : أَضَاءَ . هَبَّ : انْتَبَهَ . أَغْشَاهُمْ : غَطَّاهُمْ . الشُّبَاتِ :
 النَّوْمُ الْخَفِيُّ كَالْفَشِيَةِ . ثَعْلَبَ : الشُّبَاتُ ابْتِدَاءُ النَّوْمِ فِي الرَّأْسِ حَتَّى يَبْلُغَ الْقَلْبَ ،
 وَسَبَّتِ الرَّجُلَ فَهُوَ مُسَبُوتٌ : نَعَسَ . وَالْبَتَاتِ : الْقَطْعُ الْبَائِثُ . قَاتِ ، أَيْ فَرَّ
 فَلَا يُلْحَقُ .

(١) ديوانه ٦٤

(٢) الكامل للببرد ٢ : ٢٢٩ ونسبها إلى سليمان بن قتة عن الأختش .

وذكر الحريري في درّة الغواص : أن قولهم : حَدَّثَ أمر بضم الدال قياساً على أخذهم ما قَدُمَ وما حَدَّثَ خطأ ، وإنما ضُمَّت الدال من حَدَّثَ حين قرن بقَدُمَ للمحافظة على الموازنة ، فإذا أفردت لفظة حَدَّثَ زال موجب الضم ، ووجب الرد إلى الأصل . قال : وأنشدني بعض أدباء خراسان لأبي الفتح البستي :

جزعت من أمرٍ فظيعٍ قد حَدَّثَ أبو تميم وهو شيخ لا حَدَّثَ
 * قد حبس الأصلع في بيت الحدَثِ *

* * *

لم نتعرض في شرح هذه المقامة ، لما ثبت في كتاب المقامات من شرح مُنْشِئِهَا ، بل نُعَقِبَ ما أهمله ، وكان الأولى إثبات ما شرح بنصه ؛ إذ هو وَفَّقَ لِفَرْضِهِ .

قال الشيخ الرئيس أبو محمد القاسم بن عليّ رحمه الله تعالى :
قد فسرتُ سرَّ كلِّ لغزٍ تحته ، ولم أبعد على مَنْ يقرؤه كشفه ، وقد بقيت
أليفاًظ اشتملت عليها هذه المقامة ربّما التبس تفسيرُها على بعض مَنْ تقع إليه ،
فأحببتُ إيضاحها له ليُكفَى حَيَوةَ الشبهة وكلفةَ الفكرة ، ووُضمةَ البحث والمساءلة ،
وبالله تعالى الاستعانة والقوّة .

قوله : « عشوتُ إلى نار » يعنى تنوّرتها فقصّدتُها فإن لم تقصدها قلت :
عَشَوْتُ عنها ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ ﴾ أى يُعْرِض .
وقوله : « وأنا أضرد من عينِ الحرباء والعنزِ الحرباء » هذان مثَلان
يُضْرَبان لمن يبلغ منه البرد ، وذلك لأنَّ الحرباء تدور أبداً مع الشمس وتستقبلها
بعينها ، ولذلك شبه ابنُ الرومي الرقيب بالحرباء في قوله ^(١) :

ما بالها قد حُسِّنَتْ ورقبها أبداً قبيحٌ ، قبيحَ الرقباءِ
ما ذاك إلا أنها شمس الضُّحى أبداً يكون رقيبها الحرباءِ

والعنز الجرباء لا تدفأ في الشتاء لقلة شعرها . وذكر بعضهم أن العنز الجرباء
تصحيف المثل الأول .

وقوله : « من نحر وارٍ » يعنى الجمل المكتنز شحمًا ، الكثيرُ نحًا .

وقوله : « عِشاره تخورُ وأعشاره تفور » العِشار : النُّوق الحوامل .
والأعشار : البُرمة العظيمة ، كأنها شُعِبت لِعَظَمِها ، يقال : بُرْمَةٌ أعشار
وجَفَنَةٌ أكسار وثوبٌ أسمال وبُرْدٌ أخلاق وحبل أزمام ، ووصف الجماعة
منها كوصف الواحد .

وقوله : « فأكهة الشتاء » كفى بها عن النار ، ومنه قول بعض الحداثين :

النار فأكهة الشتاء فمن يُرَدُّ أكل الفواكه شاتياً فليضطلَّ
 إنَّ الفواكه في الشتاء شَهِيَّةٌ والنار للقرور أَفْضَلُ مَا كُلِ
 وقوله : « موائد كالهالات » يعنى دارات القمر ، ودائرة الشمس تسمى
 الطفاوة

وقوله : « مَشَوْش القَمَر » يعنى المنديل ، يقال : مشَّ يده بالمنديل ، أى
 مَسَحَهَا ، ومنه قول امرئ القيس :
 نَشُّ بأعراف الجياد أَكْفَنَّا إِذَا نَحْنُ قُمْنَا عَنْ شِوَاءِ مُضَهَّبٍ^(١)
 وقوله : « مشتهباً فوداه ، أى صاراً من الشَّيب في لون الأشهب ، ومنه
 قول امرئ القيس :

قالتِ الخنساء إِنَّا جِئْنَا شَابَ بَعْدَى رَأْسِ هَذَا وَاشْتَهَبَ^(٢)
 وقوله : « رَبَضَ حَجْرَةٌ » يعنى ناحية ، ويقال في المثل لمن يشارك في
 الرِّخَاءِ ويحارب عند البلاء : يَرْزَعُ وَسَطًا وَيَرْبُضَ حَجْرَةً .

وقوله : « فاستَرْعَى سَمْعَ السَّامِرِ » يعنى السَّامِر ؛ لأنَّ السامر اسم للجمع
 كالحاضر اسم للحى النازلين على الماء ، وكالبقر : اسم لجماعة البقر .
 وقال بعض أهل اللغة : هو اسم للبقر مع رُعَاتِهَا ، واشتقاق السَّامِر من السَّمر ،
 وهو ظل القمر مأخوذ من السمرة ، فلَمَّا كَانَ غَالِبَ أحوال السَّامِر أَنَّهُمْ
 يتحدَّثون في ظل القمر اشتَقَّ لَهُمْ اسم منه ، وإلى هذا يَرْجِع قولهم : « لا أكلمه
 القَمَر والسَّمر »

وقوله : « ليس بُسْكَ فاذرُجى » هذا مثل يضرب لمن يتعاطى ما لا ينبغى
 له . والعشُّ : ما يكون في شجرة ، فإذا كان في حائط أو كهف جبل فهو وكُر .
 وقوله : « الإيناس قبل الإيباس » هذا مثل أيضاً ، ومعناه أنه ينبغى
 أن يؤنس الإنسان ثم يكلف ، وأصله أنَّ حالب الناقة يُؤنسها حين يَرُوم حَلابها ،

ثم يبسّ بها للحلب ، والإبسّاس أن تقول لها : بس بس ، لتسكن وتلدّ ،
وتسمّى الناقة التي تدرّ على الإبسّاس : البسّوس .

وقوله : « يرغب في الشّكم » الشّكم ما أعطيته على سبيل المجازاة ، فإن
أعطيته مبتدئاً فهو الشّكد .

وقوله : « ساء أبا مثنوانا » يعنى المضيف الذى أوّوا إليه وثوّوا عنده .

وقوله : « ناقة عيدية » قيل إنها منسوبة إلى فحل منجب امّته عيد ،
وقيل : هى منسوبة إلى فخذ من مَهرة اسمه عيد بن مهرة ، وكانت مَهرة وعيد
تتخذان نجائب الإبل ، فنسبت إليهما .

وقوله : « حلّة سميدية » هى منسوبة إلى سعيد بن العاص ، وكان
رسول الله صلى الله عليه وسلم كسّاه وهو غلام حلّة فنُسبَ جنسها إليه .

وقوله : « لا ترزأ أضيافى زبالاً » أى لا ترزؤهم شيئاً وإن قل ، والأصل
فى الزّبال ما تحمله النملة بفيها .

وقوله : « شنشنة أخزمية » أشار به إلى المثل الذى ضرب به جدّ حاتم بن
عبد الله بن سعد بن الحشرج بن أخزم الطائى ، حين نشأ حاتم وتقبّل أخلاق
جدّه أخزم فى الجود ، فقال : « شنشنة أعرِفها من أخزم » وتمثّل عُقيل بن
علقة به حين قال :

إِنْ بَنِي ضَرَجُونِي بِالْدمِ مَنْ يَلْقَ آسَادَ الرِّجَالِ يُكَلِّمُ
* شِنْشِنَةً أَعْرِفُهَا مِنْ أَخْزَمِ *

ومن ادّعى أن المثل له فقدسها فيه .

وقوله : « اجلوذ » أى أسرع فى الذّهاب ومثله اخرّوط .

وقوله : « وثب إلى النّاقة فرحلها » يعنى شدّ عليها الرّحل ، وبه سُمّيت
الراحلة ، لأنها فاعلة بمعنى منعه كقوله تعالى : ﴿ فِي عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ ، أى مرضية .

وكتوبه تعالى : ﴿ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴾ أى مدفوق ، والراحلة تقع على الناقة والجل ودخول الماء فيها للمبالغة ، مثل داهية وراوية .

وقوله : « ارتحلها » أى ركبها ، وفى الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم سجد ، فركبه الحسن فأبطأ فى سجوده ، فلما قضى صلاته قال : « إن ابنى ارتحلنى فكرهت أن أمجله » .

وقوله : « ورحلها » أى أزعجها وأشخصها وأجدت بها فى الرحيل ، ومنه الخبر : « تخرج عند اقتراب الساعة نارٌ من قعرِ عدن ترحلُ الناس » .

وقوله : « فأذلى وأوبى وأسدى » . الإدلاج : أن تسير الليل كلمة والاسم منه الدَّلجة بفتح الدال والادلاج بالقشديد : أن تسير من آخره والاسم منه الدَّلجة ، بضم الدال . وقيل فتحها وضمها بمعنى واحد . والتأويب : سَيرَ النهار وحده . والإسئاد : أن تسير ليلاً ونهاراً . والنَّشع : أن تشرب دُونَ الرِّى .

وقوله : « ما قَدُم وما حَدَث » ، يقال ذلك لمن تستولى المهموم عليه وتغلب به . وتضم الدال من « حَدَث » فى هذا الموضوع وحده ، ليوافق لفظها لفظ « قَدُم » ؛ فإن أفردت « حَدَث » عن قَدُم وجب فتح الدال من « حَدَث » ، ومثله قولهم : هنأى ومرأى بحذف الألف من أمرأى إذ ذكر مع « هنأى » فإن أفردته قلت : أمرأى الشيء .

وقوله : « ذهبنا تحت كلِّ كوكب » هذا المثل يضرب لمن تختلف فى السفر طرقهم وتقباين سبلهم .

المفامة الخامسة والأربعون وهي الرَّمْلِيَّة

حكى الحارث بن همام قال : كنتُ أخذتُ عن أُولَى التَّجَارِيِبِ ،
 أن السَّقَر مرآةُ الأعاجيب ، فلم أزل أجوبُ كلَّ تنوُفةٍ ، وأقتحمُ كلَّ
 مخوُفةٍ ، حتى اجتلبتُ كلَّ أطروفةٍ ؛ فن أحسن ما لمَحَّتْهُ ، وأغرب
 ما استَمَلَحَتْهُ ، أن حَضَرْتُ قاضيَ الرَّمْلَةِ ، وكان من أرباب الدولة
 والصَّوْلَةِ ، وقد ترفعَ إليه بالِ في بالِ ، وذاتُ جمالٍ في أَسْمالٍ ، فهممُ
 الشَّيْخُ بالكلامِ ، وتَينانِ المَرَامِ ؛ فنَعْنَهُ الفتاة من الإفصاح ، وخَسَّاتُهُ
 عن الثُّبَاحِ ، ثمَّ نَضَتْ عَنْهَا فَضْلَةَ الوِشَاحِ ، وأنشدته بلسان
 السِّلِيْطَةِ الوَقَاحِ :

* * *

أولى التجارِبِ ، أى أصحابها وأهلها . أجوب : أقطع . تنوُفة : قفرة .
 أقتحم : أدخل . اجتليت : رأيت . أطروفة : عجبة . لحتة : نظرت . استملحته :
 وجدته مليحاً . الصولة : الاستطالة . وقد صال إذا استطال وهدد . ترفع ،
 أى تداعى للحكومة ، ورفع كلَّ واحد صاحبه . بالِ : شيخ كبير . فى بالِ :
 فى ثوب خَلَقَ ، وأَسْمال : ثياب خَلَقَ ، واحدا سَمَل ، وسمل الثوبُ وأَسْمَل ،
 ويقال أيضاً : ثوب أَسْمال ، فيُوصف بالجمع ، كما يقال : رمح أقصاد ، وبُرْومة
 أعشار . تبيان المرام : تبين مراده ، وإظهار حجته . الإفصاح : التبيين . خَسَّاتُهُ :
 أبعدته وطرده . الثُّبَاح : الكلام هنا ، وخساً ونبح أصلهما فى الكلب ، ويقال :
 خَسَّأتُ الكلب خَسْئاً : طرده وأبعدته ، وخساً الكلب بنفسه ، أى انخساً ،

يتعدى ولا يتعدى ، قال تعالى : ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا ﴾ أى تباعدوا تباعداً سُخْطاً .
نَضَتْ : جردت . الوشاح : الحزام ، وهو المنطقة . الفنجديهي : الوشاح شبه
قلادة تنسج من آدم عريضة وتُرَصَّع بالجواهر وغيرها . السليطة : المستطيلة
بلسانها . الوقاح : التى ليس فى وجهها حياء ، فهى تقول ما شاءت .

* * *

يا قاضِي الرَّمْلَةِ يا ذا الَّذِي	فى يده التَّمْرَةُ والجُمْرَةُ
إليك أَشْكُو جَوْرَ بَغْلِي الَّذِي	لَمْ يَحْجِجْ أَلَيْتَ سِوَى مَرَّةٍ
وَلَيْتَهُ لَمَّا قَضَى نُسْكَهُ	وَخَفَّ ظَهْرًا إِذْ رَمَى الْجُمْرَةَ
كَانَ عَلَى رَأْيِ أَبِي يُوسُفٍ	فِي صَلَاةِ الْحِجَّةِ بِالْمُؤَمَّرَةِ
هَذَا عَلَى أَثْنَى مُذْ صَمَّنِي	إِلَيْهِ لَمْ أَغْصِ لَهُ أَمْرَةَ
فَمَرَّةٍ إِمَّا أَلْفَةً حُلُومَةً	تُرْضِي وَإِمَّا فُرْقَةً مُرَّةٍ
مَنْ قَبْلَ أَنْ أَخْلَعَ ثَوْبَ الْحَيَا	فِي طَاعَةِ الشَّيْخِ أَبِي مُرَّةٍ

* * *

الرَّمْلَةُ : قرية بالشَّام ، وقسم الشَّام خمسة أقسام ، فَخُمُسُ منه فلسطين
ومدينته العظمى الرَّمْلَةُ ، والرَّمْلَةُ أربعة آلاف صَنْعَةٍ ، ومن مدن فلسطين إيلياء
مدينة بيت المقدس ، بينها وبين الرَّمْلَةِ ثمانية عشر ميلاً . وقال ابنُ ظَفَرٍ : عشرون
فرسخاً . التَّمْرَةُ والجُمْرَةُ : الخير والشر ، والنفع والضَّر ، ويضرب بهما المثل فى هذا
المعنى ، وَمَنْ قَضَى لَهُ الْقَاضِي شَيْءٌ فَكَأَنَّهُ قَدْ أَعْطَاهُ . والبيت ، عَدَتْ بِهِ فَرَجَهَا
يُحْجِجُ : يقصد إليه بالجماع ، وقولها . سوى مرة ، تريد أول مرة وطَّيَّهَا وافترعها
ولم يَعُدْهَا بعد تلك المرة ، وتعنى بالتَّسْكِ افترعها وما هناك من الدم . وَعَدَتْ
رمى الجُمْرَةَ إتيانها لها ، وَجَمَعَ الجَرَّ جَمَارٌ ، وهى الحجارة الصغار عند العرب ، وَجَمَّرَ
الرجل تَجْمِيرًا : رَمَى جَمَارَ مَكَّةَ ، قال عمر بن أبى ربيعة :

فلم أر كالتجـمير منظرَ ناظرٍ ولا كـليالي الحج أفـلتن ذا هوى
ومنه الحديث: « وإذا استجمرت فأوتر » معناه تمسّحت بالحجارة .

[ذكر أبي يوسف صاحب أبي حنيفة]

أبو يوسف ، هو يعقوب بن إبراهيم بن حسين بن سعد بن حبيب الأنصاري .
وأبو يوسف كوفيّ صاحبَ أبا حنيفة فغلبَ عليه ؛ حتى قالوا : أبو يوسف
أبو حنيفة ، أي يسدّ مسدّه ويغني عنه ، وروى عن أبي حنيفة والمطارف والمغيرة
وهشام بن عروة الشيباني . وكان صدوقاً من أهل الدين والعلم ، وكان قاضيَ
القضاة ببغداد لثلاثة خلفاء : المهدي والهادي والرشيد ، وكانت أم جعفر قد استفتته
في مسألة ، فأفتاها بما أوجبه العلم عنده ، فوافق بذلك مرادها ، فأهدت له حُقّاً
من فضة فيه طيب وجام فضة فيه دنانير ، فقال له بعضُ مَنْ حضره :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أهديت له هدية فجلساؤه شرّكاؤه
فيها » ، فقال أبو يوسف تأولت الخبر على ظاهره ، والاستحسان قد منع من
إمضائه ، فإن ذلك إذ كان هدايا الناس التمر واللبن ، لا في هذا الوقت ، والهدايا
ذهب وورق ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

قال أبو جعفر الطحاوي : ولد أبو يوسف سنة ثلاث عشرة ومائة .

حماد : رأيت أبا حنيفة يوماً وعن يمينه أبو يوسف وعن يساره زُفر ،
وهما يتجادلان في مسألة ، فلا يقول أبو يوسف قولاً إلا أفسده عليه زُفر ،
ولا يقول زُفر قولاً إلا أفسده عليه أبو يوسف إلى وقت الظهر ، فلما أذن
المؤذن رفع أبو حنيفة يده ، فضرَبَ بها فخذَ زُفر ، وقال : لا تطمع في رئاسة
في بلد فيها أبو يوسف ، فقَصَى لأبي يوسف .

على بن حرملة التيمي : قال أبو يوسف : كنت أطلب الحديث والفقه ، وأنا مُقِلُّ رثُ الحال ، فجاء أبي يوماً وأنا عند أبي حنيفة ، فانصرفت معه ، فقال : يا بني لا تمدَّن رجلك مع أبي حنيفة ، فإن خير أبي حنيفة مستور ، وأنت محتاج إلى المعاش ، فقصَّرت عن كثير من الطلب ، وآثرت طاعة والدي . فتفقَّدني أبو حنيفة ، وسأل عني ، فجعلت أتعهد مجلسه ، فلما كان أوَّل يوم أتيته بعد تأخري عنه ، قال لي : ما يشغلك عنا ؟ قلت : الشَّغل بالمعاش ، وطاعة والدي ، فلما انصرف الناس دفع إليَّ صُرَّة ، وقال : استمتع بهذه ، وإذا فيها مائة درهم ، وقال لي : الزم الجماعة ، فإذا نفدت فأعلمني ، فلزمت الحلقة ، فلما مضت مدَّة يسيرة دفع إليَّ مائة أخرى ، ثم كان يتعهَّدني كذلك ، وما أعلمته بنفاذها قط ، وكأنه كان يخبر بنفاذها ، حتى استغنيت وتموَّلت .

على بن الجعد : حدَّثني أبو يوسف ، قال : توفِّي أبي إبراهيم ، وخلفني صغيراً في حجر أُمِّي فأسلمتني ، إلى قصَّار أخذمه ، فكنت أدعُ القصَّار وأمرت على حلقة أبي حنيفة فأجلس وأستمع ، فتجيء أُمِّي فتأخذ بيدي وتذهب بي إلى القصَّار . وكان أبو حنيفة يُعني بي لما كان يرى من حرصي على التعلم ، فلما طال ذلك على أُمِّي وكثر عليها هربي ، قالت لأبي حنيفة : ما لهذا الصبي فساد غيرك ، هذا صبي يتيم لا شيء له ، وإنما أطعمه من مغزلي ، وآمل أن يكتسب دانقاً يعود به على نفسه . فقال لها أبو حنيفة : سرِّي يا رعناء ، هاهو ذا يتعلم أكل الفالوجة بدُّهن الفستق ، فانصرفت عنه وهي تقول : أنت شيخ قد خرفت وذهب عقلك . قال : ثم لزمته ونفعني الله تعالى بالعلم ورفعني حتى تقلدت القضاء ، فكنت أجالس الرشيد ، وآكل معه على مائدته ، فلما كان في بعض الأيام قدَّم إليَّ الفالوجة . فقال لي : كل يا يعقوب ، فليس في كلِّ يوم يُعَمَّل لنا مثلها ، قلت : وما هذه يا أمير المؤمنين ؟ فقال : هذه فالوجة بدُّهن فُستق ، فضحكت فقال لي :

مَمْ تَضَحِكُ؟ قُلْتُ : خَيْرًا ، أَبَقِيَ اللَّهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ : لَتَخْبِرَنِي وَأُلْحَ عَلَى ، فَخَذَّتْهُ بِالْقَصَّةِ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا ، فَعَجِبَ مِنْ ذَلِكَ ، وَقَالَ : لَعَمْرِي إِنَّ الْعِلْمَ لَيَنْفَعُ وَيَرْفَعُ دِينًا وَدُنْيَا ، وَتَرْحَمَ عَلَى أَبِي حَنِيفَةَ ، وَقَالَ : إِنْ كَانَ يَنْظُرُ بَعَيْنَ عَمَلِهِ مَا لَا يَنْظُرُهُ غَيْرُهُ بَعَيْنَ رَأْسِهِ . وَأَبُو يُوسُفَ أَوَّلُ مَنْ دُعِيَ بِقَاضِي الْقَضَاءِ فِي الْإِسْلَامِ .

إِسْحَاقُ الْمَوْصِلِيُّ : حَدَّثَنِي بَشْرُ بْنُ الْوَلِيدِ ، وَسَأَلْتُهُ : مِنْ أَيْنَ جَاءَ؟ فَقَالَ : كُنْتُ عِنْدَ أَبِي يُوسُفَ الْقَاضِي ، وَكُنْتُ فِي حَدِيثِ ظَرِيفٍ ، فَقُلْتُ : حَدَّثَنِي بِهِ ، فَقَالَ : قَالَ لِي أَبُو يُوسُفَ : كُنْتُ الْبَارِحَةَ قَدْ أُوتِيتُ إِلَى فَرَاثِي ، فَإِذَا دَاقُ يَدُكَ الْبَابَ بِشِدَّةٍ ، فَأَخَذْتُ عَلَى إِزَارِي ، وَخَرَجْتُ ، فَإِذَا هُوَ ابْنُ أَعِينٍ يَقُولُ : أَجِبْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قُلْتُ : يَا أَبَا حَارِثَةَ لِي بِكَ حُرْمَةٌ ، وَهَذَا وَقْتُ كَمَا تَرَى ، وَلَسْتُ آمِنٌ أَنْ يَكُونَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ دَعَانِي لِمَكْرُوهِ ، فَإِنْ أَمَكْنَكَ أَنْ تَدْعَ الْأَمْرَ إِلَى غَيْرِهِ فَلَعَلَّهُ أَنْ يَحْدُثَ لَهُ رَأْيٌ ! فَقَالَ : مَا لِي إِلَى ذَلِكَ مِنْ سَبِيلٍ ، قُلْتُ : كَيْفَ كَانَ السَّبَبُ؟ قَالَ : خَرَجْتُ إِلَى مَسْرُورِ الْخِدَامِ ، فَأَمَرَنِي أَنْ آتِيَ بِكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قُلْتُ : أَتَأْذِنُ لِي أَنْ أَصُبَّ عَلَى مَاءٍ وَأَتَحْتَطَّ فَإِنْ كَانَ أَمْرٌ كُنْتُ قَدْ أَحْكَمْتُ شَأْنِي ، وَإِنْ رَزَقَ اللَّهُ الْعَافِيَةَ فَلَنْ يَضُرَّ ، فَدَخَلْتُ فَفَعَلْتُ ذَلِكَ ، وَتَطَيَّبْتُ ثُمَّ خَرَجْنَا إِلَى دَارِ الرَّشِيدِ وَمَسْرُورٍ وَاقِفٍ ، قُلْتُ : يَا أَبَا هَاشِمٍ خِدْمَتِي وَحُرْمَتِي ، وَهَذَا وَقْتُ ضَيْقٍ ، أَتَنْدَرِي لَمْ تَطْلُبِي؟ قَالَ : لَا ، قُلْتُ : فَمَنْ عِنْدَهُ؟ قَالَ : عَيْسَى ابْنُ جَعْفَرٍ وَحَدَّه ، ثُمَّ قَالَ : مَرَّةً فَإِذَا صُرْتُ فِي الصَّخْنِ فَحَرِّكْ رَجْلِيكَ ، فَإِنَّهُ فِي الرِّوَاقِ ، فَفَعَلْتُ ، فَقَالَ : مَنْ هَذَا؟ قُلْتُ : يَعْقُوبُ ، قَالَ : ادْخُلْ ، فَدَخَلْتُ فَسَلَّمْتُ فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ ، وَقَالَ : أَظُنُّنَا رَوَّعْنَاكَ؟ قُلْتُ : إِي وَاللَّهِ وَمَنْ حَلَنِي ، قَالَ : اجْلِسْ ، فَلَمَّا سَكَنَ رَوْعِي ، قَالَ : يَا يَعْقُوبُ هَلْ تَدْرِي لِمَ دَعَوْتُكَ؟ قُلْتُ : لَا ، قَالَ : لِأَشْهَدَكَ عَلَى هَذَا ؛ إِنَّ عِنْدَهُ جَارِيَةً ، فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَهْبِئَهَا أَوْ يَبْدِيعَهَا لِي

فأبى، ووالله لئن لم يفعل لأقتلنه. فالتفت إلى عيسى وقلت: وما بلغ قدر الجارية؟ أتمنعها أمير المؤمنين وتنزل نفسك هذه المنزلة؟ فقال لى: عجّلت القول قبل أن تعرف ما عندى، إن على يميناً بالطلاق والعتاق وصدقة ما أملك ألا أبيعها لأحدٍ ولا أهبها، فالتفت إلى الرشيد، فقال لى: هل لك فى ذلك مخرج؟ قلت: نعم، قال: وما هو؟ قلت: يهب لك نصفها ويبيعك نصفها، فيكون لم يبيع ولم يهب، قال عيسى: ويجوز ذلك؟ قلت: نعم، قال: فأشهدك أنى قد وهبت له نصفها، وبعت منه نصفها بمائة ألف دينار، وأتيت بالجارية، فقال: خذها يا أمير المؤمنين بارك الله لك فيها، قال: يا يعقوب، وبقيت واحدة، قلت: يا أمير المؤمنين، وما هى؟ قال: هى مملوكة ولا بد أن تستبرأ، ووالله إن نفسى لتخرج إن لم أبت معها. قلت: يا أمير المؤمنين تعتقها وتنزّوجها، فإن الحرية لا تستبرأ، قال: فإنى قد أعتقته، فدعا بمسرور وحسن، وخطبت وحدث الله ثم زوّجت على عشرين ألف دينار، ودفع المال إليها، ثم قال: يا يعقوب انصرف، ثم قال: يا مسرور احمل إلى أبى يوسف مائتى ألف درهم وعشرين تحتاً ثياباً، فحمل معى ذلك، قال بشر: فالتفت لى يعقوب، فقال: هل رأيت بأساً فيما فعلت؟ قلت: لا قال: فحقك منها العشر فشكرته، وذهبت لأقوم وإذا بعجوز دخلت، فقالت: يا أبا يوسف، بنتك تقرئك السلام، وتقول: والله ما وصلنى من أمير المؤمنين فى ليلتى هذه إلا المهر الذى قد عرفت، وقد جعلت إليك النصف منه، وخلفت الباقي لما أحتاج إليه، فقال: ردّيه، فوالله لا قبلته، أخرجتها من الرّق وزوّجتها من أمير المؤمنين وترضىنى بهذا، فلم نزل نتلطف إليه أنا وعمومتى يقبلها فقبلها وأمر لى بألف دينار.

وأما صلة الحج بالعمرة التى ذكر الحررى، فإن أبا يوسف فى ذلك مخالف للملك رضى الله عنهما فى أن القرآن فى الحج أفضل من الأفراد، وهو مذهب

على بن أبي طالب رضى الله عنه وقوله : خَفَّ ظَهراً ، أى حَطَّ عن ظهره بعض الذنوب ، والذي أرادت أنه لم يأتها ولا جامعها غير مرّة واحدة خَفَّ بها ظهره وبعض شهوته وليته فعل ذلك مرّتين ، فورّت بظاهر كلامها عن هذا المعنى .

وجاءت امرأة إلى المغيرة بن شعبة بزوجه تستعديه عليه ، وتذكر أنه عَنِين فقال الرجل :

الله يعلم يا مغيرة أنى قد دُسْتُها دَوْسَ الحِصَانِ الْمُرْسَلِ
وأخذتها أخذَ المعنفِ شأنه عَجْلَانِ يذبُّها لقومٍ نَزَلَ
فقال له المغيرة : إني لأرى ذلك في شمائلك .

وخاصمت الدهناء بنت مسحل أحد بنى مالك بن سعد بن زيد مناة العجّاج ، وكان من بنى عمها إلى والى اليمامة ، فكان أبوها يُعِينها على ذلك ، فقال له أهل اليمامة : ألا تستحي ، تطلب المسبّ لابنتك ! فقال : إني أحب أن يكون لها ولد ، فإن أفرطتهم أجرت ، وإن بقوا دعوا الله لها ، فدخلت على والى ، قالت : إني منه بجمع ، قال : لعلك تفارين الشيخ ؟ قالت : إني لأرعى له بادي ، وأقيم صُلبي ، فقال العجّاج :

أظنت الدهناء وظنّ مسحل أن الأمير بالتضاء يعجل
عن كسلاقي والحصان يكسل عن السّفاد وهو طرف هيكَل

فقال هي :

والله لولا خشية الأمير وخشية الشرطيّ والمشير
لجئت من شيخ بنى الفقير كجولان صعبية عسير

فأخذها وضما إليه يقبلها فقالت :

تالله لا تخدعني بالضم إليك والتثقيب بعد الشم
إلا بهزهازي يسلي همي ينزع عني فتحي في كمي

فذهب بها إلى أهلها ، فطلّقها في تلك الليلة مرّاً . ولو استقبلها العجاج
بما وصف ابن الرومي حيث يقول :

ألا يا هند هل لك في ممد غليظ تفرحين به متين
يشدّ به حشاك غلام نيك من الفتیان منقطع القرين
فمن يره يولّ يقول : أتى بدا من فرجها ثلثا جنين
لرضيته ، ولم تحاكمه .

قوله : ألفة : مُحبة . أخلع : أزيل . وأبومرّة . كنية إبليس لعنه الله ، وكنى
بذلك لما تقدّم أن أبغض الأسماء إلى الله تعالى مرّة وحرب . تقول : إماما يصاحبني
صحبة يرضيني فيها بكثرة الجماع ، وإلا أزلت عني الحياء وخرجت أزني وأفسق
في طاعة إبليس ، ولو عاجلها بما كان يعالج به رجل زوجته ، وكان إذا وقع
بينهما شرّ انحني عليها بالجماع ، فكانت تقول : لعنك الله ! كلّما وقع بيننا شرّ
جئتني بشنيع لا أقدر على ردّه ! فلو جاءها بهذا الشنيع لما رفعته إلى الوالى .

محمد بن يحيى بن حيان : عاتبت جدّتي جدّتي في قلة الباه ، فقال لها : أنا
وأنت على قضاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قالت : وما قضاء عمر ؟ قال :
قال : إن الرجل إذا أتى امرأته في كلّ طهر مرّة فقد أدّى حقها ، قالت :
فكلّ الناس تركوا قضاء عمر ، وأقت أنا وأنت عليه !

وقال إعرابي كبير وعجّز :

عجبت من أيزى كيف يصنّع أدنعه بإصبعي فيرجع
* يقوم بعد الشد ثم يركع *

دخل عيسى بن موسى على جارية له فعجز ، فقال :

النَّفْس تطمع والأسباب عاجزة والنَّفْس تهلكُ بين العجز والطمع
خلا ثمامة بن أشرس بجارية له فعجز ، فقال : ويحك ! ما أوسع حرك !
ف قالت :

أنت الفداء لمن قد كان يملؤهُ ويشتكى الضيق منه حين يلقاهُ
وكان عروة بن شَيْمٍ أوفرَ الناس أَيْزاً وأشدَّهم نكاحاً ، وكان إذا أنعظ
يستاقى على فقاء فيأتى الفصيل الجرب فيحتك بأيره بظنه الجذل ، وهو عود في
العطن يُنصب لحتك به الإبل الجربى .

ويزعمون أنه أصاب أيره جنب عروس رُفَّت إليه ، فقالت له : أتهددنى بالركبة !
وهو القائل :

ألا رُبَّما أنعظتُ حتى إخالهُ سينتد للإنعاظ أو يتمزق
فأعْمِلُهُ حتى إذا قلت : قدَوْنِي أبى وتمطى جاحاً يتمطى
وأقبل رجل على على رضى الله عنه فقال : إن لى امرأةً كلما غشيها ،
تقول : قتلتنى قتلتنى ! فقال : اقتلها وعلى إثمها .

وقع أعشى همدان أسيراً عند الدليم ، ثم إن ابنة العالج الذى أسرَه عشقته ،
فكثنته ليلة من نفسها ، فأصبح وقد واقعها ثمان مرات ، فقالت له : يا معشر
المسلمين ، أهكذا تعملون بنسائكم ! قال : هكذا نفعل كلُّنا ، فقالت :
بهذا العمل نصرتم ، أفرأيت إن خلصتُك تصطفينى ؟ فعاهدها ، خلَّت قيوده
بالليل ، وأخذت به فى طرقٍ تعرفُها حتى تخلص ، فقال أسير شاعر فيه :

فن كان يَفْديهِ من الأسر ماله فهمدان تفديها الفداة أيورها

كان عبد الله بن عمر من أنزه الناس نفساً ، وأبعدهم عن المزاح وذكر الفاحشة ،
فجاءه ابنُ أبى عتيق يوماً ، وكان صاحبَ مُزاح وفكاهة ، وفى يده رُفعة فيها :
(م — ١٣ شرح مقامات الحريري ج ٥)

ذهبَ الإله بما تعيشُ به وقَمَرَتَ مالكَ أَيْمًا قَمَرٍ
 أنفقتَ مالكَ غيرَ مكترثٍ في كلِّ زانيةٍ وفي الحرِّ
 وكانت هجته بهما امرأته عاتكة بنت عبد الرحمن الخزومي ، فقال :
 يا أبا عبد الرحمن ، انظر هذه الرقعة وأشرْ عليَّ برأيتك فيها . فلما قرأها عبد الله
 استرجع فقال : ما ترى فيمن هجاني بهذا الشعر ؟ قال : أرى أن تغفوَ وتصفح ،
 فقال : يا أبا عبد الرحمن ، لئن لقيتُ صاحبه لأنيكنه نيكاً جيداً ، فأخذ ابن عمر
 من قوله وأرعد وأزبد ، قال : مالك ؟ غضب الله عليك ! فقال : ما هو إلا
 ما قلت لك ، واقتربا ، فلما كان بعد أيام لقيه ابنُ عمر ، فأعرض عنه ، فصاح :
 يا أبا عبد الرحمن ، إني لقيتُ صاحبَ البيتَيْنِ فنكته والله نيكاً شافياً ، وأقسم
 على ذلك ، فصعق ابنُ عمر ، فلما رأى ابنُ أبي عتيق ما حلَّ به دنا منه ، وقال له
 في أذنه : إنَّها والله امرأتِي ، فقام ابنُ عمر وقد سُرِّيَ عنه ، وهو يضحك ، فقبَّله
 بين عينيه ، وقال أحسنتَ ، زده من هذا الأدب ، فلن يهجوَّك بعدها أبداً .

* * *

فقال له القاضي : قد سمعتُ ما عزتكَ إليه ، وتوعَّدتكَ عليه ،
 فجانبَ ما عرَّكَ ، وحاذِرُ أن تُفركَ ، وتُمرَّكَ ، فجثَّ الشيخُ على ثَفِناته ،
 وفجَّرَ يذْبوعَ نَفْثاته ، وقال :

استمعَ عَدَاكَ الذَّمُّ قولَ امرئٍ	يُوضِحُ فيما رابها عُذْرَةَ
والله ما أعرضتُ عنها قَلِيَّ	ولا هَوَى قَلْبِي قَضَى تَذْرَةَ
وإنما الدهرُ عَدَا صَرْفُهُ	فابْتَزَّنَا الذَّرَّةَ والذَّرَّةَ
فنزلي قفره كما جِئَها	عُطِلُّ من الجزعة والسَّذْرَةَ
وكنت من قَبْلُ أرى في الهوى	ودينه رأى بني عذرة

فَمَذْنِبُ الدَّهْرِ هَجَرْتُ الدُّمَى هِجْرَانٌ عَفٌّ أَخَذَ حِذْرَهُ
وَمَلْتُ عَنْ حَرَرِي لَا رَغْبَةَ عَنْهُ وَلَكِنْ أَتَقَى بَذْرَهُ
فَلَا تَلَمْ مَنْ هَذِهِ حَالُهُ وَاعِظْ عَلَيْهِ وَاحْتَمِلْ هَذْرَهُ

* * *

قوله عَزَّكَ، أى نسبته. تَوَعَّدْتُكَ: هَدَّدْتُكَ. عَرَّكَ: شَانَكَ وَعَابَكَ
وَلَطَّخَكَ بَشْرًا وَسَاءَكَ، وَعَرَّ فَلَانٌ قَوْمَهُ بَشْرًا: لَطَّخَهُمْ بِهِ. حَاذِرٌ: خَفَ.
نَفَّرَكَ: تَبَعَّضَ، وَفَرَّكَتِ الْمَرْأَةُ زَوْجَهَا: أَبْغَضَتْهُ. وَتَفَرَّكَ: تَذَلَّكَ ذَلِكَ
شَدِيدًا مِثْلَ ذَلِكَ الْأَدِيمِ، وَعَرَّكَتِ الْقَوْمَ فِي الْحَرْبِ قَاتَلَتْهُمْ. جَنَّا يَجْثُو جَثْوًا
وَجِثِيًا: جَلَسَ عَلَى رُكْبَتَيْهِ. النَّفِثَاتُ: مَا وَلِيَ الْأَرْضَ مِنْ أَعْضَاءِ الْبَعِيرِ وَغَلْظُ؛
إِذَا بَرَّكَ عَلَى الرُّكْبَتَيْنِ وَالْكِرْكِرَةِ. يَنْبُوعٌ: مَاؤُهَا النَّايِعُ. نَفَثَاتُهُ: كَلِمَاتُهُ.
عَدَاكَ: تَجَاوَزَكَ. يُبَيِّنُ. رَابَهَا: شَكَّكَهَا وَأَدْخَلَ عَلَيْهَا الرِّيْبَةَ.
أَعْرَضَتْ: صَدَدَتْ. قَلَى: بَغَضَ. هَوَى: حَبَّ. النَّذْرُ: أَنْ يَنْذِرَ الْإِنْسَانُ
عَلَى نَفْسِهِ شَيْئًا يَفْعَلُهُ، وَقَضَى نَحْبَهُ: اسْتَوْفَى غَرَضَهُ. عَدَا: ظَلَمَ. صَرَفَهُ: تَصَرَّفَهُ
بِالْإِنْكَادِ. ابْتَزَّنَا: سَلَبْنَا. الدَّرَّةُ: اللُّؤْلُؤَةُ. وَالذَّرَّةُ: اللَّابَنُ، وَمَالُ الْعَرَبِ الْإِبِلُ،
وَعَيْشُهُمْ مِنْ لَبَنِهَا، فَلِهَذَا جَنَسَ بِالذَّرَّةِ مَعَ الدَّرَةِ. جَيِّدَهَا: عُنُقَهَا. غُطِلَ: خَالَ.
الْجَزْعَةُ: خَرَزَ يَمَانِي، وَهِيَ الَّتِي فِيهَا بَيَاضٌ وَسَوَادٌ. وَالشَّدْرُ: قَطْعٌ مِنْ ذَهَبٍ،
يُفَصَّلُ بِهَا بَيْنَ الْجَوَاهِرِ، وَقِيلَ: الْجَزْعُ: خَرَزَ مُلَوْنٌ، وَالشَّدْرُ: خَرَزَ أَخْضَرٌ،
وَقِيلَ: الشَّدْرَةُ: الْقِطْعَةُ مِنَ الذَّهَبِ تُلْتَقِطُ مِنَ الْمَعْدِنِ مِنْ غَيْرِ إِذَابَةِ الْحِجَارَةِ.
بَنَى عَذْرَةَ، قَبِيلَةً بَغَابَ عَلَى قُلُوبِهِمْ حُبَّ النِّسَاءِ، فَكُلٌّ مَنْ أَفْرَطَ فِي حُبِّهَا
قِيلَ لَهُ: عُذْرِي، فَنَسَبَ إِلَيْهِمْ. وَسُئِلَ أَعْرَابِيٌّ، فَقِيلَ لَهُ: مَنْ أَيْنَ أَنْتَ؟ فَقَالَ:
مِنْ قَبِيلَةٍ إِذَا أَحْبَبُوا مَاتُوا، فَسَمِعْتُهُ جَارِيَةً، فَقَالَتْ: عَذْرِي وَرَبَّ السَّكْبَةِ.

قوله: نَبَا، أى ارتفع وزال خيرُه. الدُّمَى: النِّسَاءُ الْمُشَبَّهَاتُ فِي بَيَاضِهنَ
وصَفَائِهِنَّ بِصُورِ الرِّخَامِ، وَكَانَ الْعَاشِقُ مِنَ الْعَرَبِ إِذَا غَلَبَ عَلَيْهِ الْعِشْقُ

والهَجَرَ ذهب إلى الأمصار فاشتري مُورَةً من رُخام على صورة محبوبته ،
فإذا ركب بعيره أجلس الثُورَة بين يديه يمدّتها ، ويستريح إليها ، فسوّوا
النساء دُحَى تشبيهاً بصور الرخام . عَفّ : عفيف . البَذْر : ما يزرع في الأرض
من الحبوب ، وحرثته نكاحه ، وأراد بالبذر ما يزرعه فيها من النُطفة . مَذَره :
هذيانه ، وكلامه الفارغ .

* * *

قال : فَالْتَطَمَتِ الرَّأَة مِنْ مَقَالِهِ ، وَانْتَضَتِ الْحُجَجَ لَجْدَالِهِ ،
وقالت له : ويلك يا صرتمان ! يا مَنْ هو لاطمائم ولا طمان ؛ أَتَضِيقُ بِالْوَلَدِ
ذَرْعًا ، وَلِكُلِّ أَكُولَةٍ مَرْتَعًى ؛ لَقَدْ ضَلَّ فَهْمُكَ ، وَأَخْطَأَ سَبْعُكَ ،
وسفّهت نفسك ، وشقيت بك عِرْسُكَ .

فقال لها القاضي : أَمَّا أَنْتِ فَمُوجَدَلَتِ الْخِيسَاءُ ، لَا تُثَبِّتُ عَنْكَ
خَرَسَاءً . وَأَمَّا هُوَ فَإِنْ كَانَ صَدَقَ فِي زَعْمِهِ ، وَدَعَوَى عُدُوِّهِ ، فَلَهُ فِي هَمْ
قُبْقُبِهِ ، مَا يَشْغُلُهُ عَنْ ذَبْدَيْهِ . فَأُطْرَقَتْ تَنْظَرُ ازْوَارِآءَ ، وَلَا تَرْجِعُ حِوَارَا .
حتى قلنا قد راجعها الخُفَرُ ، أَوْ حَاقَ بِهَا الظُّفَرُ . فقال لها الشيخ : تَسَاءُ
لَكَ إِنْ زَخَرَفْتِ ، أَوْ كَتَمْتِ مَا عَرَفْتِ . فَقَالَتْ : وَيْمُكَ ! وَهَلْ بَدَا
الْمَنَافَرَةُ كَتَمٌ ، أَوْ بَقِيَ لَنَا عَلَى سِرٍّ خَتَمٌ ! وَمَا فِينَا إِلَّا مَنْ صَدَقَ ، وَهَنَكَ
صَوْتُهُ إِذْ نَطَقَ ، فَلَيْتَنَا لَا فِينَا الْبَكَمُ ، وَلَمْ نَلْقَ الْحَكَمَ ، ثُمَّ التَفَعَّتْ
بِوَسَاحِيهَا ، وَتَبَا كَتَمٌ لَا فِتْخَاحُهَا ، وَجَمَلُ الْقَاضِي يَعْجَبُ مِنْ خَطْبِهَا
وَيُعْجَبُ ، وَيَلُومُ لَهَا الدَّهْرَ وَيُؤْتِبُ ، ثُمَّ أَخْفَرَ مِنَ الْوَرِقِ الْأَفْنِزَ ، وَقَالَ :

أَرْضِيَا بَهِمَا الْأَجُوفَيْنِ، وَعَاصِيَا النَّازِعَ بَيْنَ الْإِلْفَيْنِ، فَشَكَرَاهُ عَلَى حَسَنِ السَّرَاحِ، وَانْطَلَقَا وَهَمَا كَالْمَاءِ وَالرَّاحِ.

* * *

التَقَطَتْ : حَمَدَتْ وَتَهَبَّتْ غِيظًا . وَانْتَضَتْ : جَرَدَتْ : جِدَالَهُ : خِصَامُهُ . مَرَقَعَان : كَثِيرِ الرِّقَاعَةِ ، وَالرِّقَاعَةُ كَالْحَاقَةِ ، كَأَن عَمَلَهُ تَخْرُقُ فَرُقْعَ . وَضِئَتْ بِالشَّيْءِ ذَرْعًا ، إِذَا لَمْ تَقْدِرْ عَلَيْهِ . ضَلَّ : تَحَيَّرَ . عِرْسُكَ : زَوْجُكَ . جَادَلَتْ : خَاصَمَتْ . اثْنَتْ : رَجَعَتْ . خِرْسَاءُ : بَكَاءٌ . زَنَعَهُ : مَا أَدْعَاهُ . قَوْلُهُ : قَبْقَبُهُ ، الْقَبْقَبُ : الْبَطْنُ ، وَالْقَبْقَبَةُ : الصَّوْتُ الَّذِي يَدُورُ فِيهِ ، فَسَمِّيَ بِهِ .

وَالذَّبْذَبُ : الذِّكْرُ ، وَأَصْلُ الذَّبْذَبَةِ الْاهْتِرَازُ وَالِاضْطِرَابُ ، فَسَمِّيَ الذَّبْذَبُ لِحَرَكَتِهِ . وَنَظَرَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى شَابٍّ ، فَقَالَ : يَا شَابُّ إِنْ وُقِيتَ شَرٌّ ثَلَاثَ ، وَوُقِيتَ شَرُّ الشَّبَابِ : لِقَلْفِكَ ، وَذَبْذَبِكَ ، وَقَبْقَبِكَ . الْأَصْمَعِيُّ : الْاِتِّلَقُ : الْآسَانُ ، وَالْقَبْقَبُ الْبَطْنُ ، وَالذَّبْذَبُ : الذِّكْرُ .

قَوْلُهُ : أَطْرَقَتْ ، أَي سَكُنَتْ مِمْلَةً إِلَى الْأَرْضِ رَأْسُهَا حَيَاءً . اذْوَارًا : مَيَّلَانًا . وَالْحَوَارِ : مَرَاجِعَةُ الْكَلَامِ . الْخَفَرُ : الْحَيَاءُ . حَاقَ : لِحَقَ . وَالظَّفَرُ هُنَا : غَلْبَةُ حُجَّتَيْهَا وَظَفَرُهَا بِهِ . تَعَسَا : هَلَكَ . زَخَرَفْتُ هُنَا : زَيَّنْتُ الْبَاطِلَ . الْمَنَافَرَةُ : الْحَاكِمَةُ . خَتَمَ : رَبَطَ ، أَي قَدْ أَظْهَرْنَا جَمِيعَ أَسْرَارِنَا . هَتَكَ : خَرَقَ . صَوْنُهُ : صِيَانَتُهُ . لَا قَيْنَا الْبَسْكَمَ ، أَي أَصَابَنَا الْبَسْكَمُ وَخَلَقْنَا خُرْسًا ، فَلَمْ نَبْدِ مَا أَبْدَيْنَاهُ مِنَ الْقَبَائِحِ ، وَالْبَسْكَمُ : الْخُرْسُ مَعَ عَيٍّ . وَقَالَ ثَعْلَبُ : الْبَسْكَمُ : أَنَّ يُولَدُ الْإِنْسَانُ لَا يَنْطَلِقُ وَلَا يَسْمَعُ وَلَا يَبْصُرُ ، وَبِكُمْ بَسْكَمًا وَبَسْكَامًا . وَالْحَسْكَمُ : الْحَاكِمُ . التَّفَعُّتُ : التَّفَتُّ . وَالْوَشَاحُ : الثَّوْبُ ، وَقَدْ تَوَشَّعَتْ بِثَوْبِهَا ، جَعَلَتْهُ مَوْضِعَ وَشَاحِهَا . لَا تَفْتَضَا حَمَاهَا : لَا شَتَاهَا بِالْقَبَائِحِ . خَطَبَهُمَا : أَمَرَهُمَا . يَعْجَبُ : يَجْعَلُ غَيْرَهُ يُعْجَبُ مِنْهُ . يُونُبُ : يُوْتَخُ وَيُلُومُ . الْوَرِقُ : الدِّرَاهِمُ . الْأَجُوفَيْنِ : الْبَطْنُ وَالْفَرْجُ . النَّازِعُ : الْمَاشِي بِالشَّرِّ الْمَفْسُدُ ، وَنَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنَهُمْ يَنْزِعُ نَزْعًا ، أَغْوَى وَأَفْسَدَ . وَالْإِلْفَيْنِ :

الصّاحِبِينَ . السَّراح : الانصراف . والراح : الحمر ، وهى سريعة الامتزاج مع الماء ، فيضرب بهما المثل فى امتزاج نفوس المتحابين .

وقد جاء من ذلك فى الشعر ما يستحسن ، قال ابن أبى فَنَن : أحسن ما قيل فيه قولُ العباس بن الأحنف :

ما أنسَ ما أنسَ يَمْنَاهَا مَطْفئةً على فؤادى ويسراها على رامي^(١)
وقولها : ليتهُ ثوبٌ على جِدى وليتني كنتُ سِرْبًا لِعِباس
أوليتهُ كان لي خمرًا وكنت له من ماء مزني فكنا الدهرَ في كاس

قال الخاتمي : وأحسن دعبل كل الإحسان فى قوله :

الله يعلم والأيام دائرة والمرء ما بين إباحش وإيناس^(٢)
أنى أحبك حبًا لو تضمته سلمى سميك دك الشاهق الراسي^(٣)
حبًا تلبس بالأحشاء وامتزجا تمازج الماء بالصمباء فى الكاس
وقال البحتري فأحسن :

تهتز مثل اهتزاز الفصن حرَّكه مُرور غيثٍ من الوسمي سَحاح^(٤)
إنى وجدتكَ من قلبى بمنزلة هى المصافاة بين الماء والراح

* * *

وطبق القاضى بعد مسرّحهما ، وتناهى شَبَحهما ، يُثنى على أدبهما ، ويقول : هل من عارفٍ بهما ؟ فقال له عينُ أعوانه ، وخالصةُ خُلصانه : أما الشيخ فالسُّروجي المشهودُ بفضيلة ، وأما المرأةُ فقعيدة رَحله ، وأما تحاكهما فكيدة من فِعله ، وأحبولة من جبال ختله ،

(١) ديوانه ١٥٦

(٢) ديوانه ١٤

(٣) سلمى أحد جبلى طبرستان .

(٤) ديوانه ٤٤٢

فأحفظ القاضي ما سمع ، وتلَّهَبَ كيف خُدِع . ثم قال للواشي بها :
 قُمْ فَرَدَّهَا ، ثم اقْصِدْهَا وَصِدْهَا . فنهض ينفض مِذْرُويَه ، ثم عاد
 يَضْرِبُ أَصْدَرِيَه . فقال له القاضي : أَظْهَرْنَا عَلَى مَا نَبَشْت ، وَلَا تُخَفِ عَنَّا
 مَا اسْتَخْبِثْتَ . فقال : مَا زِلْتُ أُسْتَقْرِى الطَّرِيقَ ، وَأُسْتَفْتِحُ الْعُلُقَ ،
 إِلَى أَنْ أَدْرَكَتُهُمَا مُصْحِرَيْنِ ، وَقَدْ زَمَّا مَطَيَّ الْبَيْنِ ، فَرَغَّبْتُهُمَا فِي الْعَلَلِ ،
 وَكَفَلْتُ لِهَما بَنِيْلِ الْأَمَلِ ، فَأَشْرَبَ قَلْبَ الشَّيْخِ أَنْ يِيَّاسَ ، وَقَالَ : الْفِرَارُ
 بِقُرَابِ أَكَيْسَ ، وَقَالَتْ هِيَ : بَلِ الْعَوْدُ أَحْمَدُ ، وَالْفَرُوقَةُ يَكْمَدُ .

* * *

قوله طَفِقَ ، أى جعل . مسرحهما : انصرفهما . تنائى شبحهما : بعد
 شخصهما . وعين الأعوان : مقدمهم . وأخلَصان : الأحاب . وخالصة : خيار ،
 فكأنه خيار خيارهم . قعيدة رَحْلِهِ : زوجته وصاحبة بيته . مكيدة : مكر .
 أحبولة : شبكة . ختله : خداعه . أحفظ : أغضب . تلَّهف : تندم فصاح :
 يالهي ! . رُدَّهَا : اطلبها . مِذْرُويَه : أطراف أليتيه . والأصدران : عرقان
 في الصَّدْغَيْنِ ، وقيل : هما المنسكبان ، وقيل : العطفان ، ويقال : أتى فلان
 ينفض مِذْرُويَه ، إذا جاء غاضباً يتهدد . ويَضْرِبُ أَصْدَرِيَه ، إذا جاء فارغاً
 بلا حاجة ، فإذا قضى حاجته قيل : جاء ثانياً من عنانه . وقال الحسن البصريُّ ،
 ورأى الناسَ يومَ عيدٍ يضحكون ، فقال : تلقى أحدهم أبيض بضاً يملخُ في الباطلِ
 مَلَخاً ، ينفض مِذْرُويَه ، ويضرب أَصْدَرِيَه ، يقول : ها أنا ذا فاعرِفُوني ، قد
 عرفناك ، مقتك الله ، ومقتك الصالحون . يملخ : يلج ، وقيل ينتقى ويتكسّر .
 استخبت : أصبته خبيثاً . أستقرى : أتبع . العُلُق : جمع غُلقة ، وهى المغالق
 التى تَسَدُّ بها الطرُق وغيرها ، وباب غِلق ، أى مغلق . مصحرين : ذاهبين في

الصحراء . زَمًّا : شدة . والتَّيْن : الفراق . والعَلَل هنا : العطاء . كَفَلْتُ : ضمنت . نيل الأمل : درك الحاجة . أَشْرِب : دوخل وألقى في نفسه ، والفرار بقراب أكيس ، مثل ، وقراب الشيء : ما يقاربه وأراد الهروب باليسير والقريب أكيس من الرجوع إلى الطمع ، ويروى : الفرار بقراب ، بكسر القاف ، وهو مصدر بمعنى المقاربة ، والمثل لجابر بن عمر المازني ، وكان سائراً في طريق ومعه أوفى بن مطر وشهاب بن قيس ، فترامى آثار رجلين معهما فرسان وبغيران وكان قائفاً فقال : أرى آثار رجلين شديد كلُّهُما ، عزيز سَلْبُهُما ، والفرار بقراب أكيس ، ثم مضى هارباً ، والمعنى : فرارنا ونحن بقراب السَّلامة خير لنا من أن نتورط في المكروه . والعُود أحمد ، أى أوفق وأحق أن يوجد محموداً ، والعُود أحمد مثل ، أى الرجوع أحسن ، وقال المرقش :

وأحسن فيما كان بيني وبينه فإن عاد بالإحسان فالعود أحمد
وأشد أبو الحسن لعارة :

بني دارم إن يفن عُمرى فقد مَضَى حياتي لكم مني ثناءً مَخْلَدٌ^(١)
بدأتم فأحسنتم وأثبتت جاهداً وإن عدتم أحسنتم والعُود أحمد
قوله : الفروقة ، أى الفزاع الكثير الفرق وهو الخوف . يكمد : يحزن حزناً لا يستطيع إمضاءه . تبين : علم . غرر : خطر .

* * *

فلمَّا تبين الشيخ سَفَه رأيها ، وغرر اجترائها ، أمسك ذلَّالها ،
ثم أنشأ يقول لها :

دونك نصحي فاقتني سُبُلَةً واغني عن التفصيل بالجملة
طيري متى نقرت عن نَحْلَةٍ وطلقيها بَبَّة بَسْلَةٍ

(١) الكامل — بشرح المصنف ١ : ١٢٩

وَحَازِرِي الْعَوْدَ إِلَيْهَا وَلَوْ سَبَّلَهَا نَاطُورُهَا الْأَبْلَهَ
خَيْرَ مَا لِلَّصِ الْأَيُّرَى يُبْقَعَةُ فِيهَا لَهُ عُمَلَةٌ

* * *

سَمَهُ : خفة ، والسفيه : الخفيف العقل . اجترائها : جسارتها وجرأتها .
خُلاذِلْهَا : أطراف ثوبها ، وذلائل القميص : ما يلي الأرض من أسافله ، الواحدُ
خُذْلٌ مثل قُمْمٌ وقَمَاقِمٌ . دونك : معناه قاربك ما تطلب فتناولهُ . اقتنِي :
اتبعي . سُبِّلَه : طرّقه . أَكَلَتْ ثَمَرَتَهَا بِمَنْقَارِكِ ، وهو مثل ، ونَقَرَتْ
أَيْضًا : بحثت ، والتَّنْقِيرُ : البحث عن الشيء ، يقول : متى ما أخذت من ثمر
نَخْلَةٍ بنصيبٍ ففارقها ولا ترجع إليها ، وفي حديث أبي سعيد قال النبي صلى الله
عليه وسلم : « خلقت النخلة والرَّمانة والعنب من فُضُل طينة آدم عليه السلام » ،
والبَّتَّة البتلة : التي لا رجعة فيها ، والبث : القطع . سَبَّلَهَا : طرّقها وأصله
لابن السبيل . الناطور : حارس النخل خاصة ، بطاء غير معجمة ، وقيل :
هو حافظ الكرم ، والجمع النواطير . الأبله : الكثير الغفلة . اللص : السارق .
وعُمَلَةٌ : سرقة وفُغلة قبيحة .

* * *

ثُمَّ قَالَ لِي : لَقَدْ عُنَيْتَ ، فِيمَا وُلِّيتَ ، فَارْجِعْ مِنْ حَيْثُ جِئْتَ ،
وَقُلْ لِمُرْسَلِكِ إِنَّ شَيْئًا

رُؤْيَدُكَ لَا تُعْقِبُ جَمِيلَكَ بِالْأَذَى فَتُضْجِعِي وَشَمْلُ الْمَالِ وَالْحَمْدُ مِنْصَدِرُ
وَلَا تَتَغَضَّبِي مِنْ تَزِيدِ سَائِلِ فَمَا هُوَ فِي صَوْعِ اللِّسَانِ بِمَبْتَدِعِ
وَإِنْ تَكُ قَدْ سَاءَ تَكُ مِثِّي خَدِيعَةٌ فَقَبْلَكَ شَيْخُ الْأَشْعَرِيِّينَ قَدْ خُدِعَ

فَقَالَ لَهُ الْقَاضِي : قَاتِلْهُ اللَّهُ ! فَمَا أَحْسَنَ شَجْوَنَهُ ، وَأَمْلَحَ فَنَوْنَهُ !

ثم إنه أصحَبَ رائدَهُ بُرْدَيْنِ، وَصُرَّةً مِنَ الْعَيْنِ، وَقَالَ لَهُ: سِرْ سِرّاً مِنْ
لَا يَرَى الْإِلْتِفَاتِ، إِلَى أَنْ تَرَى الشَّيْخَ وَالْفَتَاةَ، قَبْلَ يَدَيْهِمَا بِهَذَا الْحِجَاءِ،
وَيَبِّينَ لَهَا انْخِدَاعِي لِلْأَدْبَاءِ.

قال الراوى: فلم أرَ فى الاغتراب، كَهَذَا الْمُجَابِ، وَلَا سَمِعْتُ
بِمِثْلِهِ يَمْنُ جَالَ وَجَابَ.

غُنِيَّت: تعبت. وُلِّيت: كُفِّلْتُ. رُوَيْدُكَ: رَفَقَكَ، أَيْ أَوْلَيْنَا مِنْكَ الرَّفَقَ
وَالْمُهْل. لَا تُعْقِب: لَا تَتَّبِع. الْأَذَى: الضَّرَر. وَشَمَل: جَمَعَ. مَنْصَدِع: متفرق.
صَوْنُغُ اللِّسَان: كَذِبُهُ وَحِيلُهُ، وَفِي الْحَدِيثِ «هَذِهِ كَذْبَةُ صَاغِمَا
الصَّوْنَاغِ»، أَيْ اخْتَلَقَهَا الْكَذَّابُ. مُبْتَدِع: أَوَّلُ فَاعِلٍ. سَاءَتْكَ: أَحْزَنْتَكَ.

شيخ الأشعرين، هو أبو موسى الأشعرى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، واسمه عبدالله بن قيس، من ولد الأشعر بن أدد بن زيد بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن سبأ، قدم مكة وأسلم بها، ثم هاجر إلى أرض الحبشة، ثم قدم مع جعفر بن أبي طالب إلى المدينة، والذي خدعه هو عمرو بن العاص في قصة التحكيم بين عليٍّ ومعاوية رضى الله عنهما، وهى قصة مشهورة في كتاب العقد وفي كتاب المسعودى وغيرهما من كتب الأدب، وفيهما أشياء مفككة في حق الصحابة رضى الله عنهم، فلذلك أضربنا عن ذكرها.

رائد: طالبه. أصحبه: جعله فى مُحْبَتِهِ. بُرْدَيْنِ: ثَوْبَيْنِ: صُرَّة: خُرْقَةٌ
نُمِشَتْ فِيهَا الدَّرَامُ. الْعَيْن: الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ. سِرْ مِنْ لَا يَرَى الْإِلْتِفَاتِ، أَيْ سِرّاً
سَرِيعاً لَا يَلْتَفِتْ مَعَهُ إِلَى مَهْمٍ. قَوْلُهُ: بَلْ أَيْدِيهِمَا، يُقَالُ: بَلَّتْ بِهِ أَيْ بَلَّتْ إِذَا ظَفِرَتْ
بِهِ، وَبَلَّتَ اللَّهُ بَابِنَ، أَيْ رَزَقَكَ، وَفِي الْحَدِيثِ: «بُلُّوا أَرْحَامَكُمْ وَلَوْ بِالسَّلَامِ». أَيْ صَلُّوا، وَبَلَّتْ رَجْحَى أَبْلُتْهَا بِلَالاً، إِذَا نَدَيْتَهَا وَوَصَلَتْهَا. الْحِجَاءُ: الْعِطَاءُ.
جَالَ: تَصَرَّفَ وَقَطَعَ الْبِلَادَ بِالشَّىْ.

المقامة السادسة والأربعون وهي الحلبية

روى الحارث بن همام قال : نَزَعَ بِي إِلَى حَلَبَ ، شَوْقٌ غَلَبَ ،
وطلبٌ يالَهُ مِنْ طَلَبٍ ! وَكُنْتُ يَوْمَئِذٍ خَفِيفَ الْحَاذِ ، حَدِيثِ
النَّفَازِ ، فَأَخَذْتُ أَهْبَةَ السَّيْرِ ، وَخَفَقْتُ نَحْوَهَا خُفُوقَ الطَّيْرِ ؛ وَلَمْ أَزَلْ
مَذْ حَلَلْتُ رُبُوعَهَا ، وَارْتَبَعْتُ رِبِيعَهَا ، أَفَانِي الْآيَامَ ، فِيمَا يَشْنِي الْغَرَامَ ،
وَيُرْوَى الْأَوَامَ ؛ إِلَى أَنْ أَقْصَرَ الْقَلْبَ عَنْ وَلُوعِهِ ، وَاسْتَطَارَ غَرَابُ
الْبَيْنِ بَعْدَ وَقُوعِهِ .

* * *

نَزَعَ بِي ، أَيْ شَوْقَنِي وَحَمَلَنِي .

[ذَكَرَ مَدِينَةَ حَلَبَ]

حَلَبَ : مَدِينَةٌ عَظِيمَةٌ بِالشَّامِ وَقَنَسَرِينَ ، خَمْسَ مِنْ أَمْحَاسِ الشَّامِ ، وَمَدِينَتُهُ
الْعُظْمَى حَلَبَ وَسَاحِلُهَا أَنْطَاكِيَّةٌ . وَذَكَرَهَا شَيْخُنَا ابْنُ جَبْرِ فَقَالَ : حَلَبُ
بَلَدٌ قَدْرُهَا خَطِيرٌ ، وَذَكَرُهَا فِي كُلِّ زَمَانٍ يَطِيرُ ، خُطَّابُهَا مِنَ الْمُلُوكِ كَثِيرٌ ؛
كَانَتْ فِي الْقَدِيمِ رُبُوعٌ فِيمَا يُقَالُ ، كَانَ يَأْوِي إِلَيْهَا إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ
بِفَنَمِهِ ، فَيَحُلُّبُهَا هُنَاكَ وَيَتَصَدَّقُ بِلَبْنِهَا ، فَسُمِّيَتْ حَلَبَ ، وَبِهَا مَشْهَدُ كَرِيمٍ مَنْسُوبٌ
إِلَيْهِ ، يَتَبَرَّكُ النَّاسُ بِالصَّلَاةِ فِيهِ ، وَلَهَا قَلْعَةٌ شَهِيرَةٌ بِالْامْتِنَاعِ ، بَائِنَةٌ الِارْتِفَاعِ ، مَعْدُومَةٌ
الشَّبهِ وَالنَّظِيرِ فِي الْقِلَاعِ ، تَنْزَهَتْ حَصَانَةً أَنْ تُرَامَ أَوْ تُسْتَطَاعَ ، قَاعَةٌ كَبِيرَةٌ ،
وَعَائِدَةٌ مِنَ الْأَرْضِ مُسْتَدِيرَةٌ ، مَنْحَوْتَةُ الْأَرْجَاءِ ، مَوْضُوعَةٌ عَلَى نِسْبَةِ اعْتِدَالٍ
وَاسْتَوَاءٍ ، فَسَبْجَانُ مِنْ أَحْكَمِ تَدْيِيرِهَا وَتَقْدِيرِهَا ، وَأَبْدَعَ كَيْفَ شَاءَ تَصْوِيرِهَا

وتدويرها . ومن كمال جمالها الزائد على المشترط لحصانة القلع أن الماء بها فابع ، وقد صنع عليها جفان ، والطعام يصير فيها الدهر كله ، وليس من شروط الحصانة أهم من هاتين الخلتين ، ويُطيف بجبلها سوران حصينان ، يعترض دونهما خندق بالماء ، فلا يكاد البصر يبلغ مدى عمقه ، وسورها الأعلى مجلّل ، كله أبراج منتظمة فيها القلالي المنيفة ، قد تفتحت كلّها طبقات ، وكل برج منها مسكون ، والبلد ضخم جدًا ، جميل الترتيب ، أسواقه متصلة الانتظام ، تخرج من سماط صفة إلى سماط أخرى ، وقيساريته وجامعها ومدارسها ما تُسمع بمثل وصفها في بلد من بلاد الله تعالى ؛ كل سوق من أسواقها مسقف بالخشب ، يقيدُ البصر حسنًا ويستوقف المستوفز تعجبًا . وقيساريته حديقة بستان نظافة وجمالاً ، مطيفة بجامعها . وأكثر حوائطها خزائن من الخشب البديع الصنعة ، قد اتصل السماط كله خزانة واحدة ، وتخلّتها شرف حسنة ، بديعة النقش وتفتحت كلها حوائط ، فجاءت في أجمل منظر ، وكلّ سباط منها يتصل بباب من أبواب الجامع .

ثم أخذ ابن جبير في وصف الجامع والمدارس والبيارستان بأنواع من الأوصاف الحسان .

* * *

قوله : يا له ! معناه التعجب كأنه قال : ما أعجبه من طلب : خفيف الحاذ ، أى قليل العيال ، وتقدّم الحاذ في السادسة . حيث النفاذ : سريع المفعي في أموره ، ورجل نافذ ونفوذ ونفاذ : ماض في جميع أموره . أهبة : عدّة . خففت : ارتحلت بسرعة . حلت ربوعها : نزلت في بيوتها . ارتبعت ربيعها : التمت خيبرها . أفانى : أقطع ، وفنى الشيء ، تم وانقطع . والغرام : عذاب الحب . والأوام : العطش . وأقصر : كف ، وأقصرت عن الشيء : تركته وأنت عليه قادر . ولوعه : مصدر ولع به إذا أحبه ولزمه . استطار ، بمعنى انتشر . وقوعه : نزوله ، وهم يتشاءمون بالغراب لأنه يؤذن عندهم بالفراق ، وذلك أنهم لا يرون

الغراب عند منازلهم إلا إذا حطوا بيوتهم للرحيل ، ينزل يلتمس ما يتركون مما يُلقط ، ولذلك سموه غراب البين ، واشتموا من اسمه الغريب والغربة .

* * *

فأغرا نى البال الخلو، والمرحُ الخلو ؛ بأن أقصد خص لأضطاف ببقعتها ، وأسبر رقاعة أهل رُقعتها ؛ فأسرعت إليها إسراع النجم ؛ إذا انقض للرجم ، فحين خيمت برُسومها ، ووجدت روح نسيها ، ملح طرفي شيخاً قد أقبل هريره ، وأدبر غريره ، وعند عشرة صبيان ، صنوان وغير صنوان ، فطاوغت في قصده الحرص ؛ لأخبر به أدباء خص ، فبشّ بي حين وافيته ، وحيّا بأحسن مما حَيَّيته ، جلست إليه لأبلو جنى نطقه ، وأكنته كنهه مخفه ، فابث أن أشار بمصيته ، إلى كبر أصيبيته ، وقال له : أنشد الأبيات العواطل ، واحذر أن تماطل ، فجنا جثوة ليث ، وأنشد من غير ريث ..

* * *

أغرا نى : حرّضنى وسلّطنى . الخلو : الفارغ . المرح : النشاط وخفة النفس من الطرب .

[ذكر حمص]

حمص مدينة عظيمة ، بينها وبين دمشق مائة ميل ، وأرض حمص خمس من أخماس الشام ، وهى مدينة يقال إن لها سوراً وفي وسطها حصنها ، ولا تدخلها حية ولا عقرب ، وأول من ابتدع الحساب أهلها ، لأنهم كانوا تجاراً ياشبيلية وأحوازها ، نزل أهل حمص عند افتتاح الأندلس ، فلذلك سميت حمص ، أخذت من قولهم : حمص الجرح يحمصُ مُحوصاً ، والحمص ينحمص انحصاصاً ، إذا ذهب وزمّه .

قال اليعقوبى : مدينة حص من أوسع مبانى الشام ، ولها نهر عظيم ، منه يشرب أهلها ، افتتحها أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه . وفى حديث عمر رضى الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لَيَبْعَثَنَّ الله تعالى من مدينة بالشام يقال لها حص سبعين ألفاً يوم القيامة لا حساب عليهم » .

ودخلها شيخنا ابن جبير سنة ثمانين وخمسائة وقال : هى فسيحة الساحة ، مستطيلة المساحة ، نزهة لعين مصرها من النظافة والملاحة ، موضوعة فى بسيط من الأرض ، عريض مداه ، لا يتخترقه النسيم بمسراه ، ويكاد البصر يقف دون منتهاه ، وماؤها يجلب لها من نهرها العاصى ، وهو منها بنحو ميل ، ومنبعه فى مغارة بسفح جبل بمرحلة منها ، بموصل يقابل بعلبك . وأهل حص موصوفون بالنجدة لجاورتهم العدو ، وأسوارها فى غاية العتاقة والوثاقة ، مرصوص بناؤها بالحجارة السود ، وأما داخلها فما شئت من بادية شعثاء ، خَلْمَةُ الأرجاء لا إشراف لآفاقها ، ولا رَوْنَقٍ لأسواقها ، وما ظنك ببلد حصن الأكراد منه على أميال يسيرة ، وتجدها فيها عند اطلاعك عليها بعض شبّه من مدينة إشبيلية يقع للحين فى نفسك حبها ، ولذلك سميت باسمها فى القديم ، ولهذا نزل إشبيلية بعض أعراب حص .

وقال الفنجديسى : بأهل حص يضرب المثل فى الحماقة ، وكثرة الرقاعة ، ونسب إليهم حكايات مضحكة ، حكى عن بعضهم أنه قال : دخلتها وفى فمى درهم لأشترى به بعض ما اشتبهه ، فإذا برجل يباب الجامع جالس على كرسي ، وعلى رأسه عمامة محنك بها على قانسوة ، وقد لبس فرّوة مقلوقة بلا سراويل ، وقد تقلد سيف ، وفى حجره مصحف يقرأ فيه ، وعنده كلب رابض يسكه بمَقْوَدَه ، فسألت عليه ، فردّ السلام ، وقلت له : أترى القوم صلّوا ؟ فقال لى : أو أنت أعمى ! أما ترانى قاعداً ! قلت : من أنت ؟ قال : أنا أبو خالد إمام الجامع ، فقلت : ما هذه الحلية ؟ قال : ورد رجل زنديق يقرأ السبع الطوال ، ويشتم أبا بكر الصناديق وعمر القواريرى وعثمان بن أبي سفيان ومعاوية

ابن أبي غَسَّانَ الذي هو من حملة العرش ، وزوجه النبي ابنته عائشة في زمن الحجاج بن يوسف ، فاستولدها الحسن والحسين ، فقلت : ما أعرفك بالمثالة والأنساب ! قال : وما خفيَ عنك أكثر ، قلت : أتحفظ القرآن ؟ قال : نعم ، قلت : فاقراً شيئاً منه ، فقال : بسم الله الرحمن الرحيم « وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لَابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا ، فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَهْمُ لَهُمْ رُؤْيَاكَ » ، فصغته صغرة سقطت عمامته ، وبقي التحنك في عنقه ، فصاح بالناس : قلنسوتي ! وقال : احملوه إلى المحتسب ، فأوصلوني إلى رجل حاسر حافٍ ، قد لبس دراعة بلا سراويل ، فقال : ما صنع هذا ؟ قالوا : صنع إمام الجامع ، قال : يا مسكين ، أهلكك نفسك ، قلت : هذا حكم الله فصبراً عليه ؟ قال : أيما أحب إليك تميل عينيك ، أو قطع يديك ، أو تدفع نصف درهم ؟ قال : فرفعت يدي وصغته المحتسب صغرة ، ثم أخرجت الدرهم من فمي ، وقلت : يا سيدي خذ نصف درهم لك ، ونصف درهم لإمامك .

وقال فيهم بعض الشعراء :

لأنهم أهلُ حص لا عقول لهم بهائم غير معدودين في الناس
ونزلها في القديم أهلُ البين ، ولم يكن فيها من مصر إلا ثلاثة أبيات :
وكان لهم إمام من مصر ، ففضبوا عليه وعزلوه ، فقال فيهم ديك الجن يهجوهم :
سمعوا الصلاة على النبي توالى ففترقوا شيعاً وقالوا : لا ، لا (١)
ثم استمر على الصلاة إمامهم فتحزبوا ورعى الرِّجَالُ رجالاً
يا أهلَ حص توقموا من عارها خزيًا يحلُّ عليكم ووبالاً
شاهت وجوهكم وجوهاً طالبا رغمت معاطسها وساءت حالاً

* * *

(١) ديوانه ١١٠ ، وآخر بيت في هذه المقطوعة :

إِنْ يُبَيِّنْ مَنْ صَلَّى عَلَيْهِ كَرَامَةً فَاللَّهُ قَدْ صَلَّى عَلَيْهِ تَعَالَى

قوله : أصطاف ، أى أسكن فى العيِّف . وأسبر : أختبر . والرقاعة :
نجاوز الحدَّ فى الوقاحة وصلابة الوجه . والبقة : القطعة من الأرض ، وكذلك
الرقعة . وانقضَّ النجم للرجم ، إذا استطار لرجم الشياطين ، وأراد أنه أسرع
إليها بسرعة الخليل كسرعة النجم المنقضَّ ، قال خلف الأحمر :

كالسكوك الدرِّى مبتهلاً سيراً يفوت الطرفَ أسرعهُ
وكانما جهدت أليته ألا تمس الأرض أربعهُ
وقال ابن الرومى :

خذها تبوعاً لمن أولى مسومة كأنها كوكب فى إثر عفريت^(١)
وما أحسن قول ابن المعتز فى هذا المعنى :

كأنما النجم والعفريت مسترقاً للسمع ينقضُّ يُلقى خلفه لهبةً
كفارس حلّ من عجب عمامته فردّها كلّها من خلقه عذبةً
قوله : خيَّم ، أى أقمت ، وأصله ضربت خيعة . رسومها : آثارها .
روح نسيمها : لذة ريحها : ملح طرفى : أبصرت عيني . هريره : صياحه ، وقد همرَّ
الكلب هريراً ، إذا نبح وحمل على مَنْ أنكره . وغريره : شبابه ، والغرة : صغر السن ،
ومعناه أقبل شره وسوء خلقه ، وأدبر صباه وحسن خلقه ، ولما كانت خليقته فى
هذه المقامة منبسطة مع صبيانها صار هذا التفسير فيه بُمد . وقال بعضهم : أقبل هريره ،
أقبل هَرَمَهُ وبُئسه ، من همرَّ الشوك إذا اشتدَّ يئسه حتى صار كأنياب الهرِّ ،
وهذا يوافق الغرض ، فعناه أقبل هَرَمَهُ وكِبَرَهُ وأدبر صباه وصِغَرَهُ ، ومثله
كالت الإبل شجر الشوك ، إذا رعت كأنها رعت فيه أنياب السكّلاب لصعوبته ،
والغرير أيضاً : الضامن ، ويكنى به هنا عن الشباب كأنه ضمن لصاحبه طولَ
الحياة المفقود . معناها فى الهرم . والصنوّ : الأخ الشقيق ، وأصل الصنوّ فى النخيل
والشجر ، وهى التى تجتمع أصولها وتفترق أجسادها . الحرثص : الرغبة والطمع .

أخبر : أجرب : بش . استبشر ، والبشاشة إظهار السرور وبسط الوجه .
وافيته . أتيته . جنى نطقه : ما يحنى من كلامه ويحصل منه . أكتنه : أتعرف
وأتحقق . كنه . قدر وحقيقة . ابن الأنباري : الحق عند العرب الحجر ، ثم أخذ
منه الأحق وهو المتغير العقل .

[من نوادر المعلمين]

فمما يحكى من حماقتهم : كان حمزة المعلم متقلناً فأنشد فيه أبو جعفر الحاكم :
أرى على حمزة المقرى قلنسوة عساكر القمل تجرى في حواشيتها
إن المعلم لا تخفى حماقته ولو تقلنس بالدنيا وما فيها
تقلنس : لبس القلنسوة .

الجاحظ : عقل مائة معلم عقل امرأة ، وعقل مائة امرأة عقل حائك ، وعقل
مائة حائك عقل خصي ، وعقل مائة خصي عقل صبي ، قال الشاعر :
معلم صبيان وصاحب ذرة وليس له عقل بمقدار ذرة

الغنجدية : قال أبو طاهر : عقل امرأتين كاملتين عقل رجل ، وعقل
أربعة خصيان عقل امرأة ، وعقل أربعين حائكاً عقل خصي ، وعقل أربعين
معلمًا عقل حائك .

الزبير بن عبد الملك الهاشمي قال : مررت ببعض المعلمين ويعرف بكسرى ،
فرأيت به يصلي بالصبيان صلاة العصر ، فلم أزل واقفاً أفكر فيه ، فلما أن ركب
أدخل رأسه بين رجليه ، لينظر ما يصنع الصبيان خلفه ، فرأى صبيًا يلعب .
فقال له وهو راكع : يا بن البقال ؛ هوذا ؟ أدري ما تصنع !

الجاحظ : مررت بمعلم وقد كتب على لوح صبي : « وإذ قال لقمان لابنه
وهو يعظه . يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً ، وأكيدُ
(م ١٤ — شرح مقامات الحريري ج ٥)

كيداً ففهل الكافرين أمهلهم رويداً». فقلت: ويحك! أتدخل سورة في سورة؟ فقال: نعم عافاك الله، إن أبا العاصِّ بَطْرَأمه يدخل أجرة شهر في شهر، وأنا أيضاً أدخل آية في آية، فلا أنا آخذ شيئاً ولا الصبي يتعلم شيئاً.

أبو بكر القبطي: عبرت على معلم وهو يُبْلَى على غلام بين يديه: «فريق في الجنة وفريق في السعيد»، فقلت: يا هذا ما قال الله من هذا شيئاً إنما هو في السعير، فقال: أنت تقرأ على حرف أبي عاصم بن العلاء الكسائي، وأنا أقرأ على حرف أبي حمزة بن عاصم المدني فقلت: معرفتك بالقراء أعجب إليّ؛ وانصرفت.

وروى بعض الفضلاء قال: مررتُ في بعض قرى السَّوَادِ، وإذا معلم صبيان يقول: ويحكم يا صبيان، تفسون افصاح به واحد منهم، وقال: إنما فسا أخى، فقال المعلم: إني لأعلم فسوته الخبيثة، ولكن أعلل نفسي بالأباطيل، ثم قال: إني لأعرف فساءكم كما أعرف أصواتكم، وحلف على ذلك ثم أنشد:

معلم صبيان يروح وَيَغْتَدِي على أنفه ألوان ريح فُسَاءِهِمْ
وَقَدْ أَفْسَدُوا مِنْهُ الدِّمَاغَ بِقَسْوِهِمْ ورفعهم أصواتهم في سَحَاهِهِمْ

الجاحظ: كان في المدينة رجلٌ معلمٌ صبيان، يُفِرط في ضربهم، فلاموه على ذلك، فسأني حاله معهم، فاستفتح صبي، وقال: يا معلم، وإنَّ عليك اللعنة إلى يوم الدين، ما بعده؟ فقال: بل عليك وعلى والديك لعائن الله تترى.

وجاء آخر فقال: يا معلم، أخرج منها فإنك رجيم، ما بعده؟ قال: ذاك أبوك الكَشْخَان. وجاء آخر، فقال: يا معلم مالنا في بناتك من حقٍّ، ما بعده؟ فقال: لا ولا رأيتهن، فقال: على هذا أضربهم، أتعذرونني؟ قلت: نعم.

العنتي: كان ببغداد معلمٌ يشتم الصبيان فأخذت بيد المشايخ فدخلنا عليه، فقلنا: يا شيخ ما يحمل لك أن تشتم هؤلاء الصبيان؟ فقال: أنا مبتلى بهم، ما أشتم إلا مَنْ يستحق الشتم، فاحضروا حتى تسمعوا بعض ما أنا فيه، فحضرنا

معه ، فقرأ عليه صبيّ : « عليها ملائكة غلاظ شداد يعصون الله ما أمرهم ولا يفعلون ما يؤمرون » فقال : يا ماصّ بظُرأمة ، فليس هؤلاء ملائكة ولا أعراب ولا أكراد شهرزور ، قال : فضحكنا والله حتى بال أحدنا في سراويله ، فقرأ عليه آخر : « لا تنفقوا إلاّ من عند رسول الله » وتردّد فقال : من عند أبيك القرّنان أولى ، فإنه أكثر مالاً يا بن الفاعلة ، أتُلزِم النبي صلى الله عليه وسلم نفقةً لا تجب عليه ؟ أمعجبك كثرة ماله ؟ فقال : فكنت بعد ذلك أترك أشغالي ، وأجلس عنده أتعجب .

الجاخط : سرق صبي عثمان مصحفاً ، فقال له المعلم : ماذا لقيت المصاحف منكم يا آل عثمان ! أبوك أحرقها وأنت تسرقها !

قال أفلح التركي : خرجنا مرّة إلى حرب لنا ، ومعنا معلم كان يقول : أنا أتمنى أن أرى الحرب كيف هي ؟ فأخرجناه معنا ، فأول سهم جاء وقع في رأسه ، فلما انصرفنا دعونا له معالجا فنظر إليه ، وقال : إن خرج الزّج وفيه شيء من دماغه مات ، وإن لم يخرج عليه شيء من دماغه لم يكن عليه بأس ، فسبق إليه المعلم فقبّل رأسه ، وقال : بשרك الله بخير ، أنزعه فما في رأسى دماغ ، فقال الطبيب : وكيف ذلك ؟ قال : لأنني معلّم كتاب الله تعالى ، وما في رءوس المعلمين ذرّة من دماغ ، ولو كان فيه ذرّة من دماغ ما كنت هاهنا .

وقال موسى بن حسان السكاتب : رأيت بالبصرة معلّماً قد أجلس أولاد الأغنياء للظلّ وأولاد المساكين للشمس ، وهو يقول لأولاد الأغنياء : يا أهل الجنة ، ابرّقوا على أهل النار - يعني أولاد المساكين - قتل : يا هذا ، ما بال هؤلاء يُبخسون ؟ فقال : هؤلاء يبخسون الأخطار .

أحمد بن دليل : مررت بمعلّم يضرب صبيّاً ، ويقول : والله لأضربنك حتى تقول لي : من حفر البحر ؟ فقلت : أعزّك الله ، والله لا أدرى أنا من حفر البحر ، فقل لي حتى أتعلّم أنا ، فقال : حفر البحر كردم أبو آدم عليه السلام .

أبو العنابس : كان في دَرْبنا معلّم طويل اللحية ، فكنت أجلس إليه كثيراً وأتلمّى به ، فجئته يوماً وبين يديه صبيّ يقول له : ويلك ! الدجلة من حفرها ! قال : عيسى بن مريم ، قال : فالجبل مَنْ خَلَقَهُ ؟ قال : موسى بن عمران ، قال : فالبحر ، مَنْ دَوَّرَهُ في است الجبلِ ، قال : شيطان يقال له الحىّ ، قال : أحسنت ، فأدّم مَنْ أبوه . قال : نوح ، قال : بنجر بنجر ، نجوت والله ! قلت : يا سبحان الله ! أليس آدم أباً البشر ! قال : نعم ، قلت : فكيف يكون نوح أباه ! قال : ويلك أتعرفنى بآدم وأنا أبو عبدالله المعلم ، يا صبيان كرفسوه فكرفسونى ، حتى صيرونى مقيداً ، خلفت ألا أقف على معلّم أبداً .

الجاحظ : أتت امرأة إلى معلّم بابت لها ، وكان المعلم طويل اللحية ، فقالت : إن هذا الصبي عاق لا يطيعنى فأحب أن تفرّغه ، فأخذ المعلم لحيته وألقاها في فيه وحرك رأسه ، وصاح صيحة ، فصرطت المرأة من الفزع ، وقالت : إنما قلت لك : فرّغ الصبي ، ليس إياى ، فقال لها : مرّى يا حقهاء إن العذاب إذا نزل هلك الصالح والطالح .

الأصمعي : مررت بمعلّم بالبصرة يضرب صبيّاً ، ثم أقام الصبيان صفّاً ، وجعل يدور عليهم ، ويقول : اقرءوا ، فلما بلغ الصبيّ المضروب ، قال لآخر إلى جنبه : قل له : يقرأ فإنى لا أكلمه !

[فصل في التأديب والأدباء]

ونذكر هنا في التأديب والأدباء ما يكون من شكل هذا الموضع ، ثم نقيع عند ذكر الغلمان الحسان من الأشعار ما يجرى كاليان والتفسير لأحوالهم بعون الله تعالى .

قالت الحكماء : من أدّب ولده صغيراً سرّ به كبيراً ، ومن أدّب ولده أرغم حاسده .

وقال ابن عباس : مَنْ لَمْ يَجْلِسْ فِي الصَّغَرِ حَيْثُ يَكْبَرُهُ ، لَمْ يَجْلِسْ فِي الْكِبَرِ حَيْثُ يَحِبُّ .

وقالوا : أَطْبَعُ الطَّيْنُ مَا كَانَ رَطْبًا ، وَأَغْرَزَ الْعُودُ مَا دَامَ لَدْنَا .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَثَلُ الَّذِي يَتَعَلَّمُ فِي صَغَرِهِ كَالنَّقَشِ عَلَى الصَّخَرِ ، وَالَّذِي يَتَعَلَّمُ فِي كِبَرِهِ كَالَّذِي يَكْتُبُ عَلَى الْمَاءِ » .

وسمع الأحنف : التَّعَلَّمَ فِي الصَّغَرِ كَالنَّقَشِ عَلَى الْحَجَرِ ، فَقَالَ : الْكَبِيرُ أَكْبَرُ عَقْلًا ، وَلَكِنَّهُ أَشْغَلُ قَلْبًا .

وقال علي رضي الله تعالى عنه : قَلْبُ الْخَدَثِ كَالْأَرْضِ الْخَالِيَةِ إِذَا أُلْقِيَ فِيهَا شَيْءٌ قَبْلَتَهُ .

وقالوا : نَشَاطُ الْأَلْبَابِ فِي عَمَرِ الشَّبَابِ ، وَالسَّوْدُودِ مَعَ السَّوَادِ ، وَشَوَاطِئُ النَّارِ قَبْلَ الرَّمَادِ .

وقال الشاعر :

إِنَّ الْغَضَّاءَ إِذَا قَوْمَتْهَا اعْتَدَلَتْ وَلَنْ تَكُنْ إِذَا قَوْمَتْهَا الْخُشْبُ
وقال آخر :

إِنَّ الْكَبِيرَ إِذَا تَنَاهَى سِنُهُ أُعْمِتَ رِيَاضَتُهُ عَلَى الرُّوَاحِ
فَإِذَا دَفَعَتْ إِلَى الصَّغِيرِ فَإِنَّمَا تَكْفِيكَ مِنْهُ إِشَارَةُ الْإِيمَانِ
وقال آخر :

* وَمَنْ الْعَنَاءُ رِيَاضَةُ الْمَهْرِمِ *

وَأَنشَدُوا :

* أَهْدِ شَيْبَكَ هَذَا تَبْتَغِيَ الْأَدْبَا *

وقال الشاعر في تدريج الصبي برفق :

سَدَّ مِراجِيِ الطِّفلِ في شَأْنِهِ بلفظَةٍ تَشْدُدُ بِهَا أَرْزَرَهُ
واغْتَنَمَ اللِّمَحَةَ مِنْ فَهْمِهِ إِنْ المِبادى أَبْدا نَزَرَهُ
كَمَا تَرَبَّى النَّارُ مِنْ شِعْلَةٍ والذَّوْحَةُ الغِناءُ مِنْ بَذَرَهُ
وهذا ضِدٌّ ما قال للمعري :

لا يَسْتَوِ ابْنُكَ في خَلْقٍ ولا خُلُقٍ إِنْ الحَديدَةُ أُمُّ السَّيفِ والجَلَمِ
فاضْرِبْ وَلِيَدِكَ وادِلِّهِ على رَشْدٍ ولا تَقُلْ هُوَ طِفْلٌ غَيْرِ مُحْتَلِمٍ
قَرَبْ شِقَ برَأْسٍ جَرَّ مَنفَعَةً ووسَّ على نَفْعِ شِقِ الرُّأْسِ بالقَلَمِ
أشار إلى قوله تعالى : ﴿ يا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ .

وقال صالح بن عبد القدوس :

وَإِنْ مَنِ أدَبْتَهُ في الصِّبَا كالعود يُسْقَى المَاءُ مِنْ غَرَسِهِ
حَتَّى تَراه مُورِقًا ناضِرًا بعد الَّذي أَبْصَرْتَ مِنْ بُنْيَسِهِ
والشَّيْخُ لا يَتْرُكُ أخلاقَهُ حَتَّى يُوَارِيَ في ثَرَى رُمْسِهِ
إِذَا ارعوى عاودَهُ جَهْلُهُ كَذِي الضَّنَى عادَ إلى نَكْسِهِ
ما يَبْلُغُ الأعداءُ مِنْ جَاهِلٍ ما يَبْلُغُ الجاهِلُ مِنْ نَفْسِهِ

وقال عتبة بن أبي سفيان لمعلم ولده : ليكن أوَّلُ إِصْلاحِكَ لولَدِي إِصْلاحَكَ
لنَفْسِكَ ، فَإِنْ عَيَّوْهُمْ مَعْقُودَةً بِعِيْبِكَ ، فَالْحَسَنَ عِنْدَهُمْ ما صَنَعْتَ ، والقَبِيحَ عِنْدَهُمْ
ما تَرَكْتَ ، عَلمُهُمْ كِتابُ اللَّهِ ولا تَهْلِهِمْ فِيهِ فَيَتْرَكُوهُ ، ولا تَتْرَكُهُمْ فِيهِ فَيَهْجُرُوهُ ،
ورَوْعُهُمْ مِنَ الحَدِيثِ أَشْرَفُهُ ، وَمِنَ الشَّعْرِ أَعَفَّهُ ، ولا تَنْقَلِبُهُمْ مِنْ عِلْمٍ إلى آخَرٍ
حَتَّى يُنْكَمِهُ ، فَإِنْ ازدحامَ الكلامُ في السَّمْعِ مَشْغَلَةٌ في الفَهْمِ ، وعَلمُهُمْ سِرٌّ

الحكماء ، وأخلاق الأدباء ، وهددهم في أدبهم دوني ، وكن لهم كالطبيب الذي لا يعجل بالدواء قبل معرفة الداء ، وجنبهم محادثة النساء ، واستزدني بزيادتك إيتاهم أزدك في برى ، وإياك أن تتشكل على عذر مئى ، فقد اتسكت على كفاية منك لى .

وأوصى الرشيد مؤدب ولده الأمين ، فقال : إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه ، وثمره قلبه ، فصير يدك عليه مبسوطه ، وطاعتك عليه واجبة ، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين ، أقرئه القرآن ، وعرفه الآثار ، وروّه الأشعار ، وعلمه السنن ، وبصّره مواقع الكلام ، وامنعه الضحك إلا في أوقاته ، ولا تمر بك ساعة إلا وأنت مفتنم فيها فائدة تفيدها له من غير أن تخرق به فتميت ذهنه ، ولا تمن في مسامحته ، فيستحلى الفراغ ويألفه ، وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فإن أباحا فعليك بالشدة والغلظة ، وبالله توفيقكما .

وقال للأصمعى : يا عبد الملك ، أنت أعلم منا ، ونحن أعقل منك ، لا تعلمنا فى ملا ، ولا تسرع بتذكيرنا فى خلا ، واطرکنا حتى نبتدئك بالسؤال ؛ فإذا بلغت الجواب حسب الاستحقاق ، فلا تزد إلا أن نستدعى ذلك منك .

للموردى : إذا كان لبعض الملوك رغبة فى العلم ، فلا تجعل ذلك ذريعة للانبساط عليه والإدلال . وكتب شريح إلى معلم ولده :

ترک العسلة لأکلب یسعى بها یبغى الهراش مع القوارة الرّجس^(١)
فإذا هممت بضربه فبدره وإذا بلغت به ثلاثا فاحبس
وإذا أتاك فعضه بسلامة وعظته موعظة الأديب الأكيس
واعلم بأنك ما أتيت بنفسه مع ما يجرتنى أعزّ الأنفس

(١) العمدة لابن رشيقي ١٧

[فن آخر في المتهمين من المعلمين]

اتصل حماد عجرد بالربيع يعلم ولده ، فكتب إليه بشار :

يا أبا الفضل لا تتم وقع الذئب في الغنم
إن حماد عجرد إن رأى غفلة هجم
بين نخذه حرّبة نى غلاف من الأدم
إن خلا البيت ساعة تجتمع الميم بالقلم

فطرده الربيع .

واتخذ المهديّ قطرباً لتأديب بعض ولده ، وكان حماد يطمع في ذلك ، فلم يتم له تهنتكه وشهرته في الناس بما قال بشار ، فلما تمكن قطرب من موضعه ، صار حماد كالملغى ، فجعل يقوم ويقعد قلقاً ، ثم دس إلى المهديّ رقعة فيها :

قل للإمام جزاك الله سالحة لا تجمع الدهر بين السخل والذئب
السخل غير وهم الذئب فرصته والذئب يعلم ما في السخل من طيب

فقال المهديّ : انظروا لا يكون هذا المؤدب لوطياً ، ثم أخرجوه من الدار ، فبعث الضجر حماداً حيث حرّمه بشار هذه المراتب إلى أن قال فيه :

لقد صار بشار بصيراً بدبره وناظره بين الأنام ضريب
له مقلة عمياء وأسّ بصيرة إلى الأيز من تحت الثياب تشير
على وده أن الحمير تنيكة وأن جميع المالمين حمير

وقال فيه :

ألا من مبلغ عنى الذى والده رُذُ

إذا ما ذُكر الناس فلا قَبْلَ ولا بَعْدَ
وأعْمى يشبه القَرْد إذا ما عَمِيَ القَرْدُ
وقال فيه :

دُعِيتَ إلى بُرْدٍ وأنت لغيره

وهبك ابن برد نكت أملك من بُرْدٍ

وكان عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدّب الوليد لوطياً زنديقاً ، وكان سعيد
ابن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت جميل الوجه شاعراً ، فدخل على عبد الصمد
فراوده في نفسه فسبّه ، وخرج مغضباً ، فدخل على هشام بن عبد الملك ، وهو
يقول :

إنّه والله لولا أنت لم ينجُ مني سالماً عبد الصمد
فقال هشام : ولم ؟ قال :

إنه قد رام مني خُطَّةً لم يرُمها قبله مني أحد
قال : وما هي ؟ قال :

رامَ جهلاً بي وجهلاً بأبي يُدخل الأفعى إلى غيل الأسد

فضحك هشام ، وقال : لو فعلت به شيئاً لم أنكر عليك .

وكان سعيد يومئذ صغيراً في المكتب ومؤدّب عبد الصمد هذا ، فلما راوده
عن نفسه شكاه إلى هشام وأبدع في الكناية ، ورّق هذا المنكر الأكبر بلطف
يقابل به خليفة ، وغاية ذوى الحنكة من الخطباء محاكاة براعته واستعارته ،
وليس ببديع ، فهو من بيت ثلاثة شعراء في نسق ، وكان هذا الشعر سبب إبعاد
عبد الصمد من تأديب أولاد الخلفاء .

قوله : مالبث ، أى ما أقام ولا تأخر . كبر أصيبته ، أى أكبرهم ، وكبر ولد الرجل أكبرهم من الذكور ، وكبر قومه : أقدمهم فى النسب ، أى أقربهم إلى الجد الأكبر ، ومنه قيل : الولاء للكبر . أصيبته تصغير أصبية . قال الجوهري : الصبي : الغلام ، وجمعه صبية وصبيان وهو من الواو ، ولمّا لم يقولوا : أصبية ولا أغلّة استغنوا عنهما بصبية وغلّة ، وجاء فى الشعر أصيبية . وقال سيبويه : تصغير صِبيّة أصيبية ، وتصغير أصبِية صِبيّة وكلاهما على غير قياس .

ابن سيده : عندى أن صبية تصغير صِبيّة وأصِبيّة تصغير أصبِية ، ليكون كل شيء منهما على بناء مكبره .

العواطل : التى لا تقطع فيها . تماطل : تؤخر إنشادها . جثا : برك .
ليث : أسد . ريث : بطاء وتأخير .

* * *

أَعْدِدْ لِحَسَادِكَ حَدَّ السَّلَاحِ	وَأُورِدِ الْآمِلَ وَرَدَ السَّمَاحِ
وَصَارِمِ اللَّهْوِ وَوَضَلِ الْمَهَا	وَأَعْمِلِ الْكُومَ وَسُمَرَ الرِّمَاحِ
وَاسْنَعْ لِإِدْرَاكِ مَحَلِّ سَمَا	عَمَادُهُ لَا لِأَدْرَاعِ الْمِرَاحِ
وَاللَّهِ مَا السُّودُودُ حَسَنُ الْوَلَا	وَلَا صَرَادُ الْحَمْدِ رُوذُ رِدَاخِ
وَاهَا مُحَرَّرٌ وَاسِعَ صَدْرِهِ	وَمَهْمُهُ مَا سَرَّ أَهْلَ الصَّلَاحِ
مُورِدُهُ حُكْمُ لِسْوَالِهِ	وَمَالُهُ مَا سَالُوهُ مُطَاحِ
مَا أَسْمَعَ الْآمِلِ رَدًّا وَلَا	مَاطَلَهُ وَالْمَطْلُ لَوْ مَصْرَاحِ
وَلَا أَطَاعَ اللَّهَ وَلَمَّا دَعَا	وَلَا كَسَا رَحَالَه كَأْسَ رَاخِ

سَوْدَهُ إِصْلَاحُهُ سِرَّهُ وَرَدُّهُ أَهْوَاؤهَ وَالطَّمَّاحُ
وَحَصَلَ الْمَدْحَ لَهُ عِلْمُهُ مَا مُهِرَ الْعُورُ مَهْوَرِ الصَّحَّاحُ

* * *

أورد الآمل ، أى أعطى الراجى . ورد السباح : ماء الكرم . صارم : قاطع . المها : جمع مهاءة وهى البقرة الوحشية ، وأراد النساء . الكوم : جمع كومة ، وهى الناقة العظيمة السنام . اسع : اجر مسرعاً . محل سما : منزل ارتفع . والعماد : قائمة الخباء وإذا علت علا البيت . ادراع : لبس الدروع . والمراح : الطرب والنشاط ، كأنه يقول : لا تشتغل باللهو واشتغل بكسب الشرف . حسو الطللاً : شرب الخمر . الشودد : الفعل الذى يرجع به فاعله سيّداً . سمراد ، بفتح الميم : مذهب وطريق ، وأصله موضع اختلاف الإبل مقابلة ومدبرة وهو المرعى . رُود : جارية ناعمة شابة . والرداح : العظيمة العجز ، وهو كما قال أبو نواس :

لئن خُلِقَ الأنامُ لحبِ كَأْسٍ ومزمارٍ وطنبورٍ وغُودٍ
فلم يُخْلَقِ بنو حَمْدانٍ إلَّا لبأسٍ أو لجُودٍ

واهاً : محباً . ما : بمعنى الذى . مطاح : هالك بالمطاء . صراح : ظاهر .. راحاً : كفاً . راح الثانى : خمر . سؤدده : شرفه ، وجعله سيّداً . سره : باطنه . ردعه : كفه . أهواءه : شهواته . والطماح : ارتفاع النظر . العور : جمع عوراء . وهى الفاقدة إحدى عينيها . مهوور : جمع مهر ، وهو الصداق ، وأعمل علمه فيما بعده من الكلام ، وضرب العور والصحاح مثلاً للأفعال الجميلة والذميمة ، فأراد أن تميزه بين الأشياء المتضادة وعلمه أن مهر القبيحة العوراء لا يبلغ مهر المليحة الحسنة ، جعل ممدوحاً سيّداً . ومثل هذا الشعر الذى لم يتقط ما أنشد أبو القاسم الزجاجى لأحمد بن الورد :

علم العدو ملامة اللوامِ ودوام صدك وهو صدك حمام
لولاك ما حذر السهاد دموعه ولما أطار كراه حرّ أوامِ
هل ما أسرّ وما أوْمَل رادعٍ هول الموم وروعة الأحلامِ
رُدّ السلام وما أراك مسلماً وراك أهل هواك سرّ كلامِ
كم حاسد لك أو مسرّ وداده ومعلل أهواه طول ملامى

وهى قصيدة نحو الثمانين بيتاً وما زال المحدثون يظهرّون اقتدارهم فى هذا الفن ، إلّا أنه قلما يقع فى ذلك بيت مستحسن ، فذلك تركنا أن نمشّى مع أشعار هذه المقامة فيما يماثلها ، وقد أكثر الناس القول فى ذلك ، وفائدته أن يقال : قدّر على لزوم مالا يلزم لا أن يقال : قد أحسن فيما قال ، وقد أنشد أبو القاسم أيضاً ، أبياتاً لا تنطبق عليها الشفاء ، منها :

أُتِينَاكَ يَا جَزَلَ الْعَطِيَّةِ إِنَّنَا رَأَيْنَاكَ أَهْلًا لِلْعَطَايَا الْجَزَائِلِ
عَقِيلَ النَّدى يَا حَارَ عَدْنَا عَقِيلَةً نَعْدُكَ انْتِجَاعًا لِلْحَسَنِ الْعَقَائِلِ

* * *

فقال له : أَحْسَنْتَ يَا بُدَيْرَ ، يَا رَأْسَ الدَّيْرِ ، ثُمَّ قَالَ لِتِلْوِهِ ، الْمُسْتَبِ
يُصْنُوهُ : اذْنِ يَا نُؤَيْرَهُ ، يَا قَمَرِ الدُّوَيْرَةِ ، فَدَنَا وَلَمْ يَتَبَاطَأْ ، حَتَّى حَلَّ مِنْهُ
مَقْعَدَ الْمُعَامَلَى ، فقال له : اجْلُ الْأَيَّاتِ الْعَرَائِسَ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ نَفَاسٌ ،
فَبِرَى الْقَلَمَ وَقَطْ ، ثُمَّ احْتَجَرَ اللَّوْحَ وَخَطَّ :

فَتَنَّنِي فَجَنَّنِي تَجَنَّنِي بَتَجَنَّنِي يَفْتَنُّ غِيبًا تَجَنَّنِي
شَفَقَتْنِي بِجَفْنِ ظُبَى غَضِيبِي غَنِجَ يَفْتَضِي تَغْيِضَ جَفْنِي
غَشِيَتْنِي بِزَيْنَتَيْنِ فَشَفَّتْنِي بِزِيٍّ يَشِفُّ بَيْنَ تَشْنِي

فَتَظَنَّنْتُ تُجَنَّبِي فَتَجَزَّزْ نِي بِنَفْسٍ يَشْفِي نَجِيبَ طَانِي
ثَبَّتْ فِيَّ غَشَّ جَيْبٍ بَزْزِيهِ—نِ خَيْثُ يَنْغِي تَشْفِي ضَنْغِي
فَنَزَتْ فِي تَجَنَّبِي فَتَمَنَّنِي بِنَشِيحٍ يُشْجِي بِنِّ فَنِّ فَنِّ

* * *

قوله : أحسنت يا بدير : تصغير بَدْر ، صغره لصغر سنه ، على أنه قد زعم
أنه كبير صباهه . وفي مثل هذا البدر الذي قد نثر هذه الدرر قال الشاعر :

دُرَّانٍ مِنْ فَمِهِ شَفَا مُحْدَثُهُ لِلنَّثْرِ وَالنَّظْمِ مَسْمُوعٌ وَمُلْتَمِسٌ
فَدَقَلْتُ لَوْ قَبْلَ الْوَعْظِ الْمُبِينِ لَهُ خَفِ الْمُهَيْمِينَ فِينَا إِنَّا نَسَمُ
فَقَالَ مَنْ ضَرَجَتْ خَدَى نَظْرَتُهُ فَإِنْ سَيْفِ جُفُونِي مِنْهُ يَنْتَقِمُ

يا رأس الدير : يا عظيم القوم ، والدير : موضع القسيسين ، أراد به حلقة
أصحابه . تَلَوْه : التابع له ، أو الجالس إلى جانبه . صنوه : أخوه الذي على قدر
سِنِّهِ . اذُنُّ : اقرب . نُؤْيَرَة : تصغير نار ، شبه في حدته وذكائه بها ، أو في
حسنه وبهائه . والدويرة : تصغير دارة ، وهي حلقتهم التي اجتمعوا فيها ،
فكانه قال : يا قرأ في أصحابه .

[مِمَّا قِيلَ فِي الْعُلَمَاءِ الْكَتَاب]

ومما قيل في غلام كاتب : سأل الثعالبي أبا الفضل الدارمي أن يصف له
غلاماً كاتباً حسن الخطّين : خَطَى الْيَدَ وَالْوَجْهَ ، فقال :

وَكَاتِبٌ أَمَدِيْتُ نَفْسِي لَهُ فَهِيَ مِنَ الشَّوْءِ فِدَى نَفْسِهِ
سَاطِئٌ خَدْيِهِ عَلَى مُهَجَّتِي فَاسْتَأْصَلَاهَا وَهِيَ مِنْ غَرَسِهِ
فَلَسْتُ أَدْرِي بَعْدَ مَا حَلَّ بِي بِمَسْكِهِ أَتْلَفُ أَمْ تَقْسِيهِ

وقال في ذلك :

وشادن أسرف في صدّه وزاد في التيه على عبده
الحسن قد بثّ على خدّه بنفسجاً يربو على وزده
رأيتُه يكتب في طرسه خطأ يبارى الدرّ في عقده
نخلتُ ما قد خطّه كفّه للحسن قد خطّ على خدّه

ولابن رشيق :

كتبت ولو أننى أستطيعُ لإجلال قدرك دون البشر^(١)
قدّدت البراعة من أتملى وكان المداؤ سواد البصر
وله أيضاً :

عزيز يُبارى الضّبح إشراق خدّه وفي مفرق الظّماء منه نسيب^(٢)
يزفّ إليه ضاحكاً أقفوانه ويهتزّ في برديه منه قضيب
ولابن المعتز في العذار المشبه بالحروف :

بليت بشادن كالبدر حسناً يُعذّبنى بأنواع الدّلال
غلالة خدّه ورد جنى ونون الصّدغ معجزة بحال
وله أيضاً :

كأنّ خطّ عذارٍ فوق وجنته مبدان أسٍ على وزدٍ ونميرين
وخطّ فوق حباب الدرّ شاربه بنصف صاٍ ودار الصّدغ بالنون
وله أيضاً :

له من عيون الوحش عينٌ مريضة ومن خضرة البستان خضرة شارب
كان غلاماً حاذقاً خطّه له فجاء كنصف الصّاد من خطّ كاتب

(١) التث ٣٧

(٢) التث ٧

وقال آخر :

تعلم العطف من صدغيه فانعطفاً وكان عادته ألا يفي فوفى
دب العذار على ميدان صفحته حتى إذا هم أن يسعى به وقفاً
كانه كاتب عز المداد به أراد يكتب لاماً فابتدى ألفاً

وقال أبو القاسم بن المغربي :

ولما احتوى بذر الدجى صحن خده تحير حتى ما درى أين يذهب
كان انعطاف الصدغ لأم أمالها أديب يجيد الخط أيان يكتب

فهذه الأشعار المستعذبة التي بها تعلق بالغلمان الذين يذكر أنهم كتاب من جهة حسنهم واعتدال قدودهم وتوريد خدودهم ، وتطريزها بالعدار أحسن من ذكر شعر لزومي ليس فيه شيء من الأنس للنفس .

قوله تباطا : أى تأخر وأصله الهمز . المعاطى : الذى تعطيه كأس الخمر ويُعطيهها لك ، وقد عاطيته وعاطاني وقد تعاطى فلان كذا ، أى تناوله وأخذه ، من قولهم : عطوت أعطو عطواً ، أى تناولت . العرائس : جمع عروس ، وسمّاها عرائس لما فيها من التزيين بالنقطة ، وكانت زينة العروس عند العرب أن تنقط في خديها نقط صغار بالزعفران ، فلذلك سمي هذه عرائس لنقطها ، وسمي التي قبلها عواطل لعدم نقطها . نفائس : جمع نفيس ، وهو الرفيع القدر ، يريد أنه لما لزمها ما لم يلزم ضعفت ، وقد ذكرنا أن الغرض بمثل هذه الأشعار إظهار الاقتدار ، وعلى ما ذكر أنها غير نفائس فهي أحسن مما عمل في بابها ، وما أحسن ما قال ديك الجن في جاريته :

انظر إلى شمس القصور وبدرها وإلى خزامها ونفحة زهرها^(١)

(١) ديوانه ٢٦٨ .

لم تَبْلُ عَيْنُكَ أَيْضًا فِي أَسْوَدَ جَمَعَ الْجَمَالَ كَوَجْهَهَا فِي شَعْرِهَا
وَرَدِيَّةُ الْوَجَنَاتِ يَخْتَبِرُ اسْمَهَا مِنْ رِيْقِهَا مِنْ لَا يَحِيطُ بِخَبْرِهَا
وَتَمَايَلَتْ فَضَحَكَتُ مِنْ أُرْدَافِهَا عَجَبًا وَلَكِنِّي بَكَيْتُ لَخَضَرِهَا
تَسْقِيكَ كَأْسُ مُدَامَةٍ مِنْ كَفِّهَا وَرَدِيَّةُ وَمِدَامَةٍ مِنْ ثَغْرِهَا
وَلَا بِنَ الرَّقَاقِ :

تَضَوُّعُنْ إِشْرَاقًا وَأَشْرَقْنَ أَوْجَهَا فَهِنَّ مِنْبِرَاتِ الصَّبَاحِ بَوَاسِمُ^(١)
لَنْ كُنَّ زَهْرًا فَالْجَوَانِحُ أُبْرَجُ وَإِنْ كُنْ زَهْرًا فَالْقُلُوبُ كَأْتِمُ
قَوْلُهُ : قَطْ : قَطْعٌ ، وَقِيلَ : الْقَطْ الْقَطْعُ عَرْضًا ، وَالْقَدْ : الْقَطْعُ طَوْلًا .
اِحْتَجَرَ : جَعَلَهُ فِي حَبْرِهِ . خَطْ : كَتَبَ . فَتَلْتَنِي ، أَيْ عَذَبَتْ قَلْبِي . جَنَّتَنِي :
أَيْ صَيَّرَتْنِي مَجْنُونًا . تَجْنِي : اسْمُ امْرَأَةٍ ، وَالتَّجْنِيُّ الدَّلَالُ وَالتَّبْيِهُ .
وَلِلْبَحْتَرِيِّ :

إِذَا خَطَرْتُ تَارَّجَ جَانِبَاهَا كَمَا خَطَرْتُ عَلَى الْأَرْضِ الْقَبُولُ^(٢)
وَيَحْسُنُ دَلَّهَا وَالْمَوْتُ فِيهِ وَقَدْ يَسْتَحْسِنُ السَّيْفُ الصَّقِيلُ
شَغَفْتَنِي : بَلَغَ حُبُّهَا شِغَافَ قَلْبِي ، وَالشَّغَافُ حِجَابُ الْقَلْبِ . غَزَالُ : غَزَالُ .
غَضِيضُ : مَنْكَسِرُ الْعَرَفِ فَاتِرُ الْعَيْنَيْنِ . وَالْعُنْجُ : تَسْكِيرُ الْكَلَامِ وَتَخْنِيثُهُ
وَهُوَ الْحِجَانَةُ . يَتَقَضَّى : يَتَضَمَّنُ . تَقْيِضُ جَفْنِي : سَيْلَانُ عَيْنِي .
وَمَا قِيلَ فِي مَرَضِ الْعَيْنَيْنِ وَحَسُنَ فِيهِ الْقَشْبِيَّةُ قَوْلُ الْبَحْتَرِيِّ :

غُدَاةٌ تَشَتْ لِلْوَدَاعِ وَسَلَّمْتُ بَعِينِينَ مَوْصُولٍ بِجَفْنَيْهِمَا السَّحَرُ^(٣)
تَوَهَّمْتُهَا أَلْوَى بِأَجْفَانِهَا الْكَوَرَى كَرَى النَّوْمِ ، أَوْ مَالَتْ بِأَعْطَافِهَا الْحَرُ

(١) ديوانه ٢٩٧ .

(٢) ديوانه ٨٢٢ .

(٣) ديوانه ٨٤٤ .

وقال ذو الرُّمة :

لها بَشَرٌ مثل الحرير ومنطقٌ رخيماً الحواشي لا هُراء ولا تَزَنُ (١)
وعينان قال الله كونا فكاتنا فَمَوْلَانِ بِالْأَلْبَابِ مَا تَفْعَلُ الْخَمْرُ
وقد تقدّم جملة من هذا .

غشيتني : أتنى على غفلة . شفتني : أنحلت جسمي . والزنى : الهيئة الحسنة
من اللباس . يشف : يفضل . تنن : اهتزاز وانعطاف . تظنيت : حسبت .
تجنّيتني : تختارني . بنفت : بلفظ وكلام . والجيب : القلب . يبغي : يطلب .
تشقى صِغَتِي : إزالة عداوتي . نزت : وثبت . تجنّيتني : بعدى . ثلثني : ردّتي .
نشيج : صوت البكاء . يشجى : يحزن . بفنّ فنن : بنوع فنوع .

* * *

فلما نظر الشيخُ إلى ما حَبَّرَه ، وتصفّح ما زَبَّرَه ، قال له : بورك
فيك من طَلَا ، كما بُورِكَ في لا ولا . ثم هَتَفَ : اقْرُب ، يا قُطْرُب ،
فاقترب منه فتى يَحْكِي نَجْمَ دُجِيَّة ، أو تَمَثَّلَ دُمِيَّة ، فقال له : اِرْقُمِ
الآياتِ الْأَخْيَافَ ، وتجنّبِ الْخِلَافَ ، فأخذ القلم ، ورَقَمَ :

اسْمَحْ قَبْتُ السَّمَاكِ زَيْنٌ وَلَا تَحِبْ أَمَلًا تَضَيَّفُ
وَلَا تُجْزِدْ ذِي سَوْالٍ فَتَنَ أَمَ فِي السَّوَالِ خَفَّفُ
وَلَا تَظَنَّ الذُّهْوَ تَبَقِي مَالَ صَنِينٍ وَلَوْ تَقَشَّفُ
وَاحْلُمْ خَفْنُ الْكِرَامِ يُفْضَى وَصَدْرُهُمْ فِي الْعَطَاءِ تَقَنَّفُ
وَلَا تَحْنُ عَهْدَ ذِي وَدَادٍ ثَبَتِ وَلَا تَبْغِ مَا تَرَيَّفُ

* * *

(١) ديوانه ٢١٢

(م — ١٥ شرح مقامات الحريري)

حَبْرَه : زَيْتَه . زَبْرَه : كَتَبَه . طَلَا : غَزَالَ . لَأَوَلَا ، بمعنى الزَيْتُون ، ومن كلام العامة : بورك فيك كما بورك في الزَيْت ، وأراد بلاولا قوله تعالى : ﴿ تَوَقَّدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾^(١) ، فأخذ من الآية لا ولا واكتفى بهما .

الفنجدية : يحكى أن بعض الناس ظهرت به علة مزمنة شديدة أعياء الأطباء علائها ، فلما أيسر رأى النبي صلى الله عليه وسلم في التَّوْم فشكا إليه علته المزمنة ، فقال له : عليك بلاولا ، فقصَّ رؤياه على ابن سيرين ، فقال له : إن صدقت رؤياك فإنه صلى الله عليه وسلم أمرك بقناول الزيتون ، فتناولها الرجل فبرئ من علته ، فقال لابن سيرين : من أين قلتها ؟ قال : من قوله تعالى : ﴿ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ ، المعنى من زيت شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ، أى ليست تطلع عليها الشمس أول النهار فقط ، ولا غربية أى عند الغروب فقط ، أى لا يسترها من الشمس في وقت من النهار شيء ، فهو أنضر لها وأجود لزيتها ، وقال صلى الله عليه وسلم : « كلوا الزيت وادهنوا به فإنه يخرج من شجرة مباركة » .

قوله : هتف : صاح . قطرب : خفيف النوم ، والقطرب : دويبة تمشي بالليل . وجنية : تبرك على الإنسان فيجد لها ثقلا ، والعامة تبدل طاءها تاء ، والعرب تسميها القنذلان ، والكابوس والجانوم ، ويسمونها أهل بغداد البحت . دُجْية : ظلمة . دمية : صورة رخام ، وجمعها دُجَى ودُجَى وكان صورة هذا الغلام الذى ذكر الشاعر :

بدأ فبدا من وجهه البدر طالعا	لدى الروض يستعلى قضيبا منعمًا
وقد أرسلت أيدى العذارى بخدّه	عذاراً من الكافور والمسك أسحماً
وأحسب هاروتاً أطاف بطرفه	يعلّه من سحرة ففعلماً
ألم بنا فى دامن الليل فانجلى	فلما انثنى عنا وودّع أظلاماً

(١) سورة الزور ٣٥

والأبيات للأمير أبي الحسن أحمد بن عضد الدولة .

وقال أبو إسحاق الحصري مؤلف كتاب الزهر :

عائِلُ طرفٍ سَقِيتُ خَرّاً مِنْ مَقْلَتِيهِ فَتٌ سَكْرًا
تَرْقِرْتُ وَجَنَّتْهُاءُ ماءً مَازَجَ فِيهِ الْعَمِيقُ دُرّاً
يُحَرِّكُ الدَّلَّ مِنْهُ غَصَنًا وَيُطْلَعُ الْحَسَنُ مِنْهُ بَدْرًا
قَدْ نَمَّ مَسَكٌ بِعَارِضِيهِ خَلَفَ لِلْعَاشِقِينَ عُذْرًا

قوله : الأخياف ، أى المختلفة . وقوله : فأخذ القلم ورقم ، كأن
أبا إسحاق الحصري إياه عنى بهذه الأبيات :

إِذَا بَدَأَ الْقَلَمُ الْأَعْلَى بِرَاحَتِهِ مَطَرُزًا لِرَدَاءِ الْفَجْرِ بِالظُّلَمِ
رَأَيْتُ أَسْوَدَ فِي الْأَبْصَارِ أَبْيَضَ فِي بَصَائِرِ لَحْظِهَا لِلْفَهْمِ غَيْرَ عَمِي
كَرَوْضَةٍ خَطَرْتُ فِي وَشَى زَهْرَتِهَا وَافْتَرَّ نَوَارِهَا عَنْ ثَغْرِ مَبْقَسِمِ
وَكَأَنَّ الْحَدِيثَ اسْتِعَارَ مِنْهُ الدَّوَاةَ وَالْقَلَمَ حَيْثُ قَالَ :

يَارِيمُ هَاتِ الدَّوَاةَ وَالْقَلَمَا أَكْتُبْ شَوْقِي إِلَى الَّذِي ظَلَمًا^(١)
غَضِبَانِ قَدْ غَرَّتْنِي رِضَاهُ وَلَوْ يُسْأَلُ فِيمَا غَضِبْتَ مَا عَلِمَا
لَوْ نَظَرْتُ عَيْنُهُ إِلَى حَجَّارٍ وَلَدَّ فِيهِ فَتَوْرُهَا سَقَمَا
فَلَيْسَ يَنْفَكُ مِنْهُ عَاشِقُهُ فِي جَمْعِ عَذْرِ لَغِيرٍ مَا اجْتَرَمَا
عَلَقْتُ مَنْ لَوْ أَوَى إِلَى أَنْفُسِ الْمَاضِينَ وَالْفَابِرِينَ مَا نَدَمَا

قوله : اسمح : جُدْ . بث : نشر . أملأ : راجياً . تضييف : طلب منك أن
تضييفه . فتن : أتى بفنون من السؤال . ضغن : بخيل . تقشّف : ترك النظافة .

(١) ديوان أبو نواس ٣٣

يُعْطَى: يتغافل. نفنف. واسع، والنفنف مقسم الأرض. ثبت: صادق الود،
ويروى: نث أى نشر. تبغ: تطلب. تزيف: تنقص، وصار زائفاً، وهو
الدرهم الردى.

* * *

فقال له: لَاشَلَّتْ يَدَاكَ، وَلَا كَلَّتْ مُدَاكَ. ثم نادى: يَا عَشْمَسَم،
يَا عِطْرَ مَنْشَم، فَلَبَّاهُ غَلَامٌ كَذَّرَهُ عَوَّاص، أَوْجُوْ ذَرِ قَنَاص، فقال
له: اكتب الآيات العتائيم، ولا تكن من المشائيم، فتناول القلم
المثقف، وكتب ولم يتوقف:

زَيْنْتُ زَيْنَبُ بَقْدَّ يَقْدُ	وَتَلَاهُ وَيَلَاهُ نَهْدُ يَهْدُ
جُنْدَهَا جِيدُهَا وَظَرْفُ وَظَرْفُ	نَاعِسُ تَاعَسُ بِحَدَّ يَحْدُ
قَدْرُهَا قَدْرُهَا وَتَاهَتْ وَتَاهَتْ	وَاعْتَدْتُ وَاعْتَدْتُ بِحَدَّ يَحْدُ
فَارَقْتَنِي فَارَقْتَنِي وَشَطَّتْ	وَسَطَتْ ثُمَّ نَمَّ وَجْدُ وَجْدُ
فَدَنْتُ فَدَيْتُ وَحَنْتُ وَحَيْتُ	مُعْضَبًا مُعْضَبًا يَوْذُ يَوْذُ

* * *

قوله كَلَّتْ، أى حفيت. مُدَاكَ: سكاكينك، جمع مُدْيَةٍ. العشمشم: الذى
لا يردّه شيء عن مراده.

[أصل المثل: دَقُّوا بَيْنَهُمْ عِطْرَ مَنْشَم]

عِطْرَ مَنْشَم، قيل: كانت مَنْشَم جارية عَطَّرَتْ رجالها حين خرجوا للقتال،
فقتلوا عن آخرهم، فضرَبَ بها المثل فى الشُّوم. وقيل: بل الإشارة إلى عطارة،
أغار عليها قوم فأخذوا عِطْرَهَا فمَظَّيَبُوا فاستغاثت بقومها، نخرجوا فى طلبهم،

فمن شثوا عليه رائحة الطيب قتلوه ، ومن أوله على هذا قال : عِطْرُ مَنْ شَمَّ ،
فجعلوه من كلمتين . وقيل : الكناية عن قرون السنبُل الذي يقال إنه سم ساعة .
وذكر ابن الكلبي أنها امرأة من خُزاعة كانت تبِيع العطر فتطِيب
بعطرها قومٌ وتحالفوا على الموت ، فماتوا .

وقال غيره : بل هي صاحبة يسار الكواعب ، وكان عبداً أسود مُشوّه
الخلقة راعى إبل ، فتى رأته النساء ضحك منهُ ، فتوهم أنهنّ يضحكن من إعجابهنّ
بحسنه ، فقال يوماً لرفيق له : أنا يسار الكواعب ، ما رأيتني جارية كاعب إلا
وعشقتني ، فقال له رفيقه : يا يسار ، اشرب لبن العِشار ، وكل لحم الحِوَار^(١) ، وإياك
وبنات الأحرار ، فأبى وراود مولاته عن نفسها ، فقالت له : مكانك حتى آتيك
بطيب أشمك إياه ، فأنته بموسى ، فلما أدنى أنفه ليشم الطيب جدّ عنه .

ويقال إنه لما راودها قالت له : أهكذا تأتيني بذقرك ووسخك ! ادنُ
حتى أعطرك ، فأدخلت يدها تحته وفيها موسى لطيفة قد أعدتها له ، فقبضت على
ذكره وخصيته ، فاقتطعت الجميع ، فخرج فن رأى على تلك الحالة قال له : ما هذا ؟
فيقول : عطرُ من شَمَّ .

وقيل : كانت تبِيع الحنوط وهو عطر الموتى .

وقيل : المنشم : الشر نفسه ، وقيل : المنشم ثمرة سوداء منقنة .

وقيل فيها غير ما ذكر .

وذكر الحريري في الدرّة أكثر هذه الوجوه ، وذكر أن كسر شين منشم
أكثر وأشهر ويروى بفتحها .

قوله المتائم : جمع مُتَمِّم ، وهي التي من عاداتها أن تلد توأمين ، ولما كانت
أبياتها لا يوجد فيها إلا الألفاظ المزدوجة ، سمّيت متائم ، وقيل : المتائم : جمع
توأم على غير قياس . المشائم : جمع مشام ، وهو الكثير الشؤم ، وشبه بدرّة

(١) العِشار : اسم يرم على النوق والحوار : ولد الناقة إلى أن يفصل عن أمه .

غواص في بياضه ورقة ديباجه . وجوذر قناص ، هو الظبي الفاتر العينين ،
والقنّاص : الصياد ، فكأنه يصطاد بعينه من نظر ، وإن أضفت جوذر إلى
القنّاص فمعناه مستقيم ، فيصفه بالخوف وكثرة التلفت خشية أن يُصاد .
وما أحسن ما قال صاحبنا الوزير الحسيب أبو المطرف الزهرى في هذا المعنى
وكان جالساً في باب داره مع زائر له ، فخرجت عليهما من زقاق جارية سافرة
الوجه كالشمس الطالعة ، فحين نظرتهما على غفلة نفرت خجلة فزعة ، فرأى الزائر
ما أبهته ، فكلفه وصفها ، فقال مرتجلاً :

يا ظبيةً نفرت والقلب مسكنها خوفاً لختلى أو عمداً لتعذبي
لتأمنى فابن عبد الحمى ألحقنا عدلاً يؤلف بين الظبي والذبي
وكان ابن رشيق وصف هذا الغلام الكاتب حيث قال :

وفاتر الأجفان ذى وجنة كأنها في الحسن ورد الرياض^(١)
قلت له : يا ظبي خذ مهجتي داوى بها تلك الجفون المراض
فجاوبت من خده خجلة كيف ترى الحمرة فوق البياض
وقال أيضاً :

بين أجفانك سحر ولأغصانك بدر^(٢)
جردت عيناك سيفين لذا أمرك أمر
فعلى خديك من نزع ف دما العشاق أثر
ومن الكشبان شطر لك والأغصان شطر
وسواء قلت در ما أرى أو قلت نعر
وبماذا أصف الخضر وما إن لك خضر
بك شغلى واشتغالى ومضى زيد وعمرو

(١) التثنية ٤١

(٢) التثنية ٣٠

وقال خالد الكاتب :

قد قلتُ لما أن بدا متبختراً والرّدْف يجذب خَصْرَه من خَلْفِه
يا من يسلّم خَصْرَه من رِدْفِه سلّم فؤاد محبّه من طَرْفِه

وله مما يتعلق بالكتابة :

كتبت إليك بماء الجفون وقلبي بماء الهوى مُشْرَبُ
فكيف تخطّ وقلبي يملّ وعَيْنِي تمحو الذي أكتبُ
فليس يتم كتابي إليك بشوقي فمن هاهنا أعجبُ

قوله : زينت زينب بقَدّ يمدّ ، إنما أراد يقْد يقْد ، أى ينقطع لركة خَصْرَه ،
فعوّض منه يقْد لقرب ما بين اللفظين ولضرورة الازدواج . وقال البحترى
في القدود :

من السّمر اللدان إذا استبكرت وصرف الموت في السّمر اللدانِ
شبهات الرّماح قنّ جفون وكلم في القلوب بلا سنان
فهل من ضربة أو من سنان كعين أو كشر أو بنانِ

وقال السرى :

قامت وخُوط البانة الميّاس في أثوابها
تسقى بصهايين من الحاظها وشرابها
ويهزّها سُكران سُكر شرابها وشبابها
وكانّ كئس مُدامها لما ارتدت بحبابها
توريد وجنتها إذا ملاح تحت نقابها

وقال القاضي أبو حفص بن عمر :

هَذَا فَوَادَى أَقْصَدْتُهُ الْأَنْهَمُ مَنْ ذَا يَرَى تِلْكَ الْجَفُونَ وَيَسْلَمُ
يَا غُرَّةَ حَكَمِ الْجَمَالِ لَهَا عَلَى شَمْسِ الضُّحَى وَأَصَابَ فِيمَا يَحْكُمُ
يَحْكِي الْجَاذِرَ جِيدُهَا وَلِحَافُهَا هِيَّاتِ دُونَ الْعَالَمِ الْمُتَعَطِّ
وَكُنَّ قَامَتَهَا وَنَعْمَةُ لَفْظِهَا غُضُنْ عَلَيْهِ بَلْبَلٌ يَتَرَّمُ
يَضْحَى الْخَلَى إِذَا رَأَاهَا عَاشِقًا وَالْعَمَلُ تَوَقُّطُهُ اللَّحَافُ النُّومُ
وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَ أَبُو الْحَسَنِ بْنُ الْقَبْطَرُوتَةِ :

ذَكَرْتُ سَلِيمِي وَحَرَّ الْوَعْيِ كَقَلْبِي سَاعَةً وَدَعَتْهَا
وَأَبْصَرْتُ بَيْنَ الْقَنَا قَدَّهَا وَقَدْ مَلَأَ نَحْوِي فَعَانَتْهَا
قَوْلُهُ : تَلَاهُ ، أَيْ تَبِعَهُ . وَيَلَاهُ : دَعَا لِنَفْسِهِ بِالْوَيْلِ وَالْحَسْرَانِ حِينَ رَأَى
نَهْدًا لَا يَصْبِرُ عَنْهُ .

[فِي وَصْفِ النَّهْدِ]

وَمَا جَاءَ مِنَ التَّشْبِيهَاتِ الْحَسَنَةِ فِي أَوْصَافِ النَّهْدِ قَوْلُ عَمْرِو بْنِ كُلْثُومٍ :
وَنَدِيًّا مِثْلَ حَقِّ الْعَاجِ رَخْصًا مِصَانًا مِنْ أَكْفِ اللَّامِسِينَا^(١)
بِشَار :

وَالنَّهْدُ تَحْسَبُهُ وَسَنَانٌ أَوْ كَسِيلًا وَقَدْ تَمَازَلُ مِيلًا غَيْرَ مُنْكَسِرٍ
ابْنُ الرَّومِيِّ :

صَدُورُ فَوْقَهُنَّ حَقَاقُ عَاجٍ وَدُرٌّ زَانَهُ حُسْنُ اتِّسَاقٍ
بِقَوْلِ الْقَائِلُونَ إِذَا رَأَوْهُ أَهَذَا الدَّرَجَاتُ مِنْ هَذِي الْحَقَاقِ !

(١) الملققات — بشرح الأبريزي ٣١٤

وأخذه من قول عبد الله بن السبط :

كَأَنَّ التَّدْيَ إِذَا مَا بَدَتْ وَزَانَ الْعُقُودَ بَيْنَ التَّحُورَا
حِقَاقُ مِنَ الْعَاجِ مَكْنُونَةٌ يَسْعَمَنَّ مِنَ الدَّرِّ شَيْئًا يَسِيرًا

ولإدريس اليماني :

أَيَا رَبَّةَ النَّهْدِ الَّذِي بَسَنَاهُ يَحْطُ فَتَى الْهَيْجَاءِ عَنْ فَرَسٍ نَهْدِ
أَحْقَانٍ مِنْ عَاجٍ بِصَدْرِكَ أُمِّهَا رَقِيبَانِ قَدْ قَامَا عَلَى جَنَّةِ الْخَالِدِ

ومن البدائع الروائع قول الآخر :

وَذَاتِ دَلَالٍ سَبَتْ مَهْجِي بِمُسْتَشْرِفَيْنِ عَلَى مَثَرِ
كَأَنَّهَا خَوْطُ كَافُورَةٍ بِأَعْلَاهَا نُقْطَتَا عُنْبَرِ

وللقاضي عبد الوهاب ، ويروى لغيره :

يَا صَاحِبِيَّ قَبَالَتِي مُخْصَانَةٌ مَالَتْ فَالِ الدَّعْصِ مِنْ أَعْطَافِهَا
فِي الصَّدْرِ مِنْهَا لِلطَّعْمَانِ أَسَنَةٌ مَا أَشْرَعَتْ إِلَّا لَجَنِّي قِطَافِهَا
إِنْ تَنَكَّرَا قَتَلِي بِهَا فَتَبَيَّنَا تَجَدَا دَمِي قَدْ جَفَّ فِي أَطْرَافِهَا

على بن الجهم :

كَنْتُ مُشْتَقًا وَمَا يَحْجِزُنِي عَنْكَ إِلَّا مَانِعٌ يَمْنَعُنِي ^(١)
شَاخِصٌ فِي الصَّدْرِ غَضْبَانُ عَلَى قَبَبِ الْبَطْنِ وَطَى الْعُكْنِ
يَمْلَأُ الْكَفَّ وَلَا يَفْضُلُهَا فَإِذَا أَثْنَيْتَهُ لَا يُنْذِنِي

* * *

قوله جيدها : أى عنتها ، وكان حبيباً وصف هذه الجارية وجيدها بقوله :

كَالْخَوْطِ فِي الْقَدِّ وَالْفَزَالَةِ فِي الْبَهْجَةِ وَابْنُ الْغَزَالِ فِي غَيْدِهِ
وَمَا حَكَاهُ وَلَا نَهَ ——— يَمُّ لَهُ فِي حَسَنِهِ بَلْ حَكَاهُ فِي جِيدهِ

(١) ديوانه ١٨٨

وإن كان هذا الجيدُ عاطلاً حليماً بقول ابن العباس الأعمى :

ونبتتُ ذاكَ الجيدَ أصبحَ عاطلاً خذى أدمعى إن كنتَ غَضْبَى على الدرِّ
خذى فانظميها أو كِلِمِي لنظميها حُلِيًّا على تلكِ التُّرَّابِ والنَّخْرِ
خذى اللؤلؤَ الرطبَ الذى لَهُجُوا به تحارتهُ جفنى ولجته صــــــ
ولا تخبرى حُورَ الجنانِ فرَبِّما غَضَبَنَكَ بينَ الخديعةِ والمكرِ
طرف : عين . ظرف : حلاوة ورشاقة ، وجعل الطرف والعنق جنداً لها ،
لأنها لما حسنت معنى هذه الصفات انقاد لها عشاقها أذلاء ، فكانها أغارت
على قلوبهم فاستلبتها ، وقد قال فيما تقدّم :

وأحوى حوى رقى لفظه *

فجعله قد ملكه بحلاوته . وقال حبيب :

وحشية ترمى القلوب إذا اغتدت وسنى فما تصطاد غير الصيدِ

فجعلها تصطاد السادات بفتور عينيها ، وهذا المعنى لا يحصى كثرة .

وأراد بالتعاس الفاتر النظر وينعش من كان له منه نصيب وتمكن .
يحدّ : يمنع من رآه من التسلى والتصبّر . زها : تكبر . والتهيه : ضرب من
الزّهو ، وهو الكبر . باهت : فاخرت وعظمت . واعتدت : ظلمت . يحدّ :
يقطع ، أى أن خدّها يقطع فى القلوب لاسيما إن كان كما قال من أحسن :

وبيضاء تحسبها دُرّة تضىء الدجى إن بدت أو تكاذ

نمّم بالمسك كافورتى محيّا حوى الحسن طراً وزاد

فقلت : أوصلك هذا البياض وبعض صدودك هذا السواد

فقلت : أبى كاتب الملوك دنوت إليه بحسن الوداد

نخاف اطلّاعى على سرّه فلم يعد أن رشنى بالمداذ

فوصفها بأن فى خديها خيلاً .

قوله : أَرَقَّتْنِي ، أى منعنى النوم . شَطَّتْ : بعدت . سَطَّتْ : بطشت .
 نَمَّ : أفشى السرَّ ، أى أفشى ما بى من الحب . وجد : حزن من الحب وهم .
 جدَّ : اجتهد . فذنت : قربت . حنَّت : أشقت . مغضياً : متغافلاً عما ينال
 منه . يودَّ : يتعنى . يُودَّ : يُحِبُّ ، يقول : لما نِمَّ لها وجدى بما أُجِنُّه من حبِّها
 وأبصرت ما فعل هجرها بى دنت عند ذلك متى شفقةً ، وحيثنى بسلامها وأنا فى
 حال غضبان ، لما حلَّ بى من الهجر متمنياً أن تحيىنى ، فلمَّا سلمت علىَّ أزلت
 غضبى ، وأغضيت عما ساف من الفعل القبيح .

[أبيات حسان فى وصف الجوارى]

ونذكر هاهنا من الأشعار الحسان مما يوافق وصف هذه الجارية جملة
 مستظرفة ، قال عبید الله بن عبد الله بن طاهر :

يزيدنى البعد شوقاً إليك وطول صدودك حِرْصاً عليك
 ولو كنت أملك ما تملكين من الصبر ما طال شوقى إليك
 وقال آخر :

وما أنسَ لا أنسَ ذاك الخضوع وقفيض الدموع وغزى اليد
 وخدَى مضاف إلى خدَّها قياماً إلى الصبح لم نرقد
 وقال أبو مطرف الزهرى :

مررت بنا وبدت كالبدرة وانفلتت كالفضن والتفتت كالشادن الخرق
 تسربت ببرود الحسن والتحفت بالعُنج واشتملت مرطاً من الغسق
 وقال السرى :

لبست مصندلة الثياب فمن رأى قرأ تسربل قبلها أمواباً^(١)
 وحكت من الظبي الغرير ثلاثة جيداً وطرفاً فاتراً وإهاباً

(١) ديوانه ٦٣

وله أيضاً :

مذهبة الحدود بجلنار سقانا الله من ربك ربنا
مفضضة الثغور بأقحوان^(١) وللقاضى أبى حفص :

همُ نظروا لواحظها فهاموا وتشرّب عقلَ شاربها المدامُ
سماً طرفي إليها وهو بالكِ وتحت الشمس ينسكبُ الغمامُ
يخاف الناسُ مقتلها سواها أيدعمر قلبٌ حامله الحسامُ !
وأذكر قدّها فانوح شوقاً على الأغصان تنعذب الحمامُ
وأعقب همّها في الصّدرِ غمّاً إذا غربت ذكاه أنى الظلامُ
وله أيضاً :

أعيذك يا سليمى من سليمٍ قتلت فتاهم وهو الكريمُ
فمالكِ طالب بتراتِ نفسى إذا قتل الغرامُ فلا غريمُ
فؤادى سار نحوك عن ضلوع بها يا ريمُ حبّك لا يريمُ
ودادكُ صحّ فى قلبِ سليم كطرفك صحّ ناظره السقيمُ
إذا أعرضت نسود الأمانى وإن أقبلت تبييضُ المومِ

* * *

فطفيق الشيخ يتأمل ما سطره ، ويقلب فيه نظره ، فلما استحسن
خطه ، واستصحّ ضبطه ، قال له : لاشلّ عشرُك ، ولا استخبتَ شمرُك .
ثمّ أهابَ بقى فتان ، يُسفرُ عن أزهارِ بُستان ، فقال له : أنشدِ ابنتين
للطرّفين ، المشتبهى الطرّفين ، اللذين أسكتا كلّ نافث ، وأمنا أن
يغرّزا بثالث ، فقال له : اسمع لا وقر سمعك ، ولاهزم جمعك ، وأنشد
من غير تلبث ، ولا ترّيث :

سِيمٌ سِيمَةٌ تَحْسُنُ آثَارَهَا وَاشْكُرْ لِمَنْ أَعْطَى وَلَوْ سَمِسِمَةً
وَالْمَكْرُ مَهْمَا اسْطَعَتْ لَا تَأْتَهُ لَتَقَتْنِي السُّوْدُودَ وَالْمَكْرُمَةَ

* * *

قوله : طَفِقَ ، أى أَخَذَ . يَتَأَمَّلُ : يَنْظُرُ . سَطَرَهُ : كَتَبَهُ . اسْتَصَحَّ : وَجَدَهُ .
صَحِيحًا ، وَالضَّبَطُ : الشَّكْلُ وَالنَّقْطُ : لَا شَلَّ عَشْرُكَ ، دَعَاءٌ ، أَيْ لَا يَسْتَأْصَابُكَ ،
وَيُرَوَّى : لَا تُلَّ عَرْشُكَ ، أَيْ لَا هُدْمَ عِزِّكَ ، وَالرَّوَايَةُ الْأُولَى هِيَ الصَّحِيحَةُ .
اسْتُخْبِثَ : فَسَدَ وَصَارَ خَبِيثًا . نَشْرَكَ : رَأَيْتُكَ الْعِطْرَةَ . أَهَابَ : دَعَا وَصَاحَ .
يُسْفِرُ : يَكْشِفُ عَنْ وَجْهِهِ لثَامَهُ . عَنْ أَزْهَارِ بَسْتَانٍ : عَنْ بَيَاضِ الْوَجْهِ وَحُمْرَةِ
الْخَدَّيْنِ وَالشَّفَتَيْنِ وَسَوَادِ الْعَيْنَيْنِ وَالْأَشْفَارِ وَخَضْرَاءِ الشَّارِبِ وَالْعِذَارِ وَمَحَاسِنِ
لَا تَقَى بِهَا نَاضِرَاتِ الْأَنْوَارِ ، وَقَدْ يَكُونُ يُسْفِرُ بِمَعْنَى يَتَبَسَّمُ عَنْ بَيَاضِ شَقِيقِ
وَأَقْحَوَانٍ وَاحْمَرَارِ عَقِيقِ وَمَرْجَانٍ ، وَكَأَنَّ هَذَا الْغَلَامَ هُوَ الَّذِي ذَكَرَ أَبُو الرِّقْعَمَقِ
بِقَوْلِهِ :

إِذَا جَرَتْ يَدُهُ فِي الطَّارِسِ كَاتِبَةٍ تَبْلُجُ الطَّرْسَ عَنْ دُرٍّ وَمَرْجَانِ
وَإِنْ تَسَكَّمْ جَاءَتْهُ بَرَاعَتُهُ بِكُلِّ مَا شَاءَ مِنْ فَهْمٍ وَتَبْيَانِ
وَقَالَ بَعْضُهُمْ يَصِفُ غَلَامًا كَاتِبًا :

انْظُرْ إِلَى أَثَرِ الْمِدَادِ بِطَرْسِهِ كَبْنَفْسِجِ الرَّوْضِ الْمَشُوبِ بِوَرْدِهِ
مَا أَخْطَأَتْ نُونَاتُهُ مِنْ صُدْغِهِ شَيْئًا وَلَا أَلِفَاتُهُ مِنْ قَدِّهِ
وَكَأَنَّمَا أَلِفَاتُهُ مِنْ شَعْرِهِ وَكَأَنَّمَا قِرَطَاسُهُ مِنْ خَدِّهِ

ولعمري بن فتح :

فَنُونَاتُهُ مِنْ حَاجِبِيهِ اسْتَعَارَهَا وَلَا مَانَتُهُ مِنْ صُدْغِهِ التَّمَاعُطِ
وَمِنْ صَدِّهِ الْمُؤَذَى اسْوَدَّادُ مِدَادِهِ وَمِنْ وَصْلِهِ الْحَبِيِّ ابْيَاضُ الصَّحَافِ

ولأبي إسحاق الحصري في وصف هذا الغلام :

أيا من تَمَسَّكَ الأوصافُ عنه أعنَّه وَصَفِنَا نَظْمًا وَنَثْرًا
وَمَنْ يَدْعُو القلوبَ إلى مُناها بعينيه فلا تَأْتِيهِ قَسْرًا
وَمَنْ يُجْرِي اللَّآلِي في أَقْلاجِ يَمَازِجِ ظَلَمَهُ بَرَدًا وَخَرًّا
ويعرض في رياض الدَّلِّ غصنا ويطلع في سماء الحسن بَذْرًا
كَأَن بَخَذَهُ ذَهَبًا صَقِيلاً أَذَابَ عَلَيْهِ يَاقُوتًا وَدُرًّا
ومنها في وصف الكتاب :

قَرَأْتُ كِتَابَكَ الأَعْلَى مُحَلًّا لَدَى وَمُوقِعًا شَرْفًا وَقَدْرًا
فَأَحْبَبَانِي وَقَدْ غَوَدْتُ مَتِيًّا وَأَنْشَرَنِي وَقَدْ ضَمَنْتُ قَبْرًا
نَقَشْتَ بِحَالِكَ الأَتَاقِشَ نَوْرًا جَلًّا لَعِيونِنَا نَوْرًا وَزَهْرًا
فَدَجَّجَ مِنْ بَسِيطِ الْفِكْرِ رَوْضًا أُنَيْقًا مَشْرِقَ الْجَنَبَاتِ نَضْرًا
لَوْ اسْتَسْقَى الْعَلِيلُ بِهِ لِأَرَوَى أَوْ اسْتَشْفَى الْعَلِيلُ بِهِ لِأَبْرَى
هَفَا عَطَرَ الْجَنُوبِ لَهُ نَسِيمٌ أَقُولُ إِذَا أَنَا سَمِ مِنْهُ نَشْرًا :
نَثَرْتُ لَنَا عَلَى الْكَافُورِ مِسْكًَ وَلَمْ تَنْثُرْ عَلَى الْقُرْطَاسِ خَبْرًا
وله في العذار :

سَلَبْتُ مُحَاسِنَهُ سَوَادَ عِيُونِنَا وَقُلُوبَنَا وَكَسَتْ أَدِيمَ عِذَارِهِ
فَبَدَا طَرَاظًا فِي أَسِيلِ مَشْرِقِ مَا الْحَيَاةُ يَجُولُ فِي أَسْرَارِهِ
عِلْمَ الَّذِي اسْتَلْبَتْ لَهُ يَدٌ حَسَنَةً مَنَا فَمَازَجَ أَمْنَهُ بِحِذَارِهِ
فَالَهُ تَوَقُّفٌ مُسْتَرِيبٌ تَائِبٌ وَلَنَا تَلَهُّبٌ عَاجِزٌ عَنِ تَارِهِ
وقال أبو الفضل الدرامي :

ظَهِيَ إِذَا حَرَّكَ أَصْدَاغَهُ لَمْ يَلْتَفِتْ خَلْقٌ إِلَى الْعِطْرِ
غَنَى بِشَمْرِي مُنْشَدًّا لِيَتَنَى اللَّفْظَ الَّذِي ضَمَنْتَهُ شَمْرِي
فَكَلَّمَا كَرَّرَ إِنْشَادَهُ قَبْلَتُهُ فِيهِ وَلَا يَدْرِي

ولمهيأر :

مشتبه أعرفه وإتما مغالطاً قلت لصحبي دارُ مَنْ^(١)
وحاملي على السرور حاملٍ في كنفه وضرفه سيفَ الفتن
قد كتب الحسنُ على عارضه ما أقبح المجران بالوجه الحسن
ولأبي إسحاق الطليطلي :

ومعذّر رقت له خمر الصبا حيث العذار حباها المترق
ديباج حسن تاه عقلاً ناقصاً فأتها علم الشباب الموق
وشكا الجمال مقيله في ورده فأظله آسُ العذار المشفق
عامت بماء الصقل شامة خده وحما العذار زويرقاً لا يفرق
إن كان يحجو نقشه من خده فطلا الغزال بمسكها يتفتق

قوله : المطرفعين ، أي الغريبين ، وقد أطرفته ، جثته بطرفة ، أي بشيء
موجب . نافث : متكلم . يعزّزا : يقويا ويشدّدا ، وإذا صلب الشيء قيل : تعزّز
وأصله من العزاز وهي الأرض الصلبة .

وقال في الدرة : ويقولون شفعت الرسولين بثالث فيوهون فيه ، والعرب
تقول : شفعت الرسول بآخر ، أي جعلتهما اثنتين ليطابق معنى الشفع في كلامهم ،
وهو اثنان ، فأما إذا بلغت ثلاثاً فوجهه أن يقال : عززت بثالث . قال تعالى :
﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ ، والمعنى في عزّزته قوّيته .
وأعزّزته : جعلته عزيزاً ، فإن واترت الرسل فالأحسن أن تقول قفّيت بالرسل ،
قال تعالى : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرَسُولِنَا ﴾ .

وما أحسن ما قال ابنُ شرف في العذار وذكر التعزيز بثالث :

(١) ديوانه ٤ : ٤٧

قد كنت في وعد العذار فأجزا وقضى لحسنك بالسكال فأوجزاً^(١)
 وافي لنصر الحسن إلا أنه وتلى إلى فئة الهوى متحيزاً
 عطف تعلم منه قلبي عطفه وجدة الفؤاد به السبيل إلى العزا
 لم يكف وجهك حسنه وبهاؤه حتى اكفسي ثوب الجمال مطرزا
 سبحان من أعطاك حسناً ثانياً وبثالث من حُسن فعلك عزراً

الْوَقْر: الثقل في الأذن. تَلَبَّث: طول إقامة. تَرَبَّث، إذا احتبس ومكث،
 ويقال: تَرَبَّث بنقطين وتَرَبَّث تَرَبَّثاً بواحدة، والمعنى فيهما واحد. سَم: عَلَّم.
 سَمَة: علامة. سَمْسَمَة: حبة جلجلان. المَكْر: الخداع. تَقَتْنِي: تَكْتَسِب.
 السودد: الشرف. والمكرمة: الكرامة.

ومن اشترط أن يتيه لا يعززان بثالث قبل الحريري أبو دلف حين قال:

أنا أبو دلف المهدي بقافية جوابها يهلك الزأهي من الغيظ
 مَنْ زاد فيها له رَحْلي وراحلي وخاتمي والمدى فيها إلى القيظ
 وذكر الحصري الأعمى المكرمة في تجنيس قوافيه، فسمع قوماً يقدحون
 فيه وفي أبي خلسة قصده وقال:

يا أديبا ملكتني في يدي المكرمات

ليت قوماً دأبهم في وفيك المكرمانوا

وله:

رب ظبي هويته فتمنى للهـ وازنه

قلت: ما أقتل الهوى قال: ما للهوى زنه

وله أيضاً :

إِنْ كَتَمْتَ الْهَوَى فَقَدْ صَارَ سِرِّي عِلَالِيَّةً
بِسَقَامِ أَذَانِي وَشُحُوبِ عِلَالِيَّةٍ

* * *

فقال له : أَجَدْتَ يَا زُغْلُولُ ، يَا أَبَا الْغُلُولِ ، ثُمَّ نَادَى : أَوْضِعْ
يَا يَاسِينَ ، مَا يُشْكِلُ مِنْ ذَوَاتِ السَّيْنِ ، فَهَضْ وَلَمْ يَتَأَنَّ ، وَأَنْشَدَ
بَصُوتٍ أَغْنَى :

نَقَسَ الدَّوَاةُ وَرُمِعَ الْكَفُّ مُثَبَّتَةً سَيْنَاهَا إِنْ هُمَا خُطَا وَإِنْ دُرِسَا
وَهَكَذَا السَّيْنُ فِي قِسْبٍ وَبَاسِقَةٍ

وَالسَّفْحُ وَالْبَخْسُ وَاقْسِرْ وَاقْبَسْ قَبَسَا
وَفِي تَقَسَّسَتْ بِاللَّيْلِ الْكَلَامَ وَفِي مُسَيِّطِرٍ وَشُمُوسٍ وَاتَّخَذَ جَرَسَا
وَفِي قَرِيْسٍ وَبَرْدٍ قَارِسٍ نَخَذَ الصَّوَابَ مِنِّي وَكُنْ لِلْعِلْمِ مُقْتَبِسَا
فَقَالَ لَهُ : أَحْسَنْتَ يَا نَعِيشُ ، يَا صَنَّاجَةَ الْجَيْشِ ، ثُمَّ قَالَ : ثَبِّ يَاعَنْبَسَةُ ،
وَبَيْنَ الصَّادَاتِ الْمَلْتَبَسَةِ ، فَوَثَبَ وَثَبَ شَبَلٍ مُثَارَ ، ثُمَّ أَنْشَدَ مِنْ غَيْرِ عِثَارَ :
بِالصَّادِ يَكْتُبُ قَدْ قَبِصْتُ دِرَاهِمًا بِأَنَا مَلِي وَأَصِيحُ لِتَسْتَمِعَ الْخَبَرَ
وَبَصَقْتُ أَبْصُقُ وَالصَّمَاخُ وَصَنْجَةٌ وَالْقَصُّ وَهُوَ الصَّدْرُ وَاقْتَصَّ الْأَمْرُ
وَبَخَصْتُ مَقْلَتَهُ وَهَذِي فُرْصَةٌ قَدْ أُرْعِدْتُ مِنْهُ الْفَرِيصَةُ لِلْخَوَرِ
وَقَصَرْتُ هِنْدًا أَيْ حَبَسْتُ وَقَدْ دَنَا فِصْحُ النَّصَارَى وَهُوَ عِيدٌ مُنْتَظَرٌ
وَقَرَصْتُهُ وَالْحَرَّ قَارِصَةً إِذَا حَذَّتِ اللِّسَانُ وَكُلَّ هَذَا مُسْتَظَرٌ

* * *

(م - ١٦ نرح مقامات الحريري)

أَجَدْتُ: أَتَيْتَ بِجَيْدٍ. الزَّغُولُ: الخفيف، وزغول الرجل: ولده، والغُولُ: لخيانة في الغنم، وأصله الستر والتغطية، تقول: غَلَّ الشَّيءُ غَلًّا وَغُلُولًا، إذا ستره، وصفه كأنه يُغَلُّ العقول، أى يمسكها ويخون أصحابها فيها، وقالت عَمَلِيَّةٌ:

* يَا غُلَّ أَلْبَابِ الرِّجَالِ *

أوضح: يَبْنَى: يتباطأ ويفتر، والتأني: التثبت، وفي الحديث أنه نظر صلى الله عليه وسلم إلى رجل يتخطى رقاب الناس يوم الجمعة، فقال: «آتَيْتَ وَأَدَيْتَ»، أى أَخَرْتَ الْحِجْيَ، ويكون يتأني من قولهم: فلان ذو أناة من وني يني، وتكون الممزة مبدلة عن واو، وهو الأظهر. أغن: فيه غُنَّةٌ، وهو البجح الخفيف، والأغن: الذى يتكلم من قِبَل خياشيمه. نفَس: حداد. رسغ الكف: موصلها من الذراع. والقَسْب: نوى التمر. باسقة: نخلة طويلة. السَّفْح: أسفل الجبل. البخس: النقص. أقسر: اقهر واغلب. اقتبس قبساً: اطلب شعلةً من نار. وتقست: تتبعت. والشَّمُوس: الدابة التى تمنع أن تُسرج وأن تُرَكَب. جَرَسًا: الذى يضرب به فيصوت. قَرِيس: حوت. قارس: شديد. مقتبساً: طالباً حريصاً على كسبه.

قوله: نُفَيْش، أى كثير الحركة، وقيل: نُفَيْش تصغير النَّفَاش من الرجال الحفير الخلقة، الغاية في القصر، فصفة هذا الغلام أنه حفير الخلقة كثير الحركة، وقلاً تكون تلك الخلقة إلا ومعها الحركة والحدة. ورواه الفنجديهي «نفيش» بالفاء، أى قصير. ثعلب: النفاشون، هم القصار الضعاف الحركة، ومنه الخبر أنه رأى نفاشاً فسجد شكراً، قال: والنَّفَس: تحرك الشيء في مكانه، يقال: دار تنتفش صديناً، والتنفس: دخول الشيء بعضه في بعض. وصناعة الجيش: التى يُضْرَبُ بها المثل في الحروب، وقيل: الصَّنَاجَةُ الضَّرَابَةُ بالدُفوف والطناير وعود الغناء ونحوه من آلات اللهو، قال الهذلي وهو ساعدة بن جُؤَيَّة:

وعاودنى دينى فبت كأنما خلال ضلوع الصدر شرع ممدد^(١)
 بأوب يدي صنّاجة عند مدمني غوى إذا ما ينشئ يتفرد
 يصف ماني صدره من الحرق . ودينه : حالته التي تعتاده من الهم ، والشرع :
 الوتر ، يقول : كأنما في صدري عود ، لأوتار هرة مما أحدث به نفسى من الهموم .
 وأوب يديها : رجعها بضرب الصنّج ، أى بتحريك يديها حين تترأوت أوتارها ،
 وينشئ : يسكر . ويتفرد : يتغنى ، وفلان صنّاجة قومه ، أى المقدم عليهم فى
 الفضل . وقيل : صنّاجة الجيش هو البطل المعروف ، ويقال : ليلة قراء صنّاجة
 وصيّاجة ، إذا كانت مضيفة ، وصنّج فلان بفلان إذا صرعه . وكان أعشى قيس
 يدعى صنّاجة العرب لفصاحته . وقيل : لرقعة شعرة ، وقيل : الصنّاجة الغناء ،
 ويريد بالجيش الصبية الذين جيشوا حوله ، فُنغيش صنّاجتهم ، أى أنبلهم وأحذقهم
 أو كالصنّجة فى خلقته وقصره . ثب : اقفر . عنيسة : اسم أسد . والشبل : ولده .
 مُثَار : مفزع ، وقد أثير : استخرج من مكانه بالبحث عليه . قبصت : أخذت
 بأطراف أصابعى ، والقبضة أقل من القبضة . أصح : استمع . الضماخ : ثقب
 الأذن . صنّجة ، هى التى يوزن بها . والمقلة : شحمة العين . بخصتها : قناتها .
 واستلبتها فرصة : نهزة وغنيمة . والفريضة : بضعة عند الكتف تُرعد عند
 الفزع . الخور : الضعف . قرصته : عضضته بظفرى . حذت اللسان : قرصته
 بحدتها . مُستطّر : مكتوب .

* * *

فقال له : راعياً لك يا بنى ، فقد أقررت عيني . ثم استنفض ذا جُمَّة
 كالبيذق ، ونفشة كالسودق ، وأمره أن يقف بالمرصاد ، ويسرد مايجرى
 على السين والصاد ، فنهض يسحب بُرديه ، ثم أنشد مشيراً بيديه :

(١) ديوان الهذليين ١ : ٢٣٦

إِنْ شِئْتَ بِالسَّيْنِ فَارْتَبِ مَا بَيْنَهُ وَإِنْ تَشَأْ فَهُوَ بِالصَّادَاتِ يُكْتَتَبُ
مَنْسُ وَفَقْسٌ وَمُسْطَارٌّ وَمُمْلَسٌ وَسَالِغٌ وَسَرَاطُ الْحَقِّ وَالسَّقَبُ
وَالسَامِغَانُ وَسَقَرٌ وَالسُوبِقُ وَمُسْنٌ لَاقٍ وَعَنْ كُلِّ هَذَا تُفْصِحُ الْكُتُبُ
فَقَالَ لَهُ : أَحْسَنْتَ يَا حَبَقَّة ، يَا عَيْنَ بَقَّة ، ثُمَّ نَادَى : يَا دَغْفَلُ ،
يَا أَبَا زَنْفَلُ ، فَلَبَّاهُ فَتَى أَحْسَنُ مِنْ بَيْضَةِ ، فِي رَوْضَةٍ ، فَقَالَ لَهُ : مَا عَقْدُ هَجَاءِ
الْأَفْعَالِ ، الَّتِي آخَرَهَا حَرْفُ اعْتِلَالٍ ، فَقَالَ : اسْمِعْ ، لَا حَمَّ صَدَاكَ ،
وَلَا سَمِعْتَ عِدَاكَ . ثُمَّ أَنْشَدَ ، وَمَا اسْتَرَشَدَ :

إِذَا الْفِعْلُ يَوْمًا غَمَّ عَنْكَ هَجَاؤُهُ فَأَلْحَقْ بِهِ تَاءَ الْخَطَابِ وَلَا تَقِفْ
فَإِنْ تَرَقَّبَلِ التَّاءَ يَاءٌ فَكَتَبُهُ يِاءٌ وَإِلَّا فَهُوَ يُكْتَبُ بِالْأَلْفِ
وَلَا تُحْسِبِ الْفِعْلَ الثَّلَاثِيَّ وَالَّذِي تَعْدَاهُ وَالْمَهْمُوزَ فِي ذَاكَ يَخْتَلِفُ

* * *

رَعِيًّا : حَفْظًا ، أَيْ رَعَاكَ اللَّهُ رَعِيًّا . اسْتَمْنَهَضَ : أَمَرَهُ بِالْمَهْوُضِ . جُنَّةٌ :
جَسَدٌ . وَيَبْذُقُ الشَّطْرَنْجَ ، مَعْرُوفٌ ؛ يُشَبَّهُ بِهِ الْخَفِيفُ الرُّوحُ الْحَازِقُ . نَفْثَةٌ :
حَرَكَةٌ . وَالسَّوْذَقُ ، هُوَ السَّدَانِقُ مِنَ الطَّيْرِ الَّتِي يُصْطَادُ بِهَا . بِالْمُرْصَادِ ،
أَيَّ قَرِيبٍ مِنْهُ حَيْثُ يَنْظُرُهُ . يَسْرُدُ : يَقْرُؤُهَا بِسُرْعَةٍ . يَسْحَبُ بِرَدِيهِ : يَجْرُو ثَوْبِيهِ .
وَقَالَ الْحَسَنُ يَصِفُ مِثْلَ هَذَا الْفَلَامِ :

يَا أَيُّهَا الْمَبْطُولُونَ مَعْدِرَتِي أَرَأَيْتُمْ لَوِجَ اللَّهِ وَجْهَ تَحْقِيقِ^(١)
نَمَّ بِمَا كُنْتُ لَا أَبُوحُ بِهِ عَلَى لِسَانٍ بِالْدمْعِ مِنْطِيقِ

(١) ديوانه ٨٩ ، وفيه : « وجه تصديق » والقصيدة يمدح فيها العباس بن الفضل بن الربيع

شوقاً إلى حسن صورة ظفرت
وصيف كَأْسٍ محدثٍ مَلِكٍ
يشوبُ عِزًّا بذلةً فله
أَمْشَى إلى جنبه أراحه
ومن مدحها :

وإن عَبَّاسًا مثل والده
تَأْتَقُ الحسن حين زانكنا
فصُورَ الفضل من حجاوندَى
وله أيضاً :

ترى للحسنِ والحركات فيه
فيا مَنْ صِيغَ من حسنٍ وطيبٍ
أصبنى منك يا أُملى بذنبٍ
تتبه على الذنوب به ذنوبٍ

قوله: سراط، أى طريق. والسَّقَر من الجوارح: التى يُصْطَاد بها. السَّوْبِق: الشعير إذا قُلِيَ وطُحِن. حَبْطَة: ضَرْطَة. عين بَقَّة، يقال: ذلك للصغير. دَغْفَل: اسم رجل كان نَسَابَة، والدَّغْفَل. ولد الفيل، والدَّغْفَل: الزمن الخصب، فسُمِّي الصَّبَى بأحدها. والزَّئْفَل، من أسماء الداهية. والبيضة: بَيْضَة النِّعَام، وجعلها فى رَوْصَة، يريد أنها مصنونة مننعة، وتشبيههم للنساء بهذه البيضة مشهور فى شعر امرئ القيس وغيره. وقيل للأوسية — وهى امرأة حكيمة من العرب — بحضرة عمر بن الخطاب رضى الله عنه: أى منظر أحسن؟ فقالت: قُصُورٌ بيض فى حدائق خضر، فأنشد رضى الله تعالى عنه لعدى بن زيد:

(١) الديوان: « أنرت » .

(٢) زواية الديوان :

تَأْتَقُ الله حين صاغكنا لأن تفوقا فأئى تأنيق

كُدُّمِي العَاجَ فِي المَحَارِبِ أَوْ كَالسَّيْضِ فِي الرُّوضِ زَهْرُهُ مُسْتَنْدِرٌ^(١)
قوله : لَاصِمٌ صَدَاكَ ، أَى لَاهْلَكَتْ ، فَلَا يَكُونُ لَكَ صَوْت .

وَقَالَ امْرؤُ القَيْسِ فِي الدَّارِ الخَالِيَةِ :

صَمٌّ صَدَاها وَعَفَا رَسْمُها واستمعمت عن منطق السائل^(٢)

وَالصَّدَى : الصَّوْت الَّذِي يُعْيِيكَ مِنَ الجَبَلِ ، أَوْ مِنَ المَوْضِعِ الخَالِي ،
وَالصَّدَى : طَائِرٌ يَخْرُجُ مِنْ رَأْسِ المَقْتُولِ ، فَلَا يَزَالُ يَصِيحُ : اسْقُونِي اسْقُونِي ،
حَتَّى يُقْتَلَ قَاتِلُهُ عَلَى زَعْمِهِمْ . وَلَاصِمٌ صَدَاكَ ، دَعَاءٌ بِطَوْلِ العَمْرِ ، لِأَنَّ الصَّدَى تَابِعٌ
لِلصَّوْتِ ، فَإِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ صَوْتُهُ ، فَلَا يُسْمَعُ لَهُ صَدَى ، فَكَأَنَّ صَدَاهُ
بَعْدَ مَوْتِهِ أَصَمٌّ لَا يَسْمَعُ وَلَا يُجِيبُ . مَا اسْتَرَشَدَ ، أَى مَا ظَلَبَ مَنْ يَرْشُدُهُ وَيَدُلُّهُ .

* * *

فَطَرِبَ الشَّيْخُ لَمَّا أَدَّاهُ ، ثُمَّ عَوَّدَهُ وَقَدَّاهُ ، ثُمَّ قَالَ : هَلَمْ يَا قَعْقَاعُ ،
يَا بَاقِعَةَ البِقَاعِ . فَأَقْبَلَ فَتَى أَحْسَنُ مِنْ نَارِ القِرَى ، فِي عَيْنِ ابْنِ الشَّرَى ،
فَقَالَ لَهُ : اصْدَعْ بِتَمْيِيزِ الظَّاءِ مِنَ الضَّادِ ، لِتَصْدَعَ بِهِ أَكْبَادَ الْأَصْدَادِ ؛
فَاهْتَزَّ لِقَوْلِهِ وَاهْتَشَّ ، ثُمَّ أَنْشَدَ بِصَوْتٍ أَجَشٍّ :

أَيُّهَا السَّائِلُ عَنِ الضَّادِ وَالظَّاءِ ۚ لَكِيلاً تَضِلُّهُ الْأَلْفَاظُ
إِنْ حَفِظَ الظَّاءَاتِ يُفْنِيكَ فَاسْتَمِعْهَا اسْتِمَاعَ امْرِئٍ لَهُ اسْتِيقَاطُ
هِيَ ظَمِيَاءُ وَالْمِظَالُ وَالْإِظْلَامُ وَالظُّلْمُ وَالظَّبْيُ وَاللَّحَاطُ
وَالْعِظَا وَالظَّلِيمُ وَالظَّبْيُ وَالشَّيْ ظَمٌ وَالظِّلُّ وَاللَّظَى وَالشَّوَاظُ
وَالْتَّظَنَّى وَاللَّفْظُ وَالنَّظْمُ وَالتَّقْرِيطُ وَالْقَيْظُ وَالظَّمَا وَاللَّمَّازُ

وَالْحِطَا وَالنَّظِيرُ وَالظَّرُّ وَالْجَا حَظَّ وَالنَّازِرُونَ وَالْأَيْقَاطُ
وَالْتَشَطُّ وَالظَّلْفُ وَالْعَظْمُ وَالظَّنْبُوبُ وَالظَّهْرُ وَالشَّطَّا وَالشَّطَّاطُ
وَالْأَظَايِرُ وَالْمَظْفَرُ وَالْمَخْطُورُ وَالْحَافِظُونَ وَالْإِحْفَاطُ
وَالْحِطِيرَاتُ وَالْمِظَنَّةُ وَالظَّنَّةُ وَالْكَاطِمُونَ وَالْمُغْتَاظُ
وَالْوُضِيفَاتُ وَالْمَوَاطِبُ وَالْكِظَّةُ وَالْإِنتِظَارُ وَالْإِظَاطُ
وَوُضِيفٌ وَظَالَعٌ وَعَظِيمٌ وَظَهِيرٌ وَالْفَظَّ وَالْإِغْلَاطُ
وَنَظِيفٌ وَالظَّرْفُ وَالظَّلْفُ الظَّا هَرَّمُ الْفِظْيَعِ وَالْوُعَاطُ
وَعَكَاطٌ وَالظَّعْنُ وَالْمَظَّ وَالْخُظْلُ وَالْقَارِظَانِ وَالْأَوْشَاطُ
وَضَرَابُ الظَّرَّانِ وَالسَّظْفُ الْبَا هِظَّ وَالْجُعْظَرِيُّ وَالْجَوَاطُ
وَالظَّرَابِينُ وَالْخَنَاطِبُ وَالْمُنْظَبُ مَمَّ الظِّيَّانُ وَالْأَرْعَاطُ
وَالشَّنَاطِي وَالْدَّلْظُ وَالظَّابُ وَالظَّبْظَابُ وَالْمُنْظَوَانُ وَالْجِنْعَاطُ
وَالشَّنَاطِيرُ وَالْتَعَاظِلُ وَالْعِظْلِمُ وَالْبُظْرُ بَعْدُ وَالْإِنْعَاطُ
هِيَ هَذِي سَوَى النَّوَادِرِ فَاحْفَظْهَا لِنَقْفُو آثَارَكَ الْحَفَاطُ
وَأَقْصِ فِيهَا صَرَفَتْ مِنْهَا كَمَا تَقْضِيهِ فِي أَصْلِهِ كَقِيْظٍ وَقَاطُوا

* * *

أَدَاهُ : أُبْلَغُهُ ، تَقُولُ : أَدَيْتُ الْأَمَانَةَ ، إِذَا بَلَّغْتَهَا صَاحِبَهَا . عَوْدَهُ : قَرَأَ عَلَيْهِ
الْمَوْذِنِينَ . وَفَدَاهُ : قَالَ : نَفْسِي فِدَاؤُكَ . قَعْقَاعٌ : شَدِيدُ الصَّوْتِ ، وَالْقَعْقَعَةُ ،
صَوْتُ مَتَتَابِعٍ . وَالْبَاقِعَةُ : الدَّاهِيَةُ . وَالْبِقَاعُ : جَمْعُ بُقْعَةٍ ، قِطْعَةٌ مِنَ الْأَرْضِ

لِقِرَى : طعام الضيف . ابن المشرى ، هو الطارق بالليل ، وقد تقدّم ذكر هذه النار عند قوله :

فلم أزل أنصُ عنسى وأقول : طوبى لك ولنفسى

وهم يضربون المثل بها وحدها في الحسن فيقولون : هو أحسن من النار ، فكيف إذا كان إنسان مع ظلام الليل في ريح وبرّد وجوع ، لا يدرى أين يتوجّه ، فرأى ناراً قد أوقدت لِقِرَى الأضياف ، فلا يقدر قَدَرَ حسنّها إلا مَنْ جَرَّبَهَا .

وقالت أعرابية : كنت في شبّيتى أحسن من النار .

وأنشد التوزي ملفزاً في النار :

وشعنا غبراء الفروع كأنما بها توصفُ الحسنا بل هي أجملُ
دعوتُ بها صحبي بليل كأنهم وقد أبصروها يعطشون فأنهلوا
فهذا مثل الذي ذكره الحريري .

وقال الآخر يصف ناراً :

ومشوبة لا يقبِس الجار رِيَّها ولا طارق الظماء منها يؤنسُ
مضى ما يزرها زائر يُلَفّ دُونها عَقيلة دارى من المسك تفرسُ
وأنشد أبو زيد فيها ملفزاً :

وزهراء إن كَفَّتْهَا فهو عِشْهَا وإن لم تكفُفْهَا فوتٌ معجَلُ

وكان الحسن بن وهب أشدّ الناس عشقاً لنبات جارية محمد بن حماد ، وكانت تغنى في مجلسه ، وبين يديها كانون فحم ، فتأذت بالنار ، وأمرت بإبعادها ، فقال الحسن مرتجلاً :

بأنى كرهت النَّارَ لَنَا أَوْقَدَتْ فَعَرَفْتُ مَا مَعْنَاكَ فِي إِبْسَادِهَا
هِيَ ضُرَّةٌ لَكَ بِالتَّمَاعِ ضِيَائِهَا وَبِحَسَنِ صَوَرَتِهَا لَدَى إِبْقَادِهَا
وَأَرَى صَنِيعَكَ فِي الْقُلُوبِ صَنِيعَهَا بِأَرَاكَهَا وَسَيَالِهَا وَقَتَادِهَا
شَرَكْتُكَ فِي تِلْكَ الْجِهَاتِ بِحَسَنِهَا وَضِيَائِهَا وَصَلَاحِهَا وَفَسَادِهَا

وكان مع أصحابه يوماً ، فقال : لو ساعدنا الزمان لجاءتنا نبات ، فما تكلموا
بشيء حتى دخلت ، فقال : إني وإياك لكما قال علي بن أمية :

وَفَاجَأَنِي وَالْقَلْبُ نَحْوَكِ شَاخِصٌ وَذَكَرَاكَ مَا بَيْنَ اللِّسَانِ إِلَى الْقَلْبِ
فِيَا فَرَحَةً جَاءَتْ عَلَى إِثْرِ تَرَحَةٍ وَيَا غَفْلَتِي عَنْهَا وَقَدْ نَزَلَتْ قَرِيبِي

ودخلت عليه يوماً وهو محموم ، فسلمت وقبّلت يده ، فأراد تقبيل يدها
فأزعجها وقال :

أَقُولُ وَقَدْ حَاوَلْتُ تَقْيِيلَ كَفِّهَا وَلِي رَعْدَةٌ أَهْتَزُّ مِنْهَا وَأُسْكِنُ
فَدَيْتِكَ إِنِّي أَشْجَعُ النَّاسِ كُلَّهُمْ لَدَى الْحَرْبِ إِلَّا أَنَّنِي عَنْكَ أَجْبُنُ

قوله : اصدع ، أى يبين وأظهر . تصدع : تشق . الأضداد : الأعداء .
أجش : أبح . تضله : تضيعه وتتلفه . استيقاظ : انتباه . ظمياء : عطشى .

الأزهرى : شفة ظمياء ، ليست بوارمة كثيرة الدم ويحمد ظمؤها ، ولينة
ظمياء ، ورجل أظمى ، وامرأة ظمياء ، وقيل : شفة ظمياء ، إذا كانت فيها شجرة .
وساق ظمياء : قليلة اللحم . والظلم ، بالفتح : ماء الأسنان ، وقيل : بريقها وصفائها ،
والجمع ظلوم . واللحاظ : طرف العين الذى يلى الضدغ . العطاء : جمع عطاءية ،
وهى دويبة حمراء إلى الغبرة ، ذات قوائم أربع . الظلم : ذكر النعام . الشيطم :
الطويل . اللظى : النار . والشواظ : لها بها بغير دخان . التقطى : مصدر تظنيت
أى حسبت ، والأصل تظننت بالنون ، فأبدلت ياء . والتقرىظ : مدح الرجل

حَيًّا . والقَيْظُ : فصل الحرّ . وَالظَّمَأُ : العطش . وَالْأَمَاطُ : الشيء اليسير من الطعام وقد تَلَمَّظَتْ ، إِذَا تَدَبَّعَتْ بِلِسَانِكَ بَقِيَّةَ الطَّعَامِ بَعْدَ الْأَكْلِ ، وَاسْمُ تِلْكَ الْبَقِيَّةِ الْأَمَاطَةُ ، وَقِيلَ : التَّلَمَّظُ هُوَ لَعَقُ الشَّفَتَيْنِ بِاللِّسَانِ مِنْ عَطَشٍ أَوْ غِيْظٍ .

الْحَطَا : انْتِفَاحُ اللَّحْمِ . النَّظِيرُ : الْمَثَلُ . الظُّئْرُ : الْمَرْضِعُ بِالْأَجْرَةِ . الْجَاحِظُ : الَّذِي بَرَزَتْ عَيْنَاهُ . الْأَيْقَازُ : ضِدُّ النَّيَامِ ، الْوَاحِدُ يَقْظُ بِضَمِّ الْقَافِ وَكسرها . قَوْلُهُ : الْقَشَطِيُّ : أَنْ تَصِيرَ الْعُودَ فَلَقًا ، وَالشَّطِيَّةُ : الْفِلَقَةُ مِنْهُ . وَالشَّطَى : عَظْمٌ لَاصِقٌ بِالرَّكْبَةِ ، وَقِيلَ هُوَ تَشَقُّقُ عَصَبِ الذَّرَاعِ . وَالظَّلْفُ لِلْفَنَمِ وَالْبَقَرِ بِمَنْزِلَةِ الْحَافِرِ لِلدَّوَابِّ ، وَكُلُّ حَافِرٍ مُشَقَّقٍ ظِلْفٌ . الظُّنْبُوبُ : مُقَدَّمُ عَظْمِ السَّاقِ . وَالشَّطَّازُ : عُودُ الشَّدَادِ ، الَّذِي يَشَدُّ بِهِ الْمُتَاعُ ، وَقِيلَ : هُوَ عُودٌ يَدْخُلُ فِي عُرَا الْفِرَارَاتَيْنِ فَيَحْمِلَانِ بِهِ عَلَى ظَهْرِ الْبَعِيرِ . الْمُظْفَرُ : الْمُؤَيَّدُ . الْمُحْظُورُ : الْمَنْعُوعُ . الْإِحْفَازُ : الْإِغْضَابُ . الْحَظِيرَاتُ : جَمْعُ حَظِيرَةٍ ، وَهِيَ الزَّرْبُ يُعْمَلُ مِنْهُ شَبَهُ الدَّارِ ، تَسْكُنُهَا الْفَنَمُ وَالْإِبِلُ ، وَقَدْ يَكُونُ مِنْ حَائِطٍ ، وَأَصْلُ الْحَظَرِ الْمَنْعُ ، وَكُلُّ مَانِعٍ بَيْنَ شَيْئَيْنِ حَظِيرٌ . وَالْمُظَنَّةُ : الْمَوْضِعُ تَرْمِي فِيهِ بِظَنِّكَ ، وَفُلَانٌ مُظَنَّةٌ خَيْرٌ ، أَيْ يُظَنَّ فِيهِ الْخَيْرُ . وَالظَّنَّةُ : التَّهْمَةُ . الْكَاطِمُونَ : الْمُتَجَرِّعُونَ غِيْظَهُمْ ، وَقَدْ كَظَمَ غِيْظَهُ ، تَجَرَّعَهُ وَرَدَّهُ . الْوُظُفِيَّاتُ : جَمْعُ وَظِيفَةٍ وَهِيَ مَا يُلْزِمُكَ مِنَ الْمَغْرَمِ . الْمَوَاطِبُ : الْمُلَازِمُ ، وَقَدْ وَاطَبْتَ عَلَى الشَّيْءِ ، دَاوَمْتَ عَلَيْهِ . الْكَطَظَةُ : الْإِمْتِلَاءُ مِنَ الطَّعَامِ ، وَالْإِلْطَازُ : الْلِزُومُ . الْوُظِيفُ لِكُلِّ ذِي أَرْبَعٍ : مَا فَوْقَ الرُّسْغِ إِلَى السَّاقِ . وَالظَّالِعُ : الْأَعْرَجُ . وَالظَّاهِرُ : الْقَوِيُّ الظُّهْرُ ، وَهُوَ أَيْضًا الْمُعِينُ . وَالْفَظْ : الْغَلِيْظُ ، وَالْفِظَازَةُ : الْجَفَاءُ وَالْفِلَظَةُ . وَالْإِغْلَازُ : الْجَفَاءُ . وَالتَّنْظِيفُ : التَّنْقِيُّ الْحَسَنُ . وَالظَّلْفُ : الْمَنْعُ وَالرَّدُّ ، وَقَدْ ظَلَفْتَ أَثْرَى ظَلْفًا ، إِذَا مَشَيْتَ فِي حُزُونَةِ الْأَرْضِ وَصَلَابَتِهَا فَمَنْعْتَ أَثْرَكَ أَنْ يُوْثِرَ فِيهَا . وَالْفِظِيعُ : الْكَرْبِيُّ الْمَطْعَمُ ، وَقَدْ فُظِعَ الشَّيْءُ ، اسْتَدْتِ كَرَاهِيَّتَهُ وَمَرَارَتَهُ . عُكَّازُ : مَوْسِمٌ لِلْعَرَبِ . الظُّفْنُ : السَّفَرُ . الْحَنْظَلُ : شَجَرٌ مَرَّةً ، وَالبَاهِظُ : الْغَالِبُ . وَالتَّبْظَرُ : زِيَادَةُ فِي فَرْجِ الْمَرْأَةِ ، وَرَجُلٌ أَبْظَرَ : فِي

شفته العليا تنوء ، وامرأة بطراء ، والأول راجع إلى هذا المعنى . الإنعاط : قيام الذكر . النوادر : الغرائب والشواذ . تقفو : تتبع . قيظ : شدة الحر ، وقاظوا : دخلوا في زمن القيظ .

* * *

فقال له الشيخ : أحسنتَ لا فُضَّ فُوك ، ولا بُرَّ مَنْ يَجْهوك ، فوالله إنَّك مع الصِّبا الغضِّ ، لأحفظُ من الأرض ، وأجمعُ من يوم العرض ، ولقد أوردتْكَ ورفقتْكَ زُلالي ، وثَقَّقْتُكُمْ تشقيفَ العوالى ، فاذكرونى أذكركمُ ، واشكروا لى ولا تكفُّروُن .

قال الحارث بن همام : فعمجبتُ لما أبْدَى من براعه ، معجونه برقاعة ، وأظهر من حَذَاقه ، ممزوجة بحماقة ؛ ولم يزل بصرى يصعد فيه ويصوب ، وينقر عنه وينقب ، وكنت ، كمن ينظر فى ظلمات ، أو يسرى فى بهماء ؛ فلما استراث تنبَّهسى ، واستبان تدلَّهسى ، حلق إلى وتبسم ، وقال : لم يبق من يتوسَّم . فبُهِتُ لِفَحْوَى كلامه ، ووجدته أبا زيد عند ابتسامه ، فأخذت أومه على تدْيِرِ بقعة النوكى ، وتخَيْرِ حِرْفَةِ الحق ، فكان وجهه أسِفَ رماداً ، أو أشْرَبَ سواداً ، إلا أنه أنشد وما تمادى :

تخيرتَ حمص وهذى الصَّنَاعَه لِأَرْزَقَ حُظُوَّةَ أَهْلِ الرَّقَاعَه .
فما يصطفى الدهرُ غير الرقيع ولا يوطن المالَ إلا بقاءَه .
ولا لأخى اللبُّ من دهره سوى ما لم يرِ ربيطَ بقاءَه .

* * *

فضّ : كسر . ينفوك : يغلظ لك في الكلام . الغضّ : الطرى . يوم العرض : يوم القيامة ، ولما أشار من أوّل على أكبرهم ، انحطّ في أسنانهم إلى أصغرهم ، نختم به كما بدأ بأكبرهم ، فلذلك قال : مع الصبا الغضّ .

[مما قيل في الصغار]

ومما قيل في الصغار من الشعر المستحسن ، قال أبو الفضل الدرامي وقد سأله الثعالبي أن يصف له غلاماً صغيراً ، بديع الحسن ليثبت ذلك في كتابه المترجم بآلف غلام ، فأنشد :

إنّي عشقتُ صغيراً قد دبّ فيه الجمال
وكاد يفشى حديث الفضول فيه الدّلال
لومرّ في ضرق الوصل ما اعتراه الضّلال
يريك بدرأ منيراً في الحُسن وهو هلال

قال الحسن :

حين أوفى على ثلاث وعشرين
غنة فيه للصبا تغتليه
حين رام النساء منه بعين
وقال آخر :

لئن يزيد على عشرين بواحدة
وجاوب اللحظ منه لحظ عاشقه
قد كان غيراً بقتلى ليس يُحسنه
وقال آخر :

قالوا أتبكي على صغير
فقلت إن البنان خمس
خصصته بالوداد طفلاً
أصغر ما بينها يُحلى

ولابن إدريس اليماني :

عشقه شادناً صغيراً وكنت لا أعشق الصغاراً
أعارني سقمَ ناظريه فاستشرفتُ نفسه حذاراً
يسفر عن وجه مستنير يردُّ جُبح الدُّجى نهاراً
لم أر من قبل ذاك نُوراً أضرمَ فيه الحياة ناراً

ولابن شهيد^(١) :

راقني من شيمه برقٌ بدا أمسنا المحبوب أوزى أنداً
هبَّ من نَعْسَتِهِ منكسراً مُسبِلَ الكُمَيْنِ مُرخٍ للردِّا
يمسح النَّعْسَ من عَيْنِي رشاً صائدي في كلِّ يوم أسداً
قلت هب لي يا حبيبي قبلةً تشف من حبِّك تبريح الصدى
فأثنت يهتز من منكبه قائلاً : لا ، ثم أعطاني اليداً
قال لي يلعب : صِدْ لي طائراً فتراني الدهر أجرى بالكدي
وإذا استنجزت يوماً وعده قال لي يطل : ذكّرني غداً
شربت أعطافه خمر الصبا وسقاه الحسن حتى عرّ بداً

ورأى الحسن غلاماً في المكتب فأشار إلى تقبيل يده فقبّله فقال :

ظفرت بقبلة منه على عيني معلّة
أشرت بها إلى يده فأوصلها إلى فمه

وقال الخلواني :

نعرّضت من شَفَنِي هجره بيده سلام عليه شفاهاً

وقلت عساه يردّ السّلام فتبلغ نفسي منه منهاها
فجاد علىّ بتقبيلها وقد كان أعرض عني وتاهها
وكنت كموسى أتى للضياء لتقبس نار فجاجي إلها

وكتب الحسن لغلام كاتب يستعطفه ، فوقع الغلام في كتابه : « تزد هجراً
إلى يوم الحساب » فقال الحسن :

كعبت إلى الحبيب بيت شعري أعاتبه فأغضبه كتابي
أجبنى يا ملول على كتابي فإنّ النّفس تسكن بالجواب
فوقع في الكتاب : يزد هجراً وإبعماداً إلى يوم الحساب

وقال ابن رشيق في محبوبه الصانع :

وظبي من بنى الكتاب يسري قلوب العاشقين بمقلتيه^(١)
رفعت إليه أستقضى رضاه وأسأله خلاصاً من يديه
فوقع : قد رددت فؤاد هذا مسامحة فلا يُعدى عليه

وناوله يوماً تفاحة فقال :

وتفاحة من كفّ ظبي أخذتها جنتها من الغصن الذي مثل قده^(٢)
لها لمس ردفه وطيب نسيمه وطعم ثناياه وحرّة خده

ولابن فرج :

ومن ينظر إلى خديك يحكم على ورد الحدايق للحدود
وما اهتزت غصون الرّوض إلا كتمت حُسن قدك في القدود

(١) النّف ٨٦

(٢) النّف ٢٨

وقال مسلم بن الوليد :

تفاحة شاميةً من كفّ ظبي غَزَلِ
ما خلقت مذ خلقت تلك لغير القَبَلِ
كأنما حمرتها مُحرة خدّ خَجَلِ

وقال آخر في ضدّ ما تقدّم :

فديتك لا تحِفْ مني سُلُوءًا إذا ما غدير الشعر الصُّغَارَا
أدين بدنّ خلٍّ كان خمرًا وأهوى لحيةً كانت عِذَارَا

وقال ابن المعتز في مثله :

مَنْ مُعِينِي عَلَى السَّهْرِ وَعَلَى الْحَبِّ وَالْفِكْرِ
وبل ما بي من شادنٍ كِبَرِ الْحَبِّ إِذْ كَبِرِ

قوله: زُلَالِي، أى خالص على، والزُّلال: الماء العذب الصافي. ثَقَّفْتُمْ: قوِّمْتُمْ.
العوالى: صدور الرِّماح. براعة: فصاحة. الحِذاقة: المهاراة في كلِّ عمل،
وهى الحِذْق، وأصله القَطْع، كأنَّ الحاذق يقطع الأمور المشككة بعقله، وحذق
الصبي القرآن: قَطَعَهُ حفظًا. الرِّقاعة: الحماقة، رَقَعَ رِقَاعَةً فهو رِقيع. يصعّد:
يرفع نظره. يصوَّب: ينظر في اعتدال واستواء. ينقُرّ: وينقُب: يفقش. بهِماء:
أرض مجهولة. استرّاث: استبطأ. تدلّهى: تحيرى، ودلّه الحب: حيرَه
وأدهشه. تخلق: نظر بملاقه، وهو باطن جفنه، وهو نظر المغضب. يتوسّم:
يحسن النظر والميز. بهت: فطنت، وفي الحديث «ربّ ذى طمرين لا يؤبه له»،
أى لا يفتن له لذّته، وتأبه فلان: تكبر، وإنه لذو أبهة، أى ذو كِبَر ونحوه.
الفنجدية: رأيت بخط الحريري: يقال: أبهت له وأبهت ووبهت له بمعنى،

قال يعقوب . تقول : ما بهت له ، وما بهت به وما أو بهت له ، وما بهات له : ما فطنت له . فَيَحْوَى : معنى . عند ابتسامته ، قد تقدّم وصفه بالفتح ، يريد لنا ابتسم ورأى قلبه عرفه . تدِيرُ بُقْعَةَ النُّوْكِ ، أى اتخاذه حمص داراً ، وجعلهم نَوْكِ لرفاعتهم ، والنَّوْكَ : الحق . حِرْفَةُ : صنعة . أُسِفَ رماداً ، أى تغير فكأنه ذرّ عليه الرماد . وأسِفَ الجرح الدَّواء أى حشاه به . ما تَمَادَى ، أى مادام ولا بقى على غضبه ، و تَمَادَى فى الشئ : لَجَّ فيه . حظوة ، أى منزلة . يصطفى : يختار . يوطن : يسكن . بقاعه : منازلها ، وهى جمع بُقْعَةٍ . أخى اللب : صاحب العقل . عَيرَ : حمار . قاعة : انخفاض ، أى ليس للإنسان من دهره إلا ما أكله .

* * *

ثم قال : أما إنَّ التعليم أشرفُ صناعة ، وأَرْبَحُ بِضَاعَةٍ ، وأنجحُ شَفَاعَةٍ وأفضَلُ بَرَاةٍ ، وربُّهُ ذو إمْرَةٍ مطاعة ، وهَيْبَةٍ مُشَاعَةٍ ، ورِعِيَّةٍ مِطْوَاعَةٍ ، يَتَسَيَّرُ تَسَيَّرَ أَمِيرٍ ، ويرتَّبُ تَرْتِيبَ وَزِيرٍ ، ويتحكَّمُ تحكُّمَ قَدِيرٍ ، ويتشَبَّه بِذِي مُلْكٍ كَبِيرٍ ، إلَّا أَنَّهُ يَخْرَفُ فى أَمْدٍ يَسِيرٍ ، وَيَتَسَمَّى بِحُجْمٍ شَهِيرٍ ، ويتقلَّبُ بعقلٍ صَغِيرٍ ؛ ولا يَنْبَنُّكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ؛ فقلت له : تَاللَّهِ إِنَّكَ لَابْنُ الْآيَّامِ ، وَعَلِمُ الْأَعْلَامِ ، وَالسَّاحِرُ الْأَعِيبُ بِالْأَفْهَامِ ، الْمَذَلَّلُ لَهُ سَبُلُ الْكَلَامِ . ثم لم أزل مُعْتَكِفًا بِنَادِيهِ ، وَمُغْتَرِفًا مِنْ سَبِيلِ وَادِيهِ ، إِلَى أَنْ غَابَتِ الْآيَّامُ الْغُرَّ ، وَنَابَتِ الْأَحْدَاثُ الْغُفْرُ ، ففارقته ولعيني الغُفْرُ .

* * *

قوله أنجح، أى أنفع وأسرع لقضاء الحاجة . أمرة مطاعة ، العرب تقول : لك على أمرة مطاعة ، بفتح الألف ، أى أمرة أطيعك فيها ، وحكى الفراء كسرها على ضَعَف ، والفتح أفصح ، والأمرة بالفتح : المرة الواحدة من الأمر ، وبالكسر الإمارة والولاية . مُشاعة : فاشية . يتساطر : يتساقط . يتخرف : يهزم . يتَّسم : يجعل لنفسه سمة ، أى علامة الحق .

ومما قيل فى المعلم وتفضيله على الوالد ، أنشد الماوردى :

يا فاحراً للسَّقاء بالسَّلف وتاركاً للعلاء والشرفِ
آباء أجسادنا هم سببُ لأنَّ جُعِلنا عوارض التلفِ
منَّ علَّ الناس كان خير أبٍ ذاك أبوالروح لأبوالنطفِ

أخذه من قول الإسكندر ، وقيل له : ما بال تعظيمك معلمك أشدَّ من تعظيمك لوالدك ؟ فقال : إن أبى سبب حياتى الفانية ، ومعلمى سبب حياتى الباقية .

ولبعضهم :

إنَّ المعلم والطبيبَ كلاهما لا ينصحان إذا هما لم يُكرَما
فاصبر لدائك إن جفوت طبيبه واصنر لجهلك إن جفوت معلما

جاء فى الحديث « يُجاء بالمعلم يوم القيامة ووجهه عَظُم لا لحم عليه » . قال عطاء : الذين يأخذون على القرآن أجراً . ابن الأيём : الخبير بها والبصير بمحوادثها . علم الأعلام : أشهر المشاهير . الأفهام . جمع فهم ، أراد اللاعب بالأذهان والعقول . سُبُل : طرق . معتكفاً بناديه : ملازماً لحلسه . مفترقاً من سيل واديه : آخذاً من بحرٍ علمه . الفرُّ : البيض الحسان . نابت الأحداث للغُبر : رجعت النوازل الشداد التى تغُبر الأرض من شدة قحطها . لعينى الغُبر ، أى سخنة الدمع لحزنه . واستعبر : بكى . والله تعالى أعلم .

(م — ١٧ شرح مقامات الحريري)

المقامة السابعة والأربعون وهي التحيرية

حكى الحارث بن همام : قال : احتجت إلى الحجامة ، وأنا
بحجر اليمامة ، فأرشدت إلى شيخ يحجم بلطافة ، ويسفر عن نظافة ؛
فبعثت غلامي لإحضاره ، وأرصدت نفسي لانتظاره . فأبطأ بمد
ما انطلق . حتى خيلته قد أبق ، أو ركب طبقة عن طبق . ثم عاد عود
الخنق ، مسماه . أكل على مولاه ، فقلت له : ويلك ! أبطأ فند . وطلود
زند ! فزعم أن الشيخ أشعل من ذات النحيين ، وفي حرب كرب
حنين ، فعمت الممشى إلى حجام ، وحرث بين إقدام وإحجام ؛ ثم رأيت
ألا تعنيف ، على من يأتي الكنيف .

* * *

قوله : احتجت للحجامة ، وأنا بحجر اليمامة . أنس عن النبي صلى الله
عليه وسلم ، قال : « خير ما تدأوتم به الحجامة والشوفيز والقسط » .

القسط : عود يجاء به من الهند ، يجعل في الدواء والبخور .

وروى ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« خير يوم يُحْتَجَم فيه سبعة عشر وتسعة عشر وأحد وعشرون ، وما مررت
بملا من الملائكة ليلة أُسري بي إلا قالوا : عليك بالحجامة يا محمد » .

وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : لقد تبَّيع^(١) بي الدم يا نافع ، ادع لي
حجاماً ، ولا جعله شيخاً كبيراً ، ولا صبياً . ثم قال : سمعت رسول الله صلى الله

(١) البيع : ثوزان الدم .

عليه وسلم يقول : « الحِجَامَةُ عَلَى الرَّبِّيقِ أَمْثَلُ ، فِيهَا شِفَاءٌ وَرَكَّةٌ ، تَزِيدُ فِي الْعَقْلِ وَالْحِفْظِ ، وَتَزِيدُ الْحَافِظَ حِفْظًا ، فَمَنْ احْتَجَمَ فِي يَوْمِ الْخَمِيسِ وَالْأَحَدِ وَالْاِثْنَيْنِ وَالثَلَاثَاءِ ، فَإِنَّهُ يَوْمٌ رَفَعَ اللَّهُ فِيهِ الْبَلَاءَ » .

عن أيوب عليه السلام ، وأصابه [مرض] يوم الأربعاء : لا يبدأ جذام أو برص إلا في يوم الأربعاء أو ليلته .

حَجَرٌ : قصبة . اليمامة : يأتي ذكرها في الخمسين إن شاء الله تعالى ، وهي بلدة كبيرة كثيرة النخل ، وسكنتها حنيفة ، وهي بلدة مسيلمة الكذاب الحنفي ، وبها تنبأ وآمن به أهلها ، وهي « فعالة » من اليمم ، وهو طائر ، أو من يمت الشيء إذا تعمده . من الأمام ، بمعنى قدام ، وأبدلت الهمزة ياء لما دخلتها الهاء ، وأقرب المدن منها البصرة .

يُسْفَرُ : يكشف . نظافة : صقالة وحسن . أرصدت : أعددت . أبقى : هرب . طبقاً عن طبق : حالاً عن حال ، وأسراً عن أمر . الخفيق : الخائب . مسعاه : سعيه . الكلّ على مولاه : الذي لا ينفعه شيء ، ولا يكفيه أمر نفسه ، والكلّ : الثقل الروح . قوله : ضلود زئذ ، هو ألا يسمح الزئذ بالنار . حنين : موضع وقعة مشهورة ، كانت بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين هوازن ، هُزِمَتْ فِيهَا هَوْزَانٌ ، وَسُيِّتَ أَمْوَالُهُمْ وَعِيَالُهُمْ ، وَقُتِلَ فِيهَا دُرَيْدُ بْنُ الصَّمَةِ كَافِرًا . عَفَتْ : كرهت . الإقدام : الجرأة والتراخي . والإحجام : الرجوع إلى خلف ، أراد أنه ردّ رأيه : هل يأتيه أم لا ؟ والتعنيف : العتب . والكنيف : المرحاض .

[حكاية طريقة تجمع أسماء المرحاض]

ونذكر هنا حكاية طريقة تجمع أسماء . رحّل رجلٌ من الكوفة إلى ابن عمٍّ له من بني هاشم بالمدينة ، فأقام حولاً عنده ، لا يدخل مُستراحاً ، فلما أراد

الرجوع إلى الكوفة ، قال ابنُ عمِّه اقيمتين له : أما رأيتما ظَرْفَ ابنِ عَمِّي ، أقام حولاً عندنا لم يدخل الخلاء ، قالتا : فعايننا أن نضع له شيئاً لا يجد معه بُدْءاً من الخلاء ، قال : شأنكما ، فعمدنا إلى خشب العُشْبَرِ ، وطرحناه في شرابه وهو مستهل ؛ فلما حضر وقت شراهما قرَّبناه له وسقنا مولاها من غيره ، فلما أخذ الشراب منهما تناوم مولاها ، ومَنَعَصَ الفتى من بعده ، فقال لإحداها : يا سيدتي ، أين الخلاء ؟ فقالت لها صاحبتها : ما يقول لك ؟ قالت : يسألك أن تُغْنِيَه :

عَفَا مِنْ آلِ فَاطِمَةَ الْجَوَاءِ فَنَزَلَ أَهْلُهَا مِنْهَا خَلَاءَ

فغَنَّتْهُ ، فقال : أظنهما كوفيتين ، فقال الأخرى : يا سيدتي أين الخش ؟ فقالت لها صاحبتها : ما يقول لك ؟ قالت : يسألك أن تغْنِيَه :

* لَقَدْ أَوْحَشَ الرَّيَّانُ فَالْدَيْرُ مِنْهَا *

فغَنَّتْهُ ، فقال الفتى : أظنهما عراقيتين ، وما فهمتا عني ، فقال الأخرى : يا سيدتي ، أين المتوضأ ؟ فقالت لها صاحبتها : ما يقول لك ؟ قالت : يسأل أن تغْنِيَه :

تَوْضُأً لِلصَّلَاةِ وَصَلَّ خَمْسًا وَأُذِّنَ بِالصَّلَاةِ عَلَى الذَّيِّ

فقال : أظنهما حجازيتين ، وما فهمتا عني ، فقال لإحداها : يا سيدتي ، أين الكنيف ؟ فقالت لها صاحبتها : ما يقول لك ؟ قالت : إنه يسألك أن تغْنِيَه :

تَكْنِفُنِي الْوَاشُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَلَوْ كَانَ وَاشٍ وَاحِدٌ لَكَفَانِي

فغَنَّتْهُ ، فقال : أظنهما تهمايين ، فقال الأخرى : يا سيدتي أين المستراح ؟ فقالت لصاحبتها : ما يقول لك ؟ قالت : يسألك أن تغْنِيَه :

تَرَكَ الْفَكَاهَةَ وَالْأَزَاحَا وَقَلَّى الصَّبَاةَ فَاسْتَرَاخَا

فَعَنَّتْهُ ، وَلِلْمَوْلَى يَسْمَعُ ، فَلَمَّا كَرَبَهُ الْأَمْرَ أَنْشَأَ يَقُولُ :

تَكُنْفَنِي الْمَلَاخُ وَأُخَوِّرُونِي عَلَى مَا بِي بِتَكْرِيرِ الْأَغَانِي
فَلَمَّا ضَاقَ عَنْ ذَلِكَ اصْطَبَارِي ذَرَقْتُ بِهِ عَلَى وَجْهِ الزَّوَانِي

ثُمَّ حَلَّ سِرَافِيلُهُ ، وَسَلَّحَ عَلَيْهِمَا ، فَتَرَكَهُمَا آيَةً لِلنَّاظِرِينَ . وَانْتَبَهَ مَوْلَاهُمَا ،
فَلَمَّا رَأَى مَا نَزَلَ بِهِمَا ، قَالَ لَهُ : يَا أَخِي مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا ؟ قَالَ لَهُ : يَا بَنَ الزَّانِيَةِ ،
لَكَ جَوَارِي يَرِيْنُ الْحُرُوجَ عِرَاطًا مُسْتَقِيمًا فَلَا يَدُلُّنَنِي عَلَيْهِ ، فَلَمْ يَكُنْ لِهِنَّ جَزَاءٌ
عِنْدِي غَيْرَ هَذَا ، ثُمَّ رَحَلَ عَنْهُ .

فَيَقُولُ أَبُو نَجْدٍ : لَا بَأْسَ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَأْتِيَ الْمَوَاضِعَ الْخَسِيسَةَ عِنْدَ الْمَضْرُورَةِ ،
وَأَصْلُ الْكَنِيفِ السَّاتِرُ .

* * *

فَلَمَّا شَهِدْتُ مُوَسِّمَهُ ، وَشَاهَدْتُ مِدْسَمَهُ ، رَأَيْتُ شَيْخًا هَيْئَتُهُ
نَظِيفَةٌ ، وَحَرَكَتُهُ خَفِيفَةٌ ، وَعَيْنَاهُ مِنَ النَّظَارَةِ أَطْوَاقٌ ، وَمِنْ الرِّحَامِ
طِبَاقٌ ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ فِتْنَى كَالصَّمْصَامَةِ ، مُسْتَهْدِفٌ لِلْجِجَامَةِ ، وَالشَّيْخُ
يَقُولُ لَهُ : أَرَأَيْكَ قَدْ أَهْرَزْتَ رَأْسَكَ ، قَبْلَ أَنْ تُهْرَزَ قِرْطَاسُكَ ، وَوَلِيَّتَنِي
قَدْ أَلَاكَ ، وَلَمْ تَقُلْ : لِي ذَآلَكَ ، وَلَسْتُ تَمِّنُ يَبِيعَ تَقْدَأَ بَدِينُ ، وَلَا يَطْلُبُ
أَثْرًا بَعْدَ عَيْنٍ ، فَإِنْ أَنْتَ رَضَخْتَ بِالْعَيْنِ ، حُجِمْتَ فِي الْأَخْدَعَيْنِ . وَإِنْ
كُنْتَ تَرَى الشَّيْخَ أَوْلَى ، وَخَزَنَ الْفُلْسَ فِي النَّفْسِ أَحْلَى ، فَافْرَأْ عَبْدَسَ
وَتَوَلَّى ، وَاغْرُبْ عَنِّي وَإِلَّا : فَقَالَ الْفَتَى : وَالَّذِي حَرَّمَ صَوْغَ التَّمِينِ ؛
كَمَا حَرَّمَ صَيْدَ الْحَرَمَيْنِ ؛ إِنِّي لَا فُلْسُ مِنْ ابْنِ يَوْمِينَ ، فَتَقِ بِسَيْلِ تَلْعَتِي ،
وَأَنْظِرْنِي إِلَى سَعَتِي .

* * *

موسمه : مجتمعه وسوقه . ميسمه : علامته . النظارة : الناس الناظرون .
أطواق : أى حلقة خلف حلقة ، قد استداروا حولها . والطباق : الذى طويق ،
فجعل بعضه على بعض ، شبه به ركوب بعض الناس بعضاً .

[الصمصامة]

والصمصامة : سيف عمرو بن معد يكرب ، وكانت تقطع الحديد كما يقطع
الحديد الخشب . وبعث ملك الهند إلى الرشيد بسيف قلعية ، و كلاب سلوقية ،
وثياب هندية ، فأمر الأتراك فصقوا بين يديه صنفين ، قد لبسوا الحديد ، ودخل
الرشيد فقال لهم : ما جئتم به ؟ قالوا : هذه أشرف كنوة بلادنا ، فأمر فقطعت
جلاً وبراقي نخله ، فسكبوا على وجوههم ، وتذموا ، ثم قال : ما عندكم ؟
قالوا : هذه سيوف قلعية ، لا نظير لها ؛ فدعا بالصمصامة ، فقطعت بها السيوف
سيفاً سيفاً ، كما يقطع الفجل من غير أن تنثنى لها شفرة . ثم عرض عليهم حدّ
السيف فإذا هو لافلّ فيه ، ثم قال : ما عندكم ؟ قالوا : كلاب سلوقية ، لا يبقى
لها كلب ولا سبع إلا عقرته ، فأمر بالأسد فأخرج إليهم ، فلما نظروا إليه هالهم ،
وقالوا : ليس عندنا مثل سبعكم ، ثم أرسلوا عليه الأكلب — وكانت ثلاثة —
فزقته ، فقال : تمنوا في هذه الأكلب ما شئتم ، قالوا : السيف الذى قطع سيوفنا ،
قال : لا يجوز فى ديننا أن نهادىكم بالسلاح . فانقلبوا خائمين .

وكانت الصمصامة عند الهادى ، فدعا بها يوماً وبكامل مملوءة ، فدنا من
وأمر الشعراء أن يقولوا فيه ، فبدأهم ابن يامين فقال :

حاز صمصامة الزبيدى عمرو من بين جميع الأنام موسى الأمين
سيف عمرو ، وكان فيما سمعنا خيراً ما أعمدت عليه الجفون
أوقدت فوقه الصواعق ناراً ثم شابت به الزعاف القيون

(١) الأبيات فى ابن خلكان ٢ : ٢٠٤ ، ونسبها إلى ابن يامين البصرى ، ومضى فى
نمار القلوب ٦٢١ ، ونسبها إلى أبى الهول ، وكذلك فى الحيوان ٥ : ٨٧

وإذا ما شهرته بهر الشمس ضياء فلم تكذب تسدين
يستطير الأبصار كأنبس المشعل ما تستقر فيه العيون
وكان الفريد والجوهر الجا رى على صفحته ماء معين
ما يبلى إذا الضريبة حانت أشمال سقطت به أم يمين
وكان المنون نيطت إليه فهو من كل جانب منون
فقال له : لك السيف والمكئل ، ففرق ، المكئل على الشعراء ، وقال :
حرمتهم بسبي ، وأخذ من المهدى فى السيف خمسين ألف دينار .
ومن أفرط فى وصف قطع السيف النمر بن تواب حين قال :
أبقى الحوادث والأيام من نمر أسباد سيف كريم أثره بادي
تظل تحفر عنه الأرض مندفعاً بعد الدراعين والساقين والهادي
ويروى :

* تظل تحفر عنه إن ضربت به *

والأسباد : البقايا ، واحداً سيّد ، وقال أبو الهول :

حسام غداة الرّوع ماضٍ كأنه من الله فى قبض النفوس دليل^(١)
كأن جنود الذرّ كسّرَن فوقه قرون جراد يمين ذحول
كان على إفرنده موج لجة تقاصر فى ضحاخه وتطول
وقال ابن الرومى :

يقول القائلون إذا رآوه لأمرٍ ما تُعولت الدروع

والشعر فى وصف السيف كثير مشهور فلذلك اقتصرنا على هذه النبذة .

* * *

قوله : مسهدف ، أى منتصف ، والمهدف : الغرض ، وأراد بالقرطاس
قطعة من كأغد توضع فيها الدرهم . الفنجديهي : القرطاس : درهم من نحاس ،

(١) غار القلوب ٦٢٣ .

وفيه شيء من القصة ، يتعاملون به في الشام . فذلك : مؤخر عنقك وهو ما بين
قُرّة القفا إلى الأذن وجمعه قُدُل . ذا ، إشارة إلى الدرهم . تقدأ : حاضراً .

أثراً بعد عين . قد تقدّم ، والعين : نفس الشيء ، وقيل : العين المعاينة ،
فمعناه لا أترك شيئاً وأنا أعاينه ، وأطلب أثره إذا غاب . وقال الفنجديسيّ :
سمعت بعض الفضلاء بفنجدية ، يقول : حكى أن رجلاً سرق منه شيء ، فخرج
يطلب السارق ، فلما ظفر به أخذ يضربه ويشدّ وثاقه ، فقال له أحد أهل البلد :
خلّ سبيله ، حتى يخرج فإن هنا أثر قدميه ، فضحك الرجل منه وقال : لا أطلب
أثراً بعد عين ، فصار مثلاً لمن ترك شيئاً حاصلًا ثم تبع أثره بعد فوت عينه .

رضخت : أعطيت . والعين : الدراهم والدنانير . الأخدعان : عِرْقَان يقع
عليهما الحجّمتان ، وقيل : هما في صفحتي العنق قد خفياً وبطناً فلخفاهما يتخذعان
الحاجم . خزن : إمساك وحبس . اغرُب : غب . وإلّا ، معناه وإلّا صفتُ
عنقك . المئين : الكذب . الحرمين : مَكَّة والمدينة ، حرم الله تعالى بمكة وحرم
رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة . التَّلعة : مجرى الماء من أعلى الوادي .
أنظرنى : أخبرنى . سَعَتِي : غِنَاي .

* * *

فقال له الشيخ : وَيُحْك ! إن مثل الوعود ، كغرس العود ، هو
بين أن يُدْرِكَ العَطْبُ ، أو يُدْرِكَ منه الرُّطْبُ ، فما يُدْرِنِي : أَيْحُصِلُ
مِنْ عودك جَنَى ، أمْ أَحْصِلُ منه على صَنَى ، ثم ما الثَّقةُ بأنَّكَ حينَ تبتعدُ ،
سَتَنِي بما تعدُّ ! وقد صار الغدرُ كالتحجيل ، في حِلْيَةِ هذا الجيل ، فأرْحَنِي
بالله من التَّعْذِيب ، وارْحَلْ إلى حيث يَغْوِي الذَّيْب . فاستوى الغلامُ
إليه ، وقد استولى الخجلُ علّيه ، وقال : والله ما يخيسُ بالعهْد ، غيرُ

الْخَسِيسِ الْوَعْدِ، وَلَا يَرِدُ غَدِيرَ الْغَدْرِ، إِلَّا الْوَضِيعُ الْقَدْرُ؛ وَلَوْ عَرَفْتَ
مَنْ أَنَا، لَمَا اسْتَمَعْتَنِي الْخُلَا؛ لَكُنْتُكَ جَهَلْتُ فَقُلْتُ، وَحَيْثُ وَجِبَ أَنْ
تَسْجُدُ بَلْتُ، وَمَا أَقْبَحَ الْعُرْبَةَ وَالْإِفْلَالَ، وَأَحْسَنَ قَوْلَ مَنْ قَالَ:

* * *

جَنَى : مَا يُجْنَى مِنْهُ . صَنَى : مَرَضَ . التَّخْجِيلُ : بَيَاضُ فِي قَوَائِمِ الْفَرَسِ .
حِلْيَةٌ : صِفَةُ وَزِينَةٍ . الْجِيلُ : أَهْلُ الْقَضَرِ . اسْتَوَى : اجْتَدَلَ قَائِمًا . اسْتَوَى :
غَلَبَ عَلَيْهِ الْجَلِيلُ . يَخِيسُ : يَغْدُرُ ، وَخَاسَ الشَّيْءُ تَغَيَّرَ . الْوَعْدُ : الرِّذَالُ السَّاقِطُ
الْخَسِيسُ الدَّنِيءُ . الْخُلَا : الْفُحْشُ .

* * *

إِنَّ الْغَرِيبَ الطَّوِيلَ الذَّلِيلَ مُمْتَهَنٌ فَكَيْفَ حَالُ غَرِيبٍ مَالَهُ قُوَّةُ
لَكِنَّهُ مَا تَشِينُ الْحَرَّ مُوجِعَةٌ فَالْمِسْكُ يُسْحَقُ وَالْكَافُورُ مَفْتُونُ
وَطَلَمَا أَصْلَى الْيَاقُوتُ جَمْرَ غَضَى ثُمَّ انْطَفَى الْجَمْرُ وَالْيَاقُوتُ يَاقُوتُ
فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ : يَا وَيلَةَ أَيْيِكَ ، وَعَوَّلَةَ أَهْلِيكَ ! أَنْتَ فِي مَوْقِفِ
نَخْرِ يَظْهَرُ ، وَحَسَبِ يَشْمَرُ ، أَمْ مَوْقِفِ جِلْدٍ يُكْشَطُ ، وَقَفَاءُ يُشْرَطُ ؛
وَهَبْ أَنَّ لَكَ الْبَيْتَ ، كَمَا ادَّعَيْتَ ، أَيْحَصِلُ بِذَلِكَ ، حَجْمُ قَذَالِكَ ؛
لَا وَاللَّهِ وَلَوْ أَنَّ أَبَاكَ أَتَافَ ، عَلَى عَبْدٍ مَنَافَ ، أَوْ خَالَكَ دَانَ ، عَبْدُ الْمَدَانِ .

* * *

الطَّوِيلُ الذَّلِيلُ : الْكَثِيرُ الْمَالِ . تَشِينُ : تَعِيبُ . أَصْلَى : أَدْخَلَ النَّارَ .
الْيَاقُوتُ : حَجَارَةٌ يَتَزِينُ بِهَا وَالنَّارُ لَا تَغْيِرُهُ .

وَمَا جَاءَ فِي مَعْنَى هَذَا الشَّعْرِ :

إنَّ الغريبَ ذليلٌ حيثما سَلَكَ
إِذَا تَغَنَّى حِمَامُ الأَبكِ فِي غُصْنٍ
لو أَنَّهُ مُلْكٌ كُلِّ الْوَرَى مَلَكَ
حَنَّ الْغَرِيبُ إِلَى أوطَانِهِ فَبَكَى
آخِرُ :

وإِذَا حَلَّتْ بِدَارِ قُومٍ دَارَهُمْ
فَالشَّمْسُ تُشْرِقُ فِي مَحَلَّةٍ كَبَشِهَا
فَلَهُمْ عَلَيْكَ تَعَزُّزُ الْأوطَانِ
وَتَكُونُ مَنحَطًا مَعَ الْمِيزَانِ
وَقَالَ الْفقيهُ الْحَافِظُ أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ حَزْمٍ :

لَا يَشْتَمَنُ حَاسِدٌ إِنْ نَكَبَتْ عَرَضَتْ
فَالْهَرَمُ لَيْسَ عَلَى حَالٍ بِمُتْرَكٍ^(١)
فَالْحَرُّ كَالْتَّبَرِ يَلْفَى تَحْتَ مَنَقَعَةٍ
طَوْرًا وَطَوْرًا يُرَى تَاجًا عَلَى مَلِكٍ
وَقَالَ الْبَحرِيُّ فِي سَعِيدٍ وَقَدْ حَبَسَ :

وَمَا هَذِهِ الْأَيَّامُ إِلَّا مَرَاحِلُ
فَمِنْ مَنْزِلٍ رَحْبٍ وَمِنْ مَنْزِلٍ ضَنْكٍ^(٢)
وَقَدْ هَذَبْتَ النَّائِبَاتُ وَإِنَّمَا
صَفَا الذَّهَبُ الْإِبْرِيْزَ قَبْلَكَ بِالسَّيْبِكِ
وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ دَرِيدٍ :

لَا تَحْمَرُنْ عَالِمًا وَأَنْ خَلَقْتَ
وَانْظُرْ إِلَيْهِ بَعِينَ ذَى خَطَرٍ
أَثْوَابُهُ فِي عِيُونِ رَامِقِهِ^(٣)
مَهْذَبُ الرَّأْيِ فِي طَرَائِقِهِ
فَالْمَسْكُ إِذْ مَا تَرَاهُ مَمْتَنًا
بِفَهْرٍ عَطَّارِهِ وَسَاحِقِهِ
سَوْفَ تَرَاهُ بَعَارِضِيْ مَلِكٍ
وَمَوْضِعُ التَّاجِ مِنْ مَفَارِقِهِ
وَقَالَ ابْنُ شِمَاخٍ :

نَوَائِبُ غَالَتْنِي فَأَبْدَتْ فَضَائِلِيْ
فَكَانَتْ وَكَانَتْ النَّارُ وَالْعَنْبَرُ الْوَرْدَةُ

(١) نَفْحُ الطَّيْبِ

(٢) دِيْوَانُهُ ١٥٦٨ وَفِيهِ : « إِلَّا مَنَازِلُ »

(٣) دِيْوَانُهُ ٩٨

وعلى لسان عود الطيب :

إِنَّ مَسْتِ النَّارِ جَسْمِي أَبَدْتُ طَيْبَ نَسِيمِي
كَالدَّهْرِ إِنْ عَصَى يَوْمًا أَبَانَ فَضْلَ كَرِيمِي

وسخط المتوكل على علي بن الجهم ، فنفاه إلى خراسان ، وكتب أن
يُضَلَّبَ إذا وردها يوماً إلى الليل ، فلمَّا وصل إلى الشاذياخ حبسه طاهر بن عبدالله ،
ثم أخرجَه فصلبه إلى الليل مجرداً فقال ^(١) :

لَمْ يَصَابُوا بِالشَّاذِيَاخِ عَشِيَةِ الْإِثْنَيْنِ مَسْبُوقًا وَلَا تَجْهَلُوا ^(٢)
نَصَبُوا بِحَمْدِ اللَّهِ مَاءَ عَيُونِهِمْ شَرْفًا وَمَلَأَ صُدُورَهُمْ تَبَجُّيلًا
مَا أَزْدَادَ إِلَّا رَفْعَةً وَسَعَادَةً وَازْدَادَتِ الْأَعْدَاءُ عَنْهُ نَكُولًا
هَلْ كَانَ إِلَّا اللَّيْثَ فَارِقَ غِيَابِهِ فَرَأَيْتَهُ فِي تَحْمَلٍ مَحْمُولًا
مَا عَابَهُ أَنْ يُزَعِّنَهُ لِبَاسُهُ كَالسَّيْفِ أَفْضَلُ مَا يُرَى مَسْلُوكًا ^(٣)
وقال في الحبس :

قَالَتْ خُبِسْتُ فَقُلْتُ لَيْسَ بِضَائِرٍ حَبْسِي وَأَيَّ مَهْنَدٍ لَا يُغَمِّدُ ^(٤)
أَوْ مَا رَأَيْتِ اللَّيْثَ بِأَلْفِ غِيَلِهِ كَبِيرًا وَأَوْبَاشُ السَّبَاعِ تَصِيدُ ^(٥)
فَالشَّمْسُ لَوْلَا أَنَّهَا مَحْبُوبَةٌ عَنْ نَظْرِيكِ لِمَا أَضَاءَ الْفِرْقَدُ
وَالنَّارُ فِي أَحْجَارِهَا مَخْبُوءَةٌ لَا تُضْطَلِّي إِنْ لَمْ تُنْثَرِهَا الْأَزْنَدُ
وَالْحَبْسُ إِنْ لَمْ تَغْشَهُ لَدُنْيِيَّةٌ شَنْعَاءُ نَعَمِ الْمَنْزِلِ الْمَتَوَرَّدُ
بَيْتٌ يُجَدِّدُ لِلْكَرِيمِ كِرَامَةً وَيُزَارُ فِيهِ وَلَا يَزُورُ وَيُحْمَدُ
لَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الْحَبْسِ إِلَّا أَنَّهُ لَا تَسْتَذِلُّكَ بِالْحِجَابِ الْأَعْبَدُ

(١) ديوانه ١٧١ ، والشاذياخ ، من ضواحي نيسابور

(٢) الديوان : (صديحة الاثنين)

(٣) ديوانه : « كالسيف »

(٤) ديوانه ٤١ ، ٤٢

(٥) الديوان : « تردد »

أخذ الأحوصَ أحدُ الأمراءَ بأمر الوليد بن عبد الملك لأنه كان يراود غلمانَه ، فضربه مائة سوط وصبَّ عليه الزيت ، وأوقفه في الشمس ، وهو مع ذلك يقول :

ما تعتربنى من خطوبٍ مِلْمَةٍ إلا تشرّفتني وترفعُ شاني^(١)
إني على ما قد علمت مجسّدٌ أنمى على البغضاء والشنآن
فإذا تزول تزول عن متخمّطٍ تخشى بواردُ على الأقربان
إني إذا خفي اللثيمُ وجدتنى كالشمس لا تخفى بكل مكان

* * *

قوله : ياويلة أيبك . الويلة : الفضيحة ، والويل : الحزن . والعولة : البكاء الشديد ، وأعوّل يعوّل إعوالاً ، إذا رفع صوته وصاح . أهليك : جمع أهل . يكشط : يخلق شعره . هب ، أى احسب . وذكر في الدرة أن خواص العراق يقولون : هب أنى فعلت ، وهبه فعل ، كقول أبي ذهل^(٢) :

هَبُونِي امراً منكم أضل بعيره له ذمّة إن الذمام كبيرُ

قال : وهبني ، أى عدّني واحسبني ، فكان فيه معنى الأمر من وهب . انتهى ما قاله في الدرة^(٣) .

وقال هنا : وهب أن لك . . . البيت ، وبيت القبيلة : أشرف خِذ فيها . أناف : أشرف .

(١) ديوانه ٢٠٣ وروايته

ما من مصيبة نكبة أمتنى بها إلا تعظّمني وترفع شاني

(٢) ط د ذهل ، تحريف

(٣) درة النواص ١٢١ (طبع لندن)

[شرف عبد مناف]

عبد مناف بن قصي، هو بيت قريش وشريفها، وهو جد رسول الله صلى الله عليه وسلم، واسمه المغيرة، وكان يقال لعبد مناف: القمر لجماله وبهائه ورفعة منزلته، وسمي عبد مناف لأنه شرف وعلا، وأناف على أشرف العرب، وكانت الركاب تضرب إليه من أطراف الأرض يُتَحَفُّونَه تحف الملوك، فيكرمهم، وكان عنده لواء نزار، وقوس إسماعيل، وسقاية الحاج والمفاتيح. ولما قسم والداه المجد بين أولاده جعل السقاية والرياسة لعبد مناف، والدار لعبد الدار، والرفادة لعبد العزى، وجانبى الوادى لعبد بن قصي. قال الشاعر:

كانت قريش بيضةً فتفلقت^(١) فالح خالصه لعبد مناف

ولما مات قصي رأس ابنه عبد مناف، وجل قدره، فآتته خزاعة وبنو الحارث بن كنانة يسألونه الحلف ليعزوا به، فعقد معهم.

وأما شرف عقبه فلأن منه بنى هاشم، الذين فيهم النبوة والخلافة، ومنه بنو أمية القادة في الجاهلية، وأهل الخلافة في صدر الإسلام، وقد قدمنا في أخبار الشافعي أن عبد مناف، يجتمع بنو هاشم وبنو أمية فيه، فلهؤلاء انتهى شرف مضر.

[ذكر بني عبد المدان]

وأما بنو عبد المدان فأشرف اليمين، وبهم يضرب المثل في الشرف والعزة، وهو عبد المدان بن الديان بن قطن بن زياد بن الحارث بن مالك بن ربيعة بن مالك بن كعب بن الحارث بن كعب بن خالد بن بجيلة بن مذحج.

(١) من مقطوعة في أمالي المرتضى ٢ : ٢٦٨ ونسبها إلى مطرود بن كعب الخزاعي.

وقال لقيط بن زُرارة :

شربت الخمر حتى خِلْتُ أَنِّي أبو قابوس أو عبدُ لَدَانِ
أَمْشِي فِي بَنِي عُدُسَ بْنِ زَيْدٍ رُخَى الْبَالِ مِنْطَاقِ الْأَسَانِ
وَقَالَ حَسَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

وَقَدْ كُنَّا نَقُولُ إِذَا رَأَيْنَا لَذَى جِسْمٍ يَعدُّ وَذَى بَيَانِ
كَأَنَّكَ أَيُّهَا الْمَعْطَى بَيَانًا وَجِسْمًا مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمَدَانِ
وَقَالُوا لِحَسَانٍ : كُنَّا يَا أَبَا الْوَلِيدِ ، وَنَحْنُ نَطُولُ بِأَجْسَامِنَا عَلَى الْعَرَبِ نَرَى
لَأَنْفُسِنَا بِذَلِكَ فَضْلًا ، حَتَّى قُلْتُ :

دَعُوا التَّخَايُؤَ وَامْشُوا مِشْيَةَ سُخْجَا إِنَّ الرِّجَالَ أُولُو قَدٍّ وَتَذَكِيرٍ^(١)
لَا بَأْسَ بِالْقَوْمِ مِنْ طُولٍ وَمِنْ عِظَمٍ جِسْمُ الْبَقَالِ وَأَحْلَامُ الْعَصَافِيرِ
فَتَرَكْنَا لَا نَرَى لِأَجْسَامِنَا فَضْلًا .

وحكى الأصمعيّ : أَنَّهُ اجْتَمَعَ يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَدَانِ وَعَامِرُ بْنُ الطَّفِيلِ بِسُوقِ
عُكَاظَ ، وَقَدِمَ أُمَيَّةُ بْنُ الْأَسْكَرِ الْكِنَانِي وَمَعَهُ ابْنَتُهُ لَهُ ، مِنْ أَجْمَلِ أَهْلِ زَمَانِهَا ،
فَحَطَّبَهَا يَزِيدُ وَعَامِرُ ، فَقَالَتْ أُمُّ كَلَابِ (امْرَأَةُ أُمَيَّةِ) : مَنْ هَذَانِ الرِّجَالَانِ ؟
فَعَرَّفَهَا أُمَيَّةُ ، فَقَالَتْ : أَعْرِفُ بَنِي الدِّيَانِ وَلَا أَعْرِفُ عَامِرًا ، قَالَ : هَلِ سَمِعْتِ
بِمَلَاعِبِ الْأُسْنَةِ ؟ قَالَتْ : نَعَمْ ، قَالَ : هَذَا ابْنُ أُخْتِهِ ، فَقَالَ يَزِيدُ : يَا أُمَيَّةُ أَنَا
ابْنُ الدِّيَانِ ، صَاحِبُ الْكِتِيبِ وَرئيسُ مَذْحِجٍ وَمَكَلَمُ الْعُقَابِ ، وَمَنْ كَانَ يَصُوبُ
أَصَابَعَهُ فَتَنْطُفُ دَمًا ، وَرَاحَتُهُ فَتَخْرُجُ ذَهَبًا ، فَقَالَ أُمَيَّةُ : بَخِ بَخِ ، فَقَالَ عَامِرُ :
جَدِّي الْأَجْذَمُ ، وَعَمِّي الْأَصْمُ ، وَخَالِي مَلَاعِبُ الْأُسْنَةِ ، وَأَبِي فَارِسُ قُرْزَلٍ ،
فَقَالَ أُمَيَّةُ : بَخِ بَخِ ، مَرَعَى وَلَا كَالسَّعْدَانِ ، فَأَرْسَلَهَا مِثْلًا ، فَقَالَ يَزِيدُ : يَا عَامِرُ ،

(١) ديوانه ٢١٤ . والتخايؤ : التباطؤ في المشي . وفي الديوان « إن الرجال ذوو

عصب وتذكير »

هل تعلم شاعراً من قومي رحل بمدحٍ إلى رجل من قومك؟ قال: لا، قال: فهل تعلم أن شعراء قومك يرحلون بمدائحهم إلى قومي؟ قال: اللهم نعم، فنهض يزيد وهو يقول:

أُمَيَّ يَا ابْنَ الْأَسْكِرِ بْنِ مَدْلَجٍ لَا تَجْعَلُنْ هُوزَانًا كَمَذْحِجٍ
لَا النَّبْعُ فِي مَغْرَسِهِ كَالْعَوْسَجِ وَلَا الصَّرِيحُ الْحَضُّ كَالْمُزَجِ

* * *

فَلَا تَضْرِبْ فِي حَدِيدٍ بَارِدٍ ، وَلَا تَطْلُبْ مَا لَسْتَ لَهُ بِوَاجِدٍ ،
وَبَاهِ إِذَا بَاهَيْتَ بِمُجُودِكَ ؛ لَا يُجُودُوكَ ، وَبَحْصُوكَ ، لَا بِأُصُولِكَ ،
وَبِصَفَاتِكَ ، لَا بِرُفَاتِكَ ، وَبِأَعْلَاقِكَ ، لَا بِأَعْرَاقِكَ ؛ وَلَا تُطْعِ الطَّمْعَ
فَيُذِلَّكَ ، وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ ، وَلِلَّهِ الْقَائِلُ لَابْنِهِ :

يُبَيِّ اسْتَقِيمْ فَالْعَمُودُ تَنْمِي عُرُوقُهُ قَوِيماً وَيَنْشَأُ إِذَا مَا التَّوَى التَّوَى
وَلَا تُطْعِ الْحِرْصَ الْمَذِلَّ وَكُنْ فَتَى إِذَا التَّهَبَّتْ أَحْشَاؤُهُ بِالطَّوَى طَوَى
وَعَاصِ الْهَوَى الْمُرْدِي فِكْمَ مَنْ مُخَلَّقِ

إِلَى النَّجْمِ لَمَّا أَنَّ أَطَاعَ الْهَوَى هَوَى
وَأُسْعِفَ ذَوَى الْقُرْبَى فَيَقْبُحُ أَنْ يُرَى

عَلَى مَنْ إِلَى الْحَرِّ اللَّبَابِ انْضَوَى ضَوَى .

وَحَافِظُ عَلَى مَنْ لَا يَخُونُ إِذَا تَبَا

زَمَانَ وَمَنْ يَرَعَى إِذَا مَا التَّوَى نَوَى

وإن تَقْتَدِرْ فاصْفَحْ فلا خَيْرَ في امرئٍ
إذا اعتَلَقَتْ أَظْفَارُهُ بالشَّوَى شَوَى
وإياكَ والشَّكْوَى فلم تَرِ ذَا نَهَى
شَكَا بِلْ أَخُو الْجَهْلِ الَّذِي مَا ارْغَوَى عَوَى

قوله : لا تضرب في حديد بارد ، هو مَثَلٌ لمن يحاول الانتفاع بمن ليس
عنده نفع ، وقال أبو الشَّعْمَقِ (١) يهجو سعيد بن سلم :

هَيِّاتْ تَضْرِبْ فِي حَدِيدٍ بَارِدٍ إِن كُنْتَ تَطْمَعُ فِي نَوَالِ سَعِيدٍ
تَاللَّهِ لَوْ مَلَكَ الْبَحَارَ بِأَمْرِهَا وَأَتَاهُ سَلَمٌ فِي زَمَانٍ مُدَوِّدٍ
يَبْغِيهِ مِنْهَا شَرْبَةً لَطَهْوَرَهُ لِأَبْنَى وَقَالَ : نَيْمًا بِصَعِيدٍ
وكذب عليه ، كان سعيد بن سلم من أجود الناس . قوله : بَاهُ ، أى قَاخِر .
موجودك ومحصولك : ما تجده من المال ويحصل لك . رفاتك : عِظَامُ أَجْدَادِكَ
البالية . الأَعْلَاقُ : جَمْعُ عِلْقٍ ، وهو النَّفِيسُ الرَّفِيعُ مِنَ الدَّخَائِرِ . أعراقك :
أصولك . قوله : وَلَا تَطْعِ الطَّمْعَ فِيزِلْكَ ، ومن دعاء النبي صلى الله عليه وسلم :
« اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ طَمَعٍ حَيْثُ لَا طَمْعَ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ طَمَعٍ يَهْدِي
إِلَى الطَّمْعِ » ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « خِيَارُ الْمُؤْمِنِينَ الْقَانِعُ ،
وَشِرَارُهُمُ الطَّامِعُ » . وقال الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ لِبَعْضِ وَلَدِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا :
مَا مِلَّاكَ الَّذِينَ ؟ قَالَ : الْوَرَعُ ، قَالَ : مَا آفَتْهُ ؟ قَالَ : الطَّمْعُ . قوله : وَلَا تَتَّبِعْ
الْهُوَى فَيُضِلَّكَ ، ابنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « ثَلَاثُ
مَهْلِكَاتٍ ، شُحٌّ مُطَاعٌ ، وَهُوَى مُتَّبَعٌ ، وَعَجْبٌ كُلُّ ذِي رَأْيٍ بَرَأْيُهُ » . وقال
صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْهُوَى وَطُولُ الْأَمَلِ ،
أَمَّا الْهُوَى فَيَصِدُّ عَنِ الْحَقِّ ، وَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَيُنْسِي الْآخِرَةَ » . وقال بعضهم :

(١) هو أبو محمد مروان بن محمد ، وأبو الشَّعْمَقِ لقبه والأبيات في ديوانه ١٣٤
(شعراء عباسيون) .

أَفْضَلُ النَّاسِ مَنْ عَصَى هَوَاهُ ، وَأَفْضَلُ مِنْهُ مَنْ رَفَضَ دَنِيَاهُ . تنمى : تزيد .
التَّوَى : اعوجَّ . التَّوَى : الهلاك . القويم : المعتدل . التَّهَبَّتْ : اشتعلت .
الطَّوَى : الجوع . طَوَى ، أى طوى عليه ضلوعه وستره . وقال أبو فراس :

لا أُرْتَضَى وَدًّا إِذَا هُوَ لَمْ يَدُمُ عِنْدَ الْجَفَاءِ وَقَلَّةِ الْإِنصَافِ^(١)
تَمَسَّ الحَرِيصُ وَقَلَّ مَا يَأْتِي بِهِ عِوَضًا مِنَ الْإِلْحَاحِ وَالْإِلْخَافِ
إِنَّ الْفَنَى هُوَ الْفَنَى بِنَفْسِهِ وَلَوَانَهُ عَارَى أَلْمَسَاكِيبِ خَافِي
مَا كُلُّ مَا فَوْقَ التَّبْسِيطَةِ كَافِيًا فَإِذَا قَنَمْتُ فَكُلُّ شَيْءٍ كَافِي
وَيَعَا فُلِي طَمَعَ الحَرِيصُ فُتُوْتِي وَمُرُوْتِي وَقَنَاعَتِي وَعَفَافِي
شَيْمٌ عُرِفْتُ بِهِنَّ مَذَانَا يَافِعٌ وَلَقَدْ عُرِفْتُ بِثَلْهَاهَا أُسْلَافِي

قوله : المردى ، أى المهلك . الحلق : الطائر يستدير فى طَيَّارانه . هَوَى : سقط . أَسْعَفَ : اقض حوائجهم . اللباب : الخالص . الضوى ، انقطع إلى جودك وتعلق به . نبا : ارتفع ولم يوافق . يَرَعَى : يحفظ . النوى : البعد . نَوَى : أَرَادَهُ وَقَصَدَهُ ، وَقَدْ قَالُوا : خَيْرُ الْإِخْوَانِ ، مَنْ أَقْبَلَ عَلَيْكَ إِذَا أَدْبَرَ الزَّمَانَ . الشَّوَى : القوائم ، وَيُقَالُ لجلدة الرأس : شَوَى . وقوله : شَوَى ، أى صنع شواء وأولاهها النار . يقول : مَنْ اعْتَذَرَ إِلَيْكَ مِنَ الْإِخْوَانِ فَاعْذِرْهُ ، وَلَا تَكُنْ تَمَنَّ إِذَا وَقَعَ عَلَى ذَنْبٍ لِصَاحِبِهِ أَخَذَهُ بِهِ ، وَنَزَعَ جِلْدَهُ رَأْسَهُ فَشَوَاهَا .

[ما جاء فى قبول الأعذار]

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ لَمْ يَقْبَلْ مِنْ مُتَنَصِّلٍ عَذْرًا ، صَادِقًا كَانَ أَوْ كَاذِبًا ، لَمْ يَرِذْ عَلَى الْخَوْضِ » .
وقالوا : المعترف بالذنب كمن لا ذنب له .

واعتذر رجلٌ إلى إبراهيم بن المهدي ، فقال : قد أغناك الله بالعدر عن الاعتذار ، وأغنانا بحسن النية عن سوء الظن .

وقال الحسن بن وهب :

مَا أَحْسَنَ الْعَفْوَ مِنَ الْقَادِرِ لَا سِيَّامَا غَيْرِ ذِي نَاصِرٍ ^(١)
 إِنْ كَانَ لِي ذَنْبٌ وَلَا ذَنْبٌ لِي فَهَلْ غَيْرُكَ مِنْ غَافِرٍ
 أَعُوذُ بِالْوَدِّ الَّذِي يَبْنِنَا أَنْ تَقْسِدَ الْأَوَّلَ بِالْآخِرِ
 وقالوا : ليس من العدل ، سرعة العذل .

وقال آخر :

اقْبَلْ مَعَاذِيرَ مَنْ وَاظَكَ مَعْتَذِرًا أَبْرًا فِيمَا أَتَى مِنْ ذَاكَ أَوْ فَجَرًا ^(٢)
 قَدْ أَطَاعَكَ مَنْ يُرْضِيكَ ظَاهِرُهُ وَقَدْ أَجَلَّكَ مَنْ يَعْصِيكَ مُسْتَتِرًا
 آخر :

وَهَبْنِي مَسْبُتًا كَالَّذِي قَلَّتْ ظَالِمًا فَعَفُوا جَمِيلًا كَيْ يَكُونَ لَكَ الْفَضْلُ ^(٣)
 فَإِنْ لَمْ أَكُنْ لِلْعَفْوِ عِنْدَكَ لِلَّذِي أَتَيْتُ بِهِ أَهْلًا فَأَنْتَ لَهُ أَهْلُ
 الْأَحْنَفِ : رَبِّ مَلُومٍ لَا ذَنْبَ لَهُ .
 آخر :

* لعل له عذراً وأنت تلوم *

آخر :

إِذَا عَتَذَرَ الْجَانِي تَحَا الْعَذْرُ ذَنْبَهُ وَكُلَّ امْرِئٍ لَا يَقْبَلُ الْعَذْرَ مَذْنِبُهُ ^(٤)

(٢) العقد ٢ : ١٤٢

(١) العقد ٢ : ١٤٢

(٤) العقد ٢ : ١٤٣

(٣) العقد ٢ : ١٤٣

وقال محمد بن سليم لابن السماك : بلغني عنك شيء كرهته ، فقال : إذا لا أبالي ، قال : لم ؟ قال : لأنه إن كان حقاً غفرته ، وإن كان باطلاً لم تقبله . وقالوا في ترك الاعتذار :

إذا كان وجه العذر ليس بيبين فإن أطراح العذر خيراً من العذر^(١) .
قوله : الشكوى ، أى المشتكى إلى الناس بالضر . نهى : عقل . ارعوى : رجع . وارعوى عن القبيح : كف عنه وحسن رجوعه ونزوعه عنه من الرعوى ، وهى حسن المراجعة والنزوع عن الجمل .

الفراء وابن سيده : عوى الفصيل والكلب ، إذا صاح فذّ صوته ، قال الشاعر :

بها الذئب محزوناً كأنّ عواءه عواء فصيل آخر الليل مُحْتَل^(٢)
المحتل : السبيء الغداء^(٣) ، وإذا دعا الرجل الناس إلى الفتنة فقد عوى واستغوى ، وسمعت عوّة النجوم ، أى أصواتهم وجلبتهم ، قاله الأصمعي وأبو زيد : بل أخو الجهل الذى عوى بالشكاية وقت ارعوائه أى رجوعه عنك ، والمعنى كلما غاب عنك : تشكى ، وما مع الفعل مصدرية وظرف الزمان محذوف ، أى وقت ارعوائه كقوله تعالى : ﴿ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ أى مدة دوامهما ، يريد أن العاقل يحتمل ضرر الزمان ولا يشتكى والجاهل الذى متى رجع عن التشكى لم يرجع رجوعاً حسناً ، بل يعوى بالتشكى عواء الذئب .

* * *

فقال الغلام للنظارة : يا للعجبية ، والطرفة الغريبة ! أنف في السماء ، واست في الماء ، ولفظ كالصهباء ، وفعل كالخصباء . ثم أقبل على

(١) لابن عبد ربه ، العقد ٢ : ١٤٣ .

(٢) اللسان (حتل) وفى ط : (محتل) تحريف ، والمحتل : السبيء الغداء .

(٣) ط : (النذار) تحريف .

الشَّيْخُ بِلِسَانٍ سَلِيطٍ ، وَغِيظٍ مُسْتَشِيطٍ ، وَقَالَ : أَفَّ لَكَ مِنْ صَوَائِغِ
بِاللِّسَانِ ، رَوَّاعٍ عَنِ الْإِحْسَانِ : تَأْمُرُ بِالْبِرِّ ، وَتَعْتَقُ عُقُوقَ الْهَرَّةِ ، فَإِنْ
يَكُنْ سَبَبُ تَعْتِيقِكَ ، تَفَاقُ صُنْعَتِكَ ، فَرَمَاهَا اللَّهُ بِالْكَسَادِ ، وَإِفْسَادِ
الْحُسَادِ ؛ حَتَّى تَرَى أَفْرَعًا مِنْ حِجَامٍ سَابَاطٍ ، وَأَضْيَقَ رِزْقًا مِنْ سَمِ الْخِيَاطِ .
فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ : بَلْ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكَ كَثِيرَ الْقَمِّ ، وَتَبَيَّغَ الدَّمُ ؛ حَتَّى تُلْجَأَ إِلَى
حِجَامٍ عَظِيمٍ الْاِشْتِطَاطِ ، ثَقِيلِ الْاِشْتِرَاطِ ، كَلِيلِ الْمِشْرَاطِ ، كَثِيرِ الْمُخَاطِ
وَالضَّرَاطِ .

قوله : الطَّرْفَةُ الْغَرِيبَةُ ، أَى التَّى لَمْ يَرْ مُثْلُهَا * * * . الصَّبَّاءُ : الْحَمْرُ . الْحَضْبَاءُ :
الْحَجَارَةُ . سَلِيطٌ ، أَى مُنْسَاطٌ . مُسْتَشِيطٌ : مُنْتَشِرٌ فِي الشَّرِّ مُلْتَمِبٌ فِي الْغَضَبِ .
صَوَائِغٌ : كَذَابٌ ، وَصَاغَ الْكَذِبَ : صَنَعَهُ . رَاغٌ : مَالٌ إِلَيْهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ ،
وَرَاغٌ إِلَى أَهْلِهِ : رَجَعَ فِي إِخْفَاءِهِ . رَوَّاعٌ : مَيَالٌ وَقَرَّارٌ فِي خُفْيَةٍ . تَعَقٌ : تَقَطُّعٌ .
وَعُقُوقُ الْهَرَّةِ ، أَنَّهَا تَأْكُلُ أَوْلَادَهَا .

وَحِكَى الْأَصْمَعِيُّ فِي كِتَابِ «أَفْعَلُ مِنْ كَذَا» ، يَقَالُ : أَعَقَّ مِنْ صَبٍّ ، قَالَ :
أَرَادُوا ضَبَّةً ، فَكَثُرَ الْكِلَامُ بِهَا فَقَالُوا : ضَبٌّ ، وَعُقُوقُهَا أَنَّهَا تَأْكُلُ أَوْلَادَهَا ،
وَذَلِكَ أَنَّ الضَّبَّةَ ، إِذَا بَاضَتْ حَرَسَتْ بَيْضَتَهَا مِنْ كُلِّ مَا قَدَرَتْ عَلَيْهِ مِنْ وَرَلٍ
وَحِيَةٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، فَإِذَا خَرَجَتْ أَوْلَادُهَا مِنْ بَيْضَتِهَا ظَنَّتْهَا شَيْئًا يُرِيدُ بَيْضَهَا ،
فَوَثَبَتْ عَلَيْهِ تَقْتَلُهُ ، فَلَا يَنْجُو مِنْهَا إِلَّا الشَّدِيدُ . قَالَ : وَهَذَا مَوْضُوعٌ قَدْ وَضَعْتُهُ
الْعَرَبُ فِي مَوْضِعِهِ ، وَأَتَتْ بِعِلَّتِهِ ، ثُمَّ جَاءَتْ إِلَى مَا هُوَ فِي الْعُقُوقِ مِثْلُ الضَّبَّةِ ،
فَضَرَبَتْ بِهِ الْمَثَلَ عَلَى الضَّدَّةِ ، فَقَالُوا : أَبْرَأُ مِنْ هَرَّةٍ ، وَهِيَ أَيْضًا تَأْكُلُ أَوْلَادَهَا ،
فَحِينَ سُئِلُوا عَنِ الْفَرْقِ وَجَّهُوا أَكْلَ الْهَرَّةِ أَوْلَادَهَا إِلَى شِدَّةِ الْحُبِّ ، فَلَمْ يَأْتُوا
بِحُجَّةٍ مُقْنَعَةٍ . وَقَالَ الشَّاعِرُ :

أما ترى الدهر وهذا الورى كهرة تأكل أولادها
واختصم إلى شريح ، في ولد هرة ، فقال شريح : ألقه مع هذه ، فإن هي
قرت ودرت واسبطرت ، فهو لها ، وإن هي هرت وفرت واقشعرت ، فليس
لها . اسبطرت : اضطجعت وهرت كهرت ، من هريز الكلب ، واقشعرت الجلد :
قامت شعوره .

قوله : تعنتك : طلب مشقتك ، والتعنت : طلب الزلة ، وتعنته أدخل عليه
الأذى إذا سأله عن شيء ، أراد به اللبس والمشقة عليه . سم الخياط : ثقب الإبرة .
بثر : خراج صغار ، ويقال بثر الجرح ، إذا خرجت به أورام صغار فيزيد به
سيلان الدم عن الأكل وغيره . تبثج : هيجان وتبثج دمه : هاج عليه .
تاجأ : تحوج . الاشتطاط : مجاوزة القدر . كليس : حاف .

* * *

قال : فلما تبين الفتى أنه يشكو إلى غير مصمت ، ويرواؤد استفتاح
باب مصمت ، أضرب عن رجم الكلام . واختفز للقيام ، وعلم
الشيخ أنه قد ألام ، بما أسمع الغلام ، فخرج إلى سلمه ، وبذل أن يذعن
لحكمه ، ولا يبغي أجراً على حجه ، وأبى الغلام إلا المشى بدائه ،
والهرب من لقائه ، وما زال في حجاج وببباب ، ولزأز وجذاب ،
إلى أن ضج الفتى من الشقاق ، وتلا رذته سورة الانشقاق ، فأعول
حينئذ لو فارق خسرته ، وانعطاط عريضه وطمره . وأخذ الشيخ يعتذر
من قرطائه ، ويغض من عبراته ، وهو لا يصغي إلى اعتذاره ،
ولا يقصر عن استغباره ، إلى أن قال له : فذاك عمك ، وعذاك ما يعثك ،

أما تسأم الإغوال ، أما تعرفُ الاحتمالَ ، أما سمِعتَ مِنِّي أقال ، وأخذَ
بِقَوْلِ مَنْ قَالَ :

أَتُخِذُ بِجَهْلِكَ مَا يُذَكِّيهِ ذُو سَفَهٍ
مِنْ نَارِ غَيْظِكَ وَاصْفَحْ إِنْ جَنَى جَانِي
فَالْحِلْمُ أَفْضَلُ مَا اِزْدَانَ اللَّيْبُ بِهِ وَالْأَخْذُ بِالْعَفْوِ أَحْلَى مَا جَنَى جَانِي

* * *

يُرَادُ : يُعَالَج . مَصَمَّتْ : مَغْلَقٌ . احْتَفَزَ : تَهَيَّأَ وَتَشَمَّرَ . أَلَامَ : أَتَى بِمَا يَلَامُ
عَلَيْهِ . قَالَ الشَّاعِرُ :

* وَمَنْ يَخْذُلُ أَخَاهُ فَقَدْ أَلَامَا *

جَنَحَ : مَالَ . سَلِمَهُ : صَلَحَهُ . بَذَلَ أَنْ يَذْعَنَ ، أَيْ أَعْطَى الْإِقْيَادَ مِنْ نَفْسِهِ .
يَبْنَى أَجْرًا : يَطْلُبُ أَجْرَةً . فِي حِجَاجٍ وَسِيَابٍ ، أَيْ فِي خِلْعَةٍ وَشِمٍّ . لِرَازٍ : مِلَازِمَةٌ
لِلْخَصُومَةِ . وَخَصِمَ لِرَازٍ مَلَزَّ ، أَيْ لَا يَفَارِقُ الْخُصُومَةَ . جَذَابٌ : مُضَارِبَةٌ وَجَذَبَ
كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِشَوْبِ صَاحِبِهِ . ضَيَّجَ : صَاحَ . وَتَلَارَدْنَاهُ ، أَيْ قَرَأْنَاهُ ، وَجَعَلَ
صَوْبَ التَّخْرِيقِ كَأَنَّهُ قِرَاءَةٌ . أَعُولُ : بَكِي . وَفَارَةٌ خَسِرَةٌ ، أَيْ كَيْلُ خَسِرَانِهِ .
انْعِطَاطُ عِرْضِهِ وَطِئْمَرُهُ ، أَيْ تَمْزِيقُ عِرْضِهِ بِالشِّمِّ ، وَثَوْبُهُ بِالتَّخْرِيقِ ، وَالطُّمَرُ :
الثُّوبُ الْخَلَقُ . فَرَطَاتُهُ : بَوَادِرُهُ ، وَمَا سَبَقَ مِنْ إِذَابَتِهِ . يَغِيْضُ : يَذْهَبُ
وَيَنْقُصُ . عِبْرَاتُهُ : دُمُوعُهُ . يُصَفَى : يَسْتَمَعُ . يَكْتَفُ : اسْتَعْمَارُهُ : بَكَائِهِ .
عَدَاكَ : تَجَاوُزُكَ . يَغْمُكُ : يَغْطِي قَلْبَكَ بِالْهَمِّ . تَسَامٌ : تَمَلُّ . الْإِعْوَالُ : الْبُكَاءُ .
الْإِحْتِمَالُ : التَّسَامُحُ وَالصَّبْرُ عَلَى الْأَذْيَةِ . أَقَالَ : عَفَرَ الذَّنْبَ . أَخَذَ : أَطْفَأَ
وَسَكَّنَ . يَذَكِّيهِ : يُوَقِّدُهُ . سَفَهٌ : جَهْلٌ . اِصْفَحْ : أَظْهَرَ كَرَمَكَ . جَنَى :
أَوْقَعَ بِكَ جُنَايَةً . وَالْجَانِي : فَاعِلُهَا . الْحِلْمُ : الْعَقْلُ وَالصَّبْرُ عَلَى الْمَضَرَّاتِ . اِزْدَانَ :

افتعل من الزَّيْنِ ، أى تزَيْنَ به . اللبيب : العاقل . العفو : غفر الذنب . جَنَى : قطف الثمر . وهذان البيتان من بدائع مزدوجاته التى فُتِّها على أنها من فائق شعره ، وسبقه سابق البربرى إلى معناها بقوله :

لا تُظْهِرَنَّ لِذِي جَهْلٍ مَعَانِيَةً فَرُبَّمَا هَيَّجَتْ بِالشَّيْءِ أَشْيَاءَ
فَالْمَاءُ يَخْمَدُ حَرَّ النَّارِ يُطْفِئُهَا وليس للجهل غير حلم إطفاءه
تَرَى السَّفِيهَ لَهُ عَنْ كُلِّ مَحْمَلَةٍ زينج ، وفيه إلى التفسه إصغاءه
وقال أبو فراس :

ما كنتُ مذكُنتُ إلا طوع إخواني ليست أمواخذةُ الأخوانِ مِن شَانِي^(١)
يَحْنِي الصَّدِيقُ فَاسْتَحْلَى جَنَابَتَهُ حتى أدلَّ على عَفْوِي وإِحْسَانِي
وَيُقْبِعُ الذَّنْبَ ذَنْبًا حِينَ يَعْرِفُنِي عمداً فَاتَّبِعْ غَفْرَانَا بِغُفْرَانِ
يَحْنِي عَلَى فَاغْفُو صَالِحًا أَبَدًا لاشيْءٍ أَحْسَنُ مِنْ حَانٍ عَلَى جَانِي
وذكر الحريرى هذين البيتين والمقطوعة قبلهما ، وجنَّسَ فيهما بين لفظ
القافية واللفظ قبله .

وما جاء من ذلك وهو أضبط مما ذكر قول الشاعر :

قَدَّمَ لِنَفْسِكَ زَادًا وَأَنْتَ مَالِكُ مَالِكٍ
مِنْ قَبْلِ أَنْ تَتَفَانِي وَلَوْ أَنَّ حَالِكَ حَالِكٌ
وَلَسْتَ تَعْلَمُ يَوْمًا أَيْ الْمَسَالِكُ سَالِكٌ
إِنَّمَا الْجَنَّةُ عَدْنٌ أَوْ فِي الْمَهَالِكِ هَالِكٌ

وقال آخر :

مالك من مالِكٍ إلا الذى فَدَمَّتْ فَايْذُلُ طَائِعًا مَالِكًا
تقول أَعْمَالِي وَلَوْ فَتَشَوْا وَجَدْتَ أَعْمَالِكَ تُنْجِي لَكَ

وقالت للمعتد جارية له : لقد هُنا هنا ، فقال :

قالت لقد هُنا هنا مولاي أين جاهُنا
قلت لها إلى هنا صيّرنا إلا هُنا

* * *

فقال له الغلام : أما إنك لو ظَهَرْتَ عَلَى عَيْشِي الْمُسْكِرِ ، لَعَذَرْتَ
فِي دَمْعِي الْمُنْهَمِرِ ، وَلَكِنْ هَآنِ عَلَى الْأُمْلَسِ مَا لَاقَى الدَّيْرَ . ثُمَّ كَأَنَّهُ
تَزَعَّ إِلَى الْأَسْتَحْيَاءِ ، فَأَقْلَعَ عَنِ الْبُكَاءِ ، وَفَاءً إِلَى الْأَرْعَوَاءِ ، وَقَالَ
لِلشَّيْخِ : قَدْ صِرْتَ إِلَى اسْتَهْيَتَ ، فَارْقَعْ مَا أَوْهَيْتَ ، فَقَالَ : هَيْهَاتَ
شَغَلْتُ شِعَابِي جَدُّوَايَ ، فِشْمٌ بَارِقٌ سِوَايَ .

مَمَّ إِنَّهُ نَهَضَ يَسْتَقْرِى الصُّفُوفَ ، وَيَسْتَجِدِي الْوُقُوفَ ، وَيُنْشِدُ
فِي ضَمْنِ مَا هُوَ يَطُوفُ :

أُقْسِمُ بِالْبَيْتِ الْحَرَامِ الَّذِي تَهْوَى إِلَيْهِ الزُّمُرُ الْحَرِمَةُ
لَوْ أَنَّ عِنْدِي قُوَّةَ يَوْمٍ لَمَّا مَسَّتْ يَدِي الْمِشْرَاطَ وَالْمِحْجَمَةَ
وَلَا ارْتَضْتُ نَفْسِي الَّتِي لَمْ تَزَلْ تَسْمُو إِلَى الْمَجْدِ بِهِذِي السِّمَّةَ
وَلَا اشْتَكَيْ هَذَا الْفَتَى غِلْظَةً مَنِّي وَلَا شَاكْتُهُ مِنِّي مُجَمَّةَ
لَكِنْ صُرُوفُ الدَّهْرِ غَادَرَنِي نَحَابِطٍ فِي اللَّيَالِي الْمُظْلِمَةِ
وَاضْطَرَّنِي الْفَقْرُ إِلَى مَوْقِفٍ مِنْ دُونِهِ خَوْضُ اللَّظَى الْمُضْرَمَةِ
فَهَلْ فَتَى تَدْرِكُهُ رَقَّةٌ عَلَى أَوْ تَعْطِفُهُ مَرَحْمَةٌ !

* * *

قوله : المنكدر ، أى المتغير ، والكدرّة ضدّ الصفاء . المنهمر : السائل .
 أقلع : ارتفع وزال . فاء : رجع . الارعواء : الاستحياء والرجوع الحسن .
 أوهيت : أفسدت . شِم : انظر . يَسْتَقْرِى : يقتبع . يستجدى : يطلب الجداً ،
 وهو العطية . فى ضمن : فى أثناء وفى خلال . تهوى : تُسرِع المشى وتنساقط
 إليه . الزُسر : الجماعات . الحرمة : الداخلة فى الحرم . تسمو : ترتفع . الحمد :
 الشرف . السمة : العلامة . غلظة : جفاء . شاكنه : ضربته . مُحمة : شوكة
 العقرب التى تُلَسع بها ، والمُحمة : السّم ، فسمى ما يخرج عنه السّم باسمه .
 صروف : نوائب . غادرني : تركنني . خابط : ماش على جهالة . اضطرني :
 ألجاني . خوض اللظى : دخول النار . المضرمة : الموقدة . رقة : شفقة . تعطفه :
 تليينه . مرحلة : رحمة .

* * *

قال الحارث بن همام : فكنت أول من أوى لبُلّواه ، ورقّ لشكواه ،
 فنفحّته بدرهمين ، وقلت : لا كأنّا ولو كان دامين ، فابتهج بيا كورة جنّاه
 وتفاءل بهما لينّاه ، ولم تزل الدّراهم تنهال عليه ، وتثّثال لديّه ؛ حتى آل
 ذا عيشة خضراء ، وحقيبة بجرّاء ، فازدهاه الفرح عند ذلك ، وهنّأ
 نفسه بما هنالك ، وقال للغلام : هَذَا رَيْعُ أَنْتَ بَذْرُهُ ، وحلبّ لك
 شَطْرُهُ ؛ فهُلَمْ لِنَقْتَسِم ، ولا نَحْتَشِم ، فَتَقاسَماه بينهما شِقَّ الأُبُلّة ،
 وهنّاضاً مُتَّفِقِي الكلمة . ولما انتظم بينهما عقد الاصطلاح ، وهَمَّ الشيخ
 بالرواح ، قلت له : قد تبوّغ دمي ، ونقلتُ إليك قَدَمِي ، فهل لك أن
 تحجّمني ، وشكّيفك ما دهمني ، فصوّب طرفه في وصعد ، ثم ازدلف
 إليّ وأنشد :

* * *

أوى : أشفق . نَفَحْتُهُ : رميته ونبذته . ذامنين : صاحب كذب . ابتهج : فرح . باكورة : أول ما يطيب من الشجر ، فجعل الدرهمين باكورة لأنهما أول ما أخذ . تفاعل : جعلهما قالا ، أى لما كان أول ما حصل بأيديهما درهمين ، استكثرهما فرجا أن تمشي عطايا الحاضرين على هذا المثال ، وقد كررت ذِكْرَ القال .

[مما قيل فى القال]

وتذكر هنا منه فصلا على ما أجرينا العادة فى غيره .
كان صلى الله عليه وسلم يكره الطَّيْرَةَ وَيُعْجِبُهُ الْقَالُ الْحَسَنُ .
ولما قدم المدينة نزل على رجلٍ من الأنصار ، فصاح الرجل بغلمانة : يا سالم يا يسار ، فقال صلى الله عليه وسلم : سَلِمْتُ لَنَا الدَّارُ فِي يَسَرٍ .
وقيل لرجلٍ من العرب : ما لَكُمْ تَسْمُونَ أبناءكم بأسماء السباع والكلاب ، وتسبون مواليتكم بأسماء حسان ، مثل عطاء ونجاح ؟ فقال : لَأَنَا أَعْدَدْنَا أَبْنَاءَنَا لِأَعْدَائِنَا ، وَمَوَالِينَا لِأَنْفُسِنَا .
وسأل عمرُ رضى الله عنه رجلاً عن اسمه واسم أبيه ، فقال : ظالم بن سراق ، قال : تظلم أنت ويسرق أبوك !

وجاءه رجل فقال له : ما اسمك ؟ قال : جرة ، قال : ابن من ؟ قال : ابن شهاب ، قال : تَمَنَّيَ ؟ قال : من الحرقة ، قال : وأيّاً تسكن ؟ قال : بحرّة النار . قال : بأيّها ؟ قال : بذات لظى ، قال : أدرك أهلَكَ ، فقد احترقوا ، فرجع فوجدهم قد احترقوا ، فكان كما قال .

المنجديهي بسنده ، حدثني أحمد بن عليّ ، حدثني أبو مسعود ، قال : قال لي أبو داود السنجي : ما اسمك ؟ قلت : سعد ، قال : ابن من ؟ قلت :

ابن مسعدة ، قال : أبو من ؟ قلت : أبو مسعود ، قال لي : مسألتك مثل أعرابي لقي آخر ، فقال : ما اسمك ؟ قال : فيض ، فقال : ابن من ؟ قال : ابن الفرات ، قال : أبو من ؟ قال : أبو بحر ، قال : ليس لنا أن نكلمك إلا في زورق .

وقال علي بن الجهم : دخلت يوماً على المتوكل ، وهو جالس في حن داره ، وبیده غصن آس ، وهو يتمثل بهذا الشعر :

بَالشَّطِّ لِي سَكَنٌ أَفْئِدِيهِ مَنْ سَكَنِ

أهدى من الآس لي غصنين في غُصْنِ^(١)

قلت إذ نَطَمًا الْفَيْنِ وانتسقا سقياً ورعيًا لِفَالٍ مِنْكُمْ حَسَنِ

فَالْآسُ لَا شَكَّ آسٍ مِنْ تَشَوَّقِنَا شافٍ وآسٍ تَبَقَى لِي عَلَى الزَّمَنِ

بَشَرْتُمَنَانِي بِأَسْبَابٍ سَتَجُمُّنَا إِنْ شَاءَ رَبِّي وَمَهْمَا يَقْضِهِ يَسْكُنِ

ثم قال لي — وكدتُ أنشقُ حسداً : لمن هذا الشعر يا علي ؟ قلت :

للحسين بن الضحَّاك يا سيدي ، فقال : هو والله عندي أشعرهم وأحسنهم

مذهباً وأظرفهم نطقاً ، قلت : وقد زاد غيظي : في هذا النمط يا سيدي ؟ قال :

وفي غيره ، وإن رَغِمَ أنْفُكَ ومَتَّ حَسداً ، وأردت إنشاده قصيدةً ، قلت :

إني لا أُنْتَفِعُ بها مع ما جرى ، فأخترتها إلى وقت آخر .

قوله : تنهال ، أي تنصب متفرقة . آك : رجع . خضراء : ناعمة لكثرة

الزَّرَق . حقيقة بجراء ، أي وعاء ممتلئ ، والأبجر : الذي خرجت سُرَّتُهُ .

ازدهاء : هزّه وأعجبه . الرِّيع : الزيادة والفضل والبذر : ما يزرع من الحبوب .

حَلَب : لبن . شطره : نصفه . نَحْتَشِم : نستحي أو نفضب . الابلامة : الدومة

تشق ورقتها فتخرج أبداً معتدلة . تكفكف : تدفع وتكف . دهني : أصابني .

ازدلف : قرُب .

* * *

(١) ديوان الحسين بن الضحَّاك ١١٥

كَيْفَ رَأَيْتَ خُذَعَتِي وَخَتْلِي وَمَا جَرَى بَيْنِي وَبَيْنَ سَخْلِي
 حَتَّى انْتَنَيْتُ فَأَنْزَأَ بِالْخُضْلِ أَرْعَى رِياضَ الْخِضْبِ بَعْدَ الْحَلِ
 بِاللَّهِ يَا مَهْجَةَ قَلْبِي قُلْ لِي هَلْ أَبْصَرْتُ عَيْنَاكَ قَطًّا مِثْلِي
 يَفْتَحُ بِالرَّقِيقَةِ كُلَّ قُفْلٍ وَيَسْتَبِي بِالسَّحْرِ كُلَّ عَقْلِي
 وَيَعْجِنُ الْجِدَّ بِمَاءِ الْهَزْلِ إِنْ يَكُنِ الْإِسْكَندَرِيُّ قَبْلِي
 فَالطَّلُّ قَدْ يَبْدُو أَمَامَ الْوَبْلِ وَالْفُضْلُ لِلْوَابِلِ لَا لِلطَّلِّ
 قَالَ : فَتَنَّبَهْتَنِي أَرْجُوزُهُ عَلَيْهِ ، وَأَرْتَنِي أَنَّهُ شَيْخُنَا الْمَشَارُ إِلَيْهِ ،
 فَقَرَعْتُهُ عَلَى الْإِبْتِدَالِ ، وَالْإِلْتِحَاقِ بِالْأَرْذَالِ ، فَأَعْرَضَ عَمَّا تَمِيعُ ،
 وَلَمْ يُبَيِّنْ بِنَا قَرِيعَ ، وَقَالَ : كُلُّ الْحِذَاءِ يَحْتَذِي الْخَافِي الْوَقِيعَ . ثُمَّ قَاصَانِي
 مُقَاصَةَ الْمَهَانَ ، وَانْطَلَقَ هُوَ وَابْنُهُ كَفَرَسَى رِهَانَ .

* * *

خَتْلِي : مَكْرِي . سَخْلِي : وَلَدِي . الْخُضْلُ : الْعَلَبُ فِي الْقَمَارِ ، وَفِي مَسَابَقَةِ
 الْخَلِيلِ ، وَفِي مَرَامَةِ السَّهَامِ . يَسْتَبِي : يَأْخُذُ وَيَسْبِي ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي شَرْحِ الصَّدْرِ
 التَّنْبِيهِ عَلَى هَذَا الْمَوْضِعِ . الطَّلُّ : أَوْضَعُ الْمَطَرِ . وَالْوَبْلُ : أَشَدُّهُ . قَرَعْتُهُ :
 أَقْلَقْتُهُ بِكَثْرَةِ اللُّومِ ، وَبِأَخْذِي لَهُ بِلِسَانِي . الْإِبْتِدَالُ : امْتِثَانُ نَفْسِهِ فِي الصَّنْعَةِ
 الْمُهْجِينَةِ . الْأَرْذَالُ : الْأَدْنِيَاءُ ، فَأَرَادَ عَنَفْتَهُ وَلَمْتَهُ أَشَدَّ اللُّومِ عَلَى حِرْفَةِ الْحِجَامَةِ ،
 فَإِنَّهَا صَنْعَةُ أَرْذَالِ النَّاسِ وَسِفْلَتُهُمْ .

ابن عمر قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « الْعَرَبُ بَعْضُهَا لِبَعْضٍ
 أَكْفَاءُ ، قَبِيلَةٌ لِقَبِيلَةٍ ، وَحَيٌّ لِحَيٍّ ، وَرَجُلٌ لِرَجُلٍ . وَالْمَوَالِي أَكْفَاءُ إِلَّا حَائِكًا
 أَوْ حَجَّامًا » .

وقال علي بن الحسين : أربعة أعمال كانت في سُفْلِ بني إسرائيل ،
وصارت في سُفْلِ العبيد وستكون في سُفْلِ الأحرار : الحياكة ، والحجامة ،
والدُّبَاغة والكِنَاسة .

رفاعة بن موسى : سمعت الصادق يقول : ستٌّ لا يُنَجِّهُونَ : المَلَّاحُ ،
والمسكارى ، والحمامى ، والحجام ، والبيطار ، والحائك .

ومَن شهر من الأدباء بصنعة هينة نصر بن محمد الخابرزى ، كانت صنعتُهُ
خَبْزُ خُبْزِ الأرز في دكانه بِمَرْبَدِ البصرة ، فكان ينشد أشعاره على الغزل ،
والناس يزدحمون عليه ، وأحداثُ البصرة يتنافسون في ميله إليهم .

وكان ابن لَنَسْكَك على ارتفاع قَدْرِهِ ينتاب دكانه ، فخره يوماً وعليه
ثياب بيض فاخرة ، فتأذى بالدخان من الدخان وسوء أثره على ثيابه ، فانصرف
وكتب إليه :

لنصر في فؤادى فرطُ حبٍّ مُنِيف به على كلِّ الصِّحَابِ^(١)
أَتِنِياه فبخرنا بخوراً من السَّعَف المدخن بالتهاب
فَقَمْتُ مبادراً وحسبتُ نصرأ يريد بذالك طَرْدِي أو ذهابي
وقال: متى أراك أبا حسين؟ فقلت له إذا تسخت ثيابي

فلما قُرِئت عليه أُمِّلَى على مَنْ قرأها ، وكتب على ظاهرها :

مَنَحْتُ أبا الحسين صَمِيمَ ودِّي نَخاطِيبى بألفاظٍ عِذابِ
أتى وثيابه كالشيب لونا^(٢) فَعُدْنِ له كريمان^(٣) الشَّبابِ
وبغضى للشيب أعداء عندى سواداً لونه لون الخِضابِ
فإن يكن المعطر فيه نفراً فلم يَكُنِ الوصى أبا ترابِ

(١) يتيمة الدهر ٢ : ٢٣٧ ، ٢٣٧

(٢) كذا في اليتيمة ، وفي ط : « كيباض شيب »

(٣) ط : « كغربان » .

ومن شعره :

خليلٍ هل أبصرُ نَما أو سَمِعُ نَما بأحسنٍ من مَوئى تمشى إلى العَبدِ
أتى زائراً من غير وعدٍ وقال لى : أصونك عن تعذيب قلبك بالوعدِ
فما زال نَحْمُ السكاس بينى وبينه يدور بأفلاك السعادة والسعدِ
وله :

ورُدُّ الخدود ورُمان النهود وأغصان القدود تصيدُ السادة الصيدا
من لى إذا مارأيت الخضرَ مختصراً والردف مرتدفاً والقمد مقدودا
وكان يحبى التبرقسطى أديباً فرجع إلى الجزارين ، فأمر الحاجب بن هود
أبا الفضل بن محمد أن يوتجه على ذلك فكتب إليه :

تركت الشعر من عدم الإصابة وملت إلى الجزارة والقصابة
فأجابه يحبى :

تعيبُ على مألوف القصابة ومن لم يدرك قدر الشئ عابه
ولو أحكت منها بعض فن لما استبدلت عنها بالحجابه
وإنك لو طلعت على يوماً وحولى من بنى كلب عصابه
لهالك ما رأيت وقلت هذا هزبر صير الأوصام غابه
فتكنا فى بنى العنزى فتكا أقر الذعر فيهم والمهابه
ولم نفلح عن الثورى حتى من جنى بالدم القانى لعابه
ومن يعتز منهم بامتناع فإن إلى صوارمنا إبابه
ويبرز واحد من ألف فيغلهم وتلك من الغرابه
وحقك ما تركت الشعر حتى رأيت البخل قد أمضى شهابه
وحق زرت مشتاقاً حمى فأندى لي التجهم والكابه
وطن زيارتى لطلاب شئ فأقصانى وأغلظ لى حجابه

قوله : ولم يُبَلِّ : أصله يبالي ، حذفت ياءؤه للجزم ، فصار يبال ، قلما أكثر استعماله صار بمنزلة ما لم يحذف منه شيء فقدروا تكرير الجازم عليه مرة أخرى فحذفت حركة اللام للجزم ، فسكنت اللام ، وقبلها ألف ساكنة فحذفت الألف لالتقاء الساكنين .

ولأبي على في هذه المسألة عبارة استوحش منها أكثر العلماء ، فن مخطئ ، ومن مُصَوَّب ، وتحقيقها غائب إلا عن أهل التحقيق ، وقد أوضناها في شرحنا لكتاب الإيضاح ، والإكثار من مسائل الإعراب في كتب الآداب مما يُستبَرَد ويعاب .

أعرض ، أي نحى وجهه لجهة . قاضاني : فارقتني ، وقال الفراء : كل شيء أبنته من شيء فقد قصَّيته منه ، وتقصَّى الرجل من الرجل : بان عنه ، وكل رجل باين شيئاً فقد تقصَّى عنه . الليث رحمه الله : كل شيء لازم خلصته فقد تقصَّى ، وتقصَّيت من الديون : خرجت منها . فرسى رهان : هما اللذان يجريان ويُجعل معهما جُعل ، فمن سبق أخذه .

ومما أستحسن من أبيات اللغز في هذا الباب قولهم في المشارط :

وخضراء لامن بنات الهديل يُلَنَّفَ بِالسَّيْرِ مِنْتَمَارُهَا

كَأَنَّ مَشَقَّ عَيُونِ الْقَطَا إِذَا هُنَّ هَوَّ مِنْ آثَارِهَا

آخر :

وكان جَدَى هَراش في كتابته من أكتب الناس ياهرون بالألف

يعني آثار التشريط تبقى كصور الألفات .

وقال آخر :

يَابِنَ مَنْ يَكْتُبُ فِي الْأَرْضِ قَابَ مِنْ غَيْرِ دَوَاةٍ

لَمْ يَكُنْ يَكْتُبُ فِيهَا غَيْرَ خَطِّ الْأَلِفَاتِ

وقال ابن كناسة يخاطب إبراهيم بن سيابة :

يا ابن الذى عاش غير مضطهدٍ يرحمه الله أيما رجُلٍ
له رقاب الملوك خاضعةٌ من بين حافٍ منهم ومتعلٍ
أبوك أو هي التجاد كاهله كم من كميٍّ أدى ومن بطلٍ
يأخذ من ماله ومن دمه لم يُمس من ناره على وجلٍ
في كفه صارمٌ يقلبه يقدُّ أعناق سادةٍ نبُلٍ

وأخذ صاحب الشرطة رجلاً في ربية ، فقال : أصاحك الله : احفظ في الأبوة ، وقال :

أنا الذى لا تنزل الدهر قدُّره وإن نزلت يوماً فسوف تعودُ
ترى الناس أفواجاً إلى ضوء ناره فمنهم قيامٌ حولها وقُعودُ
فأمر بتركه ، ثم أخبر أن أباه باقلانى ، فقال : لو لم تتركه إلا لأدبه وحسن
تخلصه من الكذب لكان فعلنا سداداً .

وكان بالمدينة فتى أبوه مغنٍّ وأُمُّه نائحة ، فأغضبه إنسان ، فقال : أتغضِبُنِي
وأنا ابن الطرب والحرب !

وقال ابن عباس المصرى يذكر غلاماً جليلاً ، والحجام يأخذ من شعره في الحمام :

مزينٌ انبرى لظبي كأنه البدر في سُجُوفِهِ
كانَ موساه وهوئلاً نَضَى بها الشعر في وقوفِهِ
كيوان في كفه حسام يخلص البدر من كسوفِهِ
ولبعضهم يمدح حجاً :

إن المزين إنسانٌ صناعته تعلو الصنائع إذ ما مثلها صنعتُ
ألا ترى أنه لا يُستراب به وآله الموت في صندوقه جُمعتُ

يخلو مع الملائكة المرهوب جانبه
تعلو أنامله في حين خلوته
وقال السري في مزين محسن :

هل الخلق إلا لعبد الكريم
إذا لمع البرق في كفه
جهول الحسام ولكنه
له راحة سيرها راحة
نعمنًا بخدمته مُد نشا
وله في طيب :

أوضح نهج الطب في معشر
كانه من لطف أفكاره
إن غضبت روح على جسمها
وفي ضده لأبي نعر كشاجم :

عيسى الطيب ترقق
بأبي علاجك إلا
شتات ما بين عيسى
فذاك محيي ممات

وللخوازي :

أبو سعيد راحل للكرام
لم أره إلا خشيئ الردى
ومنسف ينسف عمر الأناام
وقات : يا روحى عليك السلام

(٢) ديوانه ٢٥٥

(١) ديوانه ٢٤٧

(م — ١٩ شرح مقامات الحريري)

يبقى ويفنى الناس من شؤمه قوموا انظروا كيف نخاة اللثام
ثم تراه آمناً سالماً يا ملك الموت إلى كم تنام
وللمرئى :

هل للليل سوى ابن قرّة شاف بعد الإله وهل له من كاف^(١)
فكأنه عيسى بن مريم ناطقاً يهب الحياة بأيمر الأوصاف
مثلث له قارورتى فرأى بها ما اكتن بين جوانحي وشفافي
يسدوله الدواء الحقي كما بدا للعين رضراض الغدير الصافي

وكثرة الكلام وقف على أهل الحجامه ، ولذلك سرف الحريرى بين
الشيخ وابنه ما تقدم فى هذه المقامة . وكان الفقيه الأعمش أكثر الناس تبرّماً
إن أعاد أحد عليه سؤالاً اتهره ، وأخطأ يوماً على قوم ، فقالت لهم امرأته من
وراء الستر : احموا عنه فوالله ما يمنع من الحج منذ ثلاثين سنة إلا مخافة أن
يظلم كربة أو يشتم رفيقه ، وكثر عليه الشعر فقال له تلامذته : لو أخذت من
شعرك ؟ فقال : لا نجد حجاماً يسكت ، قالوا له : نأتيك به ، وتأخذ عليه أن
يسكت حتى يفرغ ، قال : افعلوا . فأتى بحجام ووصى ألا يكلمه ، فبدأ بحلقه ،
فلما أمعن سأل في مسألة فنفض ثيابه ، وقام بنصف رأسه مخلوقاً ، حتى دخل
بيته ، فأخرج الحجام ، وأتى بغيره ، فقال : والله لا أخرج إليه حتى توضؤه ،
وتحلفوه ، خلف ألا يسأله فى شيء ، وحينئذ خرج إليه .

ومقامة الحجام فى البدعية ، منها قال عيسى بن هشام : فطلبت حجاماً فجاءوا
رجل نظيف ، ظريف لطيف ، فارتحت إليه ، وسلمت عليه ، فقال لى : السلام
عليك ، من أى بلد أنت ؟ فقلت : من مصر ، فقال لى : حيّاك الله ، من أرض

النعمة والرفاهة ، وبلد السنة والجماعة ، ولقد حضرت في رمضان جامعها ، وقد اشتعلت المصابيح ، وأقيمت التراويح ، فما شعرنا إلا بمدّ النيل ، قد أتى على تلك القناديل ، ولكن صنع الله لي بحف ، كنت لبسته رطباً فلم يحصل طرازه على كفه ، وعاد الصبي إلى أمّه ، بعد أن صليت العتمة ، واعتدل الظلّ ، ولكن كيف كان حجّك ، هل قضيت مناسكه كما وجب ، وصاح الصبيان : العجب العجب ، فنظرت إلى المنارة ، وما أهون الحرب عند النظّارة ووجدت الهريسة على حالها ، فعلمت أنّ الأمر بقضاء من الله وقدر ، وإلى متى هذا الضجر ، واليوم وغد ، والسبت والأحد ، ولم أكثر وأطيل ، وما أكثر القال والقليل ، وإن أردت أن تعلم المبرّد حديد موسى في النّحو فلا تشتغل بقول العامة ، فلو كانت الاستطاعة قبل الفعل لحلقت رأسك ، فهل ترى يا سيدي أن ابتدئ ؟

قال عيسى : فبقيت والله متعجباً من هذيانه ، وسألت عنه فإذا هو أبو الفتح قد غلب السّواد عليه ، فتركته وانصرفت فهذه غرارة حجام على الحقيقة .

(١) من القائمة الملوانية ص ٢٣٢ مع تغيير في العبارة .

قال الشيخ الإمام الرئيس أبو محمد القاسم بن علي رضي الله عنه :
قد أودعت هذه المقامة بضعة عشر مثلاً من أمثال العرب ، وها أنا أفسر
منها ما إخاله يلتبس ، على من يقتبس .

أما قوله : بَطءَ فِعْد ، فهو مولى عائشة بنت سعد بن أبي وقاص رضي الله
عنه ، وكانت بعثته بالمدينة ليقبَس لها ناراً ، فتصعد من فوره مصر . وأقام بها
سنة ، ثم جاءها بعد السنة وهو يشتد ومعه كبحر ، فتبدد منه فقال : تَعِسَتْ
العَجَلَة !

وأما ذات النّحّين فهي امرأة من تميم الله بن ثعلبة ، حضرت سوق عُكاظ
ومعها نَحْيَانَمْن ، فاستخلى بها خَوَات بن جُبَيْر الأنصاري ليلتاعهما منها ،
ففتح أحدهما وذاقه ودفعه إليها ، فأخذته بإحدى يديها ، ثم فتح الآخر وذاقه
ودفعه إليها ، فأمسكته بيدها الأخرى ثم غشيها ، وهي لا تقدر على الدّفع عن
نفسها لحفظها فَمَ النّحّين وشحّها على السمن . فلما قام عنها قالت له : لا هنّاك ،
فغُربَ بها المثل فيمن شعل ، وهي في هذا المثل مفعولة ، لأنها شُعِلَتْ . وأكثَر
الأفعال التي على أفعل تأتي من فعل الفاعل .

وأما قوله : أُنْفٌ في السّماء واست في الماء ، فيضرب هذا المثل لمن يكبر
مقالا ، ويصغر فعّالا .

وأما قوله : أفرغ من حجّام سابط ، قد كَرِ أُنْهُ كان حجّاماً ملازماً سابط
المدائن يحجم الجندي بداني نسيته ، وربما مرّت عليه بُرْهة لا يقربه فيها أحد
فكان يُبرز أُمّه عند تِمَادَى عُطْلَنِهِ ، فيحجمها لكيلا يقرّع بالبطالة ، فما زال
يحجمها حتى نَزِفَ دُمُها ومات .

وأما قوله : يشكو إلى غير مصمت ، فهو مثل يضرب لمن لا يكثر بشأن

صاحبه ، ولا يعبأ باستمرار شكايته ، لأنه لو أشكاه لصمت . وأمسك عن الكلام ، ومنه قول الراجز يخاطب جلاله :

إنك لا تشكو إلى مصمت

فأصبر على الحمل الثقيل أو مت

ونحو هذا المثل : هان على الأملس ما لاقى الدبر .

وأما قوله : شغلت شعابي جدواي ، فالمراد به أنه ليس يفضل عني . ما أصرفه إلى غيري . والشعاب : هي النواحي ، واحدها شغب .

وقوله : كل الخذاء يحتذى الخافى الوقع ، معناه أن الجهود يقنع بما يجحد ، والواقع أن نصيب الحجارة القدم فتونها . فأما البعير الموقَّع فهو الذى يكثر آثار الدبر بظنهم .

المقامة الثامنة والأربعون - وتعرف بالحرامية

روى الحارث بن همام عن أبي زيد السروجي قال : ما زلت منذ رَحَلْتُ عَفْسِي ، وارتحلتُ عن عِرْسِي وعَرْسِي ، أحنُّ إلى عِيَانِ البُصْرَةِ ، حَنِينِ المَظْلُومِ إلى النُّصْرَةِ ، لِمَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ أَرْبابُ الدَّرَايَةِ ، وأُفْحَابُ الرِّوَايَةِ ؛ من خصائص معالِمِها ، وعلمائها ، ومآثر مشاهدِها وشُهدائها ، واسألُ الله أن يوطئني ثَرَاها ، لأفُوزَ بِمَرَاها ، وأن يُعْطِيَنِي قَرَاها ، لأَقْتَرِيَ قُرَاها . فلَمَّا أَحْلَنِيهَا الحَظَّ ، وَسَرَّحَ لِي فِيهَا اللِّحْظَ ، رَأَيْتُ بِهَا مَا يَمِلُّ الْعَيْنَ قُرَّةً ، وَيُسَلِّي عَنِ الْأَوْطَانِ كُلِّ غَرِيبٍ ، فَعَلَسْتُ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ ، حِينَ نَصَلَ خِضَابُ الظَّلَامِ ، وَهَتَفَ أَبُو الْمُنْذِرِ بِالنُّوَامِ لِأَخْطَوْا فِي خِطِّهَا ، وَأَقْضِيَ الْوَطَرَ مِنْ تَوْسِطِهَا ، فَأَدَانِي الْإِخْتِرَاقُ فِي مَسَالِكِهَا ، وَالْإِنْصِلَاتِ فِي سِكَكِهَا ، إِلَى مَحَلَّةٍ مَوْسُومَةٍ بِالْإِحْتِرَامِ ، مَنَسُوبَةٍ إِلَى بَنِي حَرَامٍ ، ذَاتِ مَسَاجِدَ مَشْهُودَةٍ ، وَحِيَاضٍ مَوْزُودَةٍ ، وَمَبَانٍ وَثِيقَةٍ ، وَمَعَانٍ أَنْيَقَةٍ ، وَخِصَائِصَ أَثِيرَةٍ ، وَمَزَايَا كَثِيرَةٍ .

* * *

رَحَلْتُ ، أَيْ شَدَدْتُ عَلَيْهَا الرَّحْلَ ، وَالرَّحْلُ : مَرْجُ النَّاقَةِ ، وَالْعَفْسُ : النَّاقَةُ النَّوِيَّةُ ، شُبِّهَتْ بِالْعَفْسِ وَهِيَ الصَّخْرَةُ لصلابتها ، قَالَ اللَّيْثُ : إِذَا تَمَّ سَنُّ النَّاقَةِ ، وَاسْتَدَّتْ قَوَّتُهَا وَصَلَبَتْ عِظَامُهَا وَأَعْضَاؤُهَا فِي عَفْسِ . عِرْسِي : زَوْجَتِي . غَرْسِي : أَوْلَادِي . أَحْنُ : اِشْتَقُ . عِيَانُ : مَعَايِنَةٌ وَمُشَاهَدَةٌ . خِصَائِصُ :

ما يختص به من الفضائل . معالمها : مواضعها المشهورة . والمآثر : الفضائل
والمكارم ، والمآثر : الفضيلة يخص بها . مشاهدتها : مواضع اجتماع أهلها .
يوطئني ثراها : يجعاني أطؤها وأمشي عليها ، وأوطأه الشيء : أمكنه من أن
يطأه . الثرى : التراب الندى . ومرآها : منظرها . يُمطيئني قرأها : يُزكيني
ظهرها . أفترى : أتتبع . أحلنيها : أنزلنيها . الحظ : السعد . اللحظ : العين .
قُرّة : سُرور . يسلي : يشغل . غلّست : خرّجت في الغلّس ، وهي ظلمة آخر
الليل . فصل : زال . هتف : صاح . أبو المنذر : كنية الديك ، ويكنى
أبا سليمان . أبو هريرة : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا تسبوا الديك
فإنه يوقظ للصلاة » .

أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا سمعتم الديكة تصيح
بإنها رأّت ملكاً فاسألوا الله من فضله ، وإذا سمعتم نهيق الحمار ، فإنها رأّت
شيطاناً فاستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم » .

قال صلى الله عليه وسلم : الديك الأبيض صديقي وإنه يحرس دار صاحبه
وسبع دور وكأنّ مستمعه في البيت » .

وقال ابن المعتز ويصف ديكاً :

بشّر بالصبح طائر هتفاً هاج من الليل بعد ما انتصفاً
مذكّر بالصباح صاح بنا كخاطب فوق منبر وقفنا
صفق إماماً ارتياحه لنا الفجر وإما على الدجاء أسفنا
وله :

وصاح فوق الجدار مشرفاً كمثل طرف علاه أسوار
ثم غدا يسأل الفرات عن الـ أرزاق منه نغر ومِنقار
رافع رأسه طوراً وخافضه كأنما العُرف منه منشأ

وقال الأسعد بن بليط :

وقامَ بها بنعى الدّجى ذو شقشقةٍ يدير الينابن أجفانه سقطا
إذا صاح أصغى سمعه لأذانه وبادر ضرباً من قواده الإبطا
ومهما اطمأنت نفسه قام صارخاً على خيرازنٍ نيط من صُفره خرطاً
كأن أنوشروان أعلاه تاجه وناطت عليه كفٌّ مارية القرطاً
سبى حُلة الطاوس حسن لباسه ولم يكنه حتى سبى مشية البطاً

قوله : أخطو ، أى أمشى . خططها : طرقها . الوطر : الحاجة . توسطها : المشى فى وسطها . أدانى : أوصلنى . الاختراق : المشى ، واخترت البلدة ، إذا قطعت أرضها بالمشى . والاختراق : المرور والسلوك . والمسالك : الطرق . والانصلات : الخروج بسرعة من زقاقٍ إلى آخر ، وانصلت السيف : خرج بسرعة . سككها : أزقتها الواحدة سكة ، وسميت سكة لاصطفاف الدور فيها ، ويقال للطريق المستوية المصطفة من النَّخل : سكة . محلة : منزلة . موسومة : مُعَمَّنة . الاحترام : الامتناع . حياض : بجمع حَوْض . مورودة : مقصودة . للشرب . مغان : منازل . أنيقة : مُعجبة حسنة . أثيرة : منشرة لكثرتها . مزايا : جمع مزية وهى الفضيلة يختص بها الشيء .

* * *

بها ما شئت من دينٍ ودنياً وجيرانٍ تناقوا فى المعانى
فشغوفٌ بآياتِ الثانى ومفتونٌ برناتِ الثمانى
ومضطجعٌ بتلخيصِ المعانى ومطلعٌ إلى تلخيصِ عانى
وكم من قارىءٍ فيها وقارٍ أضراً بالجةً —ون وبالجفانِ
وكم من معلمٍ للعالم فيها ونادٍ للندى حُلُوَ المجانى

ومعنى لا تزال تُغنّ فيه أغاريدُ الغواني والأغاني
فصل إن شئت فيما بُصِّلِي وإما شئت فاذن من الدنان
ودونك مُحبة الأكياس فيها أو الكاسات منطلق العنان

* * *

تناقوا : تباعدوا . مشغوف : مولع شديد الحب . المثاني : أم القرآن ،
وقيل السَّبْع الطوال من أول القرآن . ورنات : أصوات . المثاني : أوتار عود
الغناء . مضطلع : قوى . التلخيص : تهذيب الشيء وتخليص فوائده ، وكأنه
مقلوب التلخيص . وتخليص عان : افتكاك أسير . قارئ : عابد مكثّر لقراءة
القرآن ، قار : مطعم للضيف . الجفون : العيون . الجفان : صحاف الطعام ، يريد
أن هذا أضرّ بحفونه بكثرة النظر في الورق قارئاً ما فيها وهذا يحفّاه لإطعام
ما فيها . معنى : منزل . تغنّ : تصوت . أغاريد : أصوات . الغواني : جمع
غانية ، وهى المرأة الجميلة . الأغاني : جمع أغنية ، وهى ما يتغنّى به . الدنان :
خوابى الحمر . دونك ، أى الزم . الأكياس : أهل الفطنة والتدبير . منطلق
العنان : مسيب مسرّح .

* * *

قال : فينما أنا أنفض طرقيها ، وأستشف روثقها ؛ إذ لحت عند
ذُلوك بَرّاج ، وإظلال الرّواح ، مسجداً مشتهراً بطرائفه ، مُزدهراً
بطوائفه ، وقد أجرى أهله ذكر حُرُوف البَدَل ، وجروا في حلبة
الجَدَل ، فمجت نحوم ، لاسْتَمَطِر نوءهم ، لا لأقبس نحوم ، فلم يك
إلا كقبسه العجلان ، حتّى ارتفعت الأصوات بالأذان ، ثم ردّف
التأذين بروز الإمام ، فأغمدت طي الكلام ، وحلت الحبي للقيام ، وشغلنا

بالقنوت ، عن استمداد القوت ، وبالشجود ، عن استئزال الجود .
 ولما قُضِيَ الفَرَضُ ، وكادَ الْجُمُعُ يَنْفَضُ ، انبرى من الجماعة ، كَهَلْ خُلُوْ
 البراعة ، له مع السَّهْتِ الْحَسَنِ ، ذِلاَقَةُ اللِّسَنِ ، وقِصَاحَةُ الْحَسَنِ . وقال :
 يا جبرتي ، الذين اصْطَفَيْتَهُمْ عَلَى أَغْصَانِ شَجَرَتِي ، وَجَعَلْتَ خِطَابَهُمْ دَارَ
 هَجْرَتِي ، وَاتَّخَذْتَهُمْ كَرِثِي وَعَيْتِي ، وَأَعَدَدْتَهُمْ لِحَضْرِي وَغَيْتِي ،
 أما تعلمون أن لبوس الصِّدْقِ أبهى الملابس الفاخرة ، وأن فُضُوحَ
 الدنيا أهون من فُضُوحِ الآخرة ، وأن الدِّينَ إِمْحَاضُ التَّصِيحَةِ ، والإرشادُ
 عُنوانُ العقيدة الصحيحة ، وأن المستشار مؤتمن ، والمسترشِدُ بالنصح قَمِينُ .

* * *

انْفَضُّ طَرَقَهَا ، أَى أَمْشَى بِهَا وَحْدَى ، يقال : جاء فلان يَنْفَضُّ الطَّرِيقَ .
 إذا جاء وحده وقالت الجهنية :

يرد المياہ حضيرة ونفیضة ورَدَ القِطَاةُ إذا سَمَّالَ التَّبَعُ

الحضيرة : الذى يحضر معه غيره ، وجمعه الحضائر . والتَّبَعُ : الظِّلُّ .
 واسْمَالٌ : نقص ، ويقال أيضاً : نقص المكان واستنفضه ، إذا نظر جميع ما فيه
 حتى يعرفه . استقضى النظر . روتها : حسنھا . لحت : نظرت . دُلُوكُ
 بَرَّاحٍ : زوال الشمس ، وَبَرَّاحٍ من أسمائها مبنى على الكسر . عبد الله بن مسعود .
 دُلُوكُهَا : غروبها . أبو عبيدة : دلوك الشمس زوالها وميلها ، وهو قول ابن عباس
 الأزهرى هذا القول أصح عندى ، وقيل : دُلُوكُهَا ، من زوالها إلى غروبها .

ويدلّك هذا الوصف على أن البصرة من نهاية العظم والكبر على جانب
 عظيم ، لأنه زعم أنه خرج فى الغلس ، وبقي يمشى فى أزقتها إلى الظهر . ويقال

إنها في آخر الدولة الأموية كبرت فوجد في طولها فرسخان ، وفي عرضها فرسخ وخمسة أسداس فرسخ .

قوله : إظلال ، أى دنوّ وقُرب . طرائفه : عجائبه وغرائب . مزدهرأ : مضيقاً بحلق الفضلاء والعلماء . طوائفه : جماعته ، وحروف الإبدال يجمعها طال يوم أُنجدته . والحلبة : جماعة الخيل في الطلّق تجرى ليختبر عتيقها من هيجنها . الجدل : الخصام . عجت : ملت . أستمطر نوءهم : أطلب معروفهم ، والنوء طلوع نجم من المنازل وسقوط آخر يقابله . أفتبس : آخذ ، وقبسة العجلان . أخذَه القبس ، وهو شعلة من نار بقتبسها من مُعظم النار . ردِف : تبع وجاء بعده ، قال تعالى : ﴿ رَدِفَ لَكُم ﴾ ^(١) ، أى جاء بعدكم ، وأردفت الرجل جئت بعده . ابن الأعرابي : ردفت الرجل وأردفته ولحقته وألحقته بهمى واحد . القنوت : الطاعة ، وهو أيضاً طول القيام في الصلاة . ابن الأنباري : القنوت أربعة أقسام : الصلاة وطول القيام وإقامة الطاعة والسكوت . استمداد : طلب أن يمدّوه بالقنوت وهو الاستئزال . ينفض : يتفرق . انبرى : ظهر وقام بسرعة . كهل : تآم الخلق . السّمت : الوقار . ذلاقة : حدّه . اللّسن : حدة اللسان ، وتقدم الحسن في الأربعين . اصطفيتهم : اخترتهم . أغصان شجرتي : بنى عمى وقرايتي وأولادى . خطّتهم : بلدتهم ، والمهاجر عند العرب : المستقبل من البادية إلى الحاضرة . ودار هجرتي : موضع سكنائى الذى هاجرتُ إليه . كرشى : أهلى . عيبتي : خاصتى الذين أفرد بهم . وعيبة الرجل : موضع سرّه . وكرشه : عياله . والعيبة : وعاء يجعل فيه المتاع ، والكرش مثلها ، والكرش الجماعة من الناس ، والكرش أيضاً لكل مجتر من البهائم بمنزلة المعدة من الإنسان ، فساق الكرش والعيبة على جهة المثل وإنهم موضع سرّه ، وقال صلى الله عليه وسلم : « الأنصار كرشى وعيبتى » ، قيل : موضع سرّى ، وقيل مدادى لأن ذات الكرش تستمد

من كَرِشها . الفضوح والفضيحة : الشهرة . إمحاض : إخلاص . الإرشاد : الهداية . عنوان العقيدة : دليل البواطن والمعتقدات . والمستشار : الذي تستشير في رأيك . مؤتمن : قد أمن على الأسرار والنفوس ، لا يخون فيها ، وقال صلى الله عليه وسلم : « ما ندم من استشار ، ولا شق من استخار » وقال بشار :

إِذَا بَلَغَ الرَّأْيُ الْمَشُورَةَ فَاسْتَعْنُ بِرَأْيِ نَصِيحٍ أَوْ مَشُورَةٍ حَازِمٍ^(١)
وَلَا تَجْعَلِ الشُّورَى عَلَيْكَ غَضَاضَةً فَإِنَّ الْخَوَافِي رَافِدَاتُ الْقَوَادِمِ
وَمَا خَيْرَ كَفٍّ أَمْسَكَ الْغُلَّ أَخْتَهَا وَمَا خَيْرَ سَيْفٍ لَمْ يُؤَيِّدْ بِقَائِمِ
وَحَلَّ الْهَوْبَنِيِّ لِلضَّعِيفِ وَلَا تَكُنْ ثَوَمًا فَإِنَّ الدَّهْرَ لَيْسَ بِنَاثِمِ
وَحَارِبٍ إِذَا لَمْ تُعْطَ إِلَّا ظُلَامَةً شَبَا الْحَرْبَ خَيْرٌ مِنْ قَبُولِ الْمَظَالِمِ

وهي قصيدة طويلة ، قالها في إبراهيم بن عبد الله ، فلما قُتل صرفها إلى المنصور في أبي مسلم ، وكان بشار يقول : المشاور على إحدى الحسينين : صواب يفوز بشمرته ، وخطأ يشارك في مكروهه وقال الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾^(٢) ، لما في ذلك من الائتلاف ، وهو أغنى الناس عن المشورة وقال ابن المعتز :

تَجَاوَزَ عَنْ إِسَاءَةِ كُلِّ دَهْرٍ وَصَاحِبُ يَوْمٍ حَادِثَةٍ بِصَبْرٍ
وَإِنْ نَابَتْكَ نَائِيَةٌ فَشَاوِرْ فَكَمْ حِدِّ الْمَشَاوِرُ غِيبَ أَمْرِ
وَقَسَمَ هَمْ نَفْسِكَ فِي نَفْسٍ وَلَا تَنْفَرِدَنَّ بِطَوَّلِ فِكْرٍ
إِذَا كَطَّ الْفَرَاتُ بِمَاءِ مَدِّ أَغْصَنَ بِهِ حَلَاقِمَ كُلِّ نَهْرٍ

قال عيسى بن علي : ما زال المنصور يشاور في أمره ، حتى قال فيه ابن هرمة :

إِذَا مَا أَرَادَ الْأَمْرَ فَاجَى ضَمِيرَهُ فَتَاجَى ضَمِيرًا غَيْرَ مُخْتَلَفِ الْعَقْلِ^(٣)

(١) مختارات البارودي ٤ : ٤ (٢) سورة آل عمران ١٥٩

(٣) ديوانه ١٧٩

ولم يترك الأدنين في كل أمره إذا اختلفت بالأضعفين قوى الخبل
وأنشد الجاحظ :

لَيْتَ هَذَا أَنْجِزْتَنَا مَا نَعِدُ وَشَفْتَ أَنْفُسَنَا مَا نَحِدُ^(١)
وَأَسْتَبَدَّتْ مَرَّةً وَاحِدَةً إِنَّمَا الْعَاجِزُ مَنْ لَا يَسْتَبِدُّ

ثم قال : ولا أعلم الموصوف بالاستبداد إلا بجهلاً مذموماً ، والمثل السائر
على الأفواه :

وما العجزُ إلا أن تشاور عاجزاً وما العزمُ إلا أن تهيم وتفعلاً
وقال سعد بن ناشب :

إِذَا هُمْ أَلْقَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ عَزْمَهُ وَنَكَبَ عَنْ ذِكْرِ الْعَوَاقِبِ جَانِباً^(٢)
وَلَمْ يَسْتَشِرْ فِي رَأْيِهِ غَيْرَ نَفْسِهِ وَلَمْ يَرْضَ إِلَّا قَائِمَ السَّيْفِ صَاحِباً
وقال ابن رشيق في أدب قوله تعالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ :

أشاور أقواماً لا أخذ رأيهم فليوون عني أعياناً وخدوداً^(٣)
وليس برأيي حاجة غير أنني أوَّسه كئ لا يكون وحيداً
ولا أنا ممن يبعث السهم رامياً إلى غرض حتى يكون سديداً
فلا يتهم عظمى الرجال فإنني أعرفهم أنني خلقت ودوداً

وأنشد الحريري يتي بشار في درة الفواص^(٤) على أن قول الخواص مشورة
بوزن مفعله خطأ وإنما هي مشورة بوزن مفعولة ومثوبة مثل مكرمة من
الصحيح ، فنقلت حركة الواو إلى ما قبلها فسكنت ، واختلف في اشتقاقها
فقال : هو من شرت العسل أشوره إذا جنته ، فكان المسقشير يحني الرأي من

(١) لعمر بن أبي ربيعة، ديوانه ٣٠

(٢) لسعد بن ناشب، ديوان الحماسة — بشرح الرزوق ٦٧

(٣) قله الميمى في التنف ٢٤

(٤) درة الفواص ٢٨

المشير ، وقيل من شُرَّت الدابة إذا أُجريتْها مقبلة ومدبرة لتختبرها ، والاشتقاقان متقاربان . المسترشد : السائل أن يُرشد . قِن : حَقِيق .

* * *

وَأَنَّ أَخَاكَ هُوَ الَّذِي عَذَّلَكَ ، لَا الَّذِي عَذَّرَكَ ، وَصَدِيقُكَ مَنْ صَدَّقَكَ ، لَا مَنْ صَدَّقَكَ ، فَقَالَ لَهُ الْحَاضِرُونَ : أَيُّهَا الْخَلُّ الْوُدُودُ ، وَالْخِلْدُنُ الْمَوْدُودُ ، مَا سِرُّ كَلَامِكَ الْمُلْفَزِ ، وَمَا شَرَحُ خَطَابِكَ الْمَوْجَزِ ؟ وَمَا الَّذِي نَبَغِيهِ مِنَّا لِيُنَجِّزَ ، فَوَالَّذِي حَبَانَا بِمَحَبَّتِكَ ، وَجَعَلَنَا مِنْ صَفْوَةِ أَحَبَّتِكَ ، مَا نَأْلُوكَ نَضْحًا ، وَلَا نَدَّخِرُ عَنْكَ نَضْحًا ، فَقَالَ : جُزَيْتُمْ خَيْرًا ، وَوُقِيتُمْ ضَيْرًا ، فَإِنْ كُمْ مِمَّنْ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسٌ ، وَلَا يَصْدُرُ عَنْهُمْ تَلْبِيسٌ ، وَلَا يَحْيَبُ فِيهِمْ مَظْنُونٌ ، وَلَا يُطَوَّى دُونَهُمْ مَكْنُونٌ ، وَسَأُبَشِّكُمْ مَا حَاكَ فِي صَدْرِي ، وَاسْتَفْتِيكُمْ فِيمَا عَمِلَ فِيهِ صَبْرِي .

* * *

عَذَّلَكَ : لَأَمَكَ . صَدَّقَكَ : قَالَ الصَّدَقَ ، كَأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ الصَّدِيقُ إِنَّمَا سَمِيَ صَدِيقًا لَصَدَقَهُ إِصَاحِبُهُ ، يَرِيدُ أَنْ أَخَاكَ هُوَ الَّذِي يَلُومُكَ وَيَقْبَحُ لَكَ سُوءَ فِعْلِكَ وَمَنْ حَسَّنَ عِزْرَكَ فِي ذَلِكَ ، فَلَيْسَ بِصَدِيقٍ وَلَا أَخٍ ، مِثْلُ مَا حَكَى الْأَصْمَعِيُّ ، قَالَ : سَمِعْتُ أَعْرَابِيًّا يَقُولُ لِأَخِي لَهُ : أَعْلَمْ أَنَّ النَّاصِحَ لَكَ الْمَشْفُوقُ عَلَيْكَ ، مَنْ طَالَعَ لَكَ مَا وَرَاءَ الْعَوَاقِبِ بِرُؤْيَيْهِ وَنَظَرِهِ ، وَمِثْلُ لَكَ الْأَحْوَالِ الْخَوْفَةِ ، وَخَطَأَ لَكَ الْوَعْرَ بِالسَّهْلِ مِنْ كَلَامِهِ وَمَشُورَتِهِ ، لِيَكُونَ خَوْفُكَ كَفِّهِ رَجَائِكَ ، وَشُكْرُكَ إِزَاءَ النِّعْمَةِ عَلَيْكَ ، وَأَنَّ الْغَاشَّ لِهَوَاكَ وَالْحَاطِبَ عَلَيْكَ مِنْ مَدَّلِكَ فِي الْإِعْتِرَارِ ، وَوَطَأَ لَكَ مَهَادِ الظِّلِّ ، تَابِعًا لِمَرْضَاتِكَ مُنْقَادًا لِهَوَاكَ ، وَقَالَ الشَّاعِرُ فِيمَنْ لَا يَقْبَلُ النَّصِيحَ :

إذا ما هديت امراً مخطئاً أضل السبيل إلى قُضده
فلم تلتفه سامعاً قابلاً غسَّ له المشى في ضِده

الخلل : الخليل . الودود : الصاحب الكثير الود . الخدن الودود : الصديق
المحبوب . الملقز : المبهم الخفي . الموجز : المختصر . تبغيه : تطلبه . لينجز : لينفعل
في الحين . حباناً : اختصنا . صفوة : خيار . نالوك نصيحاً : تنصّر في نصيحتك .
تدخر : ترفع ونخبأ . نضحاً : عطية ندفعها لك ، مأخوذ من النضح وهو الشرب
القليل دون الرى . والنضح أيضاً : الرش بالماء . وقيمٌ ضيراً : كفيتم الضر .
يصدر : يرجع . تلبس : التباس وتخليط . لا يخب فيهم مظنون ، أى ما ظن
فيهم من النصح والمعاونة موجودة فيهم غير مفقودة . مكنون : مستور .
يطوى : يحجب ويستتر . أبشكم : أنشر لكم وأظهر . حاك في صدرى :
أثر فيه واحتك به . عيل : غلب ، وغالبى الشيء عولاً : غلبنى وتغلب على .

* * *

اعلموا أنى كنت عند صلود الزند ، وصدود الجدة ، أخلصت مع
الله نية المقد ، وأعطيته صفقة العهد ، على ألا أسبأ مداماً ، ولا أعاقِر
تدأى . ولا أحتسى قهوة ، ولا أكتسى نشوة ، فسوّلت لى النفسُ
المُضلة ، والشهوة المذلة المزلة ، أن نادمات الأبطال ، وعاطيت الأبطال ،
وأضغت الوقار ، وارتضغت المقار ، وامتطينت مطاً الكميت ،
وتناسيت التوبة تناسي الميت ، ثم لم أقنع بها تيكُم المرة ، فى طاعة
أبى مرة ، حتى عكفت على الخندريس ، فى يوم الخميس ، وبِت صريع
الصنباء ، فى الليلة الغراء ، وهأ أنا بادى الكآبة ، لِرَفْضِ الإنابة ، ناي

النَّدَامَةُ ، لَوْصَلِ الْمَدَامَةُ ، شَدِيدُ الْإِشْفَاقِ ، مِنْ تَقْضِي الْمِيثَاقِ . مَعْتَرَفٌ
بِالْإِسْرَافِ ، فِي عِبِّ السَّلَافِ :

فِيَا قَوْمَ هَلْ كَفَّارَةٌ تَعْرِفُونَهَا تَبَاعِدُ مِنْ ذَنْبِي وَتُذْنِي إِلَى رَبِّي

* * *

قوله : صُلُودُ الزَّمَدِ ، هُوَ أَلَا يَسْمَحُ بِالنَّارِ : صُدُودُ الْجَسَدِ : بِاعْرَاضِ
السَّعْدِ ، يَرِيدُ الْأَيَّامَ الَّتِي كُنْتُ فِيهَا فَقِيرًا . وَالْعَقْدُ ، كَانَتْ الْعَرَبُ إِذَا عَاهَدَ الرَّجُلُ
صَاحِبَهُ عَقْدَ أَصَابِعِهِ ، ثُمَّ صَارَتْ الْمَعَاهِدَةُ بِاللَّسَانِ تَسْمَى عَقْدًا ، وَكَانَ أَحَدُهُمْ
يَرْبِطُ وَسَنَ بَعِيرِهِ بِخَبَاءٍ مَنْ يَسْتَجِيرُ بِهِ أَوْ يَرْسِلُ حَبْلَهُ فِي الْبَيْتِ مَعَ حَبْلِهِ ،
فِي شَبَكِهِ بِهِ ، وَكَانَ هَذَا - كَمَا عِنْدَهُمْ عَقْدًا لَا يَسْلَمُ الْمُسْتَجَارُ بِهِ الْمُسْتَجِيرَ إِلَّا مَا يَسْلَمُ
وَنَدَهُ ، وَقَالَ حَبِيبٌ :

بَلَى لَقَدْ سَلَفَتْ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ لِلْحَقِّ لَيْسَ كَحَقِّي حَرَمَةٌ مَحَبُّ
أَنْ يَغْلِقَ الدَّلُو بِالْأَلُو الْغَرِيبَةَ أَوْ يَلَامِسُ الطَّنْبَ الْمُسْتَحْصَدَ الطَّنْبُ
الْمُصَفَّقَةُ : ضَرْبَةٌ يَدِ الْمُشْتَرَى عَلَى يَدِ الْبَائِعِ . أَسْبَأُ : أَشْتَرِي . مُدَامًا : خَمْرًا .
أُكْتَسِي نَشْوَةً : أَظْهَرَ سَكْرَةً . سَوَّلَتْ : زَيَّنَتْ وَحَسَّنَتْ . الْمِضَّةُ : الْحَيَّةُ .
الْأَبْطَالُ : فَرَسَانُ الْخِلَاعَةِ لِلسَّنِّ . الْأَرْطَالُ : وَهِيَ أَرْبَعَةٌ ، وَقَالَ فِي ذَلِكَ :

سَأَلْتُ أَخِي أَبَا عَيْسَى	وَجَبْرِيلَ لَهُ فَضْلُ
فَقُلْتُ : الْخَمْرُ تُعْجِبُنِي	فَقَالَ كَثِيرُهَا قَتْلُ
فَقُلْتُ لَهُ فَقَدْ زَلِي	فَقَالَ وَقَوْلُهُ فَضْلُ
وَجَدْتُ طِبَائِعَ الْإِنْسَانِ	نَ أَرْبَعَةٍ هِيَ الْأَصْلُ
فَأَرْبَعَةٌ لِأَرْبَعَةٍ	لِكُلِّ طَبِيعَةٍ رَطْلُ

يَذْكُرُ هَذَا الرَّجُلُ أَنَّهُ تَابَ مِنْ شَرْبِ الْمُسْكِرِ ، وَعَاهَدَ اللَّهَ ، أَلَّا يَشْرَبَ
خَمْرًا ، ثُمَّ ارْتَدَّ وَرَجَعَ لِمَخْلَاعَتِهِ .

ومثل حالته هذه حالة أبي محمد البصري ، كان تاب وحب ، فلما قفل راجعاً
بداله في شرب الخمر ، فقال :

ألا يا هِنْدُ قد قضيت حَجِّي فهاهنا شرابك العِطَرُ العجيباً
قد ذهبت ذنوبي بالليالي فقومي الآن كَتِفْرِفِ الذنوباً
خَلَطْنَا ماء زمزم في حَشَانَا بماء المزنِ فامتزجاً قريباً

وكان أبو القاسم المغربي قد نسك زماناً ، ولبس الصوف وترهب وحب ،
فعمشق غلاماً تركياً وهام به ، وتقلد الوزارة ببغداد وغيرها ، وانتهى في الجاه
إلى الغاية وتملك الأحرار ، واشترى الغلام التركي وقال :

تبدّل من مَرَقَعَةٍ ونُسكٍ بأنواع المسك والشفوفِ
وعن له غلام ليس يحوى هواه ولا رضاه بلبس صوفِ
فقد أشد ما كان انتهاكا كذلك الدهر مختلف الصُروفِ
وقال أيضاً :

يا أهل مصر قد عاد ناسكم بالكرخ بعد التثقي إلى الفتكِ
خَشَّ قَلْبِي مَرطَق غَنجٍ قد بدّ قاي به من النّسكِ
رمى فوادي بسهم مُقْلَمَتِهِ وكيف يُخطي مولد التّركِ !

وقال كشاجم :

يقولون نُب والكأس في كفّ شادنٍ وصوتُ المثاني والثالثِ عالي^(١)
فقلت لهم : لو كنت أزمعت^(٢) توبةً وأبصرت هذا كله لبدّالي

(١) ديوانه ١٤١

(٢) الديوان : « أضمرت »

(م ٢٠ — شرح مقامات الحريري ج ٥)

وقال الحسن :

كيف النّزوع عن الصّبا والكّاس قس ذا لنا يا صاحبي بقياس^(١)
قالوا كبرت فقلت ما كبرت يدي عن أن تسير إلى فني بالكّاس
والراح طيّبة وليس تمامها إلا بطيب خلائقي الجلاس
وكانّ شاربها لفرط شعاعها بالليل يكرع في سنّا مقباس
وإذا نزعت من الفواية فايكن لله ذاك النّزع لا للنّاس

قوله : أضعت الوقار ، يريد أنه ضيّع وقاره في مجلس اللهو ، وقد تقدّم قوله :

وأضنى السرور إذا ما الوقور أمار ستور الحيا وأطرخ
العقار : الخمر ، لأنها عاقرت الدن ، أي لازمتها ، أو لأنها تعتر شاربها بشغل
الشكر . امتطيت : ركب . مطأ الكميّة : ظهر الخمر ، وورّى بفرس ،
أراد أنه اعتكف على شربها ، وسميت كميّة لأنها حمراء إلى الكميّة ، وأبو مرة
كنية لإبليس ، وقد تقدّم ، وقال الحسن :

نمت وإبليس إلى الصّبح في كلّ الذي يؤثمني خضم
رأيت في الجوّ مستعلياً ثم هوى يتبعه نجم
فقال لي لئّا هوى مرحباً بتائب يتبعه وهم
هل لك في غيّداء ممكورة يرتج منها كفل ضخم
فقلت : لا ، قال : ففي أغيدٍ ذي غنّة يجرجه اللثم
لست أبا مرة إن لم تعدن فإن ذا من فعلك الغشم

وقال فيه وذكر أنه قاده غلاماً :

دبّ له إبليس فاقتاده والشيخ نفّاع على لعنته

عجبت من إبليس في كبره وخُبث ما أخبر من نيتِه
تاه على آدم في سجدة وصارق—وآذا لذريتِه

وقال سليمان بن الأعمى في الوليد ، أخو صريع الغواني :

يأبى السجود له من فرط نخوته وقد تحول في مسلاخ قواد
وقال ابن رشيق يشكر إبليس :

رأيت إبليس من مروءته لكل ما لا يطاق محتيلاً^(١)
إذا هويت أمراً وأعجزني جاء به في الظلام معتملاً
تبذلاً منه في حوائجنا ولا يزال الكريم مبتذلاً
وقال أيضاً يلعنه :

أرى الشيخ إبليس ذا علة فلا برئ الشيخ من علته^(٢)
يقود على الحب مستيقظاً ويأتيك في الليل في صورته
فيؤتيك ما شاء من نفسه ويبلغ ما شاء من لذته
ومن كان ذا حيلة هكذا تمثل للمرء في يقظته
فلا تدخروا دونه لعنة لأن رضا الله في لعنته

قوله : عكفت ، أى أقمت ولازمت : الخندريس : الحجر القديمة ، وإنما ذكر يوم الخميس لأنه يوم تعرض فيه الأعمال على الله تعالى وإقدام العبد على الذنوب وقت العرض على الله تعالى أكبر خطراً . الصهباء : التي عُصرت من عنب أبيض . الأصمعى : هى التي تضرب إلى البياض ، من أبيض عُصرت أو من غيره . صريعها : الذى صرعته بالسكر ، يريد أنه بات سكران مطروحاً .
وقال أبو العلاء بن زهر في سكارى :

(١) التنف ٥٩

(٢) التنف ١٥

وموسدين على الأكف خذودهم قد غالهم شرب الصُّبوح وغالي
مازالت أسقيهم وأشرب فضلمهم حتى سكرت ونالهم ما نالي
والخمر تعرف كيف تأخذ ثارها إني أملت إناءها فأمالني

الفراء : ليلة الجمعة . رفض الإنابة : طرح التوبة والرجوع . نامى الندامة :
كثير الندم . بادى السكابة : ظاهر الانكسار والحزن وسوء الحال . المدام
والمدامة : الخمر ، سُميت بذلك لأنها أديت في ظرفها . الإشفاق : الخوف .
نقض الميثاق : حل العهد . الإسراف : الإكثار . عبّ : حسو ، والعب أن
يتابع الرجل الجرعة بعد الجرعة بغير تنفس . الشلاف : الخمر العتيقة ، والشلاف
والشلافة : ما سال منها من غير أن تُعصر ، وهى أفضل الخمر قال الأعشى :

ببابل لم تُعصر لجاءت سُلافة تخالط قنديدا ومسكا مُحْتَمًا^(١)

القنديد : الخمر تطبخ ويجعل فيها أفاويه طيب .

[مقاطيع خمرية]

ونذكر هنا جملة من المقاطيع الخمرية ، نجعلها خاتمة ما قيل فى الخمر .

عزم الوثائق على الصُّبوح فقال للحسين بن الضحاك : اكتب إلى الفتح
ابن خاقان تدعوه إلى الصُّبوح ، وكان قد برى من مرض ، فكتب إليه :

لما اصطبحت وعينُ اللهوتر مُقْنِي قد لآح لى باكرًا فى توبٍ لذَّير^(٢)
ناديت « فتحًا » وبشرت المدام به لما تخلص من مكروه علتيه
ذبّ الفتى عن حريم الرّاحِ مكرمة إذا رآها امرؤ ضدًا خلقتيه^(٣)
فأنجّل إلينا وعجل بالسرور لنا وخالس الدهر فى أوقات غفاته
فسار وأصطحب معه .

(٢) ديوانه ٣٣

(١) ديوانه ٢٩٣

(٣) الديوان : « نعلنه »

وقال الحسين بن الضحاك : دخلتُ على الحسن بن مهمل ، في فصل الخريف
وقد جاد الوسمى من المطر برشٍّ حسن ، واليوم في أحسن منظر وأطيبه ، وهو
جالس على سرير أبنوس ، وعليه قبة فوقها طارفة ديباج أصفر ، تشرفُ على
بستان ، وعلى رأسه غلام كالدينار ، فسألت عليه فردَّ عليَّ السلام ، ونظر إليَّ
كالستنطق ، فقلت :

أَلَسْتَ تَرَى دِيْمَةً تَهْطُلُ وَهَذَا صَبَاحُكَ مُسْتَقْبِلُ^(١)
وَهَذَا الْمَدَامُ وَقَدْ رَاعَنَا بَطْلَعَتِ الشَّادِنُ الْأَحْلُ
فَعَادَ بَنَاوِيهِ سَكْرَةً تَهَوَّنَ مَكْرُوهُ مَا تَسْأَلُ
فَإِنِّي رَأَيْتُ لَهُ طُرَّةً تَخْبِرُنِي أَنَّهُ يَفْقَهُ
وَقَدْ أَشْكَلُ الْعِيشَ فِي يَوْمِنَا فَيَا حَبِذَا عَيْشِنَا الْمَشْكِلُ

فقال : العيش مشكل ، فما ترى ؟ قلت : مبادرة القصف ، وتقريب
الإلف ، قال : على شرط أن تبئت ، قلت : لك الوفاء على أن يكون هذا
الواقف على رأسك يسقيني ، فضحك ، وقال : ذلك لك على ما فيه ، ثم دعا
بالطعام والشراب ، ففقدت الغلام ساعة ثم جاء من الحمام ، فقلت :

جَرَدَهُ الْحَمَامُ عَنْ دَرَّةٍ تَلُوحُ فِيهَا عُكْنٌ بَضَّةُ^(٢)
كَأَنَّمَا الرَّشُّ عَلَى خَدِّهِ طُلَّ عَلَى تَفَاحَةٍ غَضَّةُ
يَا لَيْتَهُ زَوَدَنِي قُبْلَةً أَوْ لَا فَمِنْ وَجَنَّتْهُ عَصَّةُ

فقال الحسن : قد عمل فيك النبيذ ، فقلت :

اسْتَقْيَانِي وَصَرَفَانِي بِنْتُ حَوَّلَيْنِ قَرَفَانِ^(٣)

(١) ديوانه ٩١ ، ٩٢

(٢) ديوانه ٧٠ ، ٧١

(٣) ديوانه ٨١

وَأَسْقِيَا الْأَهْيَفُ الْغَرِيرَ سَقَى اللَّهُ أَهْيَفًا
بِأَبِي مَا جَنَّ السَّرِيرَةَ يَبْدَى تَعَطُّفًا
فَإِذَا رَمَتْ مِنْهُ ذَاكَ تَأْبَى وَعَنْفًا
فَإِذَا هَمَّ لِلْعَنَاءِ مَقَامًا وَخَفَفًا

فتغاضب الغلام فذهب ، ثم عاد وقال : أقبل على شرابك ، ثم ناولني قدحاً ، والحسن قد خرج ، فشربت وأعطاني ثقلًا ، فقلت : اجعل بدله قُبلة ، فأبى ، فقال له فرج غلام الحسن : بحياتي يا بني ، أسعفه بما طلب ، فضحك ثم دنا مني كأنه يعطيني ثقلًا وتغافل ، فاختمت منه قُبلة ، فقال : هي حرام ، فقلت :

هُوَ نَ الْأَمْرَ عَلَيْهِ لِي فَرَجَ بَتَاتِيهِ فَسَقِيَا لِفَرَجٍ (١)
وَبِنَفْسِي نَفْسَ مَنْ قَالَ وَقَدْ كَانَ مَا كَانَ : حَرَامٌ وَحَرَجٌ

ثم اشتهر الصبح ، فخرجت ثم عدت للحسن من غدٍ ، فقال : كيف كان مسيئتك يا حسين ؟ فقلت :

تَأَلَّفْتُ طَيْفَ غَزَالِ الْحَرَمِ فَوَاصِلِي بَعْدَ مَا قَدْ صَرَمَ (٢)
فَغَضَّ الْجَفُونَ عَلَى خَجَالَةٍ وَأَعْرَضَ إِعْرَاضَةَ الْمُحْتَشِمِ
فَمَازَلْتُ أَبْسُطُهُ مَارْحًا وَأُفْرِطُ فِي اللَّهْوِ حَتَّى ابْتَسَمَ
وَحَكَمَنِي الرَّيِّمُ فِي نَفْسِهِ وَلَكِنَّهُ مُسَكَّتَمٌ

فقال : يا فاسق ، أظن ما ادَّعيتَه في النوم وكان في اليقظة ؟ وأصلحُ الأشياء بنا أن رَحَضَ العار عن أنفسنا بهيئته لك ، نخذه لا بارك الله لك فيه ، فأخذته وانصرفت .

(١) ديوانه ٨١ ، ٨٢

(٢) ديوانه ٩٤

وقد تقدّم في هذا الكتاب من كلام الحسين ما يفوق به كلّ شاعر ،
وهو القائل :

أَجِرْنِي فَإِنِّي قَدْ ظَمَمْتُ إِلَى الْوَعْدِ مَتَى يُنْجِزُ الْوَعْدَ الْمُؤَكَّدَ بِالْعَهْدِ^(١)
أَعْيِذُكَ مِنْ خُلْفِ الْمُلُوكِ وَقَدْ تَرَى تَقْطَعُ أَنْفَاسِي عَلَيْكَ مِنَ الْوَجْدِ
أَيَبْغُلُ فَرْدُ الْحَسَنِ عَنِّي بَنَائِلٍ قَلِيلٌ وَقَدْ أَفْرَدْتَهُ بِهِوًى فَرْدٍ !
وهذا منتهى ما أوردته للحسين من العجائب .

دخل عليّ بن الجهم على عبد الله بن طاهر في غَدْوَةِ الرَّبِيعِ ، وفي السماء
غيم رقيق ، والمطر ينجى قليلاً ، ويسكن قليلاً ، ففاضبته جارية له ، فانتقص
عزمه فخبر ابن الجهم بذلك ، فأراد تنشيطه فدخل عليه فأنشده :

أَمَا تَرَى الْيَوْمَ مَا أَحْلَى شَمَائِلَهُ صَوٌّ وَغَيْمٌ وَإِبْرَاقٌ وَإِرْعَادُ^(٢)
كَأَنَّهُ أَنْتَ يَا مَنْ لَا شَبِيهَ لَهُ وَصَلٌ وَهَجْرٌ وَتَقْرِيبٌ وَإِبْعَادُ
فَبَاكِيرِ الرِّاحِ وَاشْرَبْهَا مُعْتَمَّةً لَمْ يَذْخَرْ مِثْلُهَا كَسْرَى وَلَا عَادُ
وَاشْرَبْ عَلَى الرَّوْضِ إِذْ لَاحَتْ زَخَارِفُهُ
زَهْرٌ وَنَوَّرٌ وَأُورَاقٌ وَأُورَادُ
كَأَنَّمَا يَوْمُنَا نَعْمَلُ الْحَبِيبَ بَنًا بَنَلٌ وَبُخْلٌ وَإِبْعَادٌ وَمِيعَادُ
وَلَيْسَ يَذْهَبُ عَنِّي كُلُّ فَعْلٍ كُمْ غَيٌّ وَرَشْدٌ وَإِصْلَاحٌ وَإِفْسَادُ
فَاسْتَحْسِنُهَا وَأَمْرٌ لَهُ بِثَلَاثَةِ دِينَارٍ وَحَمْلُهُ وَخَلْعُهُ عَلَيْهِ .

وقال علي أيضاً :

الْوَرْدُ يَضْحَكُ وَالْأَوْثَارُ تَصْطَغِبُ وَالنَّايُ يَنْدُبُ أَحْيَانًا وَيَنْتَجِبُ^(٣)

(١) ديوانه ٤٦

(٢) ديوانه ١٢٢

(٣) ديوانه ١٠٥

والراح تُعَرِّضُ في يوم الربيع كما تُجَنِّي العروس عليها الدرّ والذهب
وكما انسكبت في الكأس آونةً حسبت أن شعاع الشمس ينسكب
وقد مرّ من كلام ابن الجهم كلُّ بديعٍ ، في نظمه رفيع ، وآخر شعر قاله
وهو أحسن ما قيل في معناه :

يارحمةً للغريب في البلد النازح ماذا بنفسي صنعا^(١)
فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده ولا انتفعا
يقول في نأيه وغريته : عدل من الله كل ما صنعا

وكان هجاء لعلى بن أبي طالب ، وسمعه يوماً أبو العيناء يطعن على عليّ
فقال له : أنا أدري لم تطعن على أمير المؤمنين ، قال : أتعني قصّة بيعة أهلي ،
قال : لا ، أنت أوضع من ذلك ولكن لأنه قتل الفاعل [فعل] قوم لوط
وأنت أسفلهما . وقال البحتري فيه :

إذا ما حُصِّلَتْ عليّاً قريشٍ فلا في العير أنت ولا النفير^(٢)
ولو أعطاك ربك ما تمنى ل زاد الخلق في عظم الأيور
علام هجوت مجتهداً عليّاً بما لفتت من كذب وزور
أما لك في استك الوجعاء شغل يكف أذاك عن أهل القبور

وقال ابن القناص كاتب سيف الدولة :

قُم فاسقني بين خفق الناي والعود ولا تبغ طيب موجود بمفتود
كناساً إذا أبصرت في القوم محشماً قال السرور له قُم غير مطرود
نحن الشهود وخفق الناي خاطبنا يزوج ابن سحاب بنت عنتود

(١) ديوانه ١٥٤

(٢) ديوانه ١٠٣٨

وقال المصنف :

صَفَرَاءُ تَطْرُقُ فِي الزُّجَاجِ فَإِنْ سَرَّتْ فِي الْجِسْمِ دَبَّتْ مِثْلَ صَلِّ اللَّادِغِ
خَفِيتْ عَلَى شَرَابِهِمْ فَكَأَنَّهُمْ يَحْدُونُ رَبًّا فِي إِنَاءٍ فَارِغِ

إدريس بن اليماني :

تَمَلَّتْ زَجَاجَاتٌ أَتَقْنَسَا فُرْعَا حَتَّى إِذَا مُلِئَتْ بِصَرْفِ الرِّيحِ
خَفَّتْ فَكَادَتْ أَنْ تَطِيرَ بِمَا حَوَتْ إِنْ الْجُسُومُ تَخَفُّ بِالْأَرْوَاحِ

ابن المعتز :

وَنَدْمَانِ سُقِينِ الرِّيحِ صِرْفَا وَأُفُقِ اللَّيْلِ مُرْتَفِعِ الشُّجُوفِ
صَفَّتْ وَصَفَّتْ زَجَاجَتَهَا فَأُخِجَتْ كَمَعْنَى دَقٍّ فِي ذَهْنٍ لَطِيفِ

وله ، وهو مما يتصل بأبيات الديك المتقدمة :

فَاشْرَبَ عُقَارًا كَأَنَّهُمْ قَبَسُ قَدْ سَلَكَ الدَّهْرُ تَبَرَّهَا فَصَفَا
تَرَى النَّدَامَى الْإِبْرِيْقَ مِنْ دَمِهَا كَأَنَّهُ رَاعِفٌ وَمَا رَغَفَا

ولبعضهم :

مَا زَالَ يَشْرِبُهَا وَتَشْرِبَ عَقْلَهُ خَبَلًا وَتُوْذِنُ رُوحَهُ بِرَوَاحِ
حَتَّى أَثْنَى مَتَوَسِّدًا بِبَيْمِينِهِ سَكْرًا وَأَسْلَمَ رُوحَهُ لِلرَّاحِ

وقال النظام :

مَا زِلْتُ آخِذُ رُوحَ الزُّقِّ فِي لَطْفِ وَأَسْتَبِيحُ دَمًا مِنْ غَيْرِ تَجْرُوحِ
حَتَّى أَثْنَيْتُ وَلِي رُوحَانَ فِي جَسَدِي وَالزُّقَّ مَطَّرَحَ ، جِسْمٌ بَلَا رُوحِ

أخذه أحسن أخذ من بشار حيث قال :

شَرَبْنَا مِنْ فَوَادِ الزُّقِّ حَتَّى تَرَكَنَا الزُّقَّ لَيْسَ لَهُ فُؤَادُ

وقال ديك الجن :

وقم أنت فاحث كاسنا غير صاغر
فقام تكاد الكأس تخضب كفه
موردة من كف ظبي كأنما
ظلتنا بأيدينا نتعتع روحها
وقال حبيب :

وكأس كمسول اللماء شربتها
إذا عوتبت بالماء كان اعتذارها
إذا اليد نالتها بوتر توقرت
وقال الحسن :

وصفراء قبل المزج بيضاء بعده
ترى العين تستعنيك من لماعها
كن يواقيتا رواكد حولها
والنخوارزمي :

وصفراء كالدينار بنت ثلاثة
مسرة محزون، ورغد معربد
يطوف بها ظبي يريد عيوننا
وقال مسلم بن الوليد :

إبريقنا سلب الغزالة جيدها
يستعنيك من عيني كاس صباية
وحكى المديري بقلبي غزالاً^(١)
وبعدوها من كفه جريالاً^(٢)

(١) ديوانه ١٩٩

(٢) ديوانه ٢٠٤

(١) ديوانه ١٠٧

(٣) نهاية الأرب ٤ : ١١٥

وقال أبو ذلامه :

سَقَانِي أَبُو بَثْرٍ مِنَ الرَّاحِ شَرِبَةً هَذَا لَذَّةٌ مَا ذُقْتُهَا بِشَرَابٍ
وَمَا طَبَخُوهَا غَيْرَ أَنَّ غَلَامَهُمْ مَشَى فِي نَوَاحِي كَرَمِهَا بِشَهَابٍ
وَلَمَّا أُنْشِدَهَا عَلَى بْنِ الْخَلِيلِ صَاحَ : أَحْرِقْهَا الْعَبْدُ أَحْرِقْهُ اللَّهُ !

كان ابن لنسكك أسرع الناس سكرًا ، فقال في ذلك :

فَدَيْتُكَ لَوْ عَلِمْتَ بِيَعُضَ مَا بِي لَمَّا جَرَّعْتَنِي إِلَّا بِمُسْطِطٍ
فَسَبَّكَ أَنْ كَرَمًا فِي جَوَارِي أَمْرٌ بِيَابِهِ فَأَكَادُ أَسْقُطُ
قوله : فياقوم هل كفارة تعرفونها ، إنما غيّر بيت أعرابي ، أنشد أبو العباس
أبياته ، وهي :

فِيَا قَوْمَ هَلْ كَفَارَةٌ تَعْرِفُونَهَا تَبَاعَدُ مِنْ ذَنْبِي وَتُدْنِي إِلَى رَبِّي
شَكَوتَ فَقَالَتْ كُلُّ هَذَا تَبَرُّمًا بِحُجِّي أَرَاهُ اللَّهُ قَلْبُكَ مِنْ حُجِّي
فَلَمَّا كَتَمْتَ الْحَبَّ قَالَتْ : أَشَدَّ مَا صَبَرْتُ وَمَا هَذَا بِنَعْلِ شَجِي الْقَلْبِ
وَأَدْنُو فَتَقْصِبْنِي وَأَبْعَدُ طَالِبًا رِضَاهَا فَتَعْتَدُ التَّبَاعِدَ مِنْ ذَنْبِي
فَشَكُوَايَ يُؤْذِيهَا وَصَبْرِي يَسُوءُهَا وَتَجْزَعُ مِنْ بُعْدِي وَتَنْفَرُ مِنْ قُرْبِي
فِيَا قَوْمَ هَلْ مِنْ حِيلَةٍ تَعْرِفُونَهَا
أَشِيرُوا بِهَا وَاسْتَوْجِبُوا الشُّكْرَ مِنْ رَبِّي !

وقال أبو العبر الهاشمي المتحامق :

أَبْكِي إِذَا غَضِبْتَ حَتَّى إِذَا رَضِيتَ بَكَيْتَ عِنْدَ الرِّضَا خَوْفًا مِنَ الْغَضَبِ
فَالْمَوْتُ إِنْ غَضِبْتَ وَالْمَوْتُ إِنْ رَضِيتَ
إِنْ لَمْ يُرْحَنِي سُلُوْتُ عِشْتُ فِي تَعَبٍ

وأبو العبر على تحامقه جيّد الشعر ، ومن ذلك قوله :
 وفي ساعدى من تملت عَصَّةٌ تذكّرني ذاك الشَّيْبَ المفلجاً
 وآثار خدشٍ في يديّ مَليحةٍ أقام عليها القلب منى وعرجاً
 أما والذي أمسيتُ أرجو ثوابه لقد حلّ ما أخشاه وانقطع الرجاء
 وله :

داء دافين وهوى بدي أظلم مجازيك بمرصاد
 يا واحد الأمة في حسنه أثبت في صدك حسّادى
 عبدك تحيى موته قلةً يجعلها خاتمة الزّاد
 ولأعرابي في نحو ما أنشده أبو العباس :

سكتُ فقالت: لم سكتَ عن الحقِّ وفُتتُ فقالت: ما دَعَاكَ إلى التَّطَقُّي
 فأومأتُ هل من حالةٍ بين ذا وذا فقالت وذا الإيماء أيضاً من الخُمُي
 فلم أر لي إذ حلتِ الغرب مخلصاً من الشرِّ إلا في المسير إلى الشرقي
 فلما أتيتُ الشرق ألفتُهُ وقد قعدت لي منه في أضيق الطَّرقي

* * *

وعلى ما تقدّم في وصف الخمر من النظم المستحسن المرغّب في شربها ، فإنه
 جاء من التحذير فيها ما يوجب تركها على أهل التخصيص والفضل .

من حديث أنس رضى الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :
 « مَنْ شَرِبَ الخمر لم تقبل له صلاةٌ أربعين ليلةً فإن تاب تاب الله عليه ، فإن عاد
 الثانية لم تقبل له صلاةٌ أربعين ليلةً ، فإن تاب تاب الله عليه ، فإن عاد الثالثة
 لم تقبل له صلاةٌ أربعين ليلةً ، فإن تاب تاب الله عليه ، فإن عاد الرابعة كان حقاً
 على الله أن يسقيه من طينة الخبال » .

ابن الأعرابي : طينة الخبال عُصارة أهل النار في النار .
 وعن ابن عمر أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مدمِن الخمر كما بدوثن » .

قال أبو زيد : فَمَا حَلَّ أَنْشُوطَةَ نَفْثِهِ ، وَقَضَى الْوَطَرَ مِنْ اشْتِكَاءِ
بَثِّهِ ، نَاجَتْنِي نَفْسِي : يَا أَبَا زَيْدٍ ، هَذِهِ نَهْزَةٌ صَيْدٍ ، فَشَمَّرَ عَنْ يَدَيْهِ وَأَيْدٍ .
فَاتَهَضْتُ مِنْ مَجْتَمِي اتِّهَاضَ الشَّهْمِ ، وَانْحَرَطْتُ مِنَ الصَّفِّ انْحِرَاطَ
الشَّهْمِ ، وَقُلْتُ :

أَيْهَا الْأَرْوَعُ الَّذِي فَاقَ مَجْدًا وَسُوءُذًا
وَالَّذِي يَبْتَغِي الرِّشَاءَ دَلِيْنَجُوبُهُ غَدًا
إِنَّ عِنْدِي عِلَاجَ مَا بَتَّ مِنْهُ مُسَهَّدًا
فَاسْتَمِعْهَا عَجِيْبَةً غَادَرْتَنِي مُلْدَدًا
أَنَا مِنْ سَاكِينِي سَرُوحَ ذَوِي الدِّينِ وَالْهُدَى

* * *

قوله : أَنْشُوطَةٌ ، عُقْدَةٌ مَهْلَةٌ تَسْمِيهَا الْعَامَةُ اللَّجْجُ . نَفْثُهُ : لَفْظُهُ . الْوَطَرُ :
الْحَاجَةُ . بَثُّهُ : حَزَنُهُ . نَاجَتْنِي : حَدَّثْتَنِي . النَّهْزَةُ : الْفُرْصَةُ وَمَا أُخِذَ بِهَا تَعَبُ
أَيْدٍ : قُوَّةٌ : اتَّهَضْتُ : تَقَدَّمْتُ . مَجْتَمَى : مَوْضِعُ قُعُودِي . اتِّهَاضُ الشَّهْمِ : الشَّدِيدُ
النَّفْسِ . انْحَرَطْتُ : انْدَفَعْتُ بِسُرْعَةٍ وَالْانْحِرَاطُ التَّصْمِيمُ وَرُكُوبُ الرَّأْسِ .
الْأَرْوَعُ : السَّيِّدُ . فَاقَ : زَادَ عَلَى غَيْرِهِ فِي الْفَضْلِ . عِلَاجٌ : مَعَانَاةٌ وَطَبٌّ .
مُسَهَّدًا : مَمْتَنِعُ النَّوْمِ . مُلْدَدًا : مُلْتَفِتًا يَمِينًا وَشِمَالًا مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ .

* * *

كَنْتُ ذَا ثُرُوقٍ بِهَا وَمُطَاعًا مَسُودًا
مَرَبَعِي مَأْلَفُ الضُّيُوفِ فِ وَمَالِي لَهْمٌ سُدَى

أَشْتَرَى الْحَمْدَ بِاللَّهِمَا وَأَقِي الْعِرْضَ بِأَجْدَا
لَا أَبَالِي بِمَنْفَسٍ طَاحَ فِي الْبَذْلِ وَالنَّدَى
أَوْقِدُ النَّارَ بَالِيفًا عَ إِذَا النَّكْسُ أَخْمَدَا
وِيرَانِي الْمُؤْمَلُونَ نَ مَلَاذًا وَمَقْصِدًا
لَمْ يَشْمُ بَارِقِ صَدٍ فَاثْنَيْنِ يَشْتَكِي الصَّدَى
لَا وَلَا رَامَ قَابَسٍ قَدَحَ زَنْدِي فَأَصْلَدَا
طَالَمَا سَاعَدَ الزَّمَا نَ فَأَصْبَحْتُ مُسْعَدَا
فَقَضَى اللَّهُ إِنْ يُعَيَّرَ مَا كَانَ عَوْدًا
بِوَأَ الرُّومَ أَرْضَنَا بَعْدَ ضِعْنٍ تَوْلَدَا
فَاسْتَبَاحُوا حَرِيمَ مَنْ صَادَفُوهُ مَوْحِدَا
وَحَوُوا كُلَّ مَا اسْتَسَرَّ بِهِ أَلِي وَمَا بَدَا

* * *

ثروة : غنى . مسووداً : مقدماً للسيادة . مربعى : منزلى . مالف : موضع
الاجتماع . سُدى : مهمل . اللهما : العطايا . اليفاع : ما ارتفع من الأرض . النكس :
الندى . أخذ : أطفأ . المؤملون : الراجون . ملاذ : ملجأ . المقصد : الموضع تقصده
يشم باري : ينظر برفى . صنه : عطش . اثني : رجع . رام : طلب . قابس :
طالب النار . قدح زندي : استخراج ناره . أصلد : وجده صليداً أى شحيحاً .
ساعد : وافق . بوأ : أى أنزل . ضغن : حقد وعداوة . استباحوا : صيروه مباحاً
حريم : عيال . موحد : مسلم . حووا : ضموا . استسر : خفي . بدا : ظهر .

تَطَوَّحَتْ : تَرَاهِيْتُ عَلَى جِهَالَةٍ وَأَلْقَيْتُ بِنَفْسِي لِلْهَلَاكِ . طَرِيدًا : مُنْفِيًا . مُشْرِدًا : مَفْرُوعًا عِنْدَ الْهَرَبِ قَارًا .

* * *

أَجْتَدَى النَّاسَ بَعْدَمَا كُنْتُ مِنْ قَبْلِ مُجْتَدَى
وَتَرَى بِي خِصَاصَةً أَتَمَنَّى لَهَا الرَّدَى
وَالْبَلَاءَ الَّذِي بِهِ شَمَلُ أَنْسِي تَبَدُّدَا
اسْتِيبَاءَ ابْنَتِي الَّتِي أَسْرَوْهَا لَتُفْتَدَى
فَاسْتَبِينَ مُحِيتِي وَمُدَّ إِلَى نَصْرَتِي يَدَا
وَأَجِرْنِي مِنَ الزَّمَا نِ فَقَدْ جَارَ وَاعْتَدَى
وَأَعَنِّي عَلَى فَكَا لِكِ ابْنَتِي مِنْ يَدِ الْعِدَى
فِيْذَا تَنَمَّجَى الْمَاءَ ثِمَّ عَمَّنْ تَمَرَّدَا
وَبِهِ تُقْبَلُ الْإِنَا بَةً يَمِّنْ تَزَهَّـدَا
وَهُوَ كَفَّارَةٌ لِمَنْ زَاغَ مِنْ بَعْدِ مَا هَتَدَى
وَلَنْ قَتُ مُنْشِدَا فَلَقَدْ فَهَتْ مُرْشِدَا
فَاقْبَلِ النُّصْحَ وَالْهُدَا يَّةَ وَاشْكُرْ لِمَنْ هَدَى
وَاسْمَحِ الْآنَ بِالَّذِي يَتَسَنَّيَ لَتُحْمَدَا

* * *

أَجْتَدَى : أَسْأَلَ . خِصَاصَةً : فَقْرَ . الرَّدَى : الْهَلَاكِ . شَمَلُ : مَجْتَمِعَ .
تَبَدُّدٌ : تَفَرَّقَ . اسْتِيبَاءُ ابْنَتِي : أَخَذَهَا أُسِيرَةً . اسْتَبِينَ : تَحَقَّقَ وَتَبَيَّنَ . مُحِيتِي :

بليتي . جار واعتدى : مال وظلم . وفك الرقبة وفكها : تخليصها من أسر الرق وكذلك الرهن ، وفي الحديث « اعتق النِّسمة وفك الرقبة » قيل : أو ليسا واحداً ؟ قال : لا ، اعتق النِّسمة : أن تنفرد في عتقها ، وفك الرقبة : أن تعين في عتقها ، ابن عباس رضى الله عنهما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « مَنْ فَدَى أسيراً من أيدي العدو ، فأنا ذلك الأسير » . تمنحى ، أى تذهب . تمرّد : أكثر الفساد . الإنبابة : الرجوع إلى الله تعالى . تزهد : ترك الرغبة في الدنيا زانغ : مال . فُهِتْ : نطقت . مرشداً : دالاً على الخير . اسمح : جُد . يتسنى : يتيسر . الفنجديهي : كان ابن قَطَرِي قاضي ناحية المزار ، بلد عند البصرة قد تاب من الشرب ، ثم نقض التوبة ، وعاد يشرب ، ثم بعد المعاودة حضر مسجد بنى حَرَام يوماً بالبصرة ، وتاب ورجع إلى الله تعالى بصِدْق النية ، وسأل عن كفارة ذنبه ، وكان في المسجد رجل يزعم أنه من أهل سَرُوج ، وله بنت مأسورة في أيدي الكفار ، فقال لابن قَطَرِي : كفارة ذنبك أن تتصدق على بشيء أفكها به ، فأعطاه عشرة دنانير ، فلما أخذها منه دخل الحانة .

ثم إن الحريري أنشأ هذه المقامة الحرامية في ذلك فقيل له : هي أحسن من مقامات البديع ، فأنشأ أربعين مقامة ، ثم استزادوه فكمّلها خمسين .

قال أبو زيد : فلما أتممت هذرمتي ، وأورهم المسئول صِدْق كلتي * * *
أغراه القَرَمُ إلى الكرم بمواساتي ، ورغبه الكَلَف بحمل الكَلَف
في مُقَاساتي ، فرضخ لي على الخافرة ، ونضخ لي بالعِدّة الوافرة .
فانقلبت إلى وكري ، فرحاً بنجح مكري ، وقد حصّلت من صوغ
المكيدة ، على سوغ الثريدة ، ووصلت من حوك القَصيدة ، إلى لوك
العصيدة .

قوله: هذرمتي، أي كثرة كلامي. أوهيم: أي خيّل له. كلمتي، أي قصيدتي. أغراه، أي حرّضه. القرم: الشهوة. مواساتي: إعطائي. الكلف: الحب. والكلف: جمع كلفة وهي ما يتكلف من العمل. رضىخ: أعطى. على الحافرة، أي عندما أكملت كلامي، والحافرة: أول الأمر، وقيل أن أصلها في بيع الفرس، ولرفعة الخيل عندهم كان لا يفارق البائع حافر فرسه، حتى يأخذ ثمنه. نضخ: رفع، ونضخ الماء فورانه من منبعه. الوافرة: الكثيرة. وكري: يتي، وأصله للطائر. صوغ المكيدة: صنعة الكيد. سوغ: بلع بسهولة. لوك: مضغ.

قال الحارث بن همام: فقلت له: سبجان من أبدعك، فما أعظم خدعك، وأخبث يدعك! فاستغرب في الضحك، ثم أنشد غير مرتبك:

عش بالخداع فأنت في دهر بنوه كأسد يبش
وأدر قناة المكر حتى تستدير رحا المبيشة
وصيد النسر فإن تعذر صيدها فاقنع بريشة
واجن الثمار فإن تفكك فرض نفسك بالحشيشة
وأرخ فؤادك إن نبأ دهر من الفكر المطيشة
فتغائر الأخداث يؤ ذب باستحالة كل عيشة

أبدعك، أي أوجدك وخلقك. استغرب: أكره الضحك. مرتبك: مختلط في كلامه. يبش: موضع كثير الأسد. المكر: الخديعة. نبأ: ارتفع. المطيشة: المدهشة للعقل. تغائر: اختلاف. الأحداث: النوازل. يؤذن: يعلم. استحالة: تغير. (م ٢١ - شرح مقامات الحريري ج ٥)

المفامة التاسعة والأربعون . وهي الساسانية

حكى الحارث بن همام قال : بلغني أن أبا زيد حين ناهز القُبْضَةَ ، وابتزّه قَيْدُ الهَرَمِ النَّهْضَةَ ، أحضر ابنه ، بعد ما استجاش ذهنه ، وقال له : يا بني إِنَّهُ قَدْ دَنَا ارْتِحَالِي مِنَ الْفَنَاءِ ، واكْتَحَالِي بِمِرْوَدِ الْفَنَاءِ ، وَأَنْتَ بِمُحَمَّدِ اللَّهِ وَلِيٌّ عَهْدِي ، وَكَبُشُ الْكِتَابَةِ السَّاسَانِيَّةِ مِنْ بَعْدِي ، وَمِثْلُكَ لَا تُقَرَّعُ لَهُ الْعَصَا ، وَلَا يُدَبُّهُ بِطَرَقِ الْخِصَا ؛ وَلَكِنْ قَدْ نَذِبَ إِلَى الْإِذْكَارِ ، وَجُعِلَ صَيْقَلًا لِلْأَفْكَارِ . وَإِنِّي أُوصِيكَ بِمَا لَمْ يَوْصَ بِهِ شَيْثُ الْأَنْبَاطِ ، وَلَا يَمْقُوبُ الْأَسْبَاطِ ؛ فَاحْفَظْ وَصِيَّتِي ، وَجَانِبِ مَعْصِيَّتِي ، وَاحْذُ مِثَالِي ، وَافْقَهُ أَمثَالِي ، فَإِنَّكَ إِنْ اسْتَرْشَدْتَ بِصُحْبِي ، وَاسْتَصْبَحْتَ بِصُحْبِي ، أَمْرَعُ خَانَكَ ، وَارْتَفَعُ دُخَانَكَ ، وَإِنْ تَنَاسَيْتَ سُورَتِي ، وَنَبَذْتَ مَشُورَتِي ، قَلَّ رِمَادُ أَمَانِيكَ ، وَزَهَدَ أَهْلُكَ وَرَهْطُكَ فِيكَ .

* * *

ناهز : قارب . القُبْضَةُ ، أراد بها ثلاثاً وتسعين سنة ، لأنك إذا قيل لك : اعقد في يديك ثلاثاً وتسعين قبضت أصابعك كلها وشدت عليها الإبهام ، والمعنى أنه قارب المائة التي ليس في العيش بعدها منفعة ، والشعراء يضمنونها أشعارهم إذا وصفوا البخيل بقبض الكف ، قال الخليل بن أحمد :

وكفَّ عن الخير مقبوضةٌ كما قبضت مائة سبعة

وقال :

فَمَا تَسْمَعُونَ تَخْفَرُهَا ثَلَاثُ يَضُمُّ حَسَابَهَا رَجُلٌ شَدِيدُ
بَكَفٍ خَرَقَةٍ جُمِعَتْ لَوَجْدُ بَأْسُكَدَّ مَنْ عَطَانُكَ يَا زَيْدُ

وابتزّه : سَلَمَه . الهرَم : كِبَرُ السِّن . النَهْضَةُ : القِيَامُ إِلَى مَا يَرِيدُ .

ودخل هشام بن عبد مناف وقد أَسْنَى عَلَى فَتِيَةٍ مِنْ قَوْمِهِ فَقَامُوا إِلَيْهِ لِإِجْلَالِهِ ،
وَأَجْلَسُوهُ فِي أَرْفَعِ مَوْضِعٍ ، فَقَالَ : بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمْ ، إِنْ بَنَى مَرَّةً كَانُوا إِذَا شَاحَ
عِنْدَهُمُ الرَّجُلُ قَيِّدُوهُ وَقَالُوا لَهُ : ثَبِّ ، فَإِنْ وَثَبَ أَحْبَبُوهُ ، وَقَالُوا : فِيكَ بَقِيَّةٌ ،
وَأِنْ لَمْ يَثْبُتْ قَالُوا : لَيْسَ فِي هَذَا مَنَفْعَةٌ فَقَتَلُوهُ ، وَقَالَ ابْنُ الرُّومِيِّ :

لَوْ أَنَّ عَمْرِي مِائَةٌ هَدَّيْنِي تَذْكُرِي أُنِّي تَنْصِفُنِي^(١)

لَهْفِي عَلَى خَمْسِينَ عَامًا مَضَتْ كَانَتْ أُمَامِي ثُمَّ خَلَقْنِيهَا

استجاش : اسْتَجْمَعَ وَحَشِدَ . الْفِنَاءُ : مَا حَوْلَ الدَّارِ . وَالْفَنَاءُ بِالْفَتْحِ :
المَوْتُ . الْكِتْبَةُ : الْجَيْشُ . وَكَبِشُهَا : رَئِيسُهَا وَحَامِيهَا . وَالَّذِي كَانَتْ الْعَصَا
تُقَرَّعُ لَهُ عَامِرُ بْنُ الظَّرِّبِ الْعَدَوَانِي حَكِيمُ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَلَمَّا أَسْنَى كَانَ
يَزِلُّ فِي حَكْمِهِ ، وَكَانَتْ لَهُ بِنْتُ حَكِيمَةٍ ، فَأَمَرَهَا أَنْ تَقْعُدَ وَرَاءَ سِتْرِ لَتَنْظُرَ حَكْمَهُ ،
فَإِذَا أَنْكَرَتْ مِنْهُ شَيْئًا قَرَعَتْ لَهُ الْعَصَا ، فَتَمَتَّ سَمْعُ صَوْتِ قَرَعِهَا عِلْمٌ أَنَّهُ زَلٌّ ،
فَرَجَعَ . وَقِيلَ : قَرَعَتْ لِأَكْثَمِ بْنِ صَيْفِيٍّ ، وَقِيلَ لِسَعْدِ بْنِ مَالِكِ الْكِنَانِيِّ ،
وَقِيلَ لِعَمْرٍو بْنِ مُحَمَّةِ الدَّوْمِيِّ .

وخطب صعصعة بن معاوية إلى عامر بن الظَّرِّبِ بِنْتَهُ تَعْمَرَةَ ، وَهِيَ أُمُّ عَامِرِ
ابْنِ صَعْصَعَةَ ، فَقَالَ : يَا صَعْصَعَةُ إِنَّكَ تَشْتَرِي مِنِّي كَبِدِي ، فَأَرْحَمُ وَلَدِي ؛ قَبْلَتْكَ
أَوْ رَدَدْتُكَ . وَالْحَسِيبُ : الرَّجُلُ الصَّالِحُ أَبًا . بَعْدَ أَبٍ ، وَقد أَنْكَحْتَكَ خَشِيَّةَ
أَلَّا أَجِدَ مِثْلَكَ ، أَفَرَّ مِنْ السَّرِّ إِلَى الْعِلَانِيَةِ ، يَا مَعْشَرَ عَدُوَّانِ أَخْرَجْتَ مِنْ بَيْنِ
أَظْهَرِكُمْ كَرَمًا مِمَّنْكَ مِنْ غَيْرِ رَقَبَةٍ ، لَأَقْسِمَ لَوْلَا قِسْمَةُ الْخَطُوطِ عَلَى الْجُدُودِ مَا تَرَكَ
الْأَوَّلَ لِلْآخِرِ مَا يَعِيشُ بِهِ ، وَفِيهِ يَقُولُ الْمُتَلَمِّسُ :

(١) ديوانه ١ : ٣٦١

لَذِي الْحَلْمِ قَبْلَ الْيَوْمِ مَا تُقْرِعُ الْعَصَا وَمَا عُلِمَ الْإِنْسَانُ إِلَّا لِيَعْلَمَ^(١)
 وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ جَلَسَ عَلَى الْمَنْبَرِ وَتَكَلَّمَ ، وَفِيهِ يَقُولُ الْأَسْوَدُ بْنُ يَعْفَرٍ :
 وَلَقَدْ عَلِمْتُ لَوْ أَنَّ عَلِيَّ نَافِعٌ أَنَّ السَّبِيلَ سَبِيلُ ذِي الْأَعْوَادِ^(٢)
 قَالَ الْأَصْمَعِيُّ : نَزَلَتْ عَدْوَانُ مَاءً ، فَأَحْصَى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ غِلَامٍ أَغْرَلَ^(٣) ،
 سِوَى مَنْ كَانَ مَخْتُونًا لِكَثْرَتِهِمْ ، ثُمَّ وَقَعَ بِأَمْهُمَ يَدِينَهُمْ ، فَتَفَانُوا ، فَقَالَ
 ذُو الْإِصْبَعِ الْعَدْوَانِي :

عَذِيرُ الْحَيِّ مِنْ عَدْوَا نَ كَانُوا حَيَّةَ الْأَرْضِ^(٤)
 بَغَى بَعْضٌ عَلَى بَعْضٍ فَلَمْ يُبْقُوا عَلَى بَعْضٍ
 وَمِنْهُمْ مَنْ يَحْيِزُ النَّاسَ بِالْشُّنَّةِ وَالْفَرَضِ
 وَمِنْهُمْ حَكَمٌ يَقْضِي فَلَا يُنْقِضُ مَا يَقْضِي

الحكم : عامر بن الظرب ، والذي كان يحيز الناس في الحج منهم رجل كان
 يسمى أبا سيارة ، أجاز الناس على حمار له أسود ، من المزدلفة إلى منى أربعين
 عامًا ، فقيل في المثل : أصبح من عبر أبي سيارة^(٥) ، وكانت إجازته أن يقول : اللهم
 حَبِّبْ بَيْنَ نَسَائِنَا وَبَعْضِ بَيْنَ رَعَائِنَا ، واجعل للمال في سُمَحَانِنَا ، أَوْفُوا بَعْدَكُمْ ،
 وَأَكْرَمُوا جَارَكُمْ ، واقْرؤوا ضيفكم ، ثم يدفع فيقول :

خَلُّوا الطَّرِيقَ عَنْ أَبِي سَيَّارَةَ وَعَنْ مَوَالِيهِ بَنِي فَزَّارَةَ
 * حَتَّى يَحْيِزَ سَالِكًا حِمَارَهُ *

ثم يقف فيقول : أشرق ثبير ، كيما نغير . وكانت الإجازة قبلهم في خُرَاقَةٍ .
 فغلبتهم عليها عَدْوَانُ . ولا تقرع له العصا مثل ، يُضْرَبُ لِنِ وَافِقِ صَاحِبِهِ وَسَاوَاهُ .

(١) ديوانه ٢٦

(٢) المفضليات ٢١٦

(٣) الأغزل : الألف .

(٤) الأغاني ٣ : ٧٩ (٥) مجمع الأمثال ١ : ٤١٠

ولما خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم خديجة رضى الله عنها قال عَمَّهَا :
 مثل محمد لا تفرّعه العصا ، وأصل ذلك أن الناقة السكرية إذا أتاها حل غير كريم
 منعه عنها ، وقرّعه بالعصا على أنفه . وفي المثل : إن العصا قرّعت لذي الحلم .
 قوله : ولا ينّبّه بطرق الحصى ، كانت العرب إذا أرادت اختبار الرجل :
 هل يصلح للسفر والغارة ؟ ترك الرجل صاحبه حتى ينام ، فيأخذ حصاة فيرمي
 بها إلى جانبه ، فإن انقبه توثق به .

وخرج أبو كبير الهذلي ومعه تابط شراً للغارة ، فلما جنّ الليل أووا إلى
 موضع ليناموا فيه ، فتركه أبو كبير حتى نام ، فرمى إلى جانبه بحصاة ، فساعة
 مسّت الأرض وثب ثم عاد إلى نومه ، ففعلها ثلاثاً فكان ينتبه لوقوعها ويثب
 ويحاول يطلبها رامياً ، فلا يجد إلا أبا كبير نائماً ، فقال له عند الثالثة : والله لئن
 عدت لأقتلتك ، فإنه ليس هنا من يفعل هذا غيرك ، فضحك أبو كبير وقال :
 أردت اختبارك ، ثم ذكر القصة في قصيدته التي يقول فيها :

وإذا رميت له الحصاة رأيتَه ينزُّ ولوقعتها طُمور الأخيل^(١)

يريد أن ابنه كان فوق هذا في ذكاء القلب فهو كأنه منته به أبداً .

وطرق الحصى أيضاً من فعل الكُهان يأخذ الكاهن حصيات ، فيضرب
 بها الأرض وينظر فيها فيخبر بالمغيّبات .

قوله : نُدب ، أى دعى وحُرّض . الإذكار : التذكير بما يفعل .
 الأفكار : الأذهان .

شيث هو ولد آدم عليه السلام ، وكان أجلّ بنيه وأحبهم إليه ، وهو وصي أبيه
 وإليه ترجع الأنساب ، وقال صلى الله عليه وسلم : أربعة من الأنبياء سريانئون :
 آدم وشيث وإدريس - وهو أخنوخ - ونوح ، وأنزل الله تعالى على شيث
 خمسين صحيفة . وقال بقرية بن أرطاة : بلغنى أن حواء حملت بشيث الرضا حتى

(١) ديوان الحماسة — بشرح النبريزي ١ : ٨٧

نبت أسنانه ، وكانت تنظر إلى وجهه من صفائه في بطنها . وهو الثالث من ولد آدم ، وإياه لما حَضَرها الطَّلَق أخذها عليه شدة ، فالتبذت به ، فلما وضعته أخذته الملائكة ، فمكث معهم أربعين يوماً ، فعلموه المهن ، ثم ردّوه إليها معاً . والمهن جمع مِهنة ، وهي الخدمة .

الأنباط ، قيل : سُموا أنباطاً لاستنباطهم البناء ، واستخراجهم المياه ، والنسابون يزعمون أنهم ولد يافث بن نوح ، ولا يصح على هذا أن يوصيهم شيث ، لأنّ بين زمن شيث وزمن يافث آلافاً من السنين . الجوهرى : النبط والنَّبَط : قوم كانوا ينزلون بين البصرة والكوفة والجمع أنباط ، والرجل نَبِطَى . ابن دريد : النَّبَط . جيلٌ من الناس معروف ، وهم النبط والأنباط . والأسباط : بنو يعقوب عليه السلام ، ومنهم تشعبت قبائل بني إسرائيل ، والأسباط في ولد يعقوب كلقبائل في ولد إسماعيل .

أحدٌ مثالى ، أى امش على طريقى وافعل بفعلى . استرشدت : استدلت . استصبحت : استضأت . أسرع : أخصب . الخان : الفندق ، وهذا مثل لرفاهة العيش . تبذت : طرحت . الأثافي : أحجار القدر . زهد : لم يرغب .

يابنى ؛ إني جرّبتُ حقائق الأمور ، * * * وبلوتُ تصاريّفَ الدهور ؛
فرايتُ المرءَ بنسبه ، لا بنسبه ، والفحصَ عن مكسبه ، لا عن حسبه .
وكنتُ سمعتُ أن أمّ أيش : إمارة ، وتجارة ، وزراعة ، وصناعة ، فارستُ
هذه الأربع ، لأنظرَ أيّها أوفقُ وأنفع ، فأتخذتُ منها معيشة ،
ولا استرغدتُ فيها عيشة ، أما فرصُ الولایات ، وخلسُ الإمارات ؛
فكأضغاثِ أحلامٍ ، والقيءُ المنتسج بالظلام ؛ وناهيك غصةً بمرارة
القطام . وأما بضائعُ التجارات ، فعُرْضةٌ للمخاطر ، وطعمةٌ للغارات ،

وما أشبهها بالطيور الطيَّارات. وأما اتخاذ الضياع، والتَّصدّي للزَّديراع،
فمنهكةٌ للأعراض، وقُيودٌ عاتقةٌ عن الارتِكَاض، وقَلَمًا خَلَا
رَبُّها عن إِذْلال، أو رُزِقَ رَوْحَ بالٍ، وأما حِرْفُ أُولِي الصَّناعات،
فمغيرٌ فاضلةٌ عن الأفوات، ولا نافقةٌ في جميع الأوقات، ومُعْظَمُها
معصوبٌ بشيبة الحياة. ولم أَرِ ما هو باردُ المنعم، لذيدُ المطعم، وافي
المكسب، صافي المشرب، إِلَّا الحِرْفَةُ التي وَضَعَ ساسانُ أساسها،
ونَوَّعَ أجناسها

* * *

بلوت : اختبرت . نَشَبه : ماله . الفحص : البحث ، والأربع التي ذكر
نسبها الثعالبي للمأمون قال : قال لي المأمون : النَّاسُ أَرْبع طَبَقَاتٍ بين إمارة
وتجارة ، وزراعة ، وصناعة ، فمن لم يكن منهم كان كَلًّا علينا . مارست :
خالطت . أحمدت : صادفتها محودة . استرغدت : استكثرت . فُرُص : نُهْز ،
والنَّهْزَة والفرصة ما يحضرك من الفوائد من غير أن تتعنى في طلبها ، فإن فوَّتَها
ولم تفتنم أخذها ففانتك ، فربما تتعنى غاية التعنى في طلبها ، فلا تظفر بها .
الجوهرى : الفرصة . النوبة والشرب ، يقال : وجد فلان فرصة ، أى نُهْزَة ،
وجاءت فرصتك من الشيء ، أى نوبتك . خُلَس : جمع خُلْسة ، وهى كالخطف
وشبهه ، يريد أن الأمير كأنه اختلس أيامه ، أى اختطفها لقصر مدتها ، ويقال :
الخُلْسة . فرصة . وأضغاث الأحلام : أباطيلها التي لا يصح تأويلها لاختلاطها .
والضُّغْت : كل ما كان مختلطاً لا حقيقة له ، والحلم : الرؤيا والجمع أحلام . ويقال :
هذا رجل ناهيك من رجل ! ونهْيُك من رجل ، أى إنه نجدة وعناية ينهك عن
تطلب غيره ، فناهيك : كافيك . الغصة : ما يحتنق به . الفِطام : قطع الرضاعة عن

الصبي ، وفي الكلام معنى التعجب كأنه قال : ما أنكد غصة العزل على أهل الولايات ، والعزل للولاية كالحيض للنساء . والبضائع : الأموال يتجر فيها . عرضة للمخاطر ، أى معرضة للضرر والسلب ، وفلان عرضة لكذا ، أى نصب ، وهو له عرضة ، أى يتعرض له دونه ، وهذا عرضة لك ، أى عُدّة . وقال النقاش في قوله تعالى : ﴿ عُرْضَةٌ لِأَيْمَانِكُمْ ﴾ أى علة لها وسبباً ومتخذاً لذلك ، وأصل العُرْضَة : الدابة تتخذ للسفر لقوتها ، ثم جعل كل ما صلح لشيء عرضة له ، حتى قيل : المرأة عرضة للزوج . والطعمة : المأكلة ، وهذه الضيعة طعمة لفلان ، والطعمة أيضاً : وجه المكسب ، فطعمة للغارات ، يريد أن قطاع الطرق يسلبون أموال التجار أبداً فأرزاقهم معرضة للتلف . التصدى : التعرض . منهكة : مذلة وسبب هتك ، وهو الجهد والضعف ، ونهكته الحمى وأنهكته ، إذا جهده وأضنته ونقصت لحمه ، ونهكه السلطان عقوبةً بالغ في عقوبته . رُوح بال : راحة قلب . عاتقة : حابسة . الارتكاض : الجرمى والتصرف وهذه مشاهدة من أحوال أهل الحرث وقال صلى الله عليه وسلم حين رأى السكة : «مادخلت قطّ دار قوم إلا ذلّوا» . وقال صلى الله عليه وسلم في الإمارة : «ستحرصون على الإمارة ثم تكون حسرة وندامة ، فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة» .

والحرّفة : الصنعة : فاضلة : زائدة . معصوب : مربوط ، والعصب الفتل الشديد ، يريد أن الصنعة يُنْقَعُ بها ما دام صاحبها شاباً قوياً فإذا شاخ لم يقدر على الانتفاع بها . قوله : بارد المغنم ، أى السهل منه ، وهو الذى يؤخذ بغير قتال .

ساسان : شيخ المسكين والغرباء ، وهم بنو غُبراء . والغبراء : الأرض ، وُسُومُوا بنى غُبراء لقطعهم جهات الأرض وجوّلّانهم في البلدان ، فكانهم ليس لهم أصل يُنسبون إليه إلا الأرض . وقيل : سُمُوا بذلك للزومهم لغبراء الأرض وهو وجهها وترابها والرقاد فيها فيُعَيَّرُونَ بذلك ويتغيّرون .

وكان الأحنف العكبري^(١)، وهو أبو الحسن عتيل بن العكبري، كان فصيحاً شاعراً، وذكر صاحب فيه فصلاً وهو: ولو أنشدتُك ما أنشدنيهِ الأحنف العكبري، وهو فردُ بني ساسان اليوم في مدينة السلام في الفصاحة وحسن الطريقة في الشعر لا متلات تعجباً من ظرفهِ وإعجاباً بنظمه، ومن افتخاره قوله:

على أنى بمحمد الله في بيتٍ من المجدِ
وإخواني بنو ساسا ن أهل الجدة والجُدِّ
لهم أرض خراسا ن فَمَسَّان مع اللدِّ
إذا ما أعوز الطَّرَق على الطُّراق والجُنْدِ
حذاراً من أعاديهم من الأعراب والكرْدِ
قطعتنا ذلك النهج بلا سَيْفٍ ولا غِمْدِ
ومن خاف أعاديهِ بنا في الرُّوعِ يَسْتَعْدِي

ففي هذا البيت معنى بديع، يريد أن ذوى الثروة وأهل الفضل إذا وقع أحدهم في أيدي العداة وأراد التخلص قال: أنا مكدر، فبني الحريري هذا الموضع من مقامته على شعر الأحنف، وأكثر هذه المقامة مأخوذ من ملحه، ومن هذا الشعر:

وقالوا قد سلا عَنكَ وقد حالَ عن العهدِ
ولا والله ما خُلْتُ ولكن قلَّ ما عِنْدِي

ومن شعره:

عشت في ذلة وقلة مالٍ واغترابٍ في معشرٍ أنذالٍ
بالأمانى أقول لا بالمعاني فغداً حلاوة الآمالِ
لى رزق يقول بالوقف فى الرأى ورَجُلٌ تقول بالاعتزالِ

(١) الأحنف العكبري، له ترجمة في اليتيمة ٣: ١٠٤ - ١٠٦، أورد فيها كثيراً

من شعره.

وله :

العنكبوت بنت بيتاً على وهن تأوى إليه ومالى مثله وِطَنُ
والخنفساء لها من جنسها سكنُ وليس لى مثلها ألف ولا سكنُ

وله :

نرى العقيان كالذهب المصفى يركب فوق أنفار الدواب
وكيسى منه خلواً مثل كفى أما هذا من العجب العجائب !

وله :

رأيت فى النّوم دنيانا مزخرفة مثل العروس تراءت فى المقاصير
فقلت جودى فقلت لى على عجلٍ إذا تخلّصت من أيدي الخنازير

* * *

وأضرم فى الخافقين نارها ، وأوضح لبنى غبراء منارها ، فشهدت
وقائعهم -اً مُعَمِّماً ، واخترت سيماءها لى ميسما ؛ إذ كانت المتجر الذى
لا يبورُ ، والمنهل الذى لا يغورُ ، والمصباح الذى يعشّو إليه الجمهور ،
ويستصبح به العمى والعمور . وكان أهلها أعزّ قبيل ، وأمتعّ جيل ،
لا يرهقهم مسٌ حيف ، ولا يفلقهم سلٌ سيف ، ولا يخشون حمة
لا سيع ، ولا يدينون لدانٍ ولا شاسيع ولا يرهبون بمنّ برق ورعد ،
ولا يحفلون بمن قام وقعد ؛ أنديتهم منزّهة ، وقلوبهم مرفّهة ، وطعمهم
مُعجّلة ، وأوقاتهم غرٌّ مُحجّلة ، أينما سَقَطُوا لَقَطُوا ، وحيثما انخرطوا
خرطوا ، لا يتخذون أوطاناً ، ولا يتقنون سلطاناً ، ولا يعتازون عما
تعدّو وخاصاً ، وترّوح بطاناً .

* * *

قوله : أَضْرَمَ ، أى أوقد . الخافقين : المشرق والمغرب . أوضح : بَيَّن .
 مَنَارَهَا : سِرَاجَهَا . مُعَلِّمًا : مشهوراً . سماها : علامتها ، يريد أنه اختار علامتهم
 لِنَفْسِهِ . يَبْئُرُ : يَكْسِدُ ويهلك أهله . المنهل : موضع الماء . يغور : يغوص في
 الأرض . بعشو : ينظر . الجمهور : معظم الشيء . العُور : جمع أعور . الجليل :
 أهل العصر . يُرْهَقُهُمْ : يدركهم ويفشاهم . حَيْفٌ : جَوْرٌ وظلم . مُحَمَّةٌ : سم .
 لاسع : ضارب . واللَّسع : الضرب بمؤخره ، مثل العقرب ، واللَّدغ لما كان
 بالفم ، ولَّسَعَهُ بلسانه : عابه وآذاه ، ورجل لُسْعَةٍ ولَسَاعَةٍ ولَسَاعٍ ، أى عَيَابٌ
 مؤذٍ . يدينون : يطيعون . دانٍ وشاسع : قريب وبعيد . يرهبون : يخافون .
 بَرَقَ ورعد : هَدَدَ وخَوَّفَ . يحفلون : يبالون . مَنْ قَامَ وقعد : من غيظه وشره .
 انخرطوا : ركبوا رءوسهم ، واندفعوا بشدة ، وخرطت الفصن ، إذا وضعت
 يدك عليه ثم تجرّه عليك فيسقط ما فيه من وَرَقٍ وثمر . أنديتهم : مجالسهم .
 مرفهة : الرفاهية : العيش اللين . غُرٌّ : بيض . محجلة : مشهورة . سقطوا :
 وقعوا . لقطوا : جمعوا الرزق ، وأصله للطير . يمتازون : يفترقون . خِصاصاً :
 جِيعاً . بِطَانًا : شباعاً وهى للطير ، وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه سمعت
 رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لو أنكم توكلتُم على الله حق توكله لرزقكم
 كما يرزق الطير تَغْدُو خِصاصاً وتَرُوح بِطَانًا » .

* * *

فقال له ابنه : يا أبتِ لَقَدْ صَدَقْتَ ، فيما نَطَقْتَ ؛ وَلَكِنَّكَ
 رَتَقْتَ ، وَمَا فَتَقْتَ ؛ فَبَيَّنْ لِي كَيْفَ أَقْتَطِفُ ، وَمِنْ أَيْنَ تُؤْكَلُ
 الْكَتِفُ ، فَقَالَ : يَا بَنِيَّ إِنَّ الْأَرْتِكَاضَ بِأَيْهَا ، وَالنَّشَاطَ جِلْبَابُهَا ،
 وَالْفِطْنَةَ مِصْبَاحُهَا ، وَالْقِحَّةَ سِلَاحُهَا ، فَكُنْ أَجْوَلَ مِنْ قُطْرُبَ ،

وأشْرَى من جُنْدُب، وأنشَطَ من ظَبْيٍ مُقَمَّر، وأسلَطَ من ذئبٍ مُتَمَمَّر،
 وافدَحَ زَنْدَ جَدِّكَ بِجَدِّكَ، واقْرَعُ بابَ رَعِيكَ بِسَعِيكَ، وَجُبَّ كُلٌّ
 فَجٍّ، وَلِجَّ كُلٌّ لُجٍّ، واتَّجَعَ كُلٌّ رَوْضَ، وألْقِ ذُلُوكَ فِي كُلِّ حَوْضٍ،
 وَلَا تَسْأَلِ الطَّلَبَ، وَلَا تَمَلِّ الدَّابَّ، فقد كان مكتوباً على عَصَا شَيْخِنَا
 سَامَانَ : مَنْ طَلَبَ ، جَلَبَ ، وَمَنْ جَالَ ، نَالَ . وإِيَّاكَ والكسلَ، فَإِنَّهُ
 عُنوانُ الثُّحُوسِ ، وَلَبُوسُ ذَوِي البُوسِ ، ومِفْتَاحُ المِتْرَبَةِ ، وَلِقَاحُ
 المِتْعَبَةِ، وشِيْمَةُ العَجَزَةِ الجَهْلَةِ ، وشِنْشِنَةُ الوُكَلَةِ الشُّكَلَةِ ، وما اِشتار
 العِسلُ ، من اِختار الكسلَ ، ولا مَلَأَ الرَّاحَةَ ؛ مَنْ اسْتَوَطَأَ الرَّاحَةَ .

* * *

قوله : رَتَقَتْ، أَيْ أَلْحَمَتْ وَسَدَّيْتُ ، وهو ضِدُّ فَتَقَتْ ، تقول : رَتَقْتُ
 الشَّيْءَ ، إِذَا ضَمَمْتَ بَعْضَهُ إِلَى بَعْضٍ ، وَفَتَقْتُهُ : نَفَقْتُهُ . أَفْتَطِفُ : أَجْنِي النَّمْرَ ،
 وهذا مثلُ قوله : مِنْ أَيْنَ تُؤْكَلُ الكَتِفُ ، قالوا : تُؤْكَلُ مِنْ أَسْفَلِهَا ، لِأَنَّ المِرْقَةَ
 تَدْخُلُ بَيْنَ عِظَامِهَا وَلَحْمِهَا ، فَمِنْ أَكْلِهَا مِنْ أَعْلَاهَا جَرَتْ المِرْقَةُ عَلَيْهِ ، وَلَفِظَ
 المَثَلُ عَلَى مَا ذَكَرَهُ أَبُو عُبَيْدٍ : فَلَانَ أَعْلَمَ مِنْ حَيْثُ تُؤْكَلُ كُلُّ الكَتِفِ ، يُضْرَبُ
 مِثْلًا لِمَنْ جَرَّبَ الْأُمُورَ وَدَرَى تَصَرُّفَهَا ، قَالَ الْبُكْرِيُّ : إِنْ لَحِمَ الْكَتِفُ إِذَا
 أُكِلَ مِنْ أَعْلَاهُ تَنَازَرُ ، وَإِذَا أُكِلَ مِنْ قَبْلِ الْغُضْرُوفِ ، لَمْ يَتَأْتِ لِأَكْلِهِ .
 وَالْغُضْرُوفُ : اللَّحْمُ الرَّخِصُ الْمُتَّصِلُ بِأَسْفَلِ الْكَتِفِ الْمُتَّسِعِ ، وَقِيلَ : أَوْ كُلُّ
 الْكَتِفِ ، إِذَا أَمْسَكَ فِيهَا بِطَرَفِ الْغُضْرُوفِ رَبَّمَا سَقَطَتْ فَتَرَبَّتْ ، وَإِذَا أَمْسَكَهَا
 بِالطَّرَفِ الْآخَرِ أَمِنَ مِنْ ذَلِكَ .

الفنجدية : لَحْمُ الْكَتِفِ إِذَا جُذِبَ مِنَ الْجَانِبِ الْأَسْفَلِ انْتَقَعَ بِكَلِيَّتِهِ ،
 وَإِذَا جُذِبَ مِنَ الْجَانِبِ الْأَعْلَى تَقَطَّعَ اللَّحْمُ وَلَمْ يَنْتَقِعْ ، لِأَنَّ المِرْقَةَ تَجْرِي بَيْنَ

الكتف والعظم ، فإذا أخذته من أعلاه تصببت المرقعة عليك بسرعة ، وإذا أخذت اللحم من أسفله تنتشر من عظمها فلم تنصب المرقعة بالسرعة ، وهو مثل يضرب للبصير بالأُمور ، وقال أوس بن حجر :

أَمْ دَلَّكُمْ بَعْضُ مَنْ يَرْتَادُ مَشْتَمَتِي بِأَيِّ أَكَلَةِ لَحْمٍ تُؤْكَلُ السَّكْتِفُ^(١)
يقول : أنا أعلم كيف أنا لكم .

وقال آخر :

إِنِّي عَلَى مَا تَرَوْنَ مِنْ كِبَرِي أَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ تُؤْكَلُ السَّكْتِفُ
قطرب : دويبة تجول اللَّيْلَ كلَّه ولا تنام ، ويقال فيه أيضاً : أسهر من قُطْرِب ، وهذا قول أبي عمرو ، وغيره يرويه : أَسْعَى من قُطْرِب ، لا أسهر ، ويقول : هو دويبة لا تستقرّ بالنهار ، ويحتج بقول ابن مسعود : لا أعرفن أحدكم جيفة ليل قُطْرِب نهار . وقُطْرِب اسم رجل مشهور ، وهو ابن السكندر صاحب الثلث ، وكان من أهل العربية فجلس لسيدويه يناظره ، فلما رآه سيدويه قد قد احتدّ بالسؤال قال : إنك لقطرب ليل ، فسُمِّيَ بذلك ، والقُطْرِبُ أيضاً ذكر الغيلان . ابن ظفر ذكر مَنْ يَعُولُ عليه أنه حيوان يكون بالصعيد من أرض مصر ، يظهر للمنفرد من الناس ، فربما صده عن نفسه إذا كان شجاعاً وإلا لم ينته حتى ينكحه ، فإذا أنكحه تدود دُبره وهلك . قال : وهم إذا رأوا من ظَهِر له القطرب قالوا : أَمْنَكُوح أم مَرُوع ، فإن قال : منكوح يتسوا منه . وإن قال : مَرُوع سَكَنُوه وعالجوه . قال : فقد رأيت أهل مصر وما بين يديها وما خلفها ، وتحققت أهل صعيدها والعربان ، وهم مستونون في الجهل بهذا الحيوان ، ومختلفون الاختلاف الشديد في فعله وصورته ، إلا أن أهل مصر أكثر لهجاً به ، والقطارب أيضاً : صفار الكلاب .

قوله: أَسْرَى، أى أمشى بالليل . الجندب: ذكر الجراد ، وقيل: هى دويبة تشبه الجراد ذات جناحين ، فلا تزال ترمح ، ولفظ المثل: أَسْرَى من جراد . مقمر: لاعب فى القمر . وأنشط: أخفّ ، والظبي يأخذه النشاط فى الليلة المقمرة فيلعب . متقمّر: متشبه بالنمر وهو سَبْعٌ مؤذ . جَدَّكَ: حظّك . اقرع: اضرب . رَعِيكَ: أكلك ، وأراد بباب رعيك الذى يحيثك منه الرزق . ألقى دلوك إلى كل حوض: لفظ المثل « ألقى دلوك فى الدلاء » ، يضرب فى بذل الجهد فى اكتساب المال والبحث عليه ، وهو كما قال الشاعر:

وليس الرزق عن طلب حثيث ولكن ألقى دلوك فى الدلاء^(١)

تجنّك بملئها طوراً وطوراً تجنّك بحماقٍ وقليل ماء

قوله: فقد كان مكتوباً على عصا شيخنا ساسان . الفنجديهى قرأت فى بعض الفوائد أنه كان مكتوباً على عصا ساسان . المكدي: الكسل شؤم ، والتميز مذموم ، والحركة بركة ، والتوانى هلكة . وكتب طائف: خير من أسد رابض . ومَنْ لم يغترف: لم يعتلف . جال: تصرّف ومشى فى البلاد . نال: أدرك حاجته . عنوان: دليل . النحوس: جمع نخس ، وهو ضدّ السعد . ذوى البؤس: أهل الفقر . لقاح المتعبة ، أى أصلها وسببها . شيمة: طبيعة ، وكذلك الشنشة . الوكّلة التّكّلة: هو العاجز الذى يكلّ أمره لغيره ويتكل عليه فيه . اشتار: حرّك واستخرج . الراحة الأولى: الكفّ ، والثانية ضدّ التعب .

وعليك بالإقدام ، ولو على الضّرعام* ، فإنّ جرّاء الجنان ، تُنطق اللسان ، وتُطلق العينان ، وبها تُدرك الحظوة ، وتُمثلك الثروة ، كما أن الخور صنو الكسل ، وسبب الفشل ، ومبْطأة للعمل ، ونخبة للأمل ، ولهذا قيل فى المثل: مَنْ جَسَرَ ، أَيْسَرَ ، وَمَنْ هَابَ ، خَاب .

(١) لأبى الأسود الدؤلى ، جمهرة الأمثال ١ : ٧٤ ، وديوان أبى الأسود ٣٣

ثمَّ ابرُز يا بنىِّ فى بكورِ أبى زاجرٍ، وجراءة أبى الحارث، وحزامَة
أبى قُرّة، وختلِ أبى جَعْدَة، وحِرْصِ أبى عُقْبَة، ونَشَاطِ أبى وثَّاب،
ومَكْر أبى الحُصَيْن، وصَبْرِ أبى أيُّوب، وتَلَطُّفِ أبى غَزَوَان، وتَلَوْنِ
أبى بَرَأقش، وحِيلَة قَصِير، ودَهَاءِ عمرو، ولُطْفِ الشَّعْبِيّ، واحتمالِ
الأحنف، وفِطْنَة إِيَّاس، ومُجَانَة أبى نُؤَاس، وطَمَعِ أَشْعَب، وعَارِضَة
أبى العَيْنَاء.

* * *

الإقدام : الجراءة . الضرغام : الأسد . والجراءة : الشجاعة . والجنان :
القلب . والحظوة : المنزلة الرفيعة ، والثروة : الغنى . صنو : أخ . الفشل :
الضعف والخيرة ، يريد أن فزَع النفس وضعفها يحْتِيب الأمل والرجاء ، وقال
معاوية : الهيبة مقرونٌ بها الخيبة .

أبو زاجر : هو الغراب ، مُتَمَيِّ بذلك ، لأن العرب تَزْجُر به وتتشامم ،
وتقدّم ذلك ، ومن وصيته لولده على ألسنتهم ، قالوا : قال الغراب لابنه : يا بنىِّ إذا
رميت فتلوّص أى تلوّ ، قال : يا أبت أنا أتلوّص قبل أن أرمى . وقال لابنه وقد
رأى رجلا فوق سهماً : يا بنىِّ اتنُد ، حتى تعلم ما يريد الرّجل ، فقال : يا أبت ،
الحذر قبل إرسال السهم .

وأبو الحارث : الأسد كَتَى بذلك لاحترائه ، أى لا اكتسابه بقوّته .

وأبو قُرّة : الحرباء كَتَى بذلك لأنّ البرد لا يفارقه ، فالحرباء تدور لذلك مع
الشمس حيثما دارت ، وتقدّم حزامُها ، ومرت أنها لا تفارق ساق الشجرة حتى
تمسك ساق الأخرى .

وأبو جمدة : كنية الذئب ، وهي كنية بالضدّ لأنّ جمدة عندهم الشاة ، ولما كان الذئب يقتلها حيث وجدّها جعلوه أباهّا بضدّ ما يفعل الأب الذي لا يقال له أب إلا لوجود الرحمة عنده على بنيه ، ونحوها قولهم للأسود : أبو البيضاء . واختل : المكر .

وأبو عقبة الخنزير ، زمن حرصه أنه يمشى بالليل وبالأسحار لطلب ما يأكل ، ويستتر بالنهار حرصاً على السلامة .

وأبو وثاب : الظبي ، وكُنّي بذلك لاسرعة وثبه .

وأبو الحصين : الثعلب ، وهو أكثر الحيوان مكرراً ، ومن بعض مكروه أنه إذا رأى الغلبة تماوت فلا تشكّ في أنه ميّت ، فإذا وقع له غير عارف تركه فما يمرّ سيراً حتى يقوم فارّاً أو تحصينه يبصل العنصل من الذئب ، لأنّ الذئب لا يطوّه في زعم قوم ، وقالوا : إنّ الضبّع صادت ثعلباً ، فقالت : أخيرك يا ثعلب بين خصلتين ، فقال : ما هما ؟ فقالت : إما أن آكلك وأما أن أكلك ، فقال لها الثعلب : أما تذكرين يوم نكححتك ؟ فقالت : متى ؟ فافتتح فوها وانفلت الثعلب ، فذكروا ذلك مثلاً ، وقالوا : ضرب عليه خصلتي الثعلب ، وقالوا : إنّ الثعلب اطلع في بئر وهو عاطش وعليها رشاء في طرفيه دلوان ، فقع في الدلو العليا فأنحدرت ، فشرب ، فجاء الضبّع فاطلعت في البئر ، فأبصرت القمر في الماء منتصباً والثعلب قاعد في قعر البئر فقالت له : ما تصنع هنا ؟ فقال لها : إني أكلت نصف هذه الجبنة وبقي نصفها لك فانزلي فكليها ، فقالت : وكيف أنزل ؟ قال : تقعين في الدلو فقعدي فيها ، فأنحدرت وارتفع الثعلب في الدلو الأخرى فلما التقيا في وسط البئر قالت له : ما هذا ؟ قال : كذا التجار ، نختلف ، فضربت بهما العرب للثل في المختلفين ، وأوصاف مكره كثيرة .

وأبو أيوب : الجمل مُمّيّ بذلك لأنه أصبر الدوابّ على العطش والجوع

وقطع الأشهر بالسير المتصل ونقل الأوقار ، ومهما كان به شيء من قوة تجلده ،
فإذا وقف ، علم أنه ليس فيه بقية ينتفع بها .

وأبو غزوان الهرّ لغزوه الفئران وخشاش الأرض وتلففه يظهر في محاولاته
لتصيد الفأر فإذا قدمت المائدة : قُربَ منها وأخذ يتلطف في صياحه ويتضرّع
ويحتك بالمائدة أو بالأكل حتى يعطى .

وأبو براقش : طائر أغبر أوسطه أحمر ، وإذا انتفض تلون ألواناً .
أخذ الحريريّ هذا الفصل من كلام العلماء ، قالوا : ابن آدم هو العالم الكبير
الذي جمّع الله تعالى العالم كله فيه فكان فيه بسالة الأسد وصبر الجمل وحرص
الخنزير وحذر الغراب وروغان الثعلب ؛ وضرع السنور ، وحكاية القرد
وجبن الصقر .

قيل لرجل من كبار العلماء وكان بليداً سريع النسيان في ابتداء تعلمه : بم
أدركت العلم مع بلادتك وكلل خاطرك ؟ قال : بيكوريّ بكبور الغراب وصبر
كصبر الجمل وحرص كحرص الخنزير .

واخلب بصونغ اللسان ، واخدغ^{*} بسحر^{*} البيان ، وازتد^{*} الشوق
قبل الجلب ، وامتر الصرع قبل الحلب ، وسائل الركب^{*}ان قبل المنتجع ،
ودمت لجنبك قبل المضطجع ، واشخذ بصيرتك للعيافة ، وأنعم^{*}
نظرك للقيافة ، فإن من صدق توثمه ، طال تدسمه ، ومن أخطأت فراسته
أبطأت فريسته .

وكن يا مبنى خفيف الكلّ ، قليل الدلّ ، راغباً عن العلّ ، قالما من
الوبل بالطلّ . وعظم وقع الحقيير ، واشكر على التقير ، ولا تقنط
عند الردّ ، ولا تستبعد رشح الصلّد ، ولا تئس من روح الله ، إنه
لا يئس من روح الله إلا القوم الكافرون .

(م ٢٢ - شرح مقامات الحريري ج ٥)

وَإِذَا خَيْرَتْ بَيْنَ ذَرَّةٍ مَّنْقُودَةٍ ، وَدُرَّةٍ مَوْعُودَةٍ ، فَلْإِلَى النَّقْدِ ،
رَفَضْلِ الْيَوْمِ عَلَى الْغَدِ ، فَإِنَّ لِلتَّأْخِيرِ آفَاتٍ ، وَلِلْعَزَائِمِ بَدَوَاتٍ ، وَلِلْعِدَاتِ
مُعَقَّبَاتٍ ، وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ التَّجَازِ عَقَبَاتٍ وَأَيَّ عَقَبَاتٍ .

* * *

قوله: اخْلُبْ بصوغ اللسان، أى بعذوبة الكلام، قال ابن كنانة الشاعر:
كنت أتكلم بكلام فلو لم يجد سامعه إلا القطن الذى فى وجه أمه فى القبر ،
لتغفل إليه حتى يخرج به ويهديه إلى . وأنا اليوم أنحدث بذلك الحديث بعينه
فما أفرغ منه حتى أهين له اعتذارى . وارتد ، أى اطلب . والجلب : ما يجلب
إلى السوق للبيع . امتر : امسح ، ويفعل ذلك بالضرع لأنه يُدْرَبُ لبنه . المنتجع :
موضع العشب ، أراد به موضع طلب الرزق . دَمِث : لين . اشحذ : أجل
واصقل . وقال فى الدرة: ويقولون: شحذت بالتاء ، وصوابه ، بالذال لأن اشتقاقه
من شحذت السيف ، إذا بالغت فى إحداذه فكان الشحاذ هو المِلْح فى المسألة
المبالغ فى طلب الصدقة . بصيرتك : ذهنك . العيافة : زجر الطير . أنعم : بالغ .
القيافة : الاستدلال على الولد ، وذلك أن ينظر خلقة وصفته ، فيشبهه بأبيه .
نوسمه : نظره . الفراسة : الحكم بحالات الشيء على ما يكون منه فى المستقبل .
الكل : الثقل . والدل والدلال بمعنى واحد . العل : الشرب بعد الشرب وراغباً
عنه : تاركاً له . النقيير : حفرة فى ظهر نوى التمر ، ومنها تنبت النخلة . تقنط:
تيأس . روح الله : رزقه ، ول بعضهم فى هذا المعنى :

سَيُفْتَحُ بَابٌ إِذَا سُدَّ بَابٌ نعم وتاين الأمور الصَّعَابُ
وَيَقْسَعُ الْحَالُ مِنْ بَعْدَمَا تضيق المذاهب فيه الرَّحَابُ
مَعَ الْعَسْرِ يُسْرَانُ هَوْنٌ عَلَيْكَ فلا اليسر دام ولا الاكْتِنَابُ
إِذَا احْتَجَبَ النَّاسُ مِنْ سَائِلٍ فما دون سائل ربِّي حِجَابُ

آخر:

عَسَى فَرْجٌ يَأْتِي بِهِ اللَّهُ إِنَّهُ لَهُ كُلَّ يَوْمٍ فِي خَلِيقَتِهِ أَمْرٌ
إِذَا اشْتَدَّ عَسْرُ فَارِجٍ يُسْرًا فَإِنَّهُ تَضَى اللَّهُ أَنْ الْعَسْرَ يَتَّبِعُهُ يَسْرٌ

آخر:

فَلَا تَجْزَعْ إِذَا أُعْسِرْتَ يَوْمًا فَقَدْ أَيْسَرْتَ فِي الزَّمَنِ الطَوِيلِ
وَلَا تَيَاسُ فَإِنَّ الْيَأْسَ كُفْرٌ لَعَلَّ اللَّهَ يُغْنِي عَنْ قَلِيلٍ
وَإِنَّ الْعَسْرَ يَتَّبِعُهُ يَسَارٌ وَقَوْلُ اللَّهِ أَصْدَقُ كُلِّ قِيلٍ
وَلَا تَظَنَّ بِرَبِّكَ ظَنًّا سَوْءٌ فَإِنَّ اللَّهَ أَوْلَى بِالْجَمِيلِ

قوله: دَرَمَ، كناية عن الشيء القليل: دُرَّة: جوهرة. آفَات: جوائح.
وللعزائم بدوات، يريد أن الإنسان يعزم على فعل الشيء في وقت ثم يبدو له
ألا يفعله. النَّجْز: تعجيل قضاء الحاجة، وقد قدّم مثل هذا المعنى عند قوله:
وبع أجلا منك بالعاجل.

* * *

وَعَلَيْكَ بِصَبْرِ أُولَى الْعَزْمِ، وَرِفْقِ ذَوِي الْحَزْمِ، وَجَانِبِ خُرْقِ
الْمُسْتَضْطِّ، وَتَخَلُّقِ بِالْخُلُقِ السَّبِطِ، وَقَيْدِ الدَّرَمِ بِالرَّبْطِ، وَشُبِّ الْبَذْلِ
بِالضَّبْطِ، وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُقْكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ،
وَمَتَّى نَبَابِكَ بَلَدٌ، أَوْ نَابِكَ فِيهِ كَمَدٌ، فُبْتُ مِنْهُ أَمْلَكَ، وَاسْمَرْخْ عَنْهُ
جَمْلَكَ، خَفِيرُ الْبِلَادِ مَا جَمَّلَكَ، وَلَا تَسْتَنْقِلَنَّ الرَّحْلَةَ، وَلَا تَكْرَهَنَّ
النَّقْلَةَ، فَإِنَّ أَعْلَامَ شَرِيعَتِنَا، وَأَشْيَاخَ عَشِيرَتِنَا، أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ الْحَرَكَةَ
بَرَكَهٌ، وَالطَّرَاوَةُ سُفْتَجَةٌ، وَزَرَوْا عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْغُرْبَةَ كُرْبَةٌ، وَالنَّقْلَةُ
مُثْلَةٌ، وَقَالُوا: هِيَ تَعِيلَةٌ مِنْ افْتِنَاعِ بِالرَّذِيلَةِ، وَرَضِيَ بِالْخُشْفِ وَسُوءِ
الْكَيْلَةِ. وَإِذَا أَرْمَعْتَ عَلَى الْاِغْتِرَابِ، وَأَعْدَدْتَ لَهُ الْعَصَا وَالْجِرَابِ،

فتخير الرفيق المسعد، من قبل أن تُصعد؛ فإن الجار قبل الدار، والرفيق قبل الطريق .

خُذْهَا إِلَيْكَ وَصِيَّةٌ لَمْ يُوصِهَا قَبْلِي أَحَدٌ
غَرَاءَ حَاوِيَةٍ خَلَا صَاتِ الْمَعَانِي وَالزُّبْدِ
نَقَّحْتُهَا تَنْقِيحَ مَنْ مَحَضَ النَّصِيحَةِ وَاجْتَهَدُ
فَاعْمَلْ بِمَا مَثَلَتْهُ عَمَلُ اللَّيْلِ أَخِي الرَّشْدُ
حَتَّى يَقُولَ النَّاسُ هَذَا الشُّبْلُ مِنْ ذَلِكَ الْأَسَدِ

* * *

المشتط : المتجاوز القدر في محاولته . وألحرق ضد الرق . الشبط : السهل .
شُبْ : أخاط . البذل : العطاء . والضبط : الحبس . قال أبو حاتم الدارى :
دخلت مع أبى مدينة السلام فرأيت رجلاً واقفاً على الطريق يلعب بحية ويقول :
مَنْ يَهْب لِي دَرَهْمًا حَتَّى أَتَلْعَ هَذِهِ الْحَيَّةَ ؟ فالتفت إِلَى أَبِي وَقَالَ : يَا بَنِي أَحْفَظْ
دِرَاهِمَكَ فَمَنْ أَجْلَاهَا تُبْلَعُ الْحَيَاتُ . مغلوله : محبوسة ، أى لانك ن شعيجاً ممسكاً
ولا كريماً متلفاً . نأبك : نزل بك . كمد : حزن . بت : اقطع . أملك ،
أى رجاءك : أسرح عنه ، أى أزله وسرحه بالمشى إلى غيره . الرحلة : الارتحال .
النقلة : الانتقال . أعلام شريعتنا : مشايخ طريقتنا . الطراوة : أن يطرأ على
بلد لم يره . السفنجة : ما أتاك بغير تكلف ولا مشقة ، وهى عند أهل المشرق
أن يأخذ الرجل الدراهم والدنانير ، فيعطىها صاحبه ، ويقول : احملها لى معك
لأمن طريقك ، ولتعمتك إلى بلد كذا فادفعها لى ، ثم فإن طريقى غير آمن
من اللصوص . قال مالك رضى الله تعالى عنه : إن قصد بها المنفعة لم يُجز لأنه
سلف جر منفعة ، فيقول : الطراوة على الناس كالسفنجة ، ترغب لك فى أخذ

الدرهم ، وقد يكون منك تمنع عن أخذها . زروا : عابوا . كربة : هم ، وقال :
 من ذم السفر : الغربة كربة والثقة مُثلة ، والغريب كالفرس الذي زایل أصله
 وفقد شربه ، فهو ذاول لا يشمر وذابل لا ينضر . إذا كنت في غير بلدك فلا تنس
 نصيبك من الذل . تعلّة : عذر . الرذيلة : الدون من كلّ شيء . الحشف : الردىء
 من التمر . الحكيلة الهيئة ، ومعناه أنه اجتمع عليه عيبان : تمر فاسد وكيل ناقص .
 أزمعت : عزمت . الاغتراب : الجولان والغربة . الجراب : الوعاء للزاد .
 المسعد : الموافق القليل الخلاف . تُصعد : ترتفع وتخرج ، الجار قبل الدار ، يقول :
 لا تشتر داراً حتى تعلم من جيرانك ، وكفى الجار أن قال صلى الله عليه وسلم
 في حقه : « ما زال جبريل يُوصيني بالجار حتى خفت أن يورثه » ، وقال
 الزاهد ابن عمران :

لَتَعْنَ بالجار قبل الدار تسكنها لا خير في الدار مالم يحمّد الجار
 الجار إن غبت عن أهلٍ وعن وطنٍ نعم الخليفة هم أهلٌ وأنصارُ
 والجار المساعد أحسن من القرابة . ويروى أن رجلاً كان جاراً لأبي دلف
 ببغداد ، فأدركته حاجة ، وركبه دين فادح حتى احتاج إلى بيع داره ، فساوموه
 فيها ، فسَمَّى لهم ألف دينار ، فقالوا له : إن دارك تساوي خمسمائة دينار ، فقال :
 أبيع ما زى بخمسمائة وجوار أبي دلف بخمسمائة ، فبلغ أبا دلف الخبر ، فأمر بقضاء
 دينه ووصله ، وقال : لا تنتقل من جوارنا ، فانظر كيف صار الجوار يُباع
 كما يباع العقار ، وقال الشاعر :

يلومونني أن بعث بالرخص منزلي ولم يعلموا جاراً هناك ينغصُ
 فقلت لهم كفوا السلام فإنما بجيرانها تفلّو الديار وترخصُ
 غراء : ظاهرة حسنة . حاوية : جامعة . خلاصات : جمع خلاصة ، وهو
 الذي يتخلّص من الشيء ويصفو منه ، والزُّبد : جمع زبدة اللبن . فقَحَّتها :

هَذَّبَهَا . مَحَضَ : أَخْلَصَ . اللَّيْبُ : الْعَاقِلُ . أَخَى الرَّشْدُ : صَاحِبُ الرَّشْدِ .
السَّبَلُ : وَلَدُ الْأَسَدِ .

ثم قال : يَا بَنِيَّ ، قَدْ أُوصِيْتُ وَاسْتَقْصِيْتُ * * * ، فَإِنْ اقْتَدَيْتَ فَوَاهَا لَكَ ،
وَإِنْ اعْتَدَيْتَ فَآهًا مِنْكَ ، وَاللَّهِ خَلِيفَتِي عَلَيْكَ ، وَأَرْجُو أَلَّا تُخْلِفَ
ظِلِّي فِيكَ .

فقال له ابنه : يَا أَبَتِ لَا وَضِيعَ عَرْشُكَ ، وَلَا رُفِيعَ نَعْشُكَ ، فَلَقَدْ
قَلَّتْ سَدَدًا ، وَعَلِمْتَ رَشْدًا ، وَنَحَلْتَ مَا لَمْ يَنْحَلْ وَالِدُهُ وَلَدًا ، وَلَئِنْ
أُمِهِلْتُ بَعْدَكَ — لَا ذَقْتُ فَقْدَكَ — فَلَا تُأَذِّبَنَّ بآدَابِكَ الصَّالِحَةِ ،
وَلَا تُقْدِنَنَّ بِأَثَارِكَ الْوَاضِحَةِ ؛ حَتَّى يَقَالَ : مَا أَشَبَّهُ اللَّيْلَةَ بِالْبَارِحَةِ وَالْعَادِيَةِ
بِالرَّاحَةِ ! فَاهْتَزَّ أَبُو زَيْدَ لْجَوَابِهِ وَابْتَسَمَ ، وَقَالَ : مَنْ أَشَبَّهُ أَبَاهُ فَمَا ظَلَمَ .
قال الحارث بن همام : فَأَخْبِرْتُ أَنَّ بَنِي سَاسَانَ ، حِينَ سَمِعُوا هَذِي الْوَصَايَا
الْحَسَنَةَ ، فَضَلُّوْهَا عَلَى وَصَايَا لَقْمَانَ ، وَحَفَظُوهَا كَمَا تُحَفَظُ أُمُّ الْقُرْآنِ ؛ حَتَّى
إِنَّهُمْ لَيُرَوِّئُهَا إِلَى الْآنَ ، أَوَّلَى مَا لَقْنُوهُ الصَّبِيَّانِ ، وَأَنْفَعَ لَهُمْ مِنْ نَحْلَةِ الْعِيقِيَّانِ .

غَرَاءُ : ظَاهِرَةٌ حَسَنَةٌ . حَاوِيَةٌ : حَامِيَةٌ . خَلَاصَاتُ : جَمْعُ خَلَاصَةٍ وَهُوَ
الَّذِي يَصِفُو مِنْهُ . وَالزَّبْدُ : جَمْعُ زَبْدَةِ اللَّبَنِ اقْتَدَيْتَ : اتَّبَعْتَ وَصِيَّتِي . وَاهَا :
عَجَبًا . اعْتَدَيْتَ : ظَلَمْتَ . آهًا : كَلِمَةٌ مَعْنَاهَا التَّوَجُّعُ . عَرْشُكَ : مَسَرِيرُكَ ، وَالْمَعْنَى
أَنَّهُ يَدْعُو لَهُ بِالْبَقَاءِ . سَدَدًا : صَوَابًا . نَحَلْتَ : أَعْطَيْتَ . الْوَاضِحَةُ : الْبَيِّنَةُ . الْعَادِيَةُ :
السَّحَابَةُ تَأْتِي بِالْعَدُوِّ . وَالرَّاحَةُ بِالْعَشِيِّ ، قَالَ الْفَرَاءُ النَّحْوِيُّ : مَنْ أَشَبَّهُ أَبَاهُ فَمَا
ظَلَمَ مِثْلَ أَخْذِهِ النَّاسَ مِنْ قَوْلِ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ :

أَنَا ابْنُ الَّذِي لَمْ يَخْزِنِي فِي حَيَاتِهِ قَدِيمًا وَمَنْ يَشَبَّهُ أَبَاهُ فَمَا ظَلَمَ
لَقْنُوهُ : عَلَّمُوهُ . أَوَّلَى . أَحَقَّ . نَحْلَةُ : عَطِيَّةٌ . الْعِيقِيَّانِ : الذَّهَبُ .

المفامة الخمسون : وهى البصيرة

حكى الحارث بن همام قال : أشعرتُ فى بعض الأيام همًّا برَّح به استعاره ، ولاح على شعاره ، وكنتُ سمعت أن غشيان مجالس الذَّكر ، يسرو غواشى الفكر ، فلم أر لطفاء ما بى من الجمرة ، إلا قصد الجامع بالبصرة ، وكان إذ ذاك مأهول المساند ، مشفوه الموارد ، يُحتنى من رياضيه أراهير الكلام ، ويُسمع فى أرجائه صرير الأقلام ، فانطلقتُ إليه غير وَّانٍ ، ولا لاي على شان ، فلمَّا وطئتُ حصاه ، واستشرفتُ أقصاه ، تراءى لى ذو أطمار بالية ، فوق صخرة عَالِيَةٍ ، وقد عصبتُ به عُصْبٌ لا يحصى عديدهم ، ولا ينادى وليدهم ، فابتدرتُ قصده ، وتورذتُ وردّه ، ورجوتُ أن أجِدَ شِفائى عنده ، فلم أزل أتنقل فى المراكز ، وأغضى للاكز والواكز ، إلى أن جلستُ تجاهه ، بحيثُ أمنتُ اشتباهه ، فإذا هو شيخنا السَّروجى لاريب فيه ، ولا لبس يُخفيه ، فالسرى بمزآه همى ، وازفضتُ كتيبة غمى .

* * *

أشعرت : أُلِيت . برَّح : شق واشتد . استعاره : توقده فى القلب . لاح : ظهر ، يريد أنه لبس الهم كالشَّعار . والشَّعار : ثوب يلى الجسد ، والشَّعار علامة القوم فى الحرب ، فعناه عبس وجهه من شدة الهم . يسرو : يزيل . غواشى الفكر : ما يشاء ويدخل عليه من الهم . مأهول : كثير الأهل . المساند : جمع مُسند ، وهو ما يسند إليه ظهره ، أراد مواضع العلماء المتصدِّرين للإقراء . الموارد : مواضع المياه . مشفوه : كثيرة الشفاء عليه للشرب ، وأراد

ازدحام الطلبة على الأشياخ لأخذ العلم . أزاهير : أنوار . أرجائه : نواحيه .
 صرير : أصوات . وان : مقصّر . لاوٍ على شان : معرّج على أسر . استشرفت
 أقصاه : اطلعت بنظري عليه كله . تراءى : ظهر . أطار : ثياب خلّقة .
 عصبت : أهدقت وحلّقت . عُصَب : جماعات . لاينادى وليدهم ، هذا مثل
 يستعمل في الأمر الملعجب المبالغ في وصفه المعبّج منه ، وقد يؤوّل على تأويلات ،
 وهو يستعمل في الخير والشر . والرخاوة والشدة . ابتدرت قصده ، أى عجّلت
 المشى إلى جهته . توردت وزده ، أى طلبت منفعة . والمراكن : مواضع
 الجلوس ، ومركز الرجل : موضعه ، وركزت الشيء غرسته . أغضى : أغضض
 على المكروه . اللاكن : الضارب في الصدر . الواكن : الضارب في ناحية الفم ،
 والوكز واللكز بجمع اليد . تُجَاهه : قبالة وجهه . اشتباهه : القباسه بغيره .
 يخفيه : يستره . انسرّى : زال وانكشف . ارفضّت : تفرّقت . كتيبة غى ،
 أى عسكره .

* * *

وَحِينَ رَأَى ، وَبَصَرَ بِمَكَانِي ، قَالَ : يَا أَهْلَ الْبَصْرَةِ ، رَعَاكُمْ اللَّهُ
 وَوَقَاكُمْ ، وَقَوَّى ثِقَاكُمْ ، فَمَا أَضْوَعَ رِيًّاكُمْ ، وَأَفْضَلَ مَزَايَاكُمْ ،
 بَلَدُكُمْ أَوْ فِي الْبِلَادِ طُهْرَةٌ ، وَأَزْكَاهَا فِطْرَةٌ ، وَأَفْسَحُهَا رُقْعَةٌ ، وَأَمْرَعُهَا
 نَجْمَةٌ ، وَأَقْوَمُهَا قِبْلَةٌ ، وَأَوْسَعُهَا دِجْلَةٌ ، وَأَكْثَرُهَا نَهْرًا وَنَخْلًا ، وَأَحْسَنُهَا
 تَفْصِيلًا وَجَمَلًا ، دِهْلِيزُ الْبَلَدِ الْحَرَامِ وَقِبَالَةُ الْبَابِ وَالْمَقَامِ ، وَأَحَدُ جَنَاحِي
 الدُّنْيَا ، وَالْمِصْرُ الْمُؤَسَّسُ عَلَى التَّقْوَى ، لَمْ يَتَدَنَّسْ بِبُيُوتِ النَّيِّرَانِ ،
 وَلَا طَيْفٍ فِيهِ بِالْأَوْثَانِ ، وَلَا سُجْدٍ عَلَى أَدْعِيهِ لَغَيْرِ الرَّحْمَنِ ، ذُو الْمَشَاهِدِ
 الْمَشْهُودَةِ ، وَالْمَسَاجِدِ الْمُقْصُودَةِ ، وَالْمَعَالِمِ الْمَشْهُورَةِ ، وَالْمَقَابِرِ الْمَرْزُورَةِ ،

وَالْآثَارِ الْمَحْمُودَةِ، وَالْخِلْطِ الْمَحْدُودَةِ، بِه تَلْتَقِ الْفُلُكُ وَالرُّكَّابُ، وَالْحَيْتَانُ
وَالضَّبَّابُ، وَالْحَادِي وَالْمَلَّاحُ، وَالْقَانِصُ وَالْفَلَّاحُ، وَالنَّاشِبُ وَالرَّامِحُ،
وَالسَّارِحُ وَالسَّابِحُ، وَلِهَ آيَةُ الْمَدِّ الْفَائِضِ، وَالْجُزُرُ الْفَائِضُ.

* * *

وقوله : وحين رآني ، يريد أن السَّروحي علم أن ابن همام يعرف مكره
الناس في كل بلد ، نخشى ألا يُسمح له بخداع أهل بلده ، فأخذ يمدح البصرة
وأهلها ليرضية بذلك . رعاكم الله : حفظكم . وقاكم : كفاكم ما يحذر . تقاكم :
خوفكم لله . أضوع رياءكم : أنوح راثتكم . مزاياكم : فضائلكم التي خُصصتم
بها . أوفى : أكمل . أفسحها : أوسعها . الرقعة : القطعة من الأرض .
أمرعها : أخصبها . النجعة : موضع العشب ينتج منه القاس . دجلة : نهر البصرة .
تفصيلا وجملة ، يقول : إن جزئت مواضعها وتناظر كل جزء منها مع كل جزء
من غيرها كان لها الفضل ، فإن قيل : أي البلاد أحسن على الجملة ؟ قيل البصرة .
الذهليز : أسطوان الدار ومدخله ، والمقام : موضع قيام إبراهيم عليه السلام
عند الكعبة للدعاء . أحد حناحي الدنيا : من قول أبي هريرة : « الدنيا على مثال
الطائر ، فالبصرة ومصر الجناحان فإذا خربا وقع الأمر » . المؤسس على التقوى :
الذي بُني أساسه في الإسلام . يتوسخ : الأوثان : الأصنام . أدبته :
جلده ، أراد به أرضه . الخِلْط : الدور والأزقة . المخططة : الموسومة ليبنى فيها .
الْفُلُك : السفن . الركَّاب : الإبل ، يريد أنها بحرية برية . الضَّبَّاب : جمع ضَبَّ .
الحادي : سائق الإبل فإذا كان الحادي حسن الصوت بلغت الإبل جهدها
في المشي . الملاح : خادم السفينة . القانص : صائد الحوت . الفلاح :
الحرَّاث . الناشب : الرامي النشاب . الرامح : الطاعن بالرمح ، أراد الإغزاز
لأنهم رماة والعرب لأنهم أصحاب رماح . والسارح : راعي الإبل . والسابح :

العائم في الماء . آية : علامة . المدّ والجزر ، أى زيادة البحر ونقصانه وهما اللّء
والحصر ، ونهر البصرة يركض فيه البحر .

* * *

وأما أنتم فمّن لا يَخْتَلِفُ في خصائصهم اثنان ، ولا يُنْكَرُها
ذو شأن ؛ دَهْمَاؤُكُمْ أَطْوَعُ رَعِيَّةَ لِسُلْطَانٍ ، وَأَشْكُرُهُمْ لِإِحْسَانٍ ،
وزاهدكم أَوْزَعُ الْخَلِيقَةِ ، وَأَحْسَنُهُمْ طَرِيقَةً عَلَى الْحَقِيقَةِ ، وَعَالِمُكُمْ
علامة كلّ زمان ، والحجّة البالغة في كلّ أوانٍ ، ومنكم من استنبطَ
عِلْمَ النَّحْوِ ووضّعه ، والذي ابتدَعَ مِيزَانَ الشَّعْرِ واختَرَعَهُ ، وما مِنْ
فَخْرٍ إِلَّا وَاسَكُمْ فِيهِ أَيْدُ الطُّوْلِى ، والقِدْحُ المَعْلَى ، وَلَا صِيتٌ إِلَّا وَأَنْتُمْ
أَحَقُّ بِهِ وَأَوْلَى . ثُمَّ إِنَّكُمْ أَكْثَرُ أَهْلِ مِصْرٍ مُؤَذَّنِينَ ، وَأَحْسَنُهُمْ فِي
النُّسْكِ قَوَانِينَ ، وَبَكُمْ اقْتُدِيَ فِي التَّعْرِيفِ ، وَعُرِفَ التَّسْجِيرُ فِي الشَّهْرِ
الشَّرِيفِ ، وَلَكُمْ إِذَا قَرَّتِ الْمَضَاجِعُ ، وَهَجَعَ الْهَاجِعُ ، تَذْكَارٌ
يُوقِظُ النَّائِمَ ، وَيُؤَيِّسُ الْقَائِمَ ، وما ابْتَسَمَ ثَغْرُ فَجْرٍ ، وَلَا بَزَغَ نَوْرُهُ فِي
بَرْدٍ وَلَا حَرٍّ ، إِلَّا وَلْتَأْذِينَكُمْ بِالْأَسْحَارِ ، دَوِيٌّ كَدَوِيَّ الرِّيحِ فِي الْبَحَارِ .
وبهذا صَدَعَ عَنْكُمْ التَّقَلُّ ، وَأَخْبَرَ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ قَبْلُ ، وَبَيَّنَّ أَنَّ
دَوِيَّكُمْ بِالْأَسْحَارِ ، كَدَوِيَّ النَّحْلِ فِي الْقِفَارِ ، فَشَرَفَالَكُمْ بِبِشَارَةِ الْمُصْطَفَى
وَوَاهَا لِمِصْرِكُمْ وَإِنْ كَانَ قَدْ عَفَا ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا شِفَا .

* * *

خصائصهم : ما يختصون به من الفضائل ، أراد أن البصرة اجتمعت فيها

الأشياء المتنافرة والمتضادة التي لا تجتمع ببلد ، فهي أجمع بلاد الله فائدة ، قال ابن أبي عيينة في نحوه :

زُرْ وادى القصر نعم التصر والوادي لا بدّ من زُورَة من غير ميعادِ
زُرّه فليس له شبه يقاربه من منزلٍ حاضرٍ إن شئت أو بادِ
ترى قراقره والعيس واقفةً والضَّبّ والنون والملاح والحادي

[ذكر البصرة]

والبصرة اختطّها عُتبة بن غَزْوَان صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وعُتبة بدرى مهاجرى ، بناها سنة أربع عشرة من الهجرة فرت بموضع منها فوجد الكدّان ، وهى الحجارة الرخوة فقال : هذه البصرة ، انزلوها بسم الله ، فسميت لذلك البصرة ، واختطّت الكوفة سنة سبع عشرة من الهجرة فى الحرم ، وكسرت البصرة فى أيام خالد القسرى فوجد طولها فرسخين فى مثلها والكوفة ثلاثاها . وأما فى أيام المنصور فقسّم على مَنْ يستوجب العطاء من أهل البصرة ألف ألف درهم ، فأصاب كلّ رأس درهمين .

ولأهل البصرة ثلاثة أشياء ليس لأحد من أهل البلدان أن يدعيها عليهم : النخل والشاء والحمام ، أما النخل فهم أعلم خلق الله به وأحذقهم بإصلاحه ، وفيها من أصناف النخل ما ليس فى بلد من البلدان ، وأما الشاء المعبدية فقد وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من عبد القيس ، فقال : يا رسول الله إني رجل أحبّ الشاء ، فدفع له فخلا من المعز فقبض بيده على أصل أذنه ، حتى استدارت أصابعه ، فصار فى أذنه كالسمة فسار إلى بلده فأطرقه شاءه ، فحُمِلت إلى البحرين ، فتناسلت هناك فليس فى البحرين شاة كريمة إلا وفى أذنها سمة كالخلقة ، فيغالى بها لتلك العلامة حتى تبلغ الشاة منها خمسين دينارا ، وتعقد بالبصرة عقودها ، وفيها شاة لبنى فلان أمها فلانة ، وأبوها تيس بنى

فلان ، مقدار حلبها بالغداة والعشي كذا . وحمامهم بلغت في الهداية أن جاءت من أقاصى بلاد الروم ومن مصر إلى البصرة وينتهى ثمن الطائر منها إلى تسعة دنانير ، وتباع بيضتها بعشرين ديناراً ، وكل ما وصف في المقامة موجود في البصرة ، وإنا صعد على بن أبي طالب رضى الله تعالى عنه منبرها خطب وقال في آخر خطبته : يا أهل البصرة ، يا بقايا ثمود ويا جند المرأة ، ويا أتباع البهيمة ، دعا فأتبعتم وعمر فانهزمتم ، أما إني أقول لارغبة فيكم ولا رهبة منكم ، غير أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أرض يقال لها البصرة ، أقوم الأرضين قبلة ، قارئها أقرأ الناس ، وعابدها أعبد الناس ، ومتصدقها أكثر الناس صدقة ، وتاجرها أعظم الناس تجارة منها إلى قرية يقال لها الأبلّة أربع فراسخ ، يستشهد عند مسجدّها سبعون ألفاً ، الشهيد منهم كالشهيد في يوم بدر . فبنى الحريري في مدح البصرة على هذا الحديث ، وإنا ختم كتابه بذكر البصرة وأهلها لتقوى مفاخرهم ، ومفاخر بلدهم في البلدان فيلججون بالمقامات ويقدمونها على غيرها .

قوله : شأن ، أى عداوة . دهاؤكم : جماعاتكم ، والدهاء معظم الناس وأكثرتهم . والدّهم : العدد الكثير . عابذك : زاهدكم . كالحسن البصري ومحمد ابن سيرين وغيرهما . الخليفة ، أى أخوف الناس من الله تعالى . علامة : كثير العلم .

[ذكر أبي الأسود]

ومستنبط علم النحو هو أبو الأسود الدؤلى ، واسمه ظالم بن عمرو بن جندل ابن سفيان أحد بني الدّيل من كنانة ، وهو يعدّ في التابعين والمحدثين والشعراء والبغلاء والنحويين ، ويعدّ في العُرج والمفاليج والبُخّر ، شهد مع على رضى الله عنه صقّين ، وولى البصرة لابن عباس رضى الله عنهما ، وكان من شيعة على

وكانت امرأته عثمانية ، وكان أصحابه لا يزالون يردون عليه قوله في علي ،
فقال فيهم :

يقول الأزدلون بنو قشِير طَوَالَ الدَّهْر لا تنسى علياً
فقات لهم وكيف يكون تركي من الأعمال ما يعصى علياً
أحب محمداً حباً شديداً وعباساً وحمزة والوصيا
بنو عم النبي وأقربوه أحب الناس كلهم إلياً
فإن يك حبهم رشداً أصبه ولست بمخطيء إن كان غيياً

ولم يشك أبو الأسود أنه رشد ، وعلى هذا تأويل قوله تعالى : (وإنا أو إياكم
لعلى هدى أو فى ضلال مبين) .

ومن بخله أنه كان يقول : لا تجاودوا الله فإن الله أجود وأمجد ، ولو شاء
الله أن يوسع على خلقه حتى لا يكون فيهم محتاج لفعل . وكان يقول لولده :
إذا بسط الله لك فى الرزق فانبسط ، وإن قبضه فانتبض .

ومرّ برجل وهو يقول : مَنْ يَعْشَى هذا الجائع؟ فأدخله وعشاء حتى شبع ،
ثم ذهب السائل ليخرج ، فقال له : أين تذهب؟ فقال : لأهلى فقال : لا أدعك
تؤذى المسلمين بسؤلك ، اطرحوه فى الأدهم ، فبات عنده مكبولا حتى أصبح .

وكتب إلى رجل يستسلفه فكتب إليه الرجل : المؤنة كثيرة ، والفائدة
قليلة ، والمال مكذوب ، فراجعه أبو الأسود : إن كنت كاذباً فجعلك الله صادقا ،
وإن كنت صادقا فجعلك الله كاذبا .

وقال الخليل : كان أبو الأسود ضنينا بما أخذه من على رضى الله عنه ،
وذلك أنه سمع لحنًا فقال لأبى الأسود : اجعل للناس حروفاً ، فأشار إلى الرفع
والنصب والحذف .

وقال له زياد : قد فسدت السنة الناس ، لأنه سمع رجلا يقول : سَقَطَتْ عصاتي ، فدافعه أبو الأسود .

وسمع رجلا يقرأ (أن الله يرى من المشركين ورسوله) نخفص ، فقال : ما بعد هذا شيء ، فقال له : ابغني كتابا يفهم ، فجئني برجل من عبد القيس ، فلم ير ضه فهمه ، فأتي بآخر من قريش ، فقال له : إذا رأيتني قد فتحت في بالحرف فانقط نقطة على أعلاه ، وإذا ضمنت في فانقط نقطة بين يديه ، وإذا كسرت في فاجعل النقطة تحت الحرف ، فإذا أشربت ذلك غنة ، فاجعل النقطة نقطتين ، فهذا نقط أبي الأسود .

واختلف الناس إليه يتعلمون العربية ، وفرع لهم ما أصله فأخذه جماعة كان أبرعهم عنبسة بن معدان المهري يقال له الفيل ، فأقبل الناس عليه بعد موت أبي الأسود ، فبرع من أصحابه ميمون الأقرن ، فرأس في الناس وزاد في الشرح ، فبرع من أصحابه عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي ، فبرع في النحو وتكلم في الهمز ، وأملى فيه كتابا ، وأخذ أبو عمرو بن العلاء عن أخذ عنه ، ثم نجم من أصحاب أبي عمرو عيسى بن عمر ، ويونس بن حبيب وأبو الخطاب الأخفش ، فألف عيسى كتابين سمي أحدهما الكامل والآخر الجامع ، قال المبرد : فأخذ الخليل عن عيسى ، فلم يكن قبله ولا بعده مثله ، وهو القائل يمدح كتابي عيسى :

بطل النحو الذي جمعتُ غير ما أحدث عيسى بن عمر
ذاك إكمال وهذا جامع وهما للناس شمس وقر

قال أبو العباس : وقد قرأت أوراقا من أحدهما فكان كالإشارة إلى الأصول ، ثم أخذ عن الخليل جماعة لم يكن فيهم مثل عمرو بن قنبر سيديويه ، ويكنى أبا بشر وأبا الحسن ، وهو من موالى بني الحارث بن كعب فألف كتابه الذي سماه قرآن النحو ، وعقد أبوابه بلفظه ولفظ الخليل .

وأبو الأسود من سكان البصرة .

[الخليل مخترع علم العروض]

ومستنبط : مستخرج ، والذي استنبط العروض هو الخليل ، وذكره بعض العروضيين فقال : لل خليل في العروض حكمة مخترعة ، وسابقة مبتدعة ، تبين بذلك فضله ، وظهر تقدمه لأنه لم يتبع فيما وضعه أثراً موجوداً ، ولا اقتفى فيه رسماً مرسوماً ، واهتدى إلى ما لم يهتد إليه المتقدمون ولا أوجد مزيداً عليه المتأخرون . ولولا الخليل لم يُعْلم صحيح الشعر من كسيره ، ولا سقيمه من عليه ، وفي حصره لجميع أوزان العرب في خمس دوائر أعظم العجب لمن تدبر حاصنهم وفهم .

وكان الخليل يحب أن يرى عبد الله بن المقفع ، وكان ابن المقفع يحب ذلك ، فجمعهما عبّاد المهابي ، فتحدثا ثلاثة أيام ولياليهن ثم افترقا ، ف قيل لل خليل : كيف رأيت عبد الله ؟ فقال : مارأيت مثله قطّ وعلمه أكثر من عقله . وقيل لابن المقفع : كيف رأيت الخليل ؟ فقال : مارأيت مثله قطّ وعقله أكثر من علمه ، وصدقا في ذلك ، أدّى عقل الخليل إلى أن مات وهو أزهد الناس ، وجَهِل ابن المقفع أرداه ، فكتب كتاباً لعبد الله بن عليّ على المنصور ، فقال فيه ما كان مستغنياً أن يقوله ، ولا يحتمل الأمراء دون الخلفاء مثله ، فقال فيه : ومتى غدر أمير المؤمنين بعنه عبد الله بن عليّ ، فنساؤه طوالق ودواب حوابس ، وعبيده أحرار ، والمسلمون في حلٍّ من بيعته ، فاشتد ذلك على المنصور وكتب إلى أمير البصرة أن اقتل عبد الله بن المقفع فقتله .

وقال ابن المقفع إن أكرمك الناس لمالٍ أو لسلطانٍ فلا يعجبك ذلك ، فإن زوال الكرامة بزوالهما ، ولكن ليعجبك إن أكرموك لأدبٍ أو دين . واتخذ عبّاد المهابي أَرْضاً فأراد غرسها ، فلامه أصحابه وقالوا : هي سبخة

فأشار عليه الخليل بفرسها ففرسها ، فجاءت بكل شيء حسن ، فحمل إليها الخليل
فاستحسنها ، وقال :

ترفعت عن ندى الأعماق وانخفضت عن المعاطش واستغنت بسقيها
فمال بالخيول والرمال أسفلها واعتم بالنخل والزيتون أغلاها
وصار يغبطه من كان يعدلُه ولائم لأمه فيها تمنّاها
أبامعاوية اشكر فضل واهبها وكلما جئتها فاعمر مصلّاها
وله :

عش ما بذاك قصرك الموت لا مهرب منه ولا قوت
بيننا غنى بيت وبهجته زال الغنى وتقوَّض البيت

وتوفي الخليل سنة سبعين ومائة وهو ابن خمس وسبعين سنة وتقدمت
أخباره في الأربعين فلتنظر هناك .

قوله : اخترعه ، أى أوجده قبل أن يكون . مصر ، أى بلد . وقوانين :
طرق مستقيمة . التعريف : حلق الرأس بعد يوم عرفة . قرت المضاجع : نام
الناس فيها . جمع : نام . نفر : سنّ وأراد به بياض الصبح . برّغ : صدع
وظهر . النّقل : الحديث : المنقول عن النبي صلى الله عليه وسلم . واهّا : عجبّا .
عفا : درس . شفا : طرّف وشيء قليل ، وشفا كل شيء حدّه وطرّفه .

* * *

ثم إنّه خزن لسانه ، وخطم ييانه ؛ حتّى حُدِجَ بالأبصار ، وقرف
بالإقصار ، ووُسِمَ بالاستقصار ، فتنفّس تنفّسَ مَنْ قِيدَ لِقُودَ ،
أو ضَبَّتْ به برائين أسد ، ثم قال : أمّا أتم يا أهل البصرة ، فما منكم
إلاّ العَلَمُ المعروف ، ومَنْ له المعرفة والمعروف . وأمّا أنا فمن عَرَفَنِي

فَأَنَا ذَاكَ ، وشرُّ المعارف مَنْ : آذاك ، وَمَنْ لَمْ يُثَبِّتْ عِرْفَتِي ،
فَسَأْضُدُّهُ صِفَتِي .

أَنَا الَّذِي أَنْجَدَ وَأَتَّهَمَ ، وَأَيَّمَنَ وَأَشَامَ ، وَأَصْحَرَ وَأَنْجَحَرَ ، وَأَذْلَجَ
وَأَسْحَرَ ، نَشَأْتُ بِسُرُوجٍ ، وَرُيِّتُ عَلَى الشَّرُوجِ .

ثُمَّ وَجَلَّتْ الْمَضَائِقُ ، وَفَتَحَتْ الْمَغَالِقُ ، وَشَهِدَتْ الْمَعَارِكُ وَأَلْنَتْ
الْعَرَائِكُ ، وَاقْتَدَتْ الشَّوَامِسُ ، وَأَرْغَمَتْ الْمَاعِطُسُ ، وَأَذْبَتُ الْجَوَامِدُ ،
وَأَمَعَتْ الْجَلَامِدُ .

* * *

خزن : حبس . خَطَمَ : زَمَ ، وَالْخَطَامُ حَبْلٌ : يَشُدُّ عَلَى أَنْفِ الْبَعِيرِ . حَدَجَ :
نَظَرَ إِلَيْهِ بِحَدَّةٍ . قُرِفَ : اتَّهَمَ ، وَقَرَفَتْهُ بَشَرٌ . رَمَيْتَهُ بِهِ : الْإِقْصَارُ الْعَجْزُ .
قَوْدٌ : قَتْلُ نَفْسٍ بِنَفْسٍ . ضَبَّيْتُ : عَلَقْتُ . بَرَّاثِنٌ : أَظَافِيرُ . الْعِلْمُ . الْمَشْهُورُ
بِالْفَضَائِلِ ، وَالْمَعْرُوفُ لِلثَّانِي : الْعِطَاءُ . أَجَدُوا أَنَّهُمْ : أَتَى نَجْدًا وَتَهَامَةً . أَيَّمَنَ
وَأَشَامَ : أَتَى الْيَمِينَ وَالشَّامَ . أَصْحَرَ وَأَبْجَحَرَ : مَشَى فِي الصَّحَرَاءِ وَالْبَحْرِ . أَذْلَجَ
وَأَسْحَرَ : مَشَى بِاللَّيْلِ وَالنَّجَرِ . نَشَأْتُ : كَبُرْتُ . وَجَلَّتْ : دَخَلَتْ . الْمَعَارِكُ :
مَوَاضِعُ الْقِتَالِ . الْعَرَائِكُ : الطَّبَائِعُ الصَّعْبَةُ . الشَّوَامِسُ : الشَّوَارِدُ الَّتِي تَأْتِي
الْإِقْيَادَ . أَرْغَمَتْ الْمَاعِطُسُ : أَذَلَّتِ الْأَنْوُفَ . أَمَعَتْ الْجَلَامِدُ : أَسَلَّتِ الْمِيَاهُ
مِنَ الْجَنَادِلِ الْعَصَمَ .

* * *

سَلُّوا عَنِّي الْمَشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ ، وَالْمَنَاسِمَ وَالْمَغَوَارِبَ ، وَالْمَحَافِلَ
وَالْجَحَافِلَ ، وَالْقَبَائِلَ وَالْقَنَابِلَ ، وَاسْتَوْضِحُونِي مِنْ تَقَلُّقِ الْأَخْبَارِ ، وَرُؤَاقِ
الْأَنْسَامِ ، وَحُدَاةِ الرُّكْبَانِ ، وَحُذَاقِ الْكُهُنِ ، لَتَعْلَمُوا كَمْ فَجٍّ
(م ٢٣ - شرح مقامات الحريري ج ٥)

سَلَكْتُ، وَحِجَابٍ هَتَكْتُ، وَمَهْلَكَةٍ اقْتَحَمْتُ، وَمَلْحَمَةٍ أَلْحَمْتُ،
وَكَمْ أَلْبَابٍ خَدَعْتُ، وَبِدْعٍ ابْتَدَعْتُ، وَفُرْصٍ اخْتَلَسْتُ، وَأُسْدٍ
اِفْتَرَسْتُ؛ وَكَمْ مُحَلَّقٍ غَادَرْتُهُ لَقَى، وَكَامِنٍ اسْتَخْرَجْتُهُ بِالرُّقَى، وَحَجَرٍ
شَحَذْتُهُ حَتَّى انْصَدَعَ، وَاسْتَنْبَطْتُ زُلَالَهُ بِالْخُدَعِ، وَلَكِنْ فَرَطُ
مَافَرَطُ، وَالْغُصْنُ رَطِيبٌ، وَالْفَوْدُ غَرِيبٌ، وَبُرْدُ الشَّبَابِ قَشِيبٌ؛
فَأَمَّا الْآنَ وَقَدْ امْتَشَنَ الْأَدِيمُ، وَتَأَوَّدَ الْقَوِيمُ، وَاسْتَنَارَ اللَّيْلُ الْبَهِيمُ؛
فَلَيْسَ إِلَّا النَّدَمُ إِنْ نَفَعَ، وَتَرْقِيعُ الْخَرَقِ الَّذِي قَدْ اتَّسَعَ.

* * *

الْمَنَاسِمُ : أَخْفَافُ الْإِبِلِ . الْفَوَارِبُ : مَقَادِمُ ظُهُورِهَا . الْحَاظِلُ : الْجَمْعُ .
الْجَحَافِلُ : الْجِيُوشُ . الْقَنَابِلُ : جَمَاعَةُ الْخَيْلِ وَاحِدُهَا قُنْبَلَةٌ . اسْتَوْضَحُونِي :
اطْلُبُوا بَيَانَ أَمْرِي . الْأَسْمَارُ : الْأَحَادِيثُ بِاللَّيْلِ يُسَمَّرُ عَلَيْهَا . الْخُدَاةُ : خِدَامُ
الْإِبِلِ . فَيْجٌ : طَرِيقٌ فِي الْجِبَلِ . سَلَكْتُ : دَخَلْتُ . هَتَكْتُ : خَرَقْتُ .
مَهْلَكَةٌ : مَوْضِعُ خَوْفٍ يَهْلِكُ فِيهِ النَّاسُ . اقْتَحَمْتُه : تَرَامَيْتُ فِيهِ . مَلْحَمَةٌ :
مَوَاضِعُ الْحَرْبِ الشَّدِيدَةِ يَلْتَحِمُ فِيهَا أَهْلُ الْمُسْكِرِينَ وَيَلْتَصِقُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ .
أَلْحَمْتُ ، أَيْ أَوْقَدْتُ النَّارَ بَيْنَهُمْ حَتَّى التَّصَقُّوا وَصَارُوا لِحْمَةً وَاحِدَةً ، وَذَلِكَ أَشَدُّ
مَا يَكُونُ الْحَرْبِ . أَلْبَابٌ : عَقُولٌ . بَدْعٌ : جَمْعُ بَدْعَةٍ ، وَهُوَ الشَّيْءُ الْمُبْدَعُ .
اخْتَلَسْتُهَا : أَخَذْتُهَا بِسُرْعَةٍ وَاخْتَفَطْتُهَا . مُحَلَّقٌ : طَائِرٌ فِي الْهَوَاءِ . لَقَى : مَطْرُوحًا
عَلَى الْأَرْضِ . وَكَامِنٌ : مُسْتَوْرٍ . شَحَذْتُهُ : صَقَلْتُهُ . انْصَدَعَ : انشَقَّ ، وَأَرَادَ
بِالْحَجَرِ بَخِيلًا لَا يَرِشُ بِشَيْءٍ كَالْحَجَرِ ، فَتَحِيلَ عَلَيْهِ حَتَّى أَخَذَ مَالَهُ . اسْتَنْبَطْتُ :
اسْتَخْرَجْتُ . زُلَالَهُ : مَاءُ الْعَذْبِ الصَّافِي ، أَرَادَ أَخَذْتُ مَالَهُ . فَرَطُ مَافَرَطُ ،
أَيْ سَبَقُ مَا سَبَقَ . رَطِيبٌ : نَاعِمٌ ، وَغُصْنُهُ : قَامَتُهُ . وَالْفَوْدُ : نَاحِيَةُ الرَّأْسِ .
غَرِيبٌ : أَسْوَدُ . بَرْدٌ : ثَوْبٌ . قَشِيبٌ : جَدِيدٌ . اسْتَشَنَ الْأَدِيمُ : بَيَسَ الْجِلْدَ ،

والشنّ : القربة البالية اليابسة . تأود القويم : اعوجّ المعتدل . استنار : أضاء
وشاب . الليل البهيم : الشعر الأسود . وقال الشاعر في معنى استشن الأديم :

يَا مَنْ لَشَيْخٍ قَدْ تَخَذَ لِحْجَةً أَفْنَى ثَلَاثِ عِمَائِمِ السَّوَانَا
سَوْدَاءَ حَالِكَةٍ وَسَحْقٍ مَفُوفٍ وَأَجْدَلُونَا بِمَدَاكِ هَجَانَا
قَصْرَ اللَّيَالِي خَطْوَهُ فَتَدَانِي وَحَنُونٍ قَائِمٍ صُلْبُهُ فَتَحَانِي
وَالْمَوْتَ يَأْتِي بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ وَكَأَنَّمَا يَعْنِي بِذَلِكَ سَوَانَا

وقال ابن الرومي في استنارة الليل :

جَارَ عَلَى لَيْلِ الشَّبَابِ فِضَامَهُ نَهَارُ مَشِيْبٍ مَرْمَدٌ لَيْسَ يَنْفَدُ
وَعَزَّكَ عَنْ لَيْلِ الشَّبَابِ مَعَاشِرُ وَقَالُوا نَهَارُ الشَّيْبِ أَهْدَى وَأَرْشَدُ
وَكَانَ نَهَارُ الْمَرْءِ أَهْدَى لِرَشْدِهِ وَلَكِنْ طَلَّ اللَّيْلُ أُنْدَى وَأَبْرَدُ

وأنشد الزاهد ابن عمران قول الشاعر :

لَمْ أَقُلْ لِلشَّبَابِ فِي كَنْفِ اللَّهِ وَلَا حَفْظُهُ غَدَاةً اسْتِقْلًا

فزاد بعد استقلا :

لَا وَلَا لِلشَّبَابِ لَأَ بَدَالِي مَرَحَبًا بِالشَّيْبِ أَهْلًا وَسَهْلًا
مَوْذَنٌ بِالْحَمَامِ هَذَا وَذَا كَمْ سَوْدَ الصَّحْفِ بِالذَّنُوبِ وَوَلَّى

وأحسن ما قيل في ذم خضابه قول ابن الرومي :

رَأَيْتُ خَضَابَ الْمَرْءِ بَعْدَ مَشِيْبِهِ حَدَادًا عَلَى فَقْدِ الشَّيْبَةِ يَلْبَسُ^(١)
وَلَا فَمَا يَفْرَى الْفَتَى بِخَضَابِهِ أَيْطَمِعُ أَنْ يَخْفَى شَبَابٌ مَدْلَسٌ
وَكَيْفَ بَأَن يَخْفَى الْمَشِيْبُ لِنَاضِرٍ وَكُلَّ ثَلَاثِ صُبُحِهِ يَنْفَسُ
وَهَبُهُ يَوَارِي شَيْبَهُ أَيْنَ مَاؤُهُ وَأَيْنَ أَدِيمٌ لِلشَّيْبَةِ أَمْلَسُ

(١) ديوانه

وقال محمود الوراق :

يا خاضبَ الشيبَةِ نَحْ قَدِّهَا فَإِنَّمَا تَدْرُجُهَا فِي كَفَنٍ
أَمَا تَرَاهَا مِنْ ذِ عَايَتِهَا تَزِيدُ فِي الرَّأْسِ بِنَقْصِ الْبَدَنِ

قوله : ليس إلّا التّدم . ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
من أذنبَ ذنباً أو أخطأ خطيئةً فندم كان كفارةً لما صنع .

وقال صلى الله عليه وسلم : « الدعاء سلاح المؤمن ، وعماد الدين ونور السموات
والأرض وإن لكم من الله نظرة » .

كتب عبد الملك إلى الحجاج يتوعّد علىّ بن الحسين ويكتب إليه بما يقول
ففعّل ، قال : إن لله لوحاً محفوظاً يلحظه في كلّ يوم مائة لحظة ، ليس منها
لحظة إلّا يُخَيِّرُ فيها ويُمَيِّت ، ويُعِزُّ ويُذِلُّ ويفعل ما يشاء ، وإني لأرجو أن
يكفّيك الله منها بلحظة واحدة ، فكتب بها الحجاج إلى عبد الملك .

وكتب ملك الروم إلى عبد الملك : أكلت الجمل الذي ركب عليه أبوك
من المدينة لأعزيتك جنوداً مائة ألف ومائة ألف ، فكتب إليه عبد الملك بكلام
علىّ قال ملك الروم : ما خرج هذا إلّا من كلام النبوة .

* * *

وكنْتُ رُوِّيتُ مِنَ الْأَخْبَارِ الْمُسَنَّدَةِ ، وَالْآثَارِ الْمَعْتَمَدَةِ ، أَنَّ لَكُمْ
مِنْ اللَّهِ تَعَالَى فِي كُلِّ يَوْمٍ نَظْرَةً ، وَأَنَّ سِلَاحَ النَّاسِ كُلَّهُمُ الْحَمِيدُ ،
وَسِلَاحُكُمْ الْأَذْيَةُ وَالتَّوْحِيدُ ، فَقَصِدْتُكُمْ أَنْفِي الرِّوَاحِلِ ، وَأَطْوَى
الْمَرَاكِحَ ؛ حَتَّى قَمْتُ هَذَا الْمَقَامَ لَدَيْكُمْ ، وَلَا مَنَ لِي عَلَيْكُمْ ؛ إِذْ مَاسَعَيْتُ
إِلَّا فِي حَاجَتِي ، وَلَا تَعَبْتُ إِلَّا لِإِرَاحَتِي ، وَلَسْتُ أَبْنِي أُعْطَيْتَكُمْ ، بَلْ
أَسْتَدْعِي أَدْنَيْتَكُمْ ، وَلَا أَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ ؛ بَلْ أَسْتَنْزِلُ سُؤَالَكُمْ .

فادعوا الله بتوفيق المعتاب ، والإعداد للمآب ، فإنه رفيع الدرجات ،
مُجِيب الدعوات ، وهو الذى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنْ
السَّيِّئَاتِ . ثم أنشد :

أُفْرطْتُ فِيهِنَّ وَاعْتَدَيْتُ	أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ ذُنُوبٍ
وَرَحْتُ فِي الْغَىِّ وَاعْتَدَيْتُ	كَمْ خُصَّصْتُ بِحَرِّ الضَّلَالِ جَهْلًا
وَاخْتَلْتُ وَاعْتَلْتُ وَافْتَرَيْتُ	وَكَمْ أَطَعْتُ الْهَوَىَّ اغْتِرَارًا
إِلَى الْمَعَاصِي وَمَا وَنَيْتُ	وَكَمْ خَلَعْتُ الْعِذَارَ رَكْضًا
إِلَى الْخَطَايَا وَمَا انْتَهَيْتُ	وَكَمْ تَنَاهَيْتُ فِي التَّخَطُّي
نَسِيًّا وَلَمْ أَجْنِ مَا جَنَيْتُ	فَلَيْتَنِي كُنْتُ قَبْلَ هَذَا
مِنْ الْمَسَاعِي الَّتِي سَمِعْتُ	فَالْمَوْتَ لِلْمَجْرَمِينَ خَيْرٌ
لِلْعَفْوِ عَنِّي وَإِنْ عَصَيْتُ	يَا رَبُّ عَفْوًا فَأَنْتَ أَهْلٌ

* * *

أنفى الرواحل : أهزل الإبل . أطوى المراحل : أقطع الأرض مجتهداً ،
وأردّ المرحلتين والثلاث مرحلة واحدة . من : إحسان . أبنى : أطلب . الأعطية
والأدعية : اسم لما يعطى ولما يدعى . استنزل : أطلب بتلطّف . سؤلكم :
طلبكم التوبة لى من الله تعالى . والمآب : الرجوع . يعفو : يمحو ، وعفا الله عنك :
درس ذنوبك ومحاها ، من عفا المنزل : درس وانمحّت آثاره . وقال ابن المعتز :

كنت فى سفرة البطالة والغى زماناً فخان منى قدوم
تُبْتُ عن كلِّ ماثمٍ فمسى يُعجى بهذا الحديثِ ذاك القديمُ

وله :

الله يعلم ما إنمَّ هَمَّتْ بِهِ إِلَّا وَنَقَصَهُ خَوْفِي مِنَ النَّارِ
وإنَّ نَفْسِي مَا هَمَّتْ بِمَعْصِيَةٍ إِلَّا وَقَلْبِي عَلَيْهَا عَائِبٌ زَارِي
آخر :

تطالبني نفسي بما فيه صونها نأغضى ويسطو توقها فأطيعها
ووالله ما ينخني على ضلالها ولكنها تأتي فلا أستطيعها

قوله : أفرطت ، أى ضيقت . اعتديت : ظلمت نفسي ، قال داود الطائي :
ما أخرج الله عبداً من ذلِّ المعصية إلى عزِّ الطاعة إلا وأغناه بغير مال ، وآسنه
بغير أهلٍ ، وأعزه بلا عشيرة . خضت : جُزْتُ الغيَّ الضلال . اغترار :
انخداع . اختلت : تكبرت ومشيت تحيلاً ، واغلت : أهلكت ، والغيلة :
القتل بالخداع ، وغالم : قتلهم غيلةً . افتريت : كذبت . خلعت العذار :
أزلت لجام الدين الذى يمسكنى ، وتسيبت فى المعاصى . ركضا : جرياً ووثباً .
وفيت : فترت وقصرت فى الجرى إليها . تناهيت : أى بلغت النهاية ، وهى
آخرُ الشيء : التخطى . الجواز والقطع ، وتخطيت الشيء : جزته ، والخطايا :
الذنوب ، وهى من الخطأ لأنَّ فاعلها مخطئ بفعلها . والنسى : الشيء المنسى
لحقارته لا يخطر ببالك فتنسأه . أجن : أكتسب . المساعى : جمع مسعاة ، وهى
السعى والمشى الكديد ، والمساعى أيضاً : المواضع التى يسعى فيها ، أى يمشى
بكدة ، وقال حبيب :

أخاف إلهي ثم أرجو نواله ولكن خوفي غالبٌ لرجائيا
ولولا رجائي واتكالى على الذى تكفل لي بالصنع كهلاً وناشياً
لما ساع لي عذبٌ من الماء بارد ولا لذى نوم ولا زلت باكياً
على أنه قد كان منى جهالةً ليالى فيها كنتُ لله عاصياً

أخذه من قول الحسن البصري: ينبغي أن يكون الخوف أغلب من الرجاء
فإن الرجاء إذا غلب الخوف فسد القلب.

* * *

قال الراوي: فطفقت الجماعة تُمدُّه بالدُّعاء، وهو يُقَلِّبُ وجهه في
السَّمَاءِ إلى أن دَمَعَتْ أَجْفَانُهُ، وَبَدَأَ رَجَفَانُهُ، فصاح: اللهُ أَكْبَرُ
بانت أَمَارَةُ الاستِجابة، وانجابت غِشاوَةُ الاستِجابة. فجزيتُم يا أَهْلَ
البُصَيْرَةِ، جزاءَ مَنْ هَدَى مِنَ الْخَيْرَةِ.

فلم يبقَ من القَوْمِ إِلَّا مَنْ سُرَّ لِسُرُورِهِ؛ وَرَضَخَ لَهُ بِمَسُورِهِ
فَقَبِلَ عَفْوَ رِثْمٍ، وَأَقْبَلَ يُفْرِقُ فِي شُكْرِهِ.

ثم انحدَرَ مِنَ الصَّخْرَةِ، يَوْمَ شَاطِئِ الْبَصْرَةِ، واعتَقَبْنُهُ إلى حيثُ
تَخَالَيْنَا، وَأَمِنَّا التَّجَسُّسَ وَالتَّحَسُّسَ عَلَيْنَا، فقلتُ لَهُ: لَقَدْ أَغْرَبْتَ فِي
هَذِهِ التَّوْبَةِ، فَمَا رَأَيْكَ فِي التَّوْبَةِ، فقال: أَقْسِمُ بِعَلَامِ الْخَفِيَّاتِ،
وَعَفَارِ الْخَطِيئَاتِ، إِنْ شَأْنِي لَمُعْجَبٌ، وَإِنَّ دَعَاءَ قَوْمِكَ لَمُجَابٌ، فقلتُ
زِدْنِي إِفْصَاحًا، زَادَكَ اللهُ صِلَاحًا فقال: وَأَيُّكَ لَقَدْ قَمْتُ فِيهِمْ مَقَامُ
الْمَرِيبِ الْخَادِعِ، ثم انقلبتُ مِنْهُمْ بِقَلْبِ الْمُنِيبِ الْخَاشِعِ، فَطَوَّبَنِي لِمَنْ
صَمَّتْ قُلُوبُهُمْ إِلَيْهِ وَوَيْلٌ لِمَنْ بَاتَ يَدْعُونَ عَلَيْهِ. ثُمَّ وَدَّعَنِي وَانْطَلَقَ،
وَأَوَدَّعَنِي الْقَلْقَ.

قوله : فطِفَّتْ ، أى أخذت وجعلت . تَمَدَّه بالدعاء ، أى نَصَلَ دعاءها بدعائه، وقول : امددته بالمال ، إذا قَوَّيْتَهُ به ، ومددته بالجيش . رَجَفَانَهُ : اهتزازهُ ، ورجف الشيء : تحركهُ ، والرجفة : اهتزازُ الأرض . بانت : ظهرت . انجابت : انكشفت وزالت . غشاوة الاسترابة : غطاء الشك . رَضَخَ : أعطى . ميسوره : ما يسر له . وعفو برهم : فضل إحسانهم . يَهْرِفُ : يكثر الكلام ويُطْنِبُ في الشكر . انحدر : انصب . يؤمّ : يقصد . شاطيء : ساحل . اعتقبته : تبعته . تخالينا : صِرْنَا في خلوة من الناس . التجسّس : طلب الشيء باليد ، وقيل : التجسّس : طلب الشيء بالكلام . والتجسس : طلبه باليد ، ثم قد يقع كل واحد منهما موقع صاحبه . ابن الأنباري : تجسس الرجل وتحمّس بمعنى واحد ، هذا إجماع أهل اللغة . وفرق بينهما يحيى بن أبي كثير ، فقال : التجسس البحث عن عورات الناس والتجسس الاستماع لحديث القوم . ابن الأنباري : الجاسوس : الباحث على أمور الناس . النوبة : الدولة . إيضاحاً : بياناً . المريب : صاحب الريبة . النيب : الراجع إلى الله بتوبته . الخاضع : صفت : مالت .

* * *

فلم أَزَلْ أعاني لأجلهِ الفِكر ، وأنشوفُ إلى خِبرٍ ما ذكر . وكَلَّمَا استنشيتُ خبره من الرّكبان ، وجَوَّابَةُ البُلْدَانِ ، كنتُ كمن حاور عَجَمَاءَ ، أو نادى صخرةً صَمَاءَ ، إلى أن لقيتُ بعد ترّاخي الأمد ، وترّاقى الكمدَ ركباً قافلين من سفر ، فقلتُ : هل من مغرّبة خبر ؟ فقالوا . إنَّ عندنا لخبراً أغربَ من العَفَاءِ ، وأعجبَ من نظَرِ الزُّرْقَاءِ .

* * *

أعاني : أفاسى . أنشوف : أنطلع . خِبرة : اختبار . استنشيت : استطلعت ، وأصل معناه شممت . جوابة : قطاعة . وجوّالة أى الذين عادتهم الجولان في

البلاد . حاور : كَلَمْ . عَجَبَاءَ : بهيمة ، والمحاورة : المراجعة في الكلام . تراخى : طَوَّلَ المدة . السكمد : مُصاحبة الهم والحزن . ركبا : أصحاب الإبل . قافلين : راجعين من سفر . مغرّبة ، أى هل عندكم من حديث غريب . والعنقاء ، قال ابن عباس رضى الله عنه : هو طائرٌ فَضَّلَ به بنو إسرائيل ، فانتقل بعد يوشع إلى بلاد قيس عيلان بنجد . والحجاز ، فأذى الولدان ، فشكوا ذلك إلى خالد ابن سنان . وكان نبيًا بين عيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام . فدعا الله أن يَقْطَعَ نَسْلَهَا فبقيت صورتها تصوّر في البسط ، وكان أَجَل طائر وأعظمه ، ووجهه على هيئة وجوه الناس . وقال أهل الرواية : عنقاء مُغْرِب ، إنما هو الأمر العجيب . والعنق : السرعة ، وذكرت عجائب البلدان بمجلس الراضى ، فقال قائل : أَعْجَبُ ما فى الدنيا طائر بأرض طبرستان على شاطئ الأنهار شبيه بالباشق ، يسمّى الكلم ، وهو يصبح فى فصل الربيع فتجتمع إليه المصافير ، وصغار الطير ، فتزقّه ، فإذا كان آخر النهار أخذ واحدًا مما قرب من الطير فيأكله ، فذلك فعله إلى أن ينتضى فصل الربيع ، فتجتمع إليه المصافير وصغار الطائر فتطرده وتضر به ، فيفرّ منها فلا يسمع له صوت إلى الفصل الربيعى . وهو طائر حسن ، موثى العينين .

وذكر الجاحظ أنه من عجائب الدنيا ، وذلك أنه لا يطأ الأرض بقدميه ، بل يأحداها خوفًا على الأرض أن تنخسف من تحته ، والثانى دودة تُضَيء بالليل كالشمع ، وتصير بالنهار لها أجنحة خضراء ، وبالليل لا جناحين لها ، غذاؤها التراب ، لم تشبع قط منه خوفًا أن يفتى التراب فتموت جوعًا ، والثالث أعجب من الطائر ، والدودة من يكرى نفسه للقتال ، يعنى المستزقة من الجند ، فاستحسن الخبر من حضر ، فقال الرّاضى معارضًا لما ذكر الجاحظ أن أعجب ما فى الدنيا ثلاث : البوم ، لا تظهر بالنهار خوفًا أن تصيبها العين لحسنها وجمالها ، فظهر بالليل ، الثانى الكركى لا يطأ الأرض بقدميه معًا بل يأحداها فإذا وطأها

لم يعتمد عليها اعتماداً قوياً خوفاً من أن تنخسف الأرض بثقله ، الثالث الطائر الذي يقعد في مشارق الماء من الأنهار الذي يُعرَف بمالك الحزين ، يشبه السكركي لا يشبع من الماء خشية أن يفنى فيموت عطشاً . فافترق أهل المجلس والكل متمجبون من الرأى كيف تأتي منه مثل هذه المذاكرة مع مَنْ حضر . من أهل السنّ والمعرفة مع صِغر سنه . والحكاية بكاملها في كتاب المسعودي .

[الزرقاء]

وأما الزرقاء فكانت تُبصر على مسيرة ثلاث ليال ، وكانت من جدّيس ابن عامر بن إرم بن سام بن نوح ، وكان مع جدّيس طُسم بن لاوذ بن إرم ، وكانت مملكتهم في طُسم ، وكانوا يسكنون اليمامة ، وها من العرب العاربة فأقاموا بُرْهة ، وبلادهم أفضل البلاد ، حداثاً ملتفة ، وقصور مصطفة ، فكفروا بأنهم الله فأهلكهم ، وذلك لأنهم مملكتهم عُملوق بن طُسم ، وكان غشوماً لا يملك نفسه في هواه ، فاخصمت إليه امرأة من جدّيس اسمها هزيلة مع زوجها في ابن لها ، فأمر بالولد فجعل في غلمانه ، وأمر بالزوج أن يُباع وتُعطى المرأة عُشر نَمِه ، وبالمرأة أن تباع ويُعطى الزوج خمس نَمِها ، قتلت هزيلة :

أَتينا أخت طُسم ليحكم بيننا فابعد حُكماً في هزيلة ظالماً

وهي أبيات ، فبلغه قولها ، فأمر ألاّ تنزوّج امرأة من جدّيس حتى تُحمل إليه قبل زوّجها فيعتذرهما ، فلقوا منه ذلاً طويلاً إلى أن تزوّجت الشمس بنت غفّار أخت الأسود بن غفّار ، وكان سيّد جدّيس فلما كانت ليلة إهدائها مُحِلّت إليه ، والقيان معها يُلَن :

ابدأ بعملوقٍ إليه فاركب وبادر الصّبح بأمرٍ معجبٍ

* فما لبكر بعدكم من مذهب *

فلما افتضحها ، خرجت على قومها في دماؤها شاقة جيبها من دُبر ومن قُبيل
وهي تقول :

أُصلح ما يؤتى على فتياتكم وأنتم رجال فيكم عددُ الرَّمْلِ
فإن أنتم لم تفضُّبوا بعد هذه فكوُّوا نساء لا تفرّ من الفحلِ
فوَ أننا كنّا رجالاً وكُنتم نساء لكننا لا نُقيم على الذلِّ

فأنفت جديس عند ذلك ، واجتمعت إلى أخيها الأسود ، وأجمعوا على
أن يصنعوا لها طعاماً ، فيدعو عملاقاً مع قومه فإذا جاءوا في الخيل والبغال
عمّوم بالقتل ، فقالت الشמוש لأخيها : الغدر عار وعاقبه بوار ، صبحوا القوم
في ديارهم تظفروا أو تموتوا كراماً ، فقالوا لها : المكرُ أمكنُ من نواصيهم . ثم
صنع لهم الطعام ودفنوا سيوفهم في الرمل ، فلما استكملوا في المِدعاة أتوا عليهم
أجمعين ، وهرب من طسم رياح بن مرة ، فأتى حسان بن تبع لينهره ، فاستبعدوا
أرضهم ، وكان قد تبع لرياح كلبة ، فضربها في رجلها حتى عرجت ، فقال :
أبعيدة أرض قطعها كلبة عرجاء ! فتجهز معه بجيش فلما صاروا من جديس
على ثلاثة أيام ، صعدت الزرقاء على منارٍ كان لها لتنظر الجيش ، وكان رياح قد
قال لهم : إن الزرقاء تبصر على ثلاث ليال ، ولكن ليقطع كل رجلٍ منكم
غصناً من شجر ، فيحمله لنشبه عليها ، فلما رأتهم ، قالت : يا قوم أتتكم الشجر
أو أتتكم حجير ، فلم يصدقوها فقالت :

أقسم بالله لقد دبَّ الشجرُ أو حجير قد أقبلت شيئاً تجرُّ

فكذبوها ، وقالوا . كلَّ بصرٍك وضعف ، فقالت : أقسم بالله لقد أرى رجلاً
ينهش كتيفاً ، أو يخصفُ نعلاً ، فتهاونوا بحديثها ، حتى صبَّحهم حسان فاجتاحهم
فأخذت الزرقاء ، فشق عينها فإذا فيها عروق سود من الإثم ، وكانت أول
من اكتحل به ، وهرب الأسود ، فنزل بطيئاً ، فسله فيهم ، وتسمى زرقاء

اليمامة ، واسم البلد جو ، فلما صُلبت على بابها ، سُميت اليمامة ، وقيل : اليمامة اسم البلد ، واسم الزرقاء عَنز ، وقيل إن حساناً لم يصلبها ، ولكن حملها في السَّيِّ ، وقالت عندما قُرِّبَ لها البعير لتركبه ، ولم تكن اعتادت ركوبه :

شَرَّ يَوْمِهَا وَأَغْوَاهُ لَهَا رَكِبْتُ عَنزَ بَجْدَجٍ بَجَلًا

وقيل إن عنزا هي أخت الزرقاء ، وقال الشاعر :

ما نظرت ذات أجفان كمنظرتها حقاً كما صدع الدين الذي صدعا
قالت أرى رجلاً في كفِّه كَيْفٌ أو يخصف النعل له في أية صنعا
فكذبوها فوافقتها على بَحَلٍ أقبال حير تزجي الموت والشرعا
فاستنزلوا أهل جَوٍّ من معاقلم وهدموا شامخ البنيان فأنضعا

* * *

فسألْتَهُمْ إيضاحَ ما قالوا ، وأن يَكِيلُوا لي بما اكتالوا ، فحكوا
أنَّهُمْ أَلَمُوا بِسُرُوحٍ ، بعد أن فارقها العلوج ، فرأوا أبا زَيْدَها المعروف ،
قد لبس الصوف ، وأمَّ الصَّقُوفَ وصارَ بها الزَّاهِدَ الموصوف ،
فقلت : أتعنون ذا المقامات . فقالوا : إنه الآن ذو الكرامات ، ففزني
إليه النَّزاع ، ورأيتها فُرْصَةً لا تُضَاع ، فارتحلتُ رِحْلَةَ المِعدَةِ ، وسيرتُ
نَحْوَهُ سَيْرَ المِجْدِ ، حتَّى حَلَلْتُ بِمَسْجِدِهِ ، وقرَّرتُ مُتَعَبِّدِهِ ، فإذا هو قد
نَبَذَ صُحْبَةَ أَصْحَابِهِ ، وانتصبَ في مِحْرَابِهِ ، وهو ذو عِباءَةٍ مَخْلُولة ، وشَمْلَةٍ
مَوْصُولَةٍ ؛ فَهَبْتُهُ مَهَابَةً مِنْ وَلَجٍ عَلَى الْأَسْوَدِ ، وَأَلْفَيْتُهُ مِمَّنْ سِيَاهُهُمْ فِي
وُجُوهِهِمْ مِنْ أَمْرِ الشُّجُودِ . ولما فرغَ من سُبْحَتِهِ ، حيَّاني بِسُبْحَتِهِ ،
من غير أن نَقَمَ بِمُحْدِثٍ ، ولا اسْتَخْبَرَ عن قديم ولا حديث ، ثم أقبل

على أوزاده، وترَكِي أَعْجَبُ من اجْتِهَادِهِ، وَأَغْبَطُ مَنْ يَهْدِي اللهُ من عباده. ولم يزل في قُنُوتٍ وَخُشُوعٍ، وَسُجُودٍ وَرُكُوعٍ، وإِخْبَاتٍ وَخُضُوعٍ، إلى أنْ اكْتَمَلَ إِقَامَةُ الْخُمْسِ، وصَارَ الْيَوْمَ أَمْسٍ، فَيَنْتَظِرُ انْكِفَاؤَ بَنِي إِلَى يَتِهِ، وَأَسْهَمِي فِي قُرْصِهِ وَزَيْتِهِ. ثم نهض إلى مُصَلَّاهُ، وتَحَلَّى بِمَنَاجَاةِ مَوْلَاهُ؛ حَتَّى إِذَا التَّمَعَ الْفَجْرُ، وَحَقَّ لِلْمَجْتَهِدِ الْأَجْرُ، عَقَّبَ تَهْجُؤَهُ بِالتَّسْبِيحِ، ثُمَّ اضْطَجَعَ ضِجْمَةً الْمُسْتَرِيحِ، وَجَعَلَ يُرْجِعُ بِصَوْتٍ فَصِيحٍ :

* * *

قوله : يَكِيلُوا لِي مَا اكْتَالُوا، أَيِ يَعْطُونِي مَا أَعْطَوْا مِنَ الْعِلْمِ . أَلَمْؤًا : نَزَلُوا . الْعُلُوجُ : الرُّومُ . أَمَّ : صَارَ إِمَامًا . حَفْزَنِي : عَجَّلَنِي . النَّزَاعُ : الشُّوقُ . فُرْصَةٌ : غَنِيمَةٌ . الْمَعْدَةُ : الْكَامِلَةُ الْعُدَّةُ فِي السَّفَرِ . قَرَارَةٌ : الْمَوْضِعُ الَّذِي يَقَرُّ فِيهِ . مُتَعَبِّدُهُ : مَوْضِعُ عِبَادَتِهِ . نَبَذَ : تَرَكَ . انْتَصَبَ : قَامَ وَوَقَفَ . الْحَرَابُ عِنْدَ الْعَرَبِ : سَيِّدُ الْمَجَالِسِ وَمَقْدَمُهَا وَأَشْرَفُهَا، وَقِيلَ لِلْقَبْلَةِ مَحْرَابٌ لِأَنَّهُ أَشْرَفُ مَوْضِعٍ فِي الْمَسْجِدِ، وَقِيلَ لِلْقَصْرِ مَحْرَابٌ لِأَنَّهُ سَيِّدُ الْمَنَازِلِ . الْأَصْمَعِيُّ الْحَرَابُ عِنْدَهُم : الْغُرْفَةُ .

أحمد بن عبيد : الْمِحْرَابُ : مَجْلِسُ الْمَلِكِ، سَمِيَ بِذَلِكَ لِانْفِرَادِ الْمَلِكِ بِهِ لَا يَقْرَبُهُ أَحَدٌ، وَنُمِّيَ مَحْرَابُ الْمَسْجِدِ لِانْفِرَادِ الْإِمَامِ بِهِ، وَيُقَالُ فَلَانٌ : حَرْبٌ لِفَلَانٍ، إِذَا كَانَ بَيْنَهُمَا مَبَاعَدَةٌ . عِبَاءَةٌ : كِسَاءٌ . مَخْلُوءَةٌ : بَالِيَةٌ مُشْدُودَةٌ بِالْخِلَالِ وَالشَّلَالَةِ : الْكِسَاءُ يُشْتَمَلُ بِهِ . مَوْصُولَةٌ : يَرِيدُ أَنَّهَا خَلَكْنَاهُ قَدْ تَقَطَّعَتْ فَوُصِلَتْ وَجَلَ : دَخَلَ . أَلْفَيْتُهُ : وَجَدْتُهُ . سِيَاهِمُ : عَلَامَتُهُمْ حَيَاتِي بِمُسَبَّحَتِهِ، أَيِ بِسَبَابَتِهِ وَقَدْ تَدَمَّذَ كَرَاهَا . نَعَمْ : تَكَلَّمَ بِكَلَامٍ خَفِيَ : وَالْأَوْرَادُ : جَمْعُ وَرْدٍ، وَهُوَ النَّصِيبُ مِنَ الْقُرْآنِ يَقُومُ بِهِ الْإِنْسَانُ كُلَّ لَيْلَةٍ . أَغْبَطُ : أَحْسَدُ وَأَتَمَّنِي أَنْ أَكُونَ مِثْلَهُ .

وسجود ورَّكوع: سجد الرجل إذا انحنى ومال إلى الأرض ، من قول العرب: سجدت الدابة وأسجدت، إذا خفضت رأسها لتركيب، ويقال: قنت الرجل، إذا أخذ في التَّعْظِيم والدعاء لله تعالى، والقنوت على أربعة أقسام: الطاعة كقوله تعالى: (كُلُّ لَه قَانِتُونَ) والصلاة كقوله تعالى: (اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي)، وطول القيام، كقوله صلى الله عليه وسلم وقد سئل: أي الصلاة أفضل؟ فقال: طول القنوت والسكوت، كقول زيد بن أرقم كنا نتكلم في الصلاة يكلم أحدهنا الذي يليه حتى نزل (وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ) فأمسكنا عن الكلام، قال أبو عبيدة: ترى أن القنوت في الضُّبْح سَمَّى قَنُوتًا لأن الإنسان قائم في الدعاء من غير أن يقرأ القرآن، فكانه في سكوت. إخبارات، أي تذلّل. انكفأ: انقلب. أسهمني، أي أعطاني سهمًا، أي نصيبًا. تهجده: قيامه للصلاة.

* * *

خلّ إذا كارَ الأربُعَ	والمعهَد المرتبِع
والظَّاعِنِ المودّع	وَعَدَّ عَنْهُ وَدّع
واندبَ زمانًا سَلَفًا	سَوَدَّتْ فِيهِ الصُّحُفَا
ولم تَزَلْ مُعْتَكِفَا	عَلَى الْقَبِيحِ الشَّنِيعِ
كَم لَيْلَةٍ أَوْدَعَتْهَا	مَائِمًا أَبْدَعَتْهَا
لِشَهْوَةٍ أَطَقَتْهَا	فِي مَرَقَدٍ وَمَضْجِعِ
وكم خُطَا حَشَّتْهَا	فِي خَزِيَةِ أَحَدَتْهَا
وتوية نكشَتْهَا	لِللَّعِبِ وَمَرْتَجِ
وكم تَجَرَّأتَ عَلَى	رَبِّ السَّمَوَاتِ الْمُلا
ولم تُرَاقِبْهُ وَلَا	صَدَقْتَ فِيمَا تَدْعِي

وكم غمضت بره وكم أميت مكره
وكم نبذت أمره نبذ الحذا الرقع
ولم ركضت في اللعب وفهت عمدا بالكذب
ولم تراع ما يجب من عهد المتبع
فالبس شعار النديم واسكب شائب الدم
قبل زوال القدم وقبل سوء المضرع
واخضع خضوع المعترف ولذ ملاذ المقترف
واعص هواك وانحرف عنه انحراف المقلع
إلام تنهؤ وتني ومُعظمُ التمر فني
فيما يضر المقتني ولست بالمرتدع
أما ترى الشيب وخط وخط في الرأس خطط
ومن يلح وخط الشمط بفوده فقد نعي

* * *

اذكار : تذكر . الأربع : المنازل . عد : كف . دَع : اترك . اندب :
ابك . سلف : ذهب وتقدم . الصحف : الكتب . المعتكف : المقيم . الشنع :
الذي يُتحدث بقبحه . أودعتها : أى ضمنيتها وجعلتها فيه . المآثم : الذنوب .
أبدعتها : اخترعتها . خطأ : جمع خطوة وهى الباع . حثتها : عجلتها . خزي :
هوان . ونكثتها : نقضتها . مرتع : أكل رغد . تجرأت : تشجعت وأقدمت .
تراقبه : تحارسه وتخشى منه . غمضت : نقصت . بره : إحسانه . نبذت :
تركت . الحذاء : النعل . ركضت : جريت . فهت : انطلقت . تراع : تحفظ .

والعهد : الميثاق . شعار : ثوب يُلصَق بالجسد . اسكب : اسكب : صب .
 شأيب : دُفَع المطر ، واحدها شؤبوب ، فاستعارها للدم كما استعار الدم للدمع .
 المصرع : موضع السَّقطة وصرعت : أسقطت . لُذ : الجأ . ملاذ : ملجأ . المقترف :
 المذنب . انحرف : مل . القلع : الذى يقلع عن المعاصى ويفارقها . تسهو :
 تخطئ . تنى : تفتقر . فنى : تم ، سَكَن الياء ضرورة . المقتنى : المكتسب .
 المرتدع : المنتهى الكاف عن شهواته . وَخَطَط : فشا وانتشر ، والوخط : مخالطة
 بياض شيب الرأس بسواده ، والوخط فى غير هذا الطَّعْن غير النافذ . خَطَط :
 كتب . خطط : طرائق . والشمط : اختلاط بياض الشيب بسواد الشعر .
 بغوذه : بجانب رأسه . نعى : تحدَّث بموته ، وقال الألبيرى :

الشَّيبُ نَبَاهُ ذَا النَّهْيِ فَتَذَبَّاهُ	وَنَهَى الْجَهْلُ فَاسْتَفَاقَ وَلَا انْتَهَى
بَلْ زَادَ غَيًّا نَفْسَهُ قَتَاهَاتُ	تَبْنَى الْأَهْمَا وَكَانَتْهَا بَيْنَ اللَّهِ
فَالَى مَتَى أَلْهَوُ وَأَفْرَحَ بِالنَّهْيِ	وَالشَّيْخُ أَقْبَحَ مَا يَكُونُ إِذَا لَهَا
مَاحْسَنُهُ إِلَّا التُّقَى لَا أَنْ يَرَى	صَبًّا بِالْحَظَاظِ الْجَاذِرِ وَالْمَهَا
أَنْ يِقَاتِلُ وَهُوَ مَقُولُ الطَّبَا	كَأَبَى الْجَرَى إِذَا اسْتَقَلَّ تَأَوَّاهَا
مَحَقَّ الزَّمَانُ هَلَالَهُ فَكَأَنَّما	أَبْقَى لَهُ مِنْهُ عَلَى قَدَرِ السَّهَا
فَقَدْ حَسِيرًا يَشْتَهَى أَنْ يَشْتَهَى	وَلَكَمْ جَرَى طَلَقَ الْجَمُوحِ كَمَا شَتَهَى
إِنْ أَنْ أَوَاهُ وَأَجْهَشَ بِالْبُكََا	لِذُنُوبِهِ ضَحِكَ الْمَدُودِ وَقَهْمَتَهَا
لَيْسَتْ تُنْهَمُّهُ الْعِظَاتُ وَمِثْلُهُ	فِي سَنَةٍ قَدْ آتَى أَنْ يَنْتَهَى
قَدْ الدَّاتِ زَادَ غَيًّا بِمَدَمِ	هَلَّا تَقِظُ بِمَدَمِ وَتَذَبَّاهَا
يَا وَيْحَهُ مَا بَالُهُ لَا يَنْتَهَى	عَنْ غَيِّهِ وَالْعَمْرِ مِنْهُ قَدْ انْتَهَى !

* * *

وَيُحَكِّ يَا نَفْسُ احْرِصِي عَلَى ارْتِيَادِ الْمَخْلَصِ
 وَطَاوِعِي وَأَخْلِصِي وَاسْتَمِعِي النُّصْحَ وَعِي
 وَاعْتَبِرِي بِمَنْ مَضَى مِنَ الْقُرُونِ وَانْقَضَى
 وَاخْشَى مُفَاجَاةَ الْقَضَا وَحَازِرِي أَنْ تُخَدَعِي
 وَاتَّهَجِي سُبُلَ الْهُدَى وَادَّكِرِي وَشَكَّ الرَّدَى
 وَأَنَّ مِثْوَاكَ غَدَا فِي قَعْرِ لَحْدٍ بَلَقَعَ
 آهًا لَهُ بَيْتَ الْبِلَى وَالْمَنْزِلَ الْقَفْرَ الْخَلَا
 وَمُورِدَ السَّفَرِ الْأَوَّلَى وَاللَّاحِقِ الْمَتَبِعِ
 بَيْتٌ يُرَى مَنْ أُودِعَهُ قَدْ ضَمَّهُ وَاسْتُودِعَهُ
 بَعْدَ الْفَضَاءِ وَالسَّعَةِ قِيدُ ثَلَاثِ أَذْرُعِ
 لَا فَرْقَ أَنْ يُجْهَلَ دَاهِيَةٌ أَوْ أَبْلَهٌ
 أَوْ مُعِيرٌ أَوْ مَنْ لَهُ مُلْكٌ كَمُلْكِ ثُبَعِ

* * *

قوله : ارتياد ، أى طلب . الخالص : المنجى . عى : احفظى ، وهو أمر
 للوئث من وعى يعى . اعتبرى : اتعظى . القرون : الأمم السابقة : انقضى :
 فرغ وتم . والقضاء هنا : الموت . ومفاجأته : إتيانه على غفلة . حاذرى : خافى .
 انتهجى : اسلكى وامشى فى نهج ، وهو الطريق البين . سبل الهدى : طرق
 الرشاد . ادكرى : تذكرى . وشك الردى : سرعة الموت . ميثواك : موضع
 إقامتك ، لأن الثوى والثواء : الإقامة . والثوى : الموضع الذى تقيم فيه . لحد :
 شق فى جانب القبر . بلقع : خال . آها : كلمة توجع . مورد : موضع الماء .
 (م ٢٤ - شرح مقامات الحريري ج ٥)

السفر: المسافرون . الأولى: الأولون المتقدمون، والأثلى: مقلوب الأول، تقول :
أولى وأول ككثيرى وكثير ، وأخرى وأخر ، ثم قلبوا الأول فقالوا: الأولى ،
وتأتى الأولى فى كلامهم بمعنى الذين موصولة وهى كثيرة ، يريد أن القبر
مورد للأولين والآخرين ، وسماه سفرأ ، لأن الإنسان فى الدنيا مسافر لا يقيم ؛
إنما يقطع أيامه ، وقال التهامي :

العيش نومٌ والمنية يقظة والمرء بينهما خيال سارى
فاقضوا ما ربكم محالاً إنما أعماركم سفرٌ من الأسفارِ

قيد : قذر ، فإن قيل : كيف جعل القبر ثلاثة أذرع ، والذراع شبران ،
والقدر قدره ما بين تسعة أشبار إلى ثمانية؟ فأخبرنى الحاج ابن السقاط أن عندهم
بالشرق ذراعاً يسمونه السالكى ، يدرعون به ثيابهم وغيرها فيه من ذراع
اليذ ذراع ونصف .

وقال أبو القاسم الزجاجي : الذراع الهاشمي ذراع وثلاث ، ففى ثلاثة أذرع
بالحاشمى ثمانية ففى ثلاثة أذرع بالحاشمى ثمانية أشبار ، وبالسالكى تسعة أشبار ،
فإحدى الذراعين أراد .

وإنما نقل لفظ ثلاثة أذرع من قول عطاء بن يسار أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال لعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه: كيف بك إذا أنت مت ؟
فانطلق بك قومك ، فماسوا لك ثلاثة أذرع فى ذراع وشبر ، ثم رجعوا بك
ففسلوك وكفنوك وحنطوك ثم حملوك حتى يضعوك فيه ، ثم يهيلوا عليك التراب
ويدفنوك ، فإذا انصرفوا عنك أتاك فتنا القبر مُنكرٌ ونكيرٌ أصواتهما كالرعد
القاصف ، وأبصارهما كالبرق الخاطف ، يجران أشعارهما ، ويحييان التراب بأنبياهما
فتلتلاك وترتراك ، كيف بك عند ذلك يا عمر؟ قال عمر : ويكون معى مثل عقلى
هذا ؟ قال : نعم ، قال : فإذا أ كفيكما .

[ذكر تبع الأكبر]

داهية : مجرب للأمور حاذق بها . أبله : عى كثير الغفلة . مُعْسِر : فقير .
تبع ، أراد به تَبَعًا الأكبر ، وهو الذى ذكر الله فى كتابه .

قال صاحب التيجان . اسمه شمو رعى بن ناشر النعم ، وسمى أبوه ناشر النعم لأنه أحيا مُلْك حير بعد أربعين عامًا ، وهى أيام مُلْك سليمان وسمى شمو رعى تبعًا الأكبر ، وإن كانت العرب لم تسمَّ قبله تَبَعًا لأن العرب لم يتم لها أحفظ منه ، وكان يتجاوز عن مسيئتهم ويحسن إلى محسنهم ، وكان جميع أهل الأرض شاكرين لأيامه ، وكان أعقل مَنْ رَأَوْا من الملوك وأعلام همة ، وأبعدهم غورًا ، وأشدَّهم مكرًا لمن حارب ، وغزا جميع ملوك الآفاق ، وقطع بيجوشه الأرض كلها شرقًا وغربًا . ثم رجع إلى قصر غمدان يدير ملك الأرض وذات له ملوكها وعمر زمانًا طويلا ، وهو أوَّل مَنْ أمر بصناعة الدروع السوانج ، جعل على أهل فارس ألف درع ، وعلى الروم ألف درع ، وعلى اليمن كذلك ، وعلى ممالكه كلها مثل ذلك فكانوا يَغْدُون عليه كل سنة بذلك العدد ، ولذلك قال أبو ذؤيب :

وعليه مسرودتان قضاها داود أو صنع السوانج تبَّعُ
وقال ابن الكلبي : لم يملك الأرض كلها إلا ثلاثة أبرار ، وهم سليمان عليه السلام وذو القرنين وتبَّع ، وهو أسعد وأبو كرب . وثلاثة كُفَّار ، وهم النمرود وبختنصر والضحاك . وأبو كرب الذى ذكر هو تبع ، وكان مَلِكًا عظيمًا ، فتح البلاد ، وملك العباد ، وأقبل من اليمن يريد العراق فنزل الحيرة وحفر لهم نهراً ، وهو نهر الحيرة إلى سوقها ، وبعث إليه حسان فى جنده ليطوف الأرض ، فضى به حسان فى عسكر عظيم جرار ، لا يمر بمدينة إلا فتحها ولا ملك إلا قهره . وقيل فى تسمية ملوك اليمن تبابعة أنه لكثرة ما يبيع الملك منهم من الجنود . وقيل : سُمِّي تَبَعًا لأنه تبع من قبله . ولا بن سُكَّرة فى معنى بيت المقامة .

المجوع يطرد بالرغيف اليابس فعلام تُكثِرُ حسرتي ووساويي
والموت أنصف حين عدل قسمة بين الخليفة والفقير البائس

* * *

وبعدُ العَرَضُ الَّذِي يَحْوِي الْحَيَّ وَالْبَذَى
والمبتدَى والمُتَحَدِّى وَمَنْ رَعَى وَمَنْ رُعِيَ
فِيَا مَفَازَ الْمُتَّقِي وَرَبِحَ عَبْدٌ قَدْ وَقِيَ
مُوءِ الْحَسَابِ الْمُوْبِقِ وَهَوَّلَ يَوْمِ الْفَزَعِ
وَيَا خَسَارَ مَنْ بَقِيَ وَمَنْ تَعَدَّى وَطَنِي
وَشَبَّ نِيرَانَ الْوَعَى لِمَطَمٍ أَوْ مَطْمَعٍ
يَا مَنْ عَلَيْهِ التَّكَلُّ قَدْ زَادَ مَا بِي مِنْ وَجَلٍ
لَمَّا اجْتَرَحْتُ مِنْ زَلَلٍ فِي عُمْرِي الْمَضِيعِ
فَاغْفِرْ لِعَبْدٍ مُجْتَرِمٍ وَازْحَمْ بُكَاءَ الْمُنْسَجِمِ
فَأَنْتَ أَوْلَى مَنْ رَحِمَ وَخَيْرُ مَدْعُو دُعَى

* * *

قوله : وبعد العرض ، يريد عَرَضُ النَّاسِ للحساب . يحوى : يضم .
الحي : المستحي . البَذَى : المتكلم بالقواحش . المتحدى : المتبع . الحاذى حذوه .
رعى : ملك ، يريد أن العَرَضُ يَعْمُ النَّاسَ ، فيحتوى على العفيف والبذى ، وعلى
الأغنياء والفقراء والملوك ورعيتههم ولا يتميز فيه أحد ولا يشرف إلا بعمل
صالح . قوله : فيامفاز المتقى . المفاز : الخلاص . وقى : كفى . الموبق : المهلك .
هَوَّلَ : خوف . بقى : ظلم . وتعدى : جاوز الحد فى جوره . طنى : جاوز
الحد فى تكبره . شبَّ : أوقد . الوعى : الحرب . وجل . خوف . اجتاحت :

اكتسبت . زلل : خطأ . زفير : نفخ . والشهيق : رد النفس مع البكاء بصوت . ردّفه : خلفه .

* * *

قال الحارث بن همام : فلم يزل يُردّدها بصوتٍ رقيق ، ويصلها بزفيرٍ وشهيقٍ ، حتى بكيتُ لبكاءٍ عينيّه ، كما كنتُ من قبلُ أنبكي عليه . ثم برزَ إلى مسجده ، بوُضوءٍ تهجدّه ، فانطقتُ ردّفه ، وصليتُ مع مَنْ صلى خلفه . ولما انقضَّ مَنْ حَضَرَ ، وتفرّقوا شغَرَ بعرٍ ، أخذَ يَهَيِّئُ بِدَرْسِهِ ، وَيَسْبِكُ يَوْمَهُ فِي قَالِبِ أَمْسِهِ ، وَفِي ضِمْنِ ذَلِكَ يُرِنُ إِرْنَانَ الرَّقُوبِ ، وَيَبْكِي وَلَا بَكَاءٍ يَمْقُوبِ ، حَتَّى اسْتَبْنَتْ أَنَّهُ التَّحَقُّ بِالْأَفْرَادِ ، وَأَشْرَبَ قَلْبُهُ هَوَى الْإِنْفِرَادِ ، فَأَخْطَرْتُ بِقَلْبِي عَزْمَهُ الْإِرْتِمَالِ ، وَتَخَلَّيْتُهُ وَالتَّخَلَّى بِتِلْكَ الْحَالِ ، فَكَأَنَّهُ تَقَرَّسَ مَا نَوَيْتُ أَوْ كُشِفَ بِمَا أَخْفَيْتُ ، فَزَفَرَزْفِيرِ الْأَوَاهِ ثُمَّ قَرَأَ : « فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ » ، فَأُمَجِّلْتُ عِنْدَ ذَلِكَ بِصَدَقِ الْمَحْدِّثِينَ ، وَأَيَقَنْتُ أَنَّ فِي الْأُمَّةِ مُحَدِّثِينَ . ثُمَّ دَنَوْتُ إِلَيْهِ كَمَا يَدْنُو الْمُصَافِحُ ، وَقُلْتُ : أَوْصِنِي أَيُّهَا الْعَبْدُ الصَّالِحُ . فَقَالَ : اجْعَلِ الْمَوْتَ نُصْبَ عَيْنِكَ ، وَهَذَا فِرَاقُ بَنِي وَبَيْنِكَ . فَوَدَّعْتُهُ وَعَبَّرَاتِي ، يَتَحَدَّرْنَ مِنَ الْمَلَأَى ، وَزَفَرَاتِي يَتَصَعَّدْنَ مِنَ اللَّتَرَاتِي ، وَكَانَتْ هَذِهِ خَاتِمَةُ التَّلَاقِ .

* * *

انفص : تفرق . شغَر بَغَر ، أى فى كل طريق وعلى كل جهة . يهيم : يرد
 كلامه خفياً لا يفهم . يسبك يومه فى قالب أمسه : استعارة ، أى يفعل فى اليوم
 ما فعل فى الأمس . وفى ضمن ذلك ، أى فى أثنائه . يرن : بصوت . الرقوب :
 المرأة التى لا يعيش لها ولد . ولا بكاء يعقوب : يجوز رفع بكاء ونصبه والرفع
 أكثر . وبكاء يعقوب على يوسف عليهما السلام حتى عجمى ، وهو قوله تعالى :
 « وَاَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ » ، استقبلت : تحققت . الأفراد : العباد ،
 يقال : فلان فرد فضله ، أى ليس له نظير ، والأفراد سبعة من العباد لا تخلو الدنيا
 منهم حتى إذا مات واحد خلف الله تعالى فى موضعه آخر . أشرب : خولط
 وغلب عليه . هوى الانفراد : حب الوحدة ، قال ابن الرومى :

إلى الزَّهاد فى الدُّنيا جنان الخـلـد تشـتـاقُ
 عبيد من خطاياهم إلى الرحمن أَبَاقُ
 حـدَثَهم نـحوه الرِّغـبـة مع الرِّهـبان فاستاقوا
 عليهم حين تلقاهم سكينات وإطراقُ
 يضجـون إلى الله ودمع العين مـهراقُ
 ملك الملك هل مما تطوَّقناه إطلاَقُ
 ففى أعناقنا طرّاً من الآثام أطواق

وللفقيه أبى العباس بن خليل :

فهموا إشارات الحبيب فهموا وأقام أمرهم الرِّشاد فقاموا
 وتوسَّلوا بـمـدامعٍ منهلَّةٍ تحت الدياجى والأفام نيامُ
 وتلوا من الذِّكر الحكيم جوامعاً بُجِعت لها الألباب والأفهام
 يـاصـح لو أبصرت ليلهم وقد صفت القلوبُ وصُفَّت الأقدام

لرأيت نورَ هدايةٍ قد حفهمُ فسرى السرور وأشرق الإظلامُ
فهم العبيد الخادمون ملبسهمُ نعم العبيد وأفلح الخدامُ
سلوا من الآفات لما استسلموا فعليهم حتى الممات سلامُ
وقالوا في هوى الانفراد : الوحدة خير من القرين سوء ، وأنشدوا :

أَنتُ بالوحدة علماً بها فإنها خير من الجمع
ألا ترى الواحد أضلاً لما يحسب من أصلٍ ومن فرع
أترك من لا أرتجى نفعه رجاء ربّ الضر والنفع
آخر :

أنت بوحدتي حتى لو انى أتاى الأنس لاستوحشت منه
ولم تدع التجارب لى صديقاً أميل إليه إلا ملّت عنه
وقال آخر :

اهرب بنفسك تستأنس بوحدتها تلق الرّشاد إذا ما كنت منفردا
إن السّباع تهدأ فى مرابضها والناس ليس بهادٍ شرّهم أبدا
قوله : تفرّس ، أى علم بفراسته وجوّد نظره . نويت : أضمرت فى نيتى .
كوشف : اطلع عليه . زفر : نفخ . الأواه : الحزين الذى يصيح : آه آه .
أسجلت : صدقت . المحدثين : الذين حدثوه بتوبة السروجى . محدّثين ،
هم المكاشفون من الزهاد الذين يحدثون بالغيوب ، كأن المكاشف قد حدث
بما يقول . وقيل : المحدثون الصادقون ظناً وفراصة .

وقال صلى الله عليه وسلم : « قد كان فيمن قبلكم ، محدّثون ، فإن يكن من
أمتى هذه فهو عمر بن الخطاب » . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه المعيا
وهو الصادق الظنّ ، ودليله ما ذكره صلى الله عليه وسلم فى عمر حديث سارية

ابن زُنَيْمٍ ، وكان عمر رضى الله تعالى عنه قد أرسله في جيش للمسلمين ، فالتقى الله في روح عمر رضى الله تعالى عنه وهو يخطبُ الناس بالدينسة : إن العدو قد نهز المسلمين واشتد الخطب عليهم ، وكانوا بحضرة جبل ، فقطع عمر الخطبة وقال : يا سارية الجبل ، فاسمع الله تعالى سارية من مسافة شهر نداء عمر ، فانحاز بالمسلمين إلى الجبل ، فتخلصوا . قوله : المصافح ، أى المعانق عند الوداع . نصب عينك ، أى غرضها وقدامها ، وأول مَنْ قال : اجعل الموت نصب عينك أُمِيَّة بن أَبِي الصلت في قوله :

كلُّ عيش وإن تطاول يوماً صائرُ أمره إلى أن يَزُولَا
ليكني كنت قبل ما قد بدا لي في رموس الجبال أرعى الوُعولا
فاجعل الموت نصب عينك واحذرْ غولة الموت إن للموت غولا
عبرأتى : دموعى . يتصعدن : يترفعن . التراقى : العظمان المعوجان أعلى الصدر . خاتمة التلاقى : آخر لقائه .

[شعر الوداع]

ونذكر هنا جملة من الشعر في ذكر الوداع الذى كان بينهما وتجعلها كالتوديع لما سلف لهما في هذا الكتاب من رياض الآداب فإنها كانت أنس الوحيد ، ومسلاة الطريد ، فمن ذلك قول بعضهم :

وداعك مثل وداع الربيع وفقدك مثل افتقاد الدَّيْمِ
عليك سلام فكم من ندى فقدناه منك وكم من كرم
وقال آخر :

أقول له يوم ودعته وكلُّ بعيرته مُبْلِسُ
لئن رجعتُ عنك أجسامنا لقد سافرت معك الأنفُسُ

وقال أبو سعيد الهمداني : أنشدني هلال بن الغلاء حين ودعني :

لأودعتك ثم تدمع مقلى إن الدموع هي الوداع الثاني
وأصوم بعدك عن سواك فأغتدى مقلداً صومين في رمضان
في فرقة الأحباب شغل شاغل والموت صدقاً فرقة الإخوان

(وأنشدني أبو محمد بن حزم)

لئن أصبحت مرتحلاً بشخصي فقلبي عندهم أبداً مقيم
ولكن للعيان لطيف معني له سأل المعاينة الكلم
وكرر هذا المعنى فقال :

يقول أخي شجأك رحيلُ جسمي وروحك ما لها عنه رحيلُ
فقلت له العيانُ مطمئن لذا طلب المعاينة الخليلُ
وقال آخر :

بأنوا فاضى الجسم من بعدهم ما تبصر العين له فيا
ووالأسفى منه ومن قولهم ما ضرك الفقد لنا شيا
بأى وجهم ألتفاهم إن وجدوني بعدهم حيا
وقال آخر :

لا كان يوم الفراق يوماً لم يبق للقاتين نوما
شدت مني ومنك شملاً فسر قوماً وساء قوما
يا قوم من لي بفقد خل يسومني في العذاب سوما
ما لامنئ الناس فيه إلا بكيت كيا أزاؤم —

وقال صاعد اللغوى :

قلت له والرقيب يعجـله مستعجلاً للفراق : أين أنا
فدّ كفا إلى ترائبـه وقال : سر آمنّا فانت هنا

* * *

قال الشيخ الرئيس أبو محمد القاسم بن عليّ، برّد الله مضجعه: هذا آخر المقامات التي أنشأتها بالاغترار، وأملكيتها بلسان الاضطرار، وقد أُلجئتُ أن أَرُصِّدها للاستِعْراض، وناديتُ عليها في سوقِ الاعتِراض، هذا مع معرفتي بأنّها من سَقَطِ المتاع، ومّا يستوجب أن يُباع ولا يُبتاع، ولو غَشِيتُ نورَ التوفيق، ونظرت لنفسي نظر الشفيق، لستَرْتُ عَواري الذي لم يَزَلْ مَسْتَوْرًا، ولكن كان ذلك في الكتاب مسطوراً. وأنا أَسْتَغْفِرُ الله تعالى ممّا أودعْتُها من أباطيل اللغو، وأضاليل اللّهُو، وأسْتَرْشِدُهُ إلى ما يَعْنِصُ من السّهو، ويُحْظِي بالتعفو، إنّه هو أهلُ التّقوى وأهلُ المغفرة، وولئ الخيرات في الدنيا والآخرة.

* * *

قوله : أنشأتها، أى صنعتها. الاغترار: الجهل والانهاداع. أملكيتها: أَلقيتها لمن يكتبها. واضطر اضطراً إذا لم يجد بداً من فعله. أرصدها: أعددها. الاستعراض: أن تعرض على الناس حتّى يروها. سَقَطِ المتاع: هينة. يبتاع: يشتري. غَشِيتُ: غطاني. أودعْتُها: ضمنتها. اللّهُو: سقط الكلام. الأضاليل: جمع أضلولة، وهى ما يضل به مَنْ ركب. أسترشده: أسْتهديه. يعصم: يمنع. السهو: الخطأ. يحظى: يسعد. العفو: المغفرة.

وقوله : هو أهل التقوى ، عن أنس رضى الله عنه أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يقول ربُّكم عز وجل : أنا أهلُ التقوى فلا يشرك بى غيرى ، وأنا أهل لمن اتقى أن يشرك بى أن أغفر له .

* * *

انتهى الشرح بحمد الله وتوفيقه وحسن عونه، وكان من توفيق الله تعالى أن أول حرف شرحت من اللغة فى هذا الكتاب بحمد الله ، وآخر حرف ختمت به عفو الله ، وما وقع بين حمد الله سبحانه وتعالى ، والثناء عليه ، وبين عفو الله عن عبده مرجوٌّ من جميل صنعه الامتنان بالصفح عن جميع هذره ، وملتمس من جلاله تعالى وكرمه جزيلُ الأجر على ما ضمنته من حكم الآداب وغيره .

[ذكر فى العفو عن المذنبين]

واذكر فصلاً أدبياً فى العفو عن المذنبين، أختتم به الديوان ، فمن وقت عليه ، ووجد فى نفسه لذته ، واستشعر لرجاء ، وطمع فى العفو ، فرغبنا إليه أن يسأل لنا العفو مع نفسه .

فمن ذلك أنه كان للمأمون خادم لوضوئه ، فبينما هو يصب الماء على يديه إذ سقط الإناء ، فغضب المأمون فقال له الخادم : يا أمير المؤمنين إن الله تعالى يقول : ﴿ وَالكَاطِمِينَ الْغَيْظَ ﴾ ، قال : كظمت غيظي ، قال : ﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ ، قال : عفوت عنك ، قال : ﴿ اللَّهُ يَحِبُّ الْحَسَنِينَ ﴾ ، قال : اذهب فأنت حرٌّ .

وأمر عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه بمقبوبة رجل ، فقال له رجاء بن حيوة : إن الله تعالى قد فعل ما تحب من الظفر ، فافعل ما يحب من العفو ، فعفا عنه .

العتي : وقعت دماء بين حنين من قريش ، فأقبل أبو سفيان فما بقى أحد

واضع رأسه إلا رفعه ، فقال : يا معشر قريش ، هل لكم في الحق أو فيما هو أفضل من الحق ؟ قالوا ؟ وهل شيء أفضل من الحق ؟ قال : نعم العفو ، فتبادر القوم فاصطلحوا .

قال المبارك بن فضالة : كنت جالساً في السَّمَاط عند أبي جعفر إذ أمر برجلٍ أن يُقتلَ فقلت : يا أمير المؤمنين ، قال صلى الله عليه وسلم : « إذا كان يوم القيامة ينادي منادي بين يدي الله عز وجل : مَنْ كَانَتْ لَهُ يَدٌ عِنْدَ اللَّهِ فَلْيَقُمْ ، فَلْيَتَقَدَّمْ فَلَا يَتَقَدَّمْ إِلَّا مَنْ عَفَا عَنْ مَذْنِبٍ » . فأمر بإطلاقه .

وكان رجل شريـب جمع قوماً من ندمائه ودفع إلى غلام له أربعة دراهم أن يشتري بها من الفواكه للمجلس ، فمرَّ الغلام بباب مجلس منصور بن عمار ، وهو يسأل الفقير شيئاً ، ويتول : مَنْ دفع له أربعة دراهم دعوتُ له أربع دعوات ، فدفع له الغلام الدراهم ، فقال له منصور : ما الذي تريدُ أن أدعوك ؟ قال : أن يعتقني الله من رقِّ العبودية ، فدعا له منصور وأَمَّن الناس . قال : والثانية ؟ قال : أن يخلف الله على الدراهم ، فدعا له وأَمَّن الناس ، قال : والثالثة يا غلام ؟ قال : أن يتوب الله على مَوْلَايَ ، فدعا له وأَمَّن الناس ، قال : والرابعة يا غلام ؟ قال : أن يغفر الله لي ولمولاي ولك يا منصور وللحاضرين ، فدعا منصور وأَمَّن الناس ، فرجع الغلام ، فقال له مولاهُ لَمْ أَبْطَأْتُ ؟ فقص عليه القصة ، قال : وبِمَ دعا ؟ قال : سألت لنفسي العتق ، قال : اذهب فأنت حرٌّ ، قال : والثانية ؟ قال : أن يخلف الله على الدراهم ، قال : لك أربعة آلاف درهم ، قال : والثالثة ؟ قال : أن يتوب الله عليك ، قال : تبت إلى الله عز وجل . قال : والرابعة ؟ قال : أن يغفر لي ولك ، وللواعظ وللحاضرين ، وقال : هذه الواحدة ليست إلي . فلما بات رأى في المنام كأن قاتلاً يقول : أنت فعلت ما كان إليك ، أتراني لا أفعل ما كان إلي ! قد غفرت لك وللغلام ولمنصور وللحاضرين .

قال يحيى بن معاذ : يكاد رجائي لك مع الذنوب يقلب رجائي لك مع الإخلاص ، لأنني أعتمد في الإخلاص على الأعمال ، وفي الذنوب أعتمد على عفوك ، وقال السّلامى .

تبسطننا على الآمال إنا رأينا العفو من ثمر الذنوب

وقال بكر بن سليمان الصواف : دخلنا على مالك بن أنس في العشيّة التي قبض فيها ، فقلت : يا أبا عبد الله ، كيف تجددك ؟ قال : لأدرى ما أقول لكم ، ستعاينون من عفو الله تعالى ما لم يكن في حسابكم . ثم ماخرجنا حتى أغمضنا عينيه .

وفي الحديث : « لو لم تذبوا الجاء الله بأمة يذنبون فيغفر لهم » ، وقال أبو نواس :

يانوامى توقّر وتمزى وتصبّر
ساءك الدهر بشيء ولما سرك أكثر
يا كبير الذنب عفو الله من ذنبك أكبر
أكبر الأشياء فى أصغر عفو الله أصغر
ليس للإنسان إلا ما قضى الله وقدر
ليس لمخلوق تدبير بل الخالق دبر

وقال أبو العتاهية :

إلى لا تمذّبني فإني مقربا بالذى قد كان مني
فما لي حيلة إلا رجائي لعفوك إن عفوت وحسن ظني
يظن الناس بي خيراً وإني لشرّ الناس إن لم تعف عني

وكم من زلة في الخطايا وأنت على ذو فضل ومن
إذا فكرت في ندمي عليها عَصَفْتُ أناملِي وقرَعْتُ سِنِيَّ

وهذا آخر شعر قاله أبو العتاهية ، وآخر شعر حتمت به هذا الشرح ،
راجياً من ربّي صفحته وعفوه ، والحمد لله أولاً وآخرأ كما يجب لجلاله غفرانك .
اللهم تباركت وتعاليت . والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله
وصحبه وسلم ، ورضى الله تعالى عن أصحاب رسول الله أجمعين وعن التابعين
وتابعيهم يا حسان إلى يوم الدين .

فهرس المقامات

- ٣ المقامة الحادية والأربعون التنيسية ، تتضمن قيام أبي زيد واعطاءً ، وقيام ابنه طالباً ، وكيف عطف الناس أبو زيد على ابنه .
- ٤٠ المقامة الثانية والأربعون النجرانية ، تتضمن إلقاء أبي زيد ألغازاً في بعض الأشياء .
- ٧٧ المقامة الثالثة والأربعون البكرية ، وتسمى البدوية ، تتضمن ذكر خبر ناقة أبي زيد ، وتتضمن مدح البكر والثير وذمهما وذم الأدب .
- ١٣٧ المقامة الرابعة والأربعون الشتوية ، وتسمى اللغزية ، تتضمن إنشاء أبي زيد قصيدة في ألغاز تحتمل تفسيرها .
- ١٨٥ المقامة الخامسة والأربعون الرملية ، تتضمن مخاصمة أبي زيد مع زوجته ، وأنه لم يطرقها إلا مرة واحدة .
- ٢٠٢ المقامة السادسة والأربعون الحلبية ، تتضمن كون أبي زيد معلم صبيان ، وأمره للصبيان العشرة بالإنشاء في فنون مختلفة .
- ٢٥٨ المقامة السابعة والأربعون الحجرية ، تتضمن كون أبي زيد حجاجاً وحاورته مع ابنه .
- ٢٨٤ المقامة الثامنة والأربعون الحرامية ، تتضمن رواية الحارث عن أبي زيد أنه رأى رجلاً يسأل كفارة لذنبه ، فأجابه بأن طالب منه أن يعينه على فداء ابنه من الأسر .
- ٣٢٢ المقامة التاسعة والأربعون الساسانية ، تتضمن أن أبا زيد لما شاخ أوصى ابنه بألا صناعة أنفع من الكدية .
- ٣٤٣ المقامة الخمسون البصرية ، تتضمن توبة أبي زيد ولزومه المسجد

